جون بوكان

الثابت

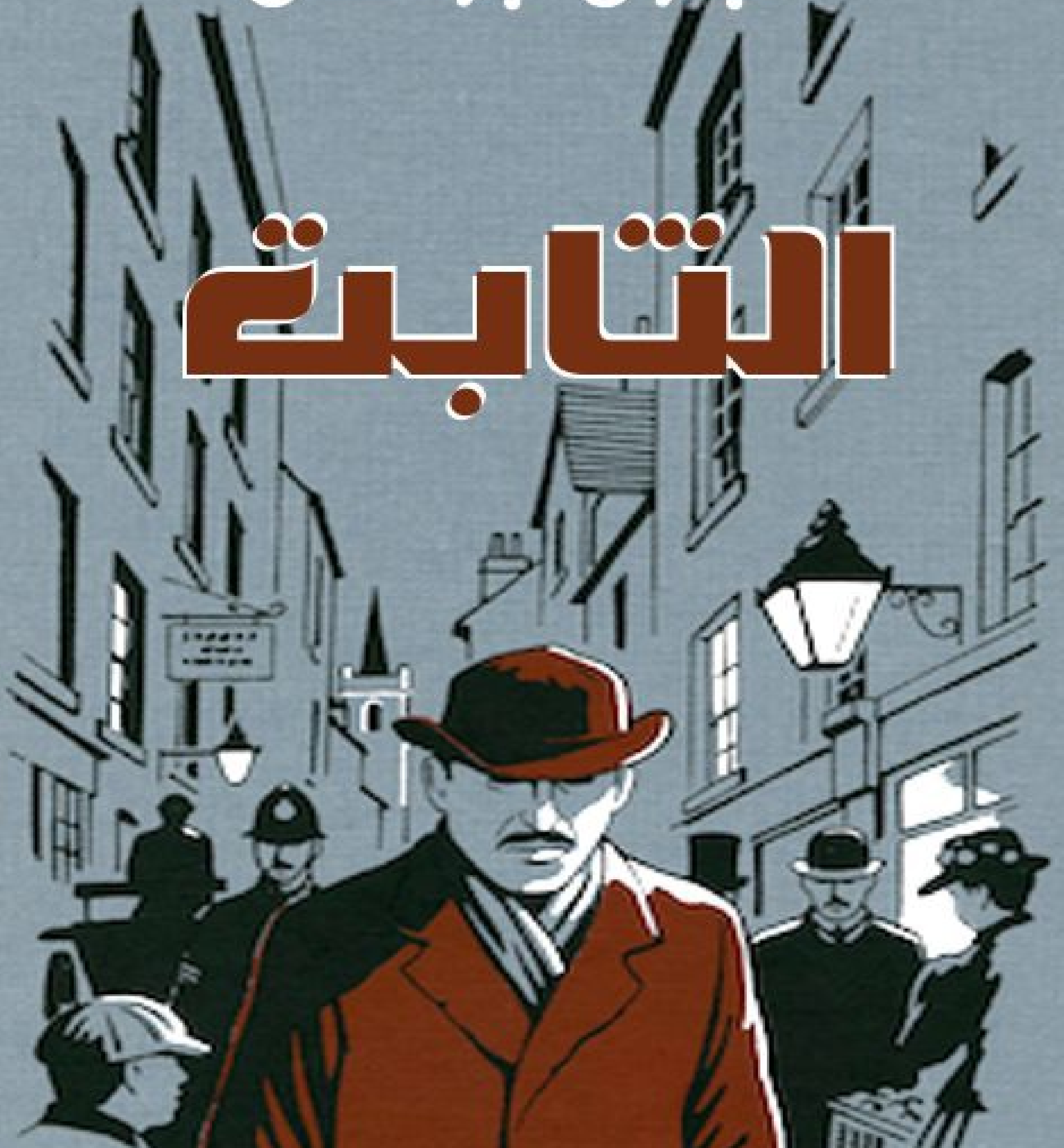

مكتبة علي بن صالح الرقمية

جون بوكان

الثابت

رواية

ترجمة : أسماء الطيفي

1919

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

إهداء

إلى ضباط وجنود لواء مُشاة جنوب أفريقيا على الجبهة الغربية؛ أبسَل الرجال.

ملاحظة

تَجدون سردًا لمُغامرات ريتشارد هاناي السابقة المُشار إليها في بعض المواضع في تلك الرواية، في الروايتَين «درجات السُّلّم التسع والثلاثون» و«ذو العباءة الخضراء».

جون بوكان

الجزء الأول

الفصل الأول

الباب الضيِّق

قضيتُ الجزءَ الأول من رحلتي في قطار أنظر من نافذة مقصورة الدرجة الأولى، والجزءَ الثانيَ في سيارةٍ محليةٍ أشاهد جدولًا تقطنه أسماك التروتة وهو يجري في وادٍ ضحل، والجزءَ الأخيرَ سائرًا على حافة أرضٍ مرتفعةٍ تكسوها أحراجُ زانٍ واسعةٌ إلى حيث سأبيتُ ليلتي. في الجزء الأول كان مزاجي سيئًا للغاية؛ وفي الجزء الثاني شعَرتُ بالقلق والارتباك؛ وفي الجزء الثالث هدّأ الشفقُ العليلُ من رَوْعي وشَدّ من أزري، فبلغتُ بواباتِ فندق «فوس مانر» بشهيةٍ مفتوحة ونفسٍ ساكنة.

أثناء اجتيازنا وادي التايمز، عَبر خط السكك الحديدية الغربية الكبرى الانسيابي، تأملتُ في حسرةٍ الأشواكَ التي تخلّلَت مسيرتي المهنية. فلم أنزع الزيّ العسكريّ منذ أكثر من عام، فيما عدا تلك الشهور التي أمضيتُها في المشفى. وتقلّدتُ قيادةَ كتيبةٍ قبل معركة السوم، وخرجتُ من تلك المعركة الضارية، بعد شهرِ سبتمبرَ الحافل، بشرخٍ في الجمجمة ووسامِ الخدمة المتميزة. مُنحتُ وسامَ الحمّام عرفانًا بجهودي في معركة أرضروم، وأوسمةً أخرى لجهودي في حربِ ماتابيلي ومعاركِ جنوب أفريقيا، بالإضافة إلى وسام جوقة الشرف، فصار صدري مكتظًا بالأوسمة والنياشين مثل كاهنٍ أعظم. عُدتُ إلى الجيش في يناير، وتسلّمتُ قيادةَ لواءٍ قُبيل معركة أراس. حققّنا فوزًا ساحقًا في المعركة، وأخذنا عددًا من الأسرى يضاهي عدد جنود المشاة الذين أرسلناهم إلى الجبهة. بعد ذلك مُنح اللواءُ استراحةً من القتال لمدة شهر لترتيب صفوفه، ثم أُعيد توزيعُنا فأرسِلنا إلى منطقةٍ ملتهبةٍ على نهر سكارب في فرنسا، مع التلميح إلى أننا سنُشارِك في هجومٍ عسكري واسع النطاق في المستقبل القريب. فجأة، كُلفتُ بالعودة إلى أرض الوطن لرفع التقارير لمكتب الحرب البريطاني، الذي أرسلَني بدوره إلى بوليفانت ورجاله المرحين. وها أنا ذا أجلس في عربة قطار، ببدلةٍ رماديةٍ من قماش التويد، وحقيبةِ سفرٍ نظيفة تحمل الحرفَين «ك. ب.». الحرفَين الأوّلَين من اسم كورنيليس براند، وهو الاسم الذي سأحمله الفترة القادمة. وَجّه رجلٌ عجوزٌ يجلس في الزاوية لي الأسئلة، وتعَجّب من عدم اشتراكي في الحرب على نحوٍ مسموع، فيما نظر

إليّ بازدراء ملازمٌ ثانٍ مبتدئ يرتدي شارة الجرح.

كان الرجل مُولَعًا بالاستجواب، وبعدما استعار مني عُلبة أعواد الثقاب، كرّس جهدَه لمعرفة كافة تفاصيل حياتي. تبيّن أنه رجلٌ متعصّب وكان متشائمًا بعضَ الشيءِ من تقدُّمنا البطيء في الغرب. أخبرتُه أنني قادمٌ من جنوب أفريقيا وأعمل مهندسَ تعدين.

سأل: «هل حاربتَ مع بُويتا؟»

أجبتُ: «لا. لستُ محاربًا.»

غضّن المُلازم الثاني أنفَه ازدراءً.

سأل: «ألا يُوجَد تجنيدٌ إلزاميٌّ في جنوب أفريقيا؟»

أجبتُ: «لا، حمدًا للرب»، وألَحّ الرجل في أن آذنَ له بسرد الكثير من القصص البغيضة. قابلتُ أمثالَه من قبلُ؛ لذا لم أُعِرْه اهتمامًا كبيرًا. لو كان أصغر من الخمسين، لادّعى الإعاقة حتى يُعفى من الجيش، وها هو يتظاهر بالوطنية لأنه تخطّى سنّ التكليف. لكن لم تُعجِبني ابتسامةُ المُلازم الثاني العريضة؛ إذ بدا شابًّا مهذبًا. تظاهرتُ بالنظر من النافذة بقيةَ الرحلة، وتنفّستُ الصُّعَداء عندما بلغتُ محطتي المنشودة.

حظيتُ بأغرب مقابلة مع بوليفانت وماكجليفري. سألاني في البداية ما إذا كنتُ أرغب في العودة إلى الاستخبارات، وأعربتُ عن موافقتي. شعَرتُ بمرارةٍ شديدة؛ إذ صار لي باعٌ طويلٌ في المجال العسكري وأحرزتُ الكثير من التقدم. فها أنا ذا، لواءُ حرب تحت سن الأربعين، فما بالك بالإنجازات التي كنتُ سأحقِّقها لو قُدِّر لي البقاءُ سنةً أخرى في الحرب. بدأتُ مسيرتي في الجيش بلا غايةٍ ولا هدف، سوى رؤية انتهاء الحرب. لكن أصبحتُ شغوفًا بالمجال بصورةٍ احترافية، وصار لديّ لواءٌ من الجنود المُخضرَمين، وفهمتُ استراتيجيّات الحرب الجديدة كما لو كنتُ خريجًا من أكاديمية ساندهيرست وكامبرلي العسكرية. وها هما الآن يطلُبان منّي أن أضربَ بكلِّ ما تعلّمتُه عُرضَ الحائط وأبدأ في وظيفةٍ جديدةٍ من الصفر. اضطُرِرتُ للموافقة؛ لأن الجندي لا يَسعُه سوى طاعة الأوامر، لكنّني وددتُ لو أضرب رأسَيهما من شدة الغيظ.

وأسوأ ما في الأمر أنهما لم يُخبراني — أو بالأحرى لم يستطيعا إخباري — بطبيعة المهمة. تعمّدا إخفاء الحقائق كالعادة. طلبا أن أضع ثِقتي بهما وأترك نفسي لهما دون قيدٍ أو شرط. قالا إنني سأحصُل على المعلومات اللازمة في وقتٍ لاحق.

سألتُهما إذا كانت المسألة مهمة.

ضيّق بوليفانت عينَيه. قال: «لو لم تكن مهمة، برأيك هل كنّا سنتكبد عناءَ طلبِ لواءٍ نشطٍ من مكتب الحرب البريطاني؟ فقد كان استدعاؤك من الوزارة مثل خلع ضرسٍ من مكانه على أي حال.»

سألتُ ثانيًا: «هل المهمة خطيرة؟»

أجاب: «خطيرة جداً على المدى البعيد.»

سألتُ: «ألا يُمكنكما تزويدي بمعلوماتٍ إضافية؟»

أجاب: «ليست هناك معلوماتٌ في الوقت الحالي. سنزوّدك بالتعليمات في القريب العاجل. أنتَ تعرفنا جيدًا يا هاناي؛ وتعلَم أنّنا لن نُهدر وقتك الثمين في حماقة. سنطلب منك خدمةً تستدعي حبك للوطن. ستكون مهمةً صعبةً ومُرهِقة، وربما تصير قاتمةً للغاية قبل أن تصل إلى نهايتها، لكننا نثق في قُدرتك على تنفيذها بنجاح، وأنْ لا أحد سواك يستطيع ذلك ... أنتَ تعرفنا جيداً. فهل سمحتَ لنا بتقرير ما هو أفضل لك؟»

نظرتُ إلى وجه بوليفانت العجوز الذي بدَت عليه أماراتُ الذكاء والعطف، وإلى نظرة ماكجليفري الثابتة.

قلتُ: «حسنًا. مُوافِق. ما الخطوة الأولى؟»

ردّ: «اخلع بدلتَك العسكرية وانسَ خلفيتَك العسكرية تمامًا. غيّر اسمك. لا بأس باستخدام اسمك القديم «كورنيليس برانديت»، لكن يُستحسَن أن تستبدل «برانديت» بـ «براند». تذكّر أنك مهندسٌ عاد حديثًا من جنوب أفريقيا، وأنك لا تكترث البتةَ بشأن الحرب. تظاهر أنك لا تستطيعُ استيعابَ سبب قتال أولئك الحمقى، وأنك تعتقد أنه من الممكن تحقيق السلام من خلالِ محادثةِ عملٍ ودية. لا داعي لأن تكون داعمًا للألمان، بل اجلدهم بسياطِ لسانِك إن شئت. لكن لا بد أن تُبدي حماسًا صادقًا تجاه توقيعِ اتفاقيةِ سلامٍ سريعة.»

أظنُّ أنني أرخيتُ زاويتَي فمي في امتعاض؛ إذ سرعان ما انفجَر بوليفانت ضاحكًا.

قال: «هيّا يا رجل، ليست بالمهمة العسيرة. عندما تتوعّك معدتي، أنا نفسي أشعر في بعض الأحيان أني أنزعُ إلى محاباة السلام. لن تكون في مِثل صعوبةِ مهمتِك السابقة، وهي التجوُّل في ألمانيا منتقصًا من بريطانيا.»

قلتُ: «أنا رهن إشارتك. لكن أريد أن أنجز أمراً بمفردي أولًا. أحد رجالي قابعٌ في وحدة الصدمات النفسية في منطقة كوتسوولدز وأريد زيارتَه. في قرية تُدعى «أيشم».»

تبادل بوليفانت وماكجليفري النظرات. قال بوليفانت: «يبدو أن القدَر قد لعب لُعبته. يمكنك الذهاب إلى «أيشم» بالتأكيد. فالمكان الذي ستبدأ فيه مهمتك على بُعد بضعة أميالٍ قليلةٍ من القرية. أريدك أن تقضي ليلة الخميس في ضيافة سيدتَين عزباوَين من آل ويندام في نُزل «فوس مانر». ستذهب إلى هناك بصفتك عزبًا قادمًا من جنوب أفريقيا لزيارة صديقه المريض. إنهما سيدتان مضيافتان تعاملان الغرباء بحفاوةٍ بالغة.»

سألتُ: «هل سأتلقى الأوامر هناك؟»

قال: «ستتلقى الأوامر، وأنت ملزمٌ بها.» وابتسم هو وماكجليفري.

انشغل تفكيري بالمحادثة الغريبة مع بوليفانت، فيما حملَتني سيارة فورد صغيرة — أرسلتُ في طلبها إلى النُّزُل — بعيداً عن ضواحي المقاطعة، واتجهَت إلى أرضِ التلالِ المنحدرة والمروجِ الخضراء التي تتخلّلها قنواتُ ري. كانت الأجواء خلّابة في فترة الظهيرة، وازدانت جميعُ الأشجار بأزهار أول يونيو. لم أكن مُهتمّاً بالمنظر الطبيعي أو بمظاهرِ فصلِ الصيف؛ إذ كان ذهني مشغولًا بتقريع بوليفانت وسبِّ قدَري العجيب. مقتُّ دوري الجديد وما سيحمله إليّ من خزيٍ مُبين. إن ادّعاء الرغبة في السلم أمرٌ شاقٌّ على النفس بوجهٍ عام، وفي غايةِ الخزيِ بشكلٍ خاصٍّ بالنسبة إلى رجلٍ قويٍّ مثل الثور، مسفوعٍ بالشمس مثل الغجَر، لا تظهر عليه سنواتُه الأربعون. كان الذهاب إلى ألمانيا بصفتي جنوبَ أفريقيٍّ مُعاديًا لبريطانيا مغامرةً شجاعة، لكن التسكُّع في بريطانيا والتفوُّه بالترّهات عن الوطن أمرٌ في غاية الاختلاف. شعَرتُ بالغثيان بمجرد التفكير في الأمر، لذا قرّرتُ إرسالَ برقيةٍ إلى بوليفانت والانسحاب. فبعض الأمور لا يحقُّ طلبها من رجلٍ أبيضَ أيًّا كان.

بلغت «أيشم»، وقابلتُ صديقي العجوز المسكين بلايكي، فزادني ذلك غمًّا إلى غمّي. صادقتُ بلايكي في رودسيا، وقد عاد إلى الوطن بعد انتهاء استعمار ألمانيا لجنوب غرب أفريقيا لينضمَّ إلى فوج البنادق الاسكتلندي، تحت لوائي في معركة أراس. دُفن صديقي في الأرض بسبب انفجارٍ كبيرٍ حدث قبل أن نسيطر على هدفنا الثاني بفترةٍ وجيزة، وأُخرج سليمَ الجسد لكن ذاهبَ العقل. سمعتُ أنه تحسّن بعضَ الشيءِ في المشفى، ووعدتُ عائلتَه بزيارته في أقربِ وقتٍ ممكن. وجدتُه جالسًا على مقعدٍ في الحديقة، يُحملِق في

الفراغ بثبات، كأنه جالسٌ أمام البحر. تعرّف عليّ وعلا السرور وجهَه بضعَ ثوانٍ، قبل أن يعود إلى نظراته الفارغة وإلى حديثه البطيء غير المُتسلسل كرجلٍ غطّت الخمرُ عقلَه. وبينما نحن جالسان، طار طائرٌ من شجيرة في الجوار، وإذا به يجاهد لئلّا يصرُخ بأعلى صوته. لم أجد ما أفعله سوى أن أضعَ يدي على كتفِه وأُربّتَ عليه مثلما يُربِّت المرء على حصانٍ مفزوع. عندما نظرتُ إلى الثمنِ الباهظِ الذي دفَعه صديقي العزيز نفرتُ من فكرة السلام.

تحدّثنا عن إخوتنا من الجنود وعن جنوب أفريقيا؛ إذ أردتُ إبعادَ ذهنِه عن الحرب، لكنه ظَل يعود إليها.

سأل: «إلى متى ستستمر هذه الحرب اللعينة؟»

كذبتُ مبتهجًا: «أوه، انتهت الحرب تقريبًا. لن تُحارب المزيد، وأنا أيضًا أوشكتُ على الانتهاء من عملي. لقد أُنهِك الألمان ... ما عليك، يا عزيزي، سوى أن تنام أربعَ عشرةَ ساعةً من الأربع والعشرين ساعة، وتقضي ما تبقّى من الوقت في صيد سمك التروتة. سنصطاد الطيهوج معًا في الخريف، وسندعو أصدقاءنا القُدامى للانضمام إلينا.»

وُضعَت صينيةُ شاي على الطاولة بجوارنا، ورفعتُ رأسي لأجد نفسي أمام أجمل فتاةٍ وقعَت عليها عيناي. بدَت صبيةً غادرَت الطفولةَ لتوّها، وكانت ستُصنَّف شابةً يانعةً قبلَ الحرب. كانت ترتدي فستانًا أزرقَ نظيفًا، ومئزر المُمرّضات المتطوّعات، وقبعةً بيضاءَ على شعرها الذي يُشبه الخيوط الذهبية. ابتسمَت بحياءٍ وهي تُنسّق أكواب الشاي والسُّكرية، وكانت هذه أولَ مرةٍ أرى فيها عينَين يمتزج فيهما المرح والجدية في آنٍ واحد. اتبعتُها بناظري، وهي تسير في الحديقة، وأتذكّر أنني لاحظتُ تحرُّكَها برشاقةٍ مثل فتًى رياضي.

سألتُ بلايكي: «مَن هذه بحق السماء؟»

أجاب بلا اكتراث: «تلك؟ إنها إحدى الأخوات. تأتي مُمرضاتٌ كُثر إلى المشفى. ويعجز المرء عن تمييز إحداهن من الأخرى.»

لم أدرك فداحةَ مرضِ صديقي حتى رأيتُ عدمَ اكتراثه بالفتاة النضرة المرحة. انقضى الوقتُ بسرعة وتعيَّن رحيلي، وفي أثناء مُغادرتي استدرتُ ونظرتُ إلى صديقي، وإذا هو يغوصُ في مقعده مرةً أخرى محملقًا في الفراغ فيما قبضَت يداه على رُكبتَيه بشدة.

كلما فكرّتُ في صديقي اغتمَمْت. ها أنا محكومٌ عليّ بأداء مهمةٍ ساذجة بغيضةٍ في مناخٍ آمنٍ مُخزٍ، فيما يدفع خيرُ جنود الأرض مثل بلايكي ثمنًا باهظًا. حملتْني أفكاري إلى صديقي العزيز بيتر بينار، فجلستُ على سورٍ بجانب الطريق، وقرأتُ آخِر رسالةٍ أرسلَها إليّ. تمالكت دموعي بصعوبة. يجب أن تعلم أن بيتر حلَق لحيته، وانضَم إلى الفيلق الجوي الملكي في فصل الصيف السابق، فور عودتنا من مهمة «ذو العباءة الخضراء». كان هذا المنصبُ الجائزةَ الوحيدةَ التي اشرأبّت إليها عنقُه، وأذعنَت السلطات لرغباته رغم أنه تخطّى سن التكليف. فقد وجدتُ أن من الحكمة عدمَ رفضِ طلبِه بسبب القوانين؛ إذ كان حادّ البصر شديدَ البأس مثل أي شابٍّ في العشرين من عمره. لم أشُك في مهارته قط، لكن لم أتوقع أن يُحقّق مثل هذا النجاح الساحق. لقد حصل على شهادة طيّار في وقتٍ قياسي ثم ذهب إلى فرنسا، وسرعان ما بدأنا نسمع عن إنجازاته، في أثناء انشغالنا بتغيير موقعنا قبل معركة السوم، ونحن نُحارب في البر. لقد أصبح بارعًا في القتال الجوي. قد يكون هناك مئاتُ الطيارين البارِعين، ومئاتُ الخبراءِ في قوانينِ هذه اللعبة، لكن لا أحد في مثل مهارة بيتر في المعارك الجوية. فجعبتُه مليئةٌ بالمناورات، عندما يُحلّق في الجو بضعةَ أميال، مثلما كان يفعل بين صخور جبال جنوب أفريقيا. وكان يختبئ بمهارة في الهواء دون ساتر كما كان يفعل بين الأعشاب الطويلة في أراضي ليمبوبو المنبسطة. بدأَت قواتُ المشاة تداوُلَ حكاياتٍ مُثيرة عن ذلك الطيار الجديد، الذي اختبأ تحت طائرة من سرب طائرات العدو، فيما انشغل بقية السرب في البحث عنه. أذكُر أنني تحدّثتُ عنه مع مجموعةٍ من أفارقة الجنوب نزلنا بجوارهم لنستريح من عناء معركة دلفيل وود الدموية. في اليوم السابق كنا قد شَهِدنا معركةً ضارية بين السُّحب نجَم عنها تحطُّم طائرةٍ ألمانية، وقَدِم ضابطٌ مدفعي من مدينة ترانسفال وأبلغَنا أن الطيار البريطاني هو بيتر بينار. هتف الجندي: «كم هو رائع ذلك الغجريُّ العجوز!» وبدأ يسردُ القصص عن طرائقِ بيتر. كان لبيتر نظريتُه الخاصة، فيما يبدو، وهي أن لكل طيّارٍ منطقةً عمياء، وهو يعلم كيفية العثور عليها في الجو. كان بيتر مقتنعًا أن أفضل غطاءٍ ليس بين السُّحب أو وسط ستار الضباب الرقيق، وإنما في الرقعة غير المرئية للعدو. وقد أدركتُ صحةَ نظريتِه تلك. كانت صحيحةً بقَدْر نظريتِه عن «التماهي مع البيئة المحيطة» و«الخدعة المزدوجة» وغيرها مما تفتّق عنه ذهنُه الغريبُ بسبب حياته الصاخبة.

في نهاية أغسطس من العام نفسه، صار بيتر أشهر طيّار في الفيلق الجوي تقريبًا. ولولا أن التقارير لا تتعرّض إلى أسماء الطيّارين، لتوّجَهُ الشعب بطلًا وطنيًا، لكنه اشتهر بـ «الملازم ص»، ولم يكن بوسع الجرائد التي أسهبَت في الحديث عن إنجازاته إلا الثناءُ

على الفيلق إجمالًا لا تفصيلًا. وفي هذا من الحكمة ما فيه؛ إذ إن جزءًا من جاذبية فيلقنا الجوي تكمُن في عدم سعيه إلى الترويج لنفسه إعلانيًا. لكن بيتر لم يكن مجهولًا في أوساط الجيش البريطاني ولا بين جنود الخنادق الذين تداولوا أخباره بشغفٍ كما لو كان لاعبَ كرة قدم محترفًا. في ذلك الوقت اشتهر طيّارٌ ألماني يُدعى لينشٍ — أحد طياري طائرات «ألباتروس» الشجعان — أعلن في نهاية شهر أغسطس عن تحطيمه لاثنتَين وثلاثين طائرةً من طائرات الحلفاء. آنذاك لم يكن بسجِل إنجازات بيتر سوى سبعَ عشرةَ طائرةً ألمانية، لكن أخذ هذا العدد في الارتفاع بسرعة. كان لينش ذا بأسٍ ومنافسًا محنّكًا وله أسلوبُه الخاص. كان يتميز بسرعةٍ مذهلةٍ في المناورة بطائرته أثناء المعارك، أما بيتر فكان يتميز بقدرته على إجبار خَصمِه على اللعب وفقًا لأسلوبه. كان لينش، إن جاز الوصف، بارعًا في الجانب التكتيكي، وبيتر في الجانب الاستراتيجي. على أي حالٍ عزَم كلٌّ من هذَين الغريمَين على هزيمة الآخر. ورأى الكثيرون أن هذا النضال بين لينش وبيتر لا بين ألمانيا وبريطانيا.

أتى الخامسَ عشرَ من شهر سبتمبر وأُصبتُ إصابةً شديدةً نُقلتُ على أثرها إلى المشفى. تحسّنَت صحتي، وصرتُ قادرًا على قراءة الصُّحف والرسائل، وهالَني نبأ سقوطِ طائرة بيتر. حدثَت هذه الواقعة في نهاية أكتوبر عندما أعاقت عاصفةٌ جنوبيةٌ غربية تحرُّكاتِ قواتنا الجوية. فبعدَما دكّت طائراتُنا بعضَ المراكز أو أنهت مهامّها الاستكشافية خلف صفوف العدو، بدلًا من أن تعود إلى قواعدها بسلاسة، اضطُرّت إلى شَقِّ طريقها ببطءٍ عَبْر رياحٍ عكسية ألقَت بها في مرمى قذائفِ مضاداتِ الطائرات والطائرات الألمانية. وفي شرق مدينة بابوم، في رحلة العودة إلى الوطن، التقى بيتر بلينش، أو هكذا تزعُم الصحافة الألمانية لتنسبَ الفضل إلى لينش. أُصيب خزّان وقودِ طائرةِ بيتر واستحال إلى أشلاء، وأجبِر على الهبوط في غابةٍ بالقرب من بلدية مورتشيس الفرنسية. هكذا «وقَع الطيّار البريطاني المشهور في الأسر» وفقًا للإذاعة الألمانية الرسمية.

لم أتلقَّ أي رسائل من بيتر، حتى مطلع العام الجديد، عندما كنتُ أتهيأ للعودة إلى فرنسا. فاض خطابُه بالفرح والسرور. فهمتُ من كلامه أنه يتلقى معاملةً ممتازةً من سجّانيه، وإن كانت معاييرُه متواضعةً دائمًا فيما ينتظرُه من الآخرين بشأن وسائل الراحة. استنتجتُ أن سجّانيه لم يُدركوا أن ذلك الطيّار البارع هو نفسه المجرم الألماني الذي هرب من سجونهم في العام الماضي. اكتشف بيتر، خلال فترة إقامته في السجن، متعةَ القراءة وأتقنَها بعدما كان يُمارسها بفتورٍ من قبلُ. كما حصَل بشكلٍ ما أو آخر على نسخة من رواية «سياحة المسيحي» لجون بنيان، ونهل منها متعةً كبيرة، حسبما يبدو. لكنه ذكَر في نهاية الخطاب، بشكلٍ عرَضي إلى حدٍّ ما، إصابتَه بجرحٍ بليغ،

وأن ساقه اليسرى صارت معطوبةً للأبد.

توالت الرسائل بعد ذلك، وكتبتُ له أسبوعيًا، وأرسلتُ إليه كل الطرود الممكنة. كانت رسائلُه تُولّد داخلي مزيجًا من الخزي والسعادة. كنتُ أراهن على بيتر دائمًا، وها هو يتصرف مثل شهداء المسيحيين الأوائل، دون أن يتذمّر ولو بكلمة، بل كان مبتهجًا كأننا في صباحٍ شتويٍّ نستعدُّ لصيد الظبي السموري من فوق ظهور الخيل على هضبة هايفيلد. لم يَخفَ عليّ شعورُه حيال فقدانه لساقه اليسرى، خاصةً مع اعتزازه بلياقته البدنية. ولا بد أن سنواتِ عمرِه المتبقية قد تكشّفَت أمامه كئيبةً باهتة. لكنه كتب إليّ كما لو أنه في أوْجِ لياقته، وواصَل مواساتي على ما أواجهه من صعوبات في وظيفتي. إن رؤية صديقي العزيز الطيب المريض، يقفز على ساقٍ واحدةٍ في أرجاء المُجمّع العسكري ويُحاوِل فكّ غموضِ رواية «سياحة المسيحي»، وقد صار معاقًا للأبد بعد خمسة أشهر من المجد الأخّاذ، كفيلة ببث الشجاعة في أجبن النفوس.

تأثّرتُ برسالته الأخيرة غايةَ التأثر؛ إذ جاء موسم الصيف وذكّرَتْهُ رائحة الغابات خلف قضبان السجن بمكانٍ في غابة وودبوش، فجاءت كل جملةٍ من جُمله تفيض بآلام المنفى. جلستُ على الجدار الحجري أتأمل حقارةَ ما أُواجِهه من تحدياتٍ مقارنةً بما كابده بيتر وبلايكي. تذكّرتُ ساندي في بلاد الرافدَين، وبلنكيرون في القارة الأمريكية المُصاب بعُسر في الهضم، وتأمّلتُ كيف يؤديان وظيفتَهما بلا شكوى. وكانت النتيجة أن استعدتُ رشدي. بعدما نهضتُ على قدميّ لمتابعة رحلتي. قرّرتُ ألا أخزي أصدقائي أو أنتقي مهمّتي كما يحلو لي. سأضع نفسي في كنفِ العنايةِ الإلهية وسترشدني إلى الصواب، كما كان يقول بلنكيرون دائمًا، إذا ما سلّمتُ لها.

لم أستمدّ الثباتَ والطمأنينةَ من خطاب بيتر فحسب. رأيتُ قرية «أيشم» تقف بشموخ بين ثنايا التلال بعيدًا عن الوادي الرئيسي، وحملَني الطريقُ الذي سلكتُه إلى الحافة الجبلية، ثم أعادني إلى الطريق المحاذي للجدول. صعدَت السيارة بين غابةٍ واسعةٍ من أشجار الزان، بدت في ضَوء الشفق مثل منطقةٍ خضراءَ قابعةٍ في أعماقِ البحر، ثم سارت في مرعًى جبليٍّ صغيرٍ قبل أن تبلغ حافة الوادي. وجدتُ نفسي مُحاطًا بحقولٍ صغيرةٍ مُسوّرة بجدرانٍ من الأحجار الرمادية ومليئة بالأغنام الشاحبة. وبالأسفل طوّقَت الغاباتُ المُعتمة ما خمّنتُ أنه نُزل «فوس مانر»؛ إذ كان طريقُ فوس الروماني العظيم المُستقيم كالسهم يمُر من فوق التلال ناحيةَ الجنوب محاذيًا أراضيه. رأيتُ الجدول يسيل بين المروج التي تتخلّلها قنواتُ ري وسمعتُ صوت ارتطام الماء بالسد. كانت قريةً صغيرةً تستقر عند عطفة التل، ودقّت أجراسُ برجِ كنيستها معلنةً تمام السابعة

بصوتٍ عذبٍ ساحر. خيّم الصمت على المكان، باستثناء زقزقة العصافير وعُواء رياح الليل بين قِمَم أشجار الزان.

في تلك اللحظة بعينها تكشّف أمامي كل شيء. رأيتُ السبب الذي حاربتُ، بل حاربنا جميعًا، من أجله. كان هو السلام ... سلامًا عميقًا مقدسًا قديمًا ... سلامًا أقدمَ من أقدمِ الحروب ... سلامًا دائمًا ما دامت أسلحتُنا معاولَ للبناء لا الهدم. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ ففي تلك الساعة أخذَت إنجلترا بمجامعِ قلبي لأول مرة. قبلُ دولتي كانت جنوب أفريقيا، وكنتُ كلما أحنُّ لوطني، أحنُّ للفراغات الواسعة المغمورة بأشعة الشمس في الوادي أو الرائحة العبقة المنبعثة من وادٍ صغير في الجبال. لكني أدركتُ الآن أن لديّ وطنًا جديدًا. أدركتُ قدْرَ إنجلترا، واستشعرتُ قدمها وحنوّها وشفقتها، وأيقنت أنها تستحق النضال من أجلها. آمنت أن دماء أفضل رجالنا لهو ثمن زهيد في مقابل فدانٍ واحد من أراضيها. اختبرت ما يختبره الشعراء وإن كنت لا أستطيع نظمَ بيتٍ واحد من الشعر مهما بذلتُ من جهد. في تلك الساعة، رأيت المشهد كاملًا وكأني أنظر إليه من فوق تل، فأدركت ضآلة معوقات الطريق الحالية. لم أرَ النصر بعد الحرب فحسب، بل رأيتُ عالمًا جديدًا سعيدًا بعد النصر، أرث فيه بعضًا من سلام إنجلترا وأتلحّف به إلى نهاية أيامي.

هبطت التلة بتواضعٍ جمٍّ وهدوءٍ تام، كأنني أسير في كاتدرائية، إلى أن بلغت نُزُل «فوس مانر»، ووقفتُ أمام بابٍ واجهتُه قديمة، من الطوب الأحمر تُغطّيها شجرة ماغنوليا لها رائحة تُشبه الليمونَ الساخن وقتَ الغسَق في شهر يونيو. أرسلت سيارة النُزُل حقيبة سفري، وسرعان ما كنتُ أبدل ثيابي في غرفة تطل على حديقة مائية. ولأول مرة منذ أكثر من عام، ارتديتُ قميصًا مكويًا وبدلةَ سهرة، وكدت أُغني في أثناء ذلك من فَرْط شعوري براحة البال. كنتُ مقبلًا على مهمةٍ شاقة، وأنتظر الأوامر التي ستأتي إلى هذا المكان في ساعة من المساء. سيأتي أحدٌ — ربما بوليفانت — ويحلٌ الأحجية. لكن مهما كانت طبيعة المهمة، أنا مستعدٌ لتنفيذها؛ إذ استحوذَت عليّ غايةٌ جديدة. يضيق أفقُ المرء لا محالة بالعيش في الخنادق، فتجده لا يُبصِر سوى مقدمة الأسلاك الشائكة للعدو من جانب، وأقرب ثكناتِ الراحة من الجانب الآخر. لكنني بتٌّ أرى دولةً سعيدةً وراء هذه الحرب.

فيما نزلتُ درجات السُّلّم العريضة، استقبلَت أذني أصواتٌ حادة لا تتناغم مع الجدران المكسوة بالألواح الخشبية ولا الصور الشخصية الصارمة لأفراد العائلة؛ وعندما وجدتُ المضيفتَين في الردهة ورأيتُ مظهرهما أحسستُ بذلك التناقُض بصورةٍ أكبر. بدَت

المرأتان فوق سنّ الأربعين، لكنهما ترتديان ملابسَ الشابات. كانت دوريا ويندام طويلةَ القامة، نحيفةَ الجسم، ذاتَ شعرٍ باهتٍ عادي تعقدُه بعصابةٍ مخملية سوداء. وكانت الأخرى، كلير ويندام، قصيرةَ القامة، مُمتلئةَ الجسم، قد بذلَت ما في وسعها بالمساحيق التجميلية غير المناسبة لتبدو مثل امرأةٍ أجنبيةٍ مشبوهة. سلّمَت المرأتان عليّ بصورةٍ غير مُتكلّفةٍ ودية، وهي الطريقة الإنجليزية الصحيحة للترحيب بالضيوف، حسبما اكتشفتُ منذ فترةٍ طويلة؛ سلّمتا عليّ كأنني تمشّيتُ داخل النُّزل وطلبتُ الإقامةَ دونَ سابق إنذار، وهما سعيدتان جداً بلقائي، لكنهما لن تزعجا أنفسهما بأمري. في اللحظة التالية كانت السيدتان تهدلان مثل الحمام، حول صورة يحملها شابٌّ، تحت ضوء المصباح.

كان الشابُّ طويلَ القامة، نحيفَ الجسم، في الثلاثين من عمره تقريباً، يرتدي سروالًا رمادياً وحذاءً مُغبّراً من السير في طُرق القرية. كان وجهُه النحيفُ شاحبًا كما لو كان يعيش بين الجدران بكثرة، وشعرُه كثيفًا مقارنةً بأغلبيتنا. في ضوء المصباح، بدت ملامحُه شديدةَ الوضوح، وتفحّصتُها بإمعان؛ إذ تذكّر أني أتوقع أن تبلُغني الأوامر من شخصٍ غريب. كان له ذقنٌ طويلٌ قوي، وفمٌ عنيدٌ ذو خطوط عند زاويته، تحمل أماراتِ استيائه. كان أكثر ما يميّزه عيناه. وأفضل ما يُمكنني وصفُهما به هي أنهما حمراوان، لا من قسوة أو غضب، بل من القلق، حتى كأنهما تتألّمان حقيقةً وبحاجةٍ إلى كماداتٍ باردة.

أنهت السيدتان حديثَهما حول الصورة، الذي صِيغ بمفرداتٍ مُتخصصة لم أفهم مفردةً منها، ثم استدارت الآنسة داريا ناحيتي والشاب.

قالت: «هذا هو ابنُ عمي لانسلوت ويك يا سيد براند.»

تبادلنا التحية بتحفّظ، فيما ارتفعَت يدُ وِيك إلى شعره، ومسّده في خجل.

سألَت إحداهما: «هل أعلن برنارد أن العَشاءَ جاهز؟ أين ماري بالمناسبة؟»

أجابت الآنسة كلير: «لقد وصلَت منذ خمس دقائق وأمرتُها بتبديل ملابسها. لن أدعَها تُفسد أجواء المساء بذلك الزي البغيض. بوسعها أن تتنكّر به، لكن في الخارج؛ لأن هذا المنزل للمُتحضّرين فحسب.»

ظهر رئيس الخدَم وتمتَم بكلماتٍ غيرِ مفهومة. هتفَت الآنسة دوريا: «هيّا، لا بد أنك تتضوّر جوعًا يا سيد براند. كما سار لانسلوت بالدراجة عشرةَ أميال.»

كانت غرفةُ الطعام تختلف تمام الاختلاف عن الردهة. فقد أزيلَت منها الألواحُ الخشبية، واكتسى سقفُها وجدرانُها بورقٍ لامعٍ أسودَ قاتم، عُلّقَت عليه لوحاتٌ غاية في القبح داخل إطاراتٍ ذهبيةٍ باهتةٍ ضخمة. لم أتمكّن من رؤية اللوحات بوضوح، لكنها بدَت مثل خليطٍ عشوائيٍّ من الألوانِ القبيحة. أومأ الشابُّ برأسه ناحية الرسومات. وقال: «أراكما علّقتما لوحات ديجوس أخيرًا.»

هتفَت الآنسة كلير: «كم هي رائعة! إنها دقيقةٌ وعفويةٌ وشجاعة! أنا ودوريا نستدفئ بلهيبها.»

كانت الغرفة قد بُخرَت بخشبٍ عطريٍّ من نوعٍ ما، فخلّف رائحةً غريبةً مثيرةً للغثيان. بدا كلُّ شيءٍ في المكان مُتكلفًا، غيرَ مريح، وغيرَ طبيعي؛ الشمعة على المائدة، وكومة الفاكهة الخزفية الصناعية في الطبق الرئيسي، والجداريات الصارخة الألوان، والجدران البشعة. لكن كان الطعام رائعًا. في الحقيقة كانت أفضلَ وجبةِ عشاءٍ تناولتُها منذ ١٩١٤.

قالت الآنسة دوريا، وهي تسند وجهها الأبيض الطويل على يدِها المليئة بالخواتم: «أخبرني يا سيد براند. هل أنتَ واحدٌ منّا؟ أأنتَ من الرافضين لهذه الحرب المجنونة؟»

قلتُ، وأنا أتذكّر الدّور الذي أُمثّله: «بالطبع. أرى أن بعض المنطق سيحلُّ هذا النزاعَ مباشرة.»

قال السيد ويك: «لو كان الطرفان يتحلّيان ببعض المنطق ما نشبَت الحربُ في الأساس.»

قالت الآنسة دوريا: «إن لانسلوت ويك «م.» كما تعلم.»

لم أكن أعرف أنه مقدم إذ لا يبدو جنديًا بأي شكلٍ من الأشكال ... كدتُ أن أسأله عن الكتيبة التي يقودُها عندما تذكّرتُ أن هذا اختصارٌ أيضًا يُطلَق على مُعارضي أداء الخدمة العسكرية لدواعٍ دينية أو أخلاقية، فأوقفتُ نفسي في الوقتِ المناسب.

في تلك اللحظة تسلّل شخصٌ إلى المقعد الشاغر عن يميني. استدرتُ ورأيتُ الممرضة المتطوعة التي أحضرَت صينية الشاي لبلايكي وقتَ الظهيرة في المشفى.

واصلَت السيدة: «أُعفي من الخدمة العسكرية من قِبل شُعبته لأنه موظفٌ مدني؛ لذا لم يحظَ أبدًا بفرصة الشهادة في المحكمة، لكنه خدم قضيتَنا بطريقةٍ لم يَسبقه إليها أحد. إنه أحد أعضاء مجلس «رابطة الديمقراطيين المُعارضين للعدوان»، وتحوم

الأسئلة حوله في مجلس العموم البريطاني.»

بدا الرجل غير مرتاح لعرض سيرته الذاتية. ونظر إليّ بتوتُّر، وكاد أن يُقدِّم ما يُشبه التفسير، لولا أن قاطعَته الآنسة دوريا. قالت: «تذكَّر قاعدتَنا يا لانسلوت. لا يُسمح بجدالات الحرب الرنَّانة داخل هذه الجدران الأربعة.»

وافقتُها في كلامها. تبدو الحرب وثيقةَ الصِّلة بمظاهر الصيف لما تحملُه في طيَّاتها من سلام، وبِغُرف «فوس مانر» القديمة الفاخرة. لكن في غرفة الطعام العصرية الصارخة الألوان لم يكن الموضوع لائقًا بأي شكلٍ من الأشكال.

تحدثوا عن أشياءَ أخرى. دار أغلبُ الحديث حول اللوحات أو الأصدقاء المُشتركين، ولم يتعرَّضوا إلى الكُتب إلا قليلًا. لم يُعرني أحدٌ اهتمامه، وهذا من حُسن حظي؛ لأنني لا أفقَهُ شيئًا في هذه الأمور ولا أفهم نصف المفردات التي يستخدمونها. لكن ذاتَ مرةٍ حاولَت الآنسة دوريا أن تجذبني إلى النقاش. كانوا يتناقشون في روايةٍ روسية — اسمها «الأرواح المجذومة» تقريبًا — وسألَتني إذا كنتُ قد قرأتُها من قبلُ. بمحض الصدفة كنتُ قرأتُ هذه الرواية. كانت هذه الرواية قد وصلَت إلى خنادقنا على نهر سكارب بطريقةٍ ما، وبعد أن علَقْنا في قراءة الفصل الثاني، اختفَت في الوحل، وهو المكان الذي تنتمي إليه بطبيعة الحال. أثنت السيدة على مشاعر «الحزن الشديد» و«الجمال الرصين» في الرواية. وافقتُها، وهنَّأتُ نفسي على نجاحي في الهرب منها للمرة الثانية؛ إذ لو كانت سألَتني عن رأيي في الرواية، لوصفتُها أنها هُراءٌ لا معنى له.

التفتُّ إلى الفتاة، فابتسمَت إليَّ مرحبةً. بدا جمالُها عاديًا في زي الممرِّضات المتطوِّعات، لكنه استحال استثنائيًا بفستانها الأسود الشفَّاف وشعرها المكشوف. ولاحظتُ شيئًا آخر. كان هناك ما هو أكثر من الجاذبية في وجهها اليافع. كانت جبهتُها العريضة وعيناها الضاحكتان يشعَّان ذكاءً على نحوٍ غيرِ معهود. كما اتسمَت بقدرةٍ خارقةٍ تُحيل عينيها إلى الجدية والعُمق دون سابق إنذارٍ مثل نهرٍ متلألئ يضيق ويستحيل إلى بِركةٍ.

قالت: «لن يُعرِّفنا أحد لذا اسمح لي بأن أعرِّفك بنفسي. اسمي ماري لامنتون وهاتان السيدتان خالتاي ... هل أعجبَتْك رواية «الأرواح المجذومة» حقًّا؟»

لم أجد صعوبةً في التحدُّث إليها. وللغرابة أزال وجودُها ضيقَ الصدر الذي شعَرتُ به في الغرفة. هذا لأنها تنتمي إلى العالم الخارجي، إلى القصر القديم، إلى العالم بوجهٍ عام. كانت تنتمي إلى الحرب، إلى العالم السعيد بعد الحرب، العالم الذي لا بد من نَيْله

بخوضِ النضالِ لا الهروبِ منه، مثلما تفعل هاتان السيدتان الساذجتان.

رأيتُ عينا وِيك تتجولان إلى الفتاة كثيراً وهو يُرعد ويُطنطِن والسيدتان تُثرثِران. سرعان ما بدأت المحادثة تنحرفُ عن مسارات الفن المُنمّقة وتحوم حول الموضوعات المحرّمة. وبدأ ويك يسبٌ جنرالاتنا المُنخرطين في القتال. لم أجد خياراً سوى الإنصاتِ إليه. قوّسَت الآنسة لامنتون حاجبَيها قليلًا، كأنها تستنكِر ما يقوله، وبدأتُ أفقد صوابي.

لقد أتى بكل أنواع النقد الغبي من عدم الكفاءة والجُبن والفساد. ولا أدري من أين أتى بهذه الترّهات، حتى تومي الكثير التذمّر لم يأتِ بهذا الهُراء عند إيقاف استراحته. والأسوأ من ذلك أنه كان يستحثّني لِمُوافقته في الرأي.

حاولتُ السيطرةَ على أعصابي بكل ما أملكُه من قوة. وأجبتُ: «ليست لديّ معلوماتٌ كافيةٌ في هذا الشأن، لكن سمعتُ في جنوب أفريقيا أن القيادة البريطانية هي الحلقةُ الضعيفة. لذا أظن أن كلامَك يحمل الكثير من الصواب.»

همسَت الفتاة بجواري: «أحسنَت!» أو ربما خُيِّل لي أنها فعلَت.

لم نُطِلْ في الكلام، وسرعان ما انضمَمْنا إلى السيدات؛ تعمّدتُ ألا أُسهب في الحديث معه؛ إذ خشيتُ كثيراً أن أفقد صوابي وأُفسِد كل شيء. وقفتُ أُدخّن لأطولِ فترةٍ مُمكنة، مُسنداً ظهري على رفِّ المدفأة، وتركتُ ويك يسردُ الحكايات كما يحلو له، دون أن أحيدَ بناظري عن وجهه. آنذاك، تيقنتُ أن ويك ليس الشخص المنشود الذي سينقل لي تعليمات المهمة. لم يكن يتظاهر في كلامه. كان شخصاً غريب الأطوار يتحدّث صادقًا أيما صدق، غير أنه لم يكن مُتعصباً؛ إذ كانت تُعوزه الثقةُ بالنفس. لقد فقد احترامَه لنفسه بطريقةٍ ما، ويُحاوِل استعادته بأي طريقةٍ مُمكنة. لم يكن غبيًا على الإطلاق؛ فالأسبابُ التي ذكرها بشأن اختلافه مع غالبية أبناء وطنه كانت منطقيةً نوعًا ما. ما كنتُ سأكترث بمواجهته في مناظرةٍ علنية. ولو أخبَرْتني منذ أسبوع مضى عن هذا الشاب لشعَرتُ بالغثيان بمجرد التفكير به. لكنني لا أكرهه الآن. شعَرتُ تجاهَه بمزيجٍ من الضجر والشفقة. كان مُضطرباً على نحوٍ لا يخفى على أحد.

عُدنا إلى الردهة، وأعلن الشابُّ عن اضطراره للرحيل، وأجبر الآنسة لامنتون على مساعدته في العثور على دراجته. بدا أنه ينزل لعدة أيام بفندق يبعُد بضعة أميال، من أجل صيد السمك، ما جعلَني أُحبه بشكلٍ ما. سرعان ما ذهبَت السيدتان للفِراش، لتنعما بأحلامٍ وردية، وتُركتُ وشأني.

جلستُ في الردهة، لبعض الوقت، أُدخّن وأتساءل عن موعد وصول الرسول. كان الوقتُ متأخراً، ولم تكن هناك تحضيراتٌ في المنزل لاستقبال ضيفٍ جديد. قَدِم رئيس الخدم بصينيةِ مشروباتٍ وسألتُه ما إذا كان ينتظر قدومَ ضيفٍ آخرَ الليلة.

أجاب: «لم تَردني أخبارٌ بذلك يا سيدي. لم يَرِد تليجراف، على حسب علمي، ولم أتلقّ تعليماتٍ في هذا الشأن.»

أَشعلتُ غَلْيوني، وجلستُ أقرأ جريدةً أسبوعيةً مدّة عشرين دقيقة. بعد ذلك، نهضتُ من مكاني، ورُحتُ أتأمّل صور العائلة. دعَتْني أشعة القمر المُتسللة من بين فراغات النافذة إلى الخروج لتهدئة قلقي. كانت الساعة قد تجاوزَت الحادية عشرة، ولم أتلقّ أي تعليماتٍ بعدُ بخصوص خطوتي القادمة. كان الأمر مُثيراً للجنون؛ أن يَقلقَ المرء بسبب مهمةٍ بغيضة، ناهيك عن أن يتسبّب شيءٌ في تعطيل هذه المهمة اللعينة.

خارج المنزل وخلف الشرفة الأمامية المُبلّطة، انحدرَت الحديقةُ التي كساها ضوءُ القمر بالأبيض إلى حافة الجدول، الذي اتسع في تلك الرقعة مشكلًا بُحيرةً صغيرة. عند حافة الماء، قبعَت حديقةٌ منسّقة، مسوّرة بأحجارٍ رمادية، راحت تتلألأ مثل أحجار المرمر الداكنة. وهبّت نسائمُ عطريةٌ قويةٌ منها؛ إذ لم يَنتهِ موسمُ زهورِ الليلك بعدُ، وكانت أزهارُ الزعرور في أوْجِ ازدهارِها. وفجأةً انبعث من ناحية الظل صوتٌ يُشبه العندليب.

كان الصوتُ يغني «كرز لذيذ»، وهي أغنيةٌ شهيرة قد سمعتُها من الأرغن اليدوي بشكلٍ أساسي. لكن عندما سمعتُها، في ضوء القمر والنسمات العطرية، بدا أنها تحمل معها ذاك السحر الدائم لإنجلترا القديمة وهذه القرية المقدّسة. اجتزتُ حدودَ الحديقة ورأيتُ رأسَ الفتاة ماري.

انتبهَت ماري لوجودي؛ إذ استدارت ناحيتي.

قالت: «كنتُ سأبحثُ عنك بعدما أوى الجميع إلى الفِراش. فلديّ ما أُخبِركَ به، أيها الجنرال هاناي.»

كانت تعلم اسمي، إذن هي من جماعتنا، بشكلٍ ما. سحرَتْني هذه الفكرة.

هتَفْت: «حمداً لله، يُمكنني أن أتحدث إليكِ بحُرية. مَن أنتِ وكيف تعيشين في هذا القصر بصحبة أولئك الأشخاص؟»

ضحكَت برقّة، وقالت: «خالتاي الطيبتان! تتحدثان كثيراً عن الأمور الروحية

العميقة لكنهما تقصدان مَخاوفَهما البسيطة في حقيقة الأمر. إنهما تُمثلان ما تُسمّيه بالتمويه، بل هما تمويهٌ مثالي جداً.»

سألتُ: «ماذا عن الشابِّ المُنافقِ الشاحِب؟»

أجابت: «لانسلوت المسكين! أجل هو الآخر تمويه، وربما أكثر من ذلك. لا تحكُم عليه بهذه القسوة.»

أجبتُ: «لكن ... لكن ...» حِرتُ في الكلمات وتلعثمتُ من فَرْط الحماسة. قلتُ: «كيف أتأكد أنكِ الشخص المعني بالتحدُّث إليه؟ أنا لديّ تعليمات، كما ترَين، ولم تَرِدني أي معلومةٍ بخصوصك.»

قالت: «سأعطيك الدليل. منذ ثلاثة أيام، أمرك السيد وولتر بوليفانت وماكجليفري بالقدوم إلى هُنا الليلة، وانتظار مزيدٍ من التعليمات. حدَث هذا اللقاءُ في غرفة التدخين في الجزء الخلفي من نادي روتا. وطُلب منك استخدامُ الاسم المستعار «كورنيليس براند» والتحوُّل من الجنرال الناجح إلى مهندسٍ مناصرٍ للسلام قادمٍ من جنوب أفريقيا. أليس هذا صحيحاً؟»

أجبتُ: «تماماً.»

واصلَت: «لقد قضيتَ الأمسية كاملةً في قلقٍ تترقبُ وصول رسولٍ يُبلغك بالتعليمات. أرِح عقلَك. فلن يأتِي أيٌّ رسول. ستتلقى أوامركَ منّي مباشرة.»

قلتُ: «ما كنتُ لأتمنى أن أتلقّاها من غيرِك.»

واصلَت: «أُهنّئك على لباقتك. إذا كنتَ بحاجةٍ إلى المزيد من الإثباتات، فيُمكنني أن أسردَ لك تحركاتكَ في السنوات الثلاث الأخيرة. بوسعي أن أشرح لكَ — وأنتَ لستَ بحاجة إلى الشرح — جميع خطواتِ مهمّة «بلاك ستون». يُمكنني أن أرسمَ لك خريطةً دقيقةً لرحلتك إلى مدينة أرضروم التركية. ولديكَ خطاب من بيتر بينار في جيبكَ الآن ويُمكنني أن أقصّ عليك مضمونه. هل أنتَ على استعداد للثقة بي؟»

قلتُ: «بكل قلبي.»

قالت: «ممتاز. ستختبر تعليماتي الأولى قوّتك. ليست لديّ أوامرُ أُعطيها لكَ سوى أن تذهب وتنخرط في نمطِ حياةٍ بعينه. ستكون مهمّتك الأولى هي استطلاع «الأجواء» على حدّ تعبير صديقك بيتر. سأُخبرك أين تذهب وكيف تتصرف. لكن لا يُمكنني أن أطلب منكَ فعل أيِّ شيء، ما عليكَ سوى أن تتسكّع بعينَين وأُذنَين مفتوحتَين حتى

تستوعب «طبيعة» الموقف.»

سكتَت ووضعَت يدَها على ذراعي.

تابعَت: «لن تجدَ الأمر سهلًا. لو فُرضَت عليّ هذه المهمّة لفقدتُ عقلي، وأنا مَن أنا؛ لذا ستكونُ أشدَّ وطأةً على رجلٍ مثلك. لا بد أن تنغمسَ في حياة الحمقى، الذين لم تمسّهم الحرب أو لم تَطَلْهم بالقَدْر الكافي، الذين ينشغلون بسفاسفِ الأمورِ طيلةَ اليوم، ويستغرقون فيما نُسمّيه أنا وأنتَ بالصيحات التافهة المتمركزة حول الذات. أجل. هم أناسٌ يشبهون خالتيّ ولانسلوت إلا أنهم ينتمون إلى طبقةٍ اجتماعيةٍ أخرى في الغالب. لن تعيش في قصرٍ قديمٍ مثل هذا، بل في منازلَ صغيرةٍ مُبهرَجة «مُتصنعة». ستسمع معتقداتك يُستهزأ بها ويُنتقص منها، وسترى كلّ الحماقات المُثيرة للغثيان يُشار إليها بالبنان، لكن لا بد أن تُمسكَ عليك لسانكَ وتسايرهم. لن تفعل أي شيءٍ سوى أن تدَعَ نفسك تتشرّب هذه الحياة، وتُبقيَ عينَيك وأُذنَيك مفتوحتَين كما ذكرتُ لك.»

عقّبتُ: «هل تُعطينني بعضَ الإشارات إلى ما يجبُ أن أبحث عنه؟»

أجابت: «تنصُّ الأوامر على ألا أُعطيَك أي معلومات. يريد رؤسائي ورؤساؤك أن تمضي في مهمتك بلا أي تصوراتٍ مُسبقة. ولا تنسَ أننا لا نزال في مرحلة جمع الاستخبارات. لم يَحِن الوقت بعْدُ لوضعِ خطةِ هجومٍ فضلًا عن القيام بأي تحرُّكات.»

قلتُ: «أخبريني بأمرٍ واحدٍ فحسب. هل ما نسعى وراءه أمرٌ عظيم؟»

أجابت ببطء وجديةٍ شديدة: «إنه أمرٌ عظيمٌ حقًّا. نلاحِق أنا وأنت وغيرنا المئات أخطرَ رجلٍ في العالم. وحتى ننجح في هذا الأمر ستظلُّ بريطانيا مشلولةً في حركتها. إذا أخفقنا في مهمّتنا أو نجحنا بعد فوات الأوان، فلن يُحقّق الحلفاءُ النصر الذي يستحقونه. سأخبركَ بأمرٍ على سبيل التشجيع. هذه المهمة هي سباقٌ مع الزمن بطريقةٍ ما، لذا لن تتعذب لفترةٍ طويلة.»

لم يكن بوسعي الاعتراض، وهي تعلم ذلك؛ إذِ اعتبرَت موافقتي أمرًا مفروغًا منه.

أخرجَت صندوقًا دقيقًا، من حقيبةِ كتفٍ ذهبيةٍ صغيرة، وفتحته واستخرجَت منه ما يُشبه رقاقةً أرجوانية عليها صليبُ القديس أندرو الأبيض.

سألَت: «ما نوع الساعة التي ترتديها؟ آه، ساعة جيب. حسنًا، ألصِق تلك الرقاقة داخل غطائها. ذات يوم سيُطلَب منك إظهارها ... هناك شيءٌ آخر. اشترِ نسخةً من «سياحة المسيحي» واحفَظها عن ظهر قلب. ستتلقى خطاباتٍ ورسائل في يوم من الأيام،

وأصدقاؤنا يَميلون لاستخدام ما يشبه أسلوب جون بنيان ... ستجد السيارة عند الباب غداً، لتركب في قطار العاشرة والنصف صباحاً، وسأُزوِّدك بعنوان الغُرَف المُستأجرة من أجلك ... ليس لديّ شيءٌ آخرُ أخبرك به، غير أنني أتوسّل إليكَ أن تُمثّل دوركَ جيداً وتُحاوِل السيطرة على أعصابك. لقد أحسنتَ التصرف على العَشاء.»

سألتُ سؤالًا أخيراً فيما تمنى أحدنا للآخر ليلةً سعيدةً في الردهة. قلتُ: «هل سنلتقي مرةً أخرى؟»

أجابتْ: «سنلتقي قريباً وكثيراً. لا تنسَ أننا زميلان.»

شعَرتُ براحةٍ كبيرة، وأنا أصعد للطابق العلوي. أعلم أنه ينتظرني وقتٌ عصيبٌ للغاية، لكن عَظُمَت المهمة في عيني وتزيّنت بالتفكير في الفتاة التي غنّت «كرز لذيذ» في الحديقة. مدحتُ بصيرة الداهية العجوز بوليفانت في انتقائه لها وسيطةً دون غيرها؛ إذ لو تلقيتُ الأوامر من شخصٍ آخرَ ما نفّذتُ المهمة.

الفصل الثاني

قرية الفضائل

في الهضبة المرتفعة تنزع أنهارنا إلى تكوين سلاسلَ من البِرك، تُوصل بينها أوشالٌ مُوحلة، وهي أكثر المجاري المائية ركودًا يُمكنك أن تجِدها على بُعد مسيرة يوم. لكنها سرعان ما تصل إلى حافة الهضبة، وتسقط في السهول مكونةً وِهادًا عظيمة، وبعد ذلك تتدفّق في تياراتٍ صاخبةٍ قويةٍ إلى البحر. هكذا يحدُث مع القصة التي أسردُها. فقد بدأت مساحة من النهر انسيابية، هادئة مثل بِركة الطاحون، لكن سرعان ما وجدتُ نفسي ذات يوم في قبضة سيلٍ جارف، يتقاذفُني قدَر لا يدَ لي فيه من صخرة لأُخرى. لكن لا أزال في الوقت الحالي في حالة الركود، بالضبط مثل قرية جاردن سيتي الصغيرة في بيجلزويك؛ حيث استأجر السيد كورنيليس براند، النبيل القادم من جنوب أفريقيا لزيارة بريطانيا في عطلته، غرفتَين في كوخ السيد تانكرد جيمسون.

أحاط هذا المنزل — أو «البيت» كما يُفضِّلون تسميتَه في بيجلزويك — وما يقرب من مائتين آخرين بحديقة ميدلاند العامة الجميلة. كان البيت سيئ المعمار شاذ الأثاث؛ كانت قوائم الفراش قصيرةً جدًّا، والنوافذ لا تتلاءم مع إطاراتها، والأبواب تتأرجح أبدًا، لكنه كان نظيفًا بالقدْر الذي يسمح به الصابون والماء والكَشط. واتصلَت به حديقةٌ تبلُغ فدّانًا، كُرسَت ثلاثة أرباعها في زراعة البطاطس، فيما استَغلّت السيدة جيمسون الرقعةَ القابعةَ تحت نافذة الردهة في زراعة الأعشاب العطِرة، وزيّنَت الممرّ المؤديَ للباب الأمامي صفوفٌ من زهور دوّار الشمس الطويلة الرفيعة. استقبلَتني السيدة جيمسون، فيما نزلت من عربة المحطة التي يجرها حصانٌ واحد، وهي امرأةٌ ضخمةٌ متورِّدة الوجنتَين ذات شعرٍ مُبيض من كثرة تعرُّضه لأشعة الشمس، وكانت ترتدي ثوبًا يُشبه في قَصته ونسيجه ستارةً منقوشة. كانت امرأةً صالحةً طيبةَ المعشر، شديدةَ الزهو بمنزلها.

قالت: «نعيش حياةً بسيطة هُنا يا سيد براند. يجب أن تتقبّلَنا على ما نحن عليه.»

طمأنتُها أنني لا أريد سوى البساطة، وفيما كنتُ أفرِغ حقائبي في غرفة النوم الصغيرة المُنعِشة، التي تهبُّ الرياح الغربية من نافذتها، فكّرتُ أنني رأيتُ مساكنَ أسوأ

من هذه.

كنتُ قد اشتريتُ الكثير من الكتب عندما عرّجتُ إلى لندن؛ إذ فكّرتُ في تحسين تعليمي ما دمتُ أمتلك الوقت لذلك. كانت الكُتب في مُعظمها من كلاسيكيات الأدب الإنجليزي، أعرف أسماءها لكن لم أقرأها من قبلُ، كانت جميعًا جزءًا من سلسلة كتبٍ مسطّحة الظهر ثمنُ الواحد منها شلن. رتّبتُ الكتب فوق خزانة الأدراج، باستثناء رواية «سياحة المسيحي» وضعتُها بجوار فِراشي؛ لأنها إحدى أدوات العمل ولا بد من أن أحفظها عن ظهر قلب.

استحسنَت ذوقي السيدة جميسون التي قَدِمَت إلى الغرفة بعد هُنيهة، فيما كنتُ منهمكًا في إفراغ الحقائب، لتتأكّد أن الغرفة تروقني. وأرادت أن تتناقش معي حول الكتب في أثناء وجبة الظهيرة، وكانت منشغلةً بالتباهي بمعرفتها مما سمح لي بموارة جهلي.

أخبرَتْني: «جميعنا نسعى للتعبير عن شخصياتنا. هل وجدتَ وسيلتكَ لذلك يا سيد براند؟ أهو القلم الحبر أو الرصاص؟ أم تُراها الموسيقى؟ لديك جبهةُ فنانٍ، بارزة كما هي في تماثيل مايكل أنجلو، إذا كنتَ تذكُر!»

أخبرتُها أنني قرّرتُ أن أجرِب الاشتغال بالأدب، لكن قبل كتابة أي نص، سأستزوّد من القراءة.

حدث ذلك يوم السبت؛ لذا عاد السيد جيمسون من البلدة مبكرًا بعد الظهيرة. كان يعمل كاتبًا إداريًا في مكتبٍ للشحن، وإن كان مظهره لا يُوحي بذلك. تكوّنَت ملابسه المتمدّنة من سروالٍ فضفاضٍ رماديّ داكن، وقميصٍ غيرِ رسمي، ورابطة عنقٍ برتقالية، وقبّعةٍ طريّةٍ سوداء. خرجَت زوجتُه لتستقبلَه في الشارع، وعادا متشابكَي الأيدي، يؤرجِحان ذراعَيهما مثل تلميذَين بالمدرسة. غطّت ذقَن السيد جيمسون لحيةٌ حمراءُ خفيفة تتخللها بعضُ الشعيرات البيضاء، وكانت له عينان لونُهما أزرقُ باهتٌ تظهران من خلف نظارةٍ سميكة. كان ألطفَ مخلوقٍ قابلتُه على الإطلاق، يُكثِر من الأسئلة المُتتابعة، ويحرصُ على أن يُشعرَني أنني جزءٌ من عائلته. سرعان ما ارتدى سترةً من قماش التويد، فضفاضةً ذات حزامٍ وصفٍّ واحد من الأزرار، وبدأ في حِراثة حديقته. خلعتُ معطَفي وعاونتُه، وكلما توقّف لالتقاط أنفاسه — وهو ما كان يفعله كل خمس دقائق لِضعف بنيته — مسَحَ جبينه، وفركَ نظارته، ألقى خطبةً بليغةً عن رائحة التربة العبقة والبهجة التي تستمدُّها النفسُ من مُعانقة الطبيعة.

ذات مرة نظر إلى يديّ البُنيتَين الكبيرتَين وذراعيّ المفتولتَين نظرةً متحسرة. وقال: «أنتَ أحد الفاعلين، يا سيد براند، وأحسدُك على ذلك. لقد شهدتَ الطبيعةَ في جموحها في البلاد البعيدة. آمُل أن تخبرنا في يومٍ من الأيام عن حياتك. لا بد أن أقنع بهذه الرقعة الصغيرة من العالم، التي هي ملكي، لكن من حسن الحظ أنّ العقل لا يخضع للحدود الإقليمية. هذا المسكن المتواضع بالنسبة لي برجُ مراقبة أطِل منه على العالم بأَسْرِه.»

أخذَني في جولة عقب ذلك. التقَينا بجماعاتٍ عائدةٍ إلى بيوتها من لاعبي التنس وقلةٍ من لاعبي الجولف. كانت هناك أعدادٌ كبيرةٌ من الشبان، معظمهم هزيلو البنية، باستثناء بضعة شبابٍ أقوياءِ البِنية كان من المفترض ذهابُهم إلى ساحة القتال. ذكر جيمسون بعضاً من أسمائهم بانبهار. كان أحدهم شابًّا هزيلًا هو الروائي العظيم آرونسون، وآخرُ عدوانيٌّ قوي البِنية ذو شاربٍ غليظٍ اسمه ليتشفورد، وهو الصحفي الكبير المشهور في جريدة «الناقد». كان الكثير ممن أشار إليهم السيد جيمسون بالفنانين قد حقّقوا في مجالاتهم نوعًا من السبق على غيرهم، حتى إنه أشار إلى شخصٍ منتفخٍ ضخم ووصفه بأنه قائدُ حركة الاستشراق الجديدة في إنجلترا. لاحظتُ أن أولئك الأشخاص — وفقًا لجيمسون — «عظماء» ومنخرطون في نشاطٍ «جديد». كما كانت هناك أعدادٌ كبيرةٌ من الفتيات، يرتدين ثيابًا رثةً ويَملن إلى عدم تصفيف شعورهن في الغالب. ولم تخلُ الطرقاتُ من بعض الأزواج المهذّبين، قد خرجوا للتنزّه، كما هي عادة أصحاب المنازل في المساء في جميع أنحاء العالم. كان أغلبُ تلك الفئة الأخيرة أصدقاءَ للسيد جيمسون وعرّفني بهم. شارك السيد جيمسون هؤلاء في الطبقة الاجتماعية، وهم أناسٌ مُتواضعون ينشُدون خلفيةً زاهيةً لحياتهم المدنية المملّة، ووجودها في تلك القرية الغريبة.

في العشاء عُرِّفتُ بمزايا بيجلزويك الخاصة.

قالت السيدة جيمسون: «هذه القرية معملٌ عظيمٌ للفكر. من الرائع أن يجد المرءُ نفسَه بين الأشخاص المتحمّسين المفعَمين بالحيوية، الذين يترأسون أجددَ الحركات الثقافية، وأن تشهَد مكاتبنا وحدائقنا صناعةَ تاريخ بريطانيا الفكري. تبدو الحرب، من مكاننا هذا، بعيدةً وثانوية. كما أن كبرى حروب العالم تدور في العقل كما قال أحدهم.»

انقبَض وجهُ زوجها بغتة. قال: «ليتني أشعر أن الحرب بعيدة. على أي حال، يا أورسلا، إن تضحيات الشباب هي ما تمنَح أمثالَنا الرفاهيةَ وراحةَ البال للتفكير. واجبُنا

هو أن نبذل ما يسمح به الوسع والطاقة، لكنه ثمنٌ زهيدٌ مقارنةً بما يقدِّمه جنودنا الشبّان! ربما أكون مُخطئًا بشأن الحرب ... وأعلم أنه لا يُمكنني الجدال مع ليتشفورد في هذا الأمر. لكن لن أتظاهر بالأفضلية وأنا لا أشعر بها.»

ذهبتُ إلى الفراش، أشعُر بالغبطة؛ لأنني التقيتُ بشخصٍ في غاية العقلانية مثل جيمسون. فيما كنتُ أُشعِل الشموع على منضدة التزيُّن، لاحظتُ أن كومة العملات الفضية التي أخرجتُها من جيبي عند الاغتسال قبل العَشاء ثقيلةٌ في أعلاها. فقد كانت هناك عملتان كبيرتان في الأعلى، وستة بنسات وشلنات في الأسفل. غير أنه من عاداتي الغريبة التي مارستُها منذ طفولتي هي أن أرصّ الفكة بالترتيب بحيث تكون العملاتُ الأقلُّ قيمةً في أعلى الكومة. أثار ذلك انتباهي، ودفعَني إلى ملاحظة أمرٍ آخر. لم تكن كلاسيكيات الأدب الإنجليزي القابعة فوق خزانة الأرفف على الترتيب نفسه الذي تركتُها عليه. كان أيزاك والتون قابعًا عن يسار توماس براون، والشاعر بيرنز محشوراً بتعاسة بين مجلّدَي هازليت. كما لاحظتُ أن فاتورة الشراء، التي وضعتُها بين صفحات «سياحة المسيحي» علامةً على مكان توقُّفي في القراءة، قد تحرّكَت من مكانها. ثمّة شخصٌ ما فتّش مُمتلكاتي.

تأمّلتُ ما حدث هُنيهة، وتوصّلتُ إلى أن السيدة جيمسون لا يمكن أن تكون الفاعلة. فليست لديها خادمةٌ وتقوم على شئون المنزل بنفسها، لكن كانت أمتعتي في أماكنها الصحيحة عندما غادرتُ الغرفة قبل وجبة العَشاء؛ إذ قَدِمَت للتنظيف قبل ذهابي للطابق السُّفلي. لا بد أن شخصًا دخل غرفتي في أثناء تناوُلنا وجبةَ العَشاء وفتّش مُمتلكاتي بعناية. لحُسن الحظ لم تكن ممتلكاتي كثيرة، ولا أحمل أي أوراقٍ سوى الكتب الجديدة وبضعِ فواتيرَ باسم كورنيليس براند. هذا الباحث — أيًّا كان— لم يجد شيئًا ... منحَتْني هذه الحادثة قدْرًا كبيرًا من الراحة. كنتُ أجد صعوبةً في تصديق وجود سرٍّ في هذا المكان العام؛ حيث يعيش السكان في انفتاحٍ فج، تُجاهر ألسنتُهم بما تُكنُّه صدورُهم، ويصدحون بمُعتقداتهم من فوق الأسطح. لكنْ هناك سرٌّ حتمًا، وإلا ما تلقّى عابرُ سبيلٍ مُسالم، يحمل كيسًا قماشيًا على ظهره، هذا الاهتمام الغريب. بعد هذه الحادثة، صرتُ أضع ساعتي تحت وسادتي في أثناء النوم؛ إذ اشتملَت عُلبتُها على الرقاقة التي أعطتها لي ماري لامنتون.

بدأت فترة الاستيعاب السلبية المُمتعة. كنتُ أقصد لندن مرةً أسبوعيًا، وأقضي اليوم هناك، أتلقى الخطابات والتعليمات إن وُجِدَت. انتقلتُ من غرفتي في بارك لين، التي استأجرتُها باسمي الحقيقي، إلى شقةٍ صغيرةٍ في وستمنستر استأجرتُها باسم كورنيليس

براند. كانت الرسائل المُرسلة إلى «بارك لين» يُعاد توجيهُها للسيد والتر، فيرسلها بدَوره إلى عنواني الجديد في سريةٍ تامة. فيما عدا ذلك، كنتُ أقضي الصباح في القراءة في الحديقة، واكتشفتُ للمرة الأولى المُتعَة التي يستمدُّها المرء من معايشة الكتب القديمة. أعادت إليّ الخاطرة التي جاءتني فيما كنتُ أقف على تلك الحافة في كوتسود ورسّختها في نفسي، ذلك الإلهام الذي وردَني بشأن إنجلترا وأنها إرثٌ لا يُقدّر بثمن. رحتُ أنهل من مَعينِ كُتبِ التاريخ، لكن أحببتُ، على سبيل الخصوص، أحببتُ الكتّاب أمثال والتون، الذين غاصوا في صميم الريف الإنجليزي. وسرعان ما جذبَتْني، أيضًا، رواية «سياحة المسيحي»، فكنتُ أقرأها على سبيل المُتعة لا الواجب. وكلّ يومٍ كنتُ أكتشفُ جواهرَ جديدةً في تلك القصة القديمة الصادقة، وبدأَت خطاباتي إلى بيتر تفيضُ بها، مثلما كانت رسائل بيتر. كما أحببتُ الأغاني الإليزابيثية لأنها كانت تُذكّرني بالفتاة التي غنّت لي في إحدى ليالي يونيو.

في المساء، كنتُ أترّيض بالتمشي لمسافاتٍ طويلةٍ في الطرق الإنجليزية العتيقة المغبّرة. كانت البلدة، تنحدر من بيجلزويك إلى أرضٍ مُنبسطةٍ من الغابات والمراعي تحدُّها تلالٌ منخفضةٌ في الأفق. تناثَرت القرى الصغيرة في أرجائها، واشتملَت كل واحدةٍ منها على مساحةٍ خضراءَ وبركةٍ وكنيسةٍ قديمة. كما احتوت غالبيّتُها على الحانات؛ حيث شُربَت كمياتٌ كبيرةٌ من البيرة التي لها نكهة كالبندق؛ إذ كانت حانة بيجلزويك، التي خضعَت للإصلاحات، لا تبيعُ سوى نبيذ التفاح المُخفّف بالماء. في أحيانٍ كثيرة، وأنا عائد إلى المنزل على مهلٍ وقتَ الغروب، أشعُر أن قلبي يوشك أن يُغَني من فَرْط استمتاعه بالمكان. وفي المساء أتناول العَشاء بعدما أغتسل؛ حيث يُناضل جيمسون المرهَق بين رغبتِه في النوم والجوع، وتتحدّث السيدة بلا كلَلٍ عن الثقافة بقُبّعتها القطنية الجذابة فوق شعرها الأشعث.

انخرطَت في المُجتمع المحلي شيئًا فشيئًا. وأسهمَت عائلة جيمسون في ذلك إسهامًا عظيمًا، نظرًا لشُهرتها في المنطقة، بالإضافة إلى أنها تجمعُها معرفةٌ سطحيةٌ بغالبية السكان. اعتبرَني الزوجان طامحًا جديرًا بحياةٍ أسمى، واستعرَضاني أمام أصدقائهما مع التلميح إلى أنّ لي ماضيًا زاهيًا وإن كانت تُعوزه الثقافة. لو كانت لديّ موهبة الكتابة لسطّرتُ كتابًا عن سكان بيجلزويك. كان ما يقرب من نصف السكان مواطنين مُهذّبين، قَدموا من أجل العيش في هواء الريف العليل والاستفادة من انخفاض الأسعار، لكن حتى أولئك كانت بهم مَسحةُ غرابةٍ، وسرعانَ ما اكتسَبوا المفردات الخاصةَ بالمكان. كان غالبية الشباب إما موظفين في الحكومة وإما كتّابًا وإما فنّانين. وكانت هناك حفنةٌ من النساء الأرامل مع ذراريهن من البنات، وعلى مشارف القرية قبعَت العديد من المنازل

الكبيرة، كان معظمها موجودًا قبل تصميم جاردن سيتي. بدا أحدُها جديدًا تمامًا، وهو عبارة عن فيلّا خاصة شاهقة، بُنِيَت من خشبٍ عصري في الجوهر قديمٍ في الشكْل، فوق تلةٍ حولها مجموعةٌ من الحدائق لم تمتدّ إليها الأيدي. كان صاحبُ هذه الفيلّا رجلًا اسمه موكسون أفري، وهو أكاديميٌّ مناصرٌ للسلام، يتمتع بمكانةٍ رفيعةٍ في القرية. وكان هناك قصرٌ هادئٌ على الطراز الجورجي، يملكه ناشرٌ من لندن، وهو ليبراليٌّ متحمسٌ أجبرَتْه طبيعةُ مجاله على مواكبة الحركات الجديدة. كنتُ أراه يُسرع إلى المحطة، بحقيبةٍ سوداءَ صغيرةٍ تتأرجح في يده، ثم يعود في المساء بوجبة سمكٍ من أجل العَشاء.

في وقتٍ قصير، اتسعَت دائرةُ معارفي بدرجةٍ كبيرة، لكنها كانت في غاية الغرابة. تعرّفتُ على سبيل المثال على آل ويكس، وهن ثلاثُ فتياتٍ يعشنَ مع أمهنّ في منزلٍ مزدحمٍ بالتحف الفنية حتى إن المرء يكاد أن يشُجّ رأسه فيه أينما اتجه. كان الابن معارضًا لأداء الخدمة العسكرية، ورفَض القيام بأي عملٍ كان، فاعتقلَتْه السلطات. افتخَرَ البنات بأخيهن أيّما افتخار، وظلِلنَ يُردّدن معاناته في سجن دارتمور، بحماسةٍ رأيتُها عديمة الرحمة نوعًا ما. كان الفن هو شغل المجتمع الشاغل، وأخشى أنهم وجدوني في غاية الملل. كان من عادتهم ألا يُعجَبوا بالجمال الظاهر، مثل منظر الغروب أو امرأةٍ جميلة، ويجدوا متعةً غير معهودة في كل ما هو قبيحٌ من وجهةِ نظري. كما تحدّثوا بلغةٍ لا أفهمها. فكانت تقع مثل هذه المحادثات دائمًا:

الآنسة ويكس: «هل تُعجِبك أورسلا جيمسون؟»

أنا: نوعًا ما!

الآنسة ويكس: تُشبه لوحات جون الرسّام في خطوطها.

أنا: بالضبط!

الآنسة ويكس: وتانكرد أيضًا مليء بالتفاصيل الدقيقة.

أنا: بالضبط!

الآنسة ويكس: يشبه القرويين في لوحات ديجوس.

أنا: بالضبط!

لم يكترث هذا المجتمع بالكُتب أدنى اكتراث، باستثناء بعض الكُتب الروسية؛ لذا أكسبَتْني قراءة «الأرواح المجذومة» بعضَ الحظوة عندهم. وإذا حدثتُهم عن روعة

الريف، تجدهم لا يُعيرونه أدنى اهتمام، بل لم يَبعُدوا عن القرية مسافةَ ميل. لكنهم سيُحدِّثونك بانبهارٍ عن التأثير الكئيب لقطارٍ عابرٍ من محطة ماريليبون في يومٍ ماطرٍ.

وحدَهم الرجال مَن أثاروا اهتمامي لأقصى درجة. عندما تعرّفتُ على آرونسون عن قرب، وجدتُه بغيضًا للغاية. كان يرى نفسه عبقريًا، يستحقُّ الدعم من الدولة، وكان يعيشُ عالةً على أقاربه البؤساء وكل مَن يُمكنه إقراضُه المال. كما أكثر الحديث عن ذنوبه، وهي في غاية الحقارة في الحقيقة. وددتُ لو أنني ألقي به بين المُذنِبين الخُلّص القديمي الطراز من معارفي؛ كانوا سيُروِّعونه كثيرًا. أخبرَني أنه يسعى وراء اختبار «الواقع» و«الحياة» و«الحقيقة»، لكن من أين له معرفةُ هذه المعاني، وهو في غاية البُعد عنها، بين نهارٍ يقضيه في الفِراش يُدخِّن السجائر الرخيصة، وليلٍ يُهدِره في التنعُّم بإعجاب الفتيات الغبيّات. كان الشابُّ سقيمَ العقلِ والجسَد، والرواية الوحيدة التي قرأتُها له أصابَتْني بالغثَيان. كان الشيء الوحيد الذي يبرعُ فيه هو إلقاء النكات عن الحرب. فما إن يسمع عن انضمام أحد المعارف للحرب أو مباشرته للأعمال ذات الصلة بالحرب، حتى يتجاوز استهزاؤه به كل الحدود. كانت أصابعي تحكُّني دائمًا لشدِّ أذن ذلك الخسيس.

لم يكن هناك أدنى تشابُه بينه وبين ليتشفورد. فقد كان رجلًا فريدًا، باديَ ذي بدء، حاد الذكاء شديد الفظاظة. تجدُه لا ينفكُّ عن معارضة ما تقوله، ويسعى إلى الجدال سعيَ الناس لكسب عيشهم. وامتاز بشدة بأسِه ونشاطه في مناصرة السلام؛ لأنه شخصٌ مشاكسٌ يجد نفسه في السَّير عكس التيار السائد. لو تراجعَت بريطانيا عن الحرب لصار رجلًا عسكريًا متحمسًا، ولأن هذا لم يحدث، اضطُر للبحث عن المسوِّغات التي تضع بريطانيا في موضع الخطأ. وهي مسوّغاتٌ منطقيةٌ جدًا. لم يكن بوسعي الردُّ على حُججه لو أردتُ، لذا سلّمتُ له. رأى ليتشفورد العالم مُعوجًا، والرب قد خلقَه عاجزًا. لكن كانت له مَحاسنه. فقد كان لدَيه طفلان مرِحان يعشقهما، وأحَب السَّير معي مسافاتٍ طويلةً يوم الأحد، فيما جرى لسانُه بالشعر حول جمال وعظمة إنجلترا. كان في الخامسة والأربعين من عمره؛ لو كان في الثلاثينيات من عمره وفي كتيبتي لصنعتُ منه جنديًا.

قابلتُ عشراتٍ آخرين، لا تُسعِفُني الذاكرة لتذكُّر أسمائهم، لكنهم اشتركوا في صفةٍ بعينها. كانوا جميعهم مليئين بالكِبْر، وكنتُ أتسلى بتتبُّع أصولهم في «سياحة المسيحي». عندما حاولتُ أن أعرضَهم على معايير بيتر، قصروا عنها بصورةٍ مؤسفة. هؤلاء أبعَدوا الحرب عن حياتهم تمامًا؛ إما خوفًا، وإما بسبب خفةِ العقل المَحضة، وإما لاقتناعٍ تامٍّ بعدم أخلاقيتها. أظن أنني اشتُهِرتُ بينهم بالباحث عن الحقيقة، أو

الاستعماري الأمين الذي عارض الحرب بفطرته فيما سعى وراء الإرشاد في هذا الشأن. رأوني متحولًا عن العالم العملي الغريب، الذي يهابونه في قرارة أنفسهم، رغم تظاهُرهم بالنفور منه. على أي حال، تحدّثوا معي بحريةٍ تامة، وسرعان ما حفظتُ حُججَ المُناصرين للسلام عن ظهر قلب. توصلّتُ إلى أنهم ثلاثُ مدارس. تُعارِض الأولى الحرب برُمّتها، ومناصروها ليسوا بالكثرة، فيما عدا آرونسون وأخي الآنسات ويكس المُعارض للحرب الذي يُفنِي عمره في سجن دارتمور. وتعتقد الثانية أن موقف الحلفاء يشُوبُه الفساد، وأن بريطانيا أسهمَت في تفاقم الكارثة بقَدْر ما فعلَت ألمانيا. وضمّت هذه المدرسة كلّ أتباع رابطة الديمقراطيين المُعارضين للعدوان، وهي رابطةٌ شديدةُ الاعتزاز بنفسها. توصلَت المدرسة الأخيرة، التي حَظيَت بالنصيب الأكبر من المناصرين، إلى أننا حاربنا بما يكفي، وأن من المُمكن حلّ النزاع على طاولة المفاوضات، بعدما وعت ألمانيا الدرسَ جيدًا. كنتُ تابعًا متواضعًا للمدرسة الأخيرة، لكن شققتُ طريقي للمدرسة الثانية شيئًا فشيئًا، على أمَل أن يُحالفَني الحظ وأتأهّلَ للمدرسة الأولى. نظر معارفي للتطوّر الذي أحرزتُه بعين الاستحسان. قال ليتشفورد إن طبيعتي المُتأنية تُخفي وراءها جوهرًا مُتعصبًا، وإنني سينتهي بي الحال برفع الراية الحمراء.

الكِبْر والعُجب، كما قلتُ، يقبعان خلف الأقنعة التي يرتديها الأغلبية، ومهما بذلتُ من جهدٍ لم أجد فيهم أيّ شيءٍ يُمثّل خطورة. أصابني هذا الإدراك بالحنَق، إذ بدأتُ أشُك في أن المهمة التي باشرتُها بما أوتيتُ من عزمٍ ستئول إلى الفشل الذريع. في بعض الأحيان، كنتُ أفقد قُدرتي على التحمّل، من فَرْط غيظي من هؤلاء. عندما وصلَت أنباء معركة ميسينز، لم يكترث أحدٌ البتة، فيما تلهّفتُ لتتبّع تفاصيل هذه المعركة العظيمة. وكلما تناقشوا في المسائل العسكرية، مثلما كان يفعل ليتشفورد والآخرون في بعض الأحيان، كنتُ أُمسِك نفسي بصعوبةٍ عن توبيخهم؛ إذ لو كان «أيوب» مكاني لفقد صبره من عجرفتهم التي لا تستند إلى علم. بذلتُ أقصى جهدي حتى لا أتذكّر زُملائي الذين يكدحون بدمائهم من أجل أن ينعَم هؤلاء الحمقى بحياةٍ مريحة. لكن لم يدُم غضبي منهم طويلًا أبدًا؛ إذ كنتُ أرى فيهم براءةً طفوليةً للغاية. في الحقيقة لم أستطِع أن أمنعَ نفسي من حُبهم، وأن أجدَ فيهم بعض المَحاسن. كنتُ قد قضيتُ ثلاثَ سنواتٍ بين الجنود البريطانيين وشهدتُ مَثالبهم رغمَ مناقبهم. فالانضباط يجعل الجندي البريطاني يخشى مُخالفةَ الأوامر وأي سلطةٍ عُليا. هؤلاء الأشخاص في غاية الصِدق، وذوو شجاعةٍ يُظهرونها في مواضعَ غريبة. هكذا كان ليتشفورد على أي حال. فلا أستطيع فعل ما فعلَه، أن أتعرّض لطرد الجماهير من على المنابر وسخريةِ النساء في الطرقات، مثلما لا أتصوّر كتابةً مثل مقالاته القيادية.

مع ذلك كنتُ مُحبطًا من مهمتي. لم أرَ أيّ خيطٍ أو إشارةٍ لأي غموضٍ في المكان، فيما عدا حادثةَ تفتيشِ أمتعتي في أولِ ليلةٍ قدّمتُ فيها إلى القرية. كان المكان وساكنوه مكشوفين وواضحين مثل خيمةِ جمعيةِ الشبان المسيحيين. لكن ذاتَ يومٍ حصلتَ على قدْرٍ كبيرٍ من الراحة. في زاوية جريدة ليتشفورد «الناقد»، وجدتُ خطاباً لم أقرأ مثله في تقريعه. انتقدَ الكاتب بحدّة، تُشبه نُباح جروٍ قصير، استغلالَ الجمهوريين الأمريكيين لرذائلِ الأرستقراطيةِ البريطانيةِ بحسب وصفه. أعلن أن السناتور لافوليت وطنيٌّ أُسيء فهمُه بشكلٍ كبير، فهو وحدَه مَن دافَع عن ملايين الكدّاحين الذين لا نصيرَ لهم غيره. كان غاضباً بشدة على الرئيس ويلسون، وتنبأ بوقوع صحوةٍ كبيرةٍ عندما يثور العم سام ضد جون بول في أوروبا، ويكتشف معارضةَ بريطانيا التي يمثّلها للتغيير. ذُيّل الخطاب باسم «جون س. بلنكيرون» وتاريخ «٣ يوليو، لندن».

أضفى وجود بلنكيرون في إنجلترا صبغةً جديدةً على مهمّتي. خمّنتُ أنني سأراه قريباً؛ إذ لم يكن من النوع الذي يقف ساكنًا بلا حَراك. لقد واصل الدورَ الذي أدّاه قبل رحيله في ديسمبر ٢٠١٥، ومعه الحق في ذلك؛ إذ لم يسمع عن مسألة أرضروم إلا حفنةٌ من الأشخاص، وبالنسبة لعامّة البريطانيين ما هو إلا رجلٌ طُرد من فندق «سافوي» لحديثه عن الخيانة. كنتُ من قبلُ أشعُر بالوحدة نوعًا، لكن الآن كان أفضل رفيقٍ خلقه الربُّ موجودًا في مكانٍ ما على هذه الجزيرة يكتُب الترّهات بوقاحته اللاذعة المعهودة.

كانت هناك مؤسسةٌ في بيجلزويك جديرةٌ بالذكر. في جنوب الحديقة العامة، بالقرب من المحطة، انتصب مبنًى من الطوب الأحمر، اسمه «مووت هول»، يشبه الكنيسة لغير المتدينين. أعني غير متدينين بالدين التقليدي؛ إذ أحصيتُ سبعةً وعشرين معتقدًا دينيًّا، من بينهم ثلاثة بوذيين وكاهن من أتباع كنيسة المسيح السماوية وخمسة مورمونيين وحوالي عشرة مُتصوفة من نحَلٍ مختلفة لا أتذكّر أسماءها. كان هذا المكان هبةً من ذلك الناشر الذي تحدّثتُ عنه سابقًا، ويُستخدَم مرّتَين أسبوعيًّا في عقد المحاضرات والمناظرات. تولّت لجنة إدارة هذا المكان، وحَظي بشهرةٍ واسعةٍ على نحوٍ مُثيرٍ للدهشة؛ لأنه أعطى المُفكّرين المُتحمّسين الفرصة للصدح بآرائهم. عندما تسأل عن مكانِ شخصٍ ما، ويُخبرك أحدُهم أنه في «مووت»، فإنه يستخدم نبرةً تتقاطر احترامًا كأنه يتحدث عن سرٍّ مقدس.

دأبتُ على الذهاب إلى هذا المكان واتسع عقلي إلى حد الانفجار. كان يأتينا جميعُ نجوم الحركات الجديدة. قابلتُ الطبيب تشيرك الذي أعطانا محاضرات عن «الرب»،

وهو — حسبما فهمتُ — الاسم الجديد الذي تبنّاه لنفسه. كما جاءتنا امرأةٌ مريعة، عادت للتوّ من روسيا، تحملُ ما تُسمّيه «رسالة التعافي». ولحُسن حظي حضَر زنجيٌّ شجاعٌ رفيعُ الشأن إلى المكان في إحدى الليالي، وأسهب في الحديث عن أن «أفريقيا ملك للأفريقيين». تحدثتُ معه بإيجاز، بلغة السوتو، وأفسدتُ زيارتَه نوعًا ما. كان بعض المُحاضرين استثنائيين، لا سيما ذلك العجوز المرح الذي تحدّث عن أغاني ورقصات الإنجليز الشعبية، ورغب في نصبِ سارية مايو. بدأتُ الانضمام إلى المناظرات، التي أعقبَت هذه المحاضراتُ بصفةٍ عامة، بخجلٍ مُصطنَع في البداية، وسرعان ما تسلّحتُ ببعض الثقة. لو أنني استفدتُ شيئًا من الفترة التي قضيتُها في بيجلزويك فهو أنني تعلّمتُ الجدال بالارتجال.

كان أكبر إنجاز حقّقتُه في مناسبةٍ رسمية، عندما قدِمَ لانسلوت ويك لإلقاء محاضرة. كان السيد أفري جالساً في المقعد — هذه هي المرة الأولى التي رأيتُه فيها — وهو رجلٌ بدين، يبلغ من العمر منتصفه، ذو وجهٍ شاحب، وملامحَ عادية. لم ألقِ له بالًا حتى بدأ يتحدّث، عندئذٍ انتصبتُ في مكاني، وأعرتُه كامل انتباهي. كان خطيبًا مفوّهًا بحق، تنساب الجملُ المتناغمةُ من فمه بسلاسةٍ مثل الزبد. أظهر السيد حنكته؛ حيث تعامل مع خصومه بمودةٍ تنمٌّ عن تواضُعه لهم، ولم يُلقِ بالًا للانفعال والمبالَغة، ما يدفع الآخرين للاعتقاد أن كلامه المصقول صائبٌ حتماً؛ إذ إن مفوهًا مثله لو شاء لطرح حُجته ببلاغةٍ أكبر. راقبتُه في انبهار وتفرّستُ ملامحه؛ لكن ما أثار دهشتي هو أنني لم أجد فيها شيئًا؛ لم أجد شيئًا، إن جاز التعبير، يُمكنني إمساكه. كانت ملامحُه عاديةً ببساطة، بل شائعةً إلى حدٍّ كبير، وهذا ما جعلها مميزةً نوعًا ما.

تحدّث ويك عن تجليات محاكمة سوخوملينوف في روسيا، التي أظهرَت عدم مسئولية ألمانيا عن اندلاع الحرب. كان ماهراً للغاية فيما يفعله، وألقى حُجته بوضوح مثل مُحامٍ محنّك. كنتُ قد بذلتُ جهدًا مُضنيًا في دراسة الموضوع، وصرتُ أعرف تلك القضيةَ العاديةَ مثل أصابع يدي؛ لذا عندما حظيتُ بفرصة الحديث، ألقيتُ على مسامع الحاضرين خطبةً بليغةً طويلة، زيّنتُها ببعض الاقتباسات القوية، كنتُ قد سرقتُها من جريدة «فوسيش» الليبرالية التي أعارني إياها ليتشفورد. شعَرتُ أنه يُمكنني التعامل بغلظةٍ مع ويك؛ إذ أردتُ إظهار شخصيتي له؛ لأنه صديق ماري، وحتى تعرف أنني أؤدي دوري في التمثيلية جيدًا. صفّق الحاضرون بجنون، وحظيتُ بحفاوةٍ لم يحظَ بها المُحاضر الأساسي، وبعد انتهاء المحاضرة، قدّم إليّ ويك بعينَيه الحمراوَين وصافحَني بغيظ. قال: «أحرزتَ تقدماً ممتازاً يا براند»، ثم قدّمني إلى السيد أفري قائلًا: «ها هو خليفة جان سموتس، بل هو أفضلُ منه.»

دعاني أفري لأنْ أسير معه جزءًا من الطريق المؤدي إلى بيته. قال: «أنا مندهشٌ من فهمك لهذه المشكلات المعقّدة يا سيد براند. لديّ الكثير لأخبِركَ به، وستكون ذا نفعٍ كبيرٍ لقضيتنا.» سألَني الكثير من الأسئلة عن ماضيّ، كذبتُ في إجابتها بكل سهولة. لكن قبل أن أُغادر، استخلَص مني وعدًا بزيارته على العَشاء في ليلةٍ من الليالي.

في اليوم التالي لمحتُ ماري، وتظاهَرَت بعدم رؤيتي، ما أصابني بالاستياء. كانت تسير مع مجموعةٍ من الفتيات حاسرات الرأس، يتحدّثن في صخب، وأشاحت وجهَها عني رغم رؤيتها لي بوضوح. كنتُ أنتظر أن تُعطيني إشارة؛ لذا لم أرفع قبّعَتي لتحيتِها ومضيتُ في طريقي كأننا غرباء. خمّنتُ أن تصرُّفها جزءٌ من اللعبة، لكن انزعجتُ من هذا الأمر التافه، وقضيتُ المساء في كآبة.

رأيتُها مرةً أخرى في اليوم الذي يليه، لكن كانت تتحدث إلى السيد أفري برصانة، وهي ترتدي رداءً صيفيًا جذابًا، وقبعةً عريضةَ الحافة من القش مزدانةً بالأزهار. هذه المرة توقفَت بابتسامةٍ مشرقةٍ ومدّت يدها إليّ لتُصافحني. سألَتني بشيءٍ من التردُّد: «السيد براند، أليس كذلك؟» ثم استدارت إلى رفيقها وقالت: «أُعرِّفك بالسيد براند. لقد نزل بقصرنا الشهرَ الماضيَ في غلوسترشير.»

أعلن السيد أفري أن بيننا سابقَ معرفة. وجدتُه في وضح النهار حسن المظهر، بين الخامسة والأربعين والخمسين، له قوامُ رجلٍ في منتصف عمره ووجه شابٍّ على نحوٍ لافتٍ للنظر. لاحظتُ عدم وجود خطوطٍ في وجهه تقريبًا، وكان أشبه بوجه فتًى حكيم منه بوجه رجلٍ بالغ. كانت ابتسامة لطيفة يتمدّد بها ذقَنه ووجنتاه كالمطاط. هتف السيد أفري في أعقابي: «ستتناول العَشاء معي يا سيد براند. سأنتظرك يوم الثلاثاء بعد اجتماع «مووت». لقد أرسلتُ لك الدعوة بالفعل.» واصطحَب ماري بعيدًا عني، وأجبرتُ نفسي على الرضا بالتأمُّل في هيئتها حتى توارت عن الأنظار عند منعطفٍ في الطريق.

في اليوم التالي، ذهبتُ إلى لندن ووجدت خطابًا من بيتر. لاحظتُ أنه اكتسب رصانةً شديدةً في الفترة الأخيرة ذكّرَتني بالأيام الخوالي، بعدما استسلم لحقيقة أن أيامَه الحافلة بالنشاط قد ولّت بلا رجعة. لكن كان مزاجُه مختلفًا هذه المرة. كتَب: «أظن أننا سنلتقي في المستقبل القريب يا صديقي العزيز. هل تذكُر ذلك اليوم عندما خرجنا لمطاردة أسدٍ ضخمٍ ذي لبدةٍ سوداءَ في رويراند، وعجزنا عن ملاحقته، ثم استيقظنا ذات صباحٍ وأخبرتَني أننا سنُمسك به اليوم؟ وفعلنا ذلك، لكنه كاد أن ينال منك أولًا. أشعُر في هذه الآونة أننا سنقصِد الوادي للقاء المارد أبوليون، وأننا سنذوقُ

الويلات على يد ذلك الشيطان كما فعل المسيحي في «سياحة المسيحي»، لكن سنكون معًا على أيِّ حال.»

شاركتُ بيتر الشعور نفسه، غير أنني لم أتصوّر إمكانية لقائنا، إلا إذ عُدتُ للجبهة مرةً أخرى ووُضعتُ في كيس وأُرسلتُ إلى سجن الألمان الذي قبَع فيه. لكن شعَرتُ أن وقتي في بيجلزويك يوشك على الانتهاء، وتنتظرني أماكنُ أخرى أكثرُ خشونة. زاد هذا من حُبي للمكان، وقمتُ بجولاتي المُفضّلة في طرقاته، وشربتُ البيرة على نخب صِحتي في حانات القرية، وأنا أقصد وداعها. كما سارعتُ في الانتهاء من قراءة كلاسيكيات الأدب الإنجليزي؛ لأنني أعلم أنه لن يكون لديّ متّسعٌ من الوقت لمِثل هذه القراءات المُتشعّبة.

أتى يوم الثلاثاء، وفي المساء تأخرتُ نسبيًا في الذهاب إلى «مووت هول»؛ إذ كنتُ بحاجةٍ إلى ارتداء ثيابٍ نظيفةٍ بعدما سرتُ لمسافةٍ طويلةٍ في الحر. عندما بلغتُ المكان كان مكتظًا بالحاضرين، ولم أجد موضعًا شاغرًا إلا في المقاعد الطويلة الخلفية. كان أفري واقفًا على المنصة، وبجواره جلس شخصٌ بعث في كل ذرةٍ من كياني شعورًا بالمودّة واللهفة. قال الرئيس: «يُشرّفني أن أُقدِّم لكم المُتحدِّث الذي نرحِّب به بحرارة، وهو صديقنا الأمريكي، الذي لا يكلُّ ولا يخاف، السيد بلنكيرون.»

كان بلنكيرون بشحمه ولحمه، لكنه قد تغيّر كثيرًا. فقد ذهبَت بدانتُه وصار ممشوقَ القوام مثل أبرهام لينكولن. وحلّ وجهٌ نحيفٌ تبرز فيه عظام الوجنتَين والذقَن بحدةٍ محلّ وجهه الممتلئ، وبانت النضارة على تقاسيمِ وجهِه بعد شحوبٍ. أدركتُ كم هو رجلٌ رائع، وعندما نهض على قدميه، كشفَت كل حركة من حركاته مرونةَ رياضيٍّ يمارس التمارين. علمتُ في تلك اللحظة أن مهمتي الجادة قد بدأَت. فجأة تيقّظَت حواسي الخمسة، وشحذتُ أعصابي، واتقد عقلي أكثر. لقد بدأت اللعبة الكبيرة، وسنلعبها معًا.

شاهدتُ بلنكيرون بانتباهٍ مصطنَع. فقد ألقى خطابًا مُضحكًا، محشوًا بالمبالغات والتطرّف، غيرَ مُحكم الحُجة ومُطنِب. دار خطابه حول نقطةٍ أساسية، وهي أن ألمانيا في مزاجٍ ديمقراطيٍّ حسنٍ ويمكن إدخالها في شراكةٍ أخوية، وأنها لطالما كانت كذلك في الحقيقة، غير أنها دُفعَت إلى العنف دفعًا بسببِ مؤامرات أعدائها. كان أغلب خطابه — في ظني — يتحدى بوضوح «قوانين الدفاع عن الأرض»، لكن لو أن ضابطًا حكيمًا من سكوتلاند يارد سمعَه باهتمامٍ لاعتبره غيرَ ضارٍّ لما احتوى على تناقُضات. فاض خطابُه بالحماسة الهوجاء، والمجازات المُسهِبة الفكاهية الأمريكية، التي أثارت قهقهةَ

أغلبِ الحاضرين الناقدين. لكن هذا المجتمع ليس معتاداً على هذا النوع من الخطابات، وأستطيع تصوُّر رأي ويك بخصوصه. بدأتُ أدرك أن بلنكيرون يتعمد إظهار نفسه مثل أحمقَ صادق. لو كان الأمر كذلك، فقد حقّق نجاحًا ساحقًا. يُولّد حديثُه في المرء ذلك الانطباعَ الذي يتركه الثوريون العاطفيون، أنهم يقتلون خصمَهم بلا هوادة ثم يسيرون في جنازته.

في نهاية الخطاب، بدا أن بلنكيرون يحاول استعادةَ هدوئه، ومخاطبةَ العقل بدلَ العاطفة. وأثار نقطةً في غاية الأهمية بشأن ذهاب الاشتراكيين النمساويين إلى ستوكهولم، بحريةٍ تامة وبموافقة حكومتهم، رغم أن دولتهم يَصفها النقاد بالديكتاتورية، فيما تمنع الديمقراطياتُ الغربيةُ شعوبَها من السفر. قال: «أنا على ثقةٍ تامةٍ أن ما أثّر في الحكومة النمساوية للسماح لعملائها بالسفر بحُرية هو ألمانيا نفسها. هذه هي البلاد التي يتظاهر الحلفاء المنافقون بالابتعاد عنها مخافةَ التلوُّث بأدرانها!»

جلس بلنكيرون وسطَ مَوجةٍ من التصفيق الحار؛ إذ لم يُشعِر مُستمعيه بالضجر، رغم أنني لاحظتُ تحفُّظ بعضِ الحاضرين بسبب إفراطه في الثناء على الألمان. لم يكن مُستهجَنًا في بيجلزويك وضعُ بريطانيا موضعَ المخطئ، لكن هذا يختلف بنسبةٍ طفيفةٍ عن التغنّي بمناقب العدو. أثار حَيرتي ذكْره لأمر النمسا؛ إذ لم تتماشَ مع بقية الخطاب، وحاولتُ تخمينَ دافعه. أشار الرئيسُ إلى هذه النقطة في ملاحظاته الختامية. قال: «سأسمح لنفسي بتأكيدِ جميعِ ما قاله المحاضر. وسأذهب إلى ما هو أكثر من ذلك. يُمكِنُني أن أُطمئِنه بناءً على مصدرٍ موثوق، أن ما وصل إليه صحيحٌ، وأن قرار فيِنّا بإرسالِ مفوّضيها إلى ستوكهولم أملاه عليها المُمثّلون الألمان إلى حدٍّ كبير. وأعتقد أنه أُقر بهذه الحقيقة في الصحافة النمساوية في الآونة الأخيرة.»

شكَر بلنكيرون المضيف، ووجدتُ نفسي بعد ذلك أصافح السيد أفري، فيما وقف بلنكيرون على بُعد ياردةٍ يتحدّث إلى إحدى آنِساتِ عائلةِ ويكس. في اللحظة التالية قدّمَني السيد أفري إليه.

قال الصوتُ الذي أعرفه جيداً: «يَسرُّني التعرُّف إليك يا سيد براند. لقد حدّثَني السيد أفري عنك وأظن أنه يُمكن أن نتشارك المعلومات. فنحن قادمون من دولٍ حديثة، ولا بد أن نُعلّم الدولَ القديمةَ كيفيةَ التصرُّف بالمنطق.»

حملَتْنا سيارةُ السيد أفري، الوحيدة المُتبقية في المنطقة السكنية، إلى قصره، وسرعان ما أجلسَنا في غُرفةِ طعامٍ جيدة الإضاءة. لم يكن القصر جميلًا، لكنه مزوّدٌ بوسائل الراحة على شاكلة الفنادق الفاخرة، وكان العَشاء الذي قُدّم لنا شهيًا كعشاءِ

مطعمٍ لندني. لقد ولّت أيام السمك والخبز المُحمص واللبن المَغلي. شدّ بلنكيرون قامته، وأظهر نفسَه كشخصٍ شَرِهٍ نبيل.

أخبر بلنكيرون مُضيفنا: «في العام الماضي عانيتُ أشد المعاناة من عُسر في الهضم. تربّع حب الصلاح في قلبي، فيما عشّش الشيطان في معدتي. ثم سمعتُ عن الأخوان روبسون، الجرّاحَين النابغَين، في أقصى الغرب، في وايت سبرينجز بولاية نبراسكا. كان هذان الأخوان من أمهر الجرّاحين في العالم في استخدام المِشرَط وإزالة الشياطين من الأمعاء. تجنّبتُ الجرّاحين دائمًا، يا سيدي، على يقين أن خالِقَنا لم يَخلقنا في الأصل بغرض إصلاحنا بواسطة أيادٍ بشرية، كما لو أننا شركة سكك حديد إيطالية مُفلسة. لكن، في ذلك الوقت، ساءت حالتي للغاية، حتى إنني كنتُ على استعدادٍ لدفع المال لقاتلٍ مأجور كي يضعَ رصاصةً في رأسي. قلتُ لنفسي: «ما باليد حيلة. إما أن تنسى دينك وجُبنك البائس وتخضع للجراحة وإما أن تُواجِه الموت.» شدَدتُ العزم، وسافرتُ إلى وايت سبرينجز، وفحص الإخوة قناة الاثنَي عشر. تبيّن حدوثُ خلَلٍ في أمعائي اللعينة؛ لذا نحّاها الجرّاحان جانبًا، وصنعا مسارًا جديدًا للغذاء. كانت أمهرَ عمليةٍ جراحية منذ أن أخذ الربُّ ضلعًا من جانب أبينا الأول. امتاز الجرّاحان بعدالتهما في تقاضي أجرهما أيضًا إذ كانا يتقاضيان خمسة بالمائة من دخل الفرد، دون تفرقة بين رب عملٍ ثري وعاملٍ بسيط يتقاضى عشرين دولارًا في الأسبوع. أؤكِّد لك أنني تكبّدتُ بعضَ العَناءِ العام الماضي كي أصير رجلًا ثريًا.»

جلستُ فيما يُشبه حالةً من الذهول طيلة العَشاء. كنتُ أحاول هضم بلنكيرون الجديد، والاستمتاع بمطّه البديع في الكلام، فيما حار عقلي في أمر أفري. راودَني إحساسٌ غير عقلاني أنني رأيتُه من قبلُ، لكن مهما فتّشتُ في ذاكرتي عجزتُ عن تحديد تذكُّره. كان تجسيدًا لما هو عادي؛ فهو شخصٌ عاطفيٌّ ميسورُ الحال من الطبقة المتوسطة، يدعَم السلام من باب الزهو، لكنه حريصٌ أشدّ الحرص ألا يتورّط كثيرًا في القضية. ظلّ يُخمِد جُمل بلنكيرون البركانية طيلة الوقت. تسمعه يُضيف: «بالتأكيد، كما تعرف، لدى الفريق الآخر حجةٌ أجد من الصعب تفنيدها ...» و«يُمكنني التعاطُف مع الوطنية، وحتى مع الغُلو في الوطنية، في حالاتٍ مُعينة، لكن أجد نفسي أعود إلى هذه المشكلة دائمًا». وراح يُضيف: «خصومُنا ليسوا بالأشرار بقَدْر ما هم حمقى.» وامتلأ كلامُه باقتباساتٍ من مُحادثاتٍ خاصة أجراها مع صنوفٍ مُختلفةٍ من البشر من بينهم أعضاء الحكومة. وفيما أذكُره أنه عبّر عن إعجابه الشديد بالسيد بلفور.

من كل هذا الحديث، تذكّرتُ أمرًا واحدًا بوضوح؛ إذ بدا بلنكيرون يُحاول جمعَ

شتاتِ أفكاره والمُحاجّة، مثلما فعل في نهاية محاضرته. كان يتحدّث عن قصةٍ سمعَها من شخصٍ نقلًا عن شخصٍ آخر، مفادُها أن النمسا وافقَت، في آخر أسبوعٍ من يوليو ١٩١٤، على عرض روسيا بالتفاوُض، وأن قيصر النمسا أرسل رسالةً إلى إمبراطور روسيا يُخبِره فيها بموافقته. وفقًا لقصّته، استُلمَت البرقية في بيتروجراد وأُعيدت كتابتُها، على غِرار برقية بسمارك المُزيفة، قبل أن تصل إلى يد الإمبراطور. عَبّر عن عدم تَصديقِه للقصة. قال: «لو كانت هذه القصةُ صحيحة، لخرج النصُّ الأصلي للعلن منذ وقتٍ طويل. فالألمان يحتفظون بنسخةٍ منها حتمًا. على أي حالٍ سمعتُ إشاعةً مفادُها أن رسالةً من هذا القبيل نُشرَت في صحيفةٍ ألمانية.»

بدَت أمارات الحكمة على السيد أفري. قال: «أنتَ على صواب. فقد صادف أن سمعتُ عن نشر هذه الرسالة. ستجدُها في صحيفة «فيزر».»

ردّ بلنكيرون بإعجاب: «حقًّا؟ ليتَني أستطيعُ قراءةَ تلك اللغة القديمة. لكن لو استطعتُ لمنعوا عني الصحف.»

ضحك السير أفري بلُطف وقال: «لن يمنعوها عنك بالتأكيد. فلا تزال إنجلترا تتمتّع بقدْرٍ جيد من الحرية. أي شخصٍ رفيع الشأن يستطيع الحصول على تصريحٍ لاستيراد صحف العدو. لا تعتبرني السلطات رفيعَ المقام؛ إذ لديها تعريفٌ ضيقٌ للوطنية، لكن لحُسن حظي لديّ أصدقاءُ رفيعو المقام.»

كان من المقرّر أن يقضي بلنكيرون الليلة في منزل السيد أفري، واستأذنتُ أنا للرحيل عندما دقّت الساعة الثانية عشرة. سارا معي إلى الرّدهة لتوديعي، وفيما كنتُ أحتسي كأسَ شرابٍ سريعًا، وانشغَل مُضيفي بالبحث عن قبّعتي وعصاي، همس بلنكيرون في أذني فجأة. قال: «لندن ... بعد غد.» بعد ذلك ودّعني بطريقةٍ رسمية. قال: «تشرّفتُ، بصفتي مواطنًا أمريكيًّا، بالتعرُّف إليك يا سيد براند. يسُرُّني أن ألقاكَ في المستقبل القريب. سأنزل بفندق «كلاريدجز»، وآمُل أن أحظى بشرفِ زيارتك.»

الفصل الثالث

تأمُّلاتُ مريض شُفي من عُسر الهضم

بعد خمسٍ وثلاثين ساعةً وجدتُ نفسي في غُرفتي في وستمنستر. قد أجد رسالةً في انتظاري؛ إذ ما كنتُ أنوي لقاء بلنكيرون في فندق «كلاريدجز» بصورةٍ مكشوفة حتى أحصلُ منه على تعليماتٍ بذلك. لكن لم أجد أيّ رسائل، باستثناء رسالةٍ قصيرةٍ من بيتر، أخبَرني فيها أنه يأمُل في إرساله إلى سويسرا. أدركتُ حينها أنه في وضعٍ صحيٍّ متدهور.

على الفور رنّ جرسُ الهاتف. كان بلنكيرون هو المُتصل. قال: «اذهب وتحدّث إلى وكلائك بشأن الحصول على قرضٍ لشراء المعدّات الحربية. كنْ هناك في غضون الساعة الثانية عشرة، ولا تصعد حتى تقابل أحدًا من أصدقائنا. يُستحسَن أن تحظى بوجبةِ غداءٍ سريعة في النادي، ثم تتوجّه إلى متجر كُتُب «تريلز» في شارع هايماركت في الساعة الثانية. يمكنك العودة إلى بيجلزويك في الخامسة وستّ عشرةَ دقيقة.»

فعلتُ كما طُلب منّي، وفي غضون عشرين دقيقة — بعدما سافرتُ بالمترو لأنني لم أستطع العثور على سيارة أجرة — دنوتُ من المربّع السكني في شارع ليدنهال؛ حيث تقبع الشركة الموثوقة التي تُدير استثماراتي. كان لا يزال هناك بضعُ دقائقَ على منتصف النهار، فتباطأتُ قليلًا، وحينها رأيتُ وجهًا مألوفًا يخرجُ من البنك المجاور.

ابتسَم أفري عندما تعرّف عليّ. وسأل: «هل أتيتَ إلى المدينة في زيارةٍ سريعة؟» أجبتُ: «قَدمتُ للقاء وكلائي، وقراءة صحف جنوب أفريقيا في ناديّ، وسأعود في قطار ٥٫١٦. أيُمكننا اللقاء؟»

أجاب: «بالطبع، سأركب في هذا القطار. إلى اللقاء. أراكَ في المحطة.» وغادَر في عَجل، وبدا في غاية الأناقة بملابسه النظيفة والزهرة التي يضعُها في عروة سُترته.

تناولتُ وجبةَ الغَداء في عَجلةٍ، وفي غضون الساعة الثانية ظهرًا انشغلتُ بتصفُّح بعض الكتبِ الجديدةِ في مكتبة «تريلز»، وعيناي على الباب الأساسي خلف ظهري. بدَت لي

مكانًا عامًا للقاءٍ سري. فور أن بدأتُ في قراءة بضع فقراتٍ عشوائية من كتابٍ مصوّرٍ كبير عن حدائق الزهور، قَدِم المساعدُ نحوي. وقال: «يرسل المدير تحياته إليك، يا سيدي، ويظن أن بعضًا من كلاسيكيات الرحّالة بالأعلى قد تُثير اهتمامك.» اتبعتُه بلا اعتراضٍ إلى الطابق العلوي الذي كان مُصطفًا بصنوف المجلّدات وبالطاولات المفروشة بالخرائط والكتابات بالحَفْر. قال: «مِن هنا يا سيدي»، وفتح بابًا في الحائط مُستترًا بظهور الكتب المزيّفة. ووجدتُ نفسي في مكتبٍ صغير؛ حيث جلس بلنكيرون في مقعدٍ وثيرٍ يُدخِّن السجائر.

نهض من مقعده وصافحَني بحرارة. قال: إن رؤيتك أفضل من كل البشارات يا رجل. كنتُ أتابع بطولاتك بشغف منذ افتراقنا في العام السابق في مرسى ليفربول. كلانا انشغل في عمله، ولم أجد طريقةً لإطلاعك على حالي؛ إذ بعدما ظننتُ أنني شُفيتُ ساءَت حالتي تمامًا، وكما أخبرتُك، اضطُررتُ إلى السفر إلى الجرّاحين من أجل الخضوع لجراحة. بعد ذلك، باشرتُ مهمةً مظلمة، ونأيتُ عن الأضواء والمجتمع الراقي. لكن، يا إلهي! صرتُ رجلًا جديدًا. كنتُ أؤدي عملي مغمومَ النفس يُلازم فمي طعمٌ مرٌّ مثل الحنظل، لكني الآن أتناول ما أشاء من الطعام والشراب، وأمرح في الأرجاء مثل المُهر. أستيقظ كل صباح، في مزاجٍ رائق، أشكُر الربَّ الرحيم على نعمة الحياة. كان يومًا شؤمًا على القيصر عندما ركبتُ السيارة قاصدًا وايت سبرينجز.

قلتُ: «هذا مكانٌ غريبٌ للقاء، كما أحضرتَني إليه عَبْر طريقٍ طويلٍ ملتوٍ.»

ابتسم بلنكيرون ابتسامةً عريضةً وقدّم لي سيجارًا.

ردّ: «لديّ أسبابي. ليس في صالحنا الإعلان عن علاقتنا في قارعة الطريق. وبالنسبة لمتجر الكتب، فأنا أملكُه منذ خمسة أعوام. لديّ ذوقٌ خاصٌ في الكتب الجيدة، وإن كنتَ ستستغربُ ذلك، وأرغب في مشاركته مع الزبائن ... لكن أولًا أرغب في سماعِ ما لديكَ بشأن بيجلزويك.»

أجبتُ: «ليس لديّ الكثير لأقوله. وجدتُها فطيرةً مكوّنةً من الكثير من الجهل، بالإضافة إلى مقدارٍ كبير من الغرور، والقليل من الأمانة المُضللة. فلا تُشكّل ضررًا حقيقيًا. هناك أديبٌ أو اثنان قذران، كان الأولى بهما الانضمامُ إلى كتيبة عمال البناء، لكنهما لا يُمثّلان أي خطر على الإطلاق. عرفتُ الكثير، وحفظتُ جميع الحُجج عن ظهر قلب، لكن حتى لو بنَيتَ بيجلزويك في كل مقاطعة، فلن يعودَ ذلك بالنفع على الألمان. لكنني مع ذلك أرى مكمنَ الخطرِ الحقيقي. هؤلاء الأشخاص يتحدّثون عن اللاسلطوية الأكاديمية ليس إلا، لكنها تُمارَس على أرض الواقع في مكانٍ ما، ولا بد من

التفتيش عنه في المقاطعات الصناعية الكبيرة. تصلُنا أصداؤه الخافتة في بيجلزويك. أعني أن الأشخاص الخطرين بحقٍّ يُريدون إنهاء الحرب ليتسنّى لهم شنٌّ حربِهِم الطبقية المباركة التي تتخطّى الجنسيات. أما بالنسبةِ إلى العمل في الجاسوسية وما شابَه، فشُبّان بيجلزويك ينقصُهم الكثير من الخبرة.»

قال بلنكيرون في تأمُّل: «أجل. لديهم عقولٌ كعقول الأنعام. أواثقٌ أنك لم تلتقِ بِمن يمثل خطورة فعلية؟»

قلتُ: «أجل. هناك رجل، اسمُه لانسلوت ويك، حضر إلى «مووت هول» مرّة لإلقاء محاضرة. كنتُ قد قابلتُه من قبلُ. لديه مقوماتُ المُتعصّبين، وهو أكثر خطورةً من غيره؛ إذ يمكنكَ ملاحظة اضطراب ضميره. أتخيّله يُفجِّر رئيس الوزراء لمجرد إسكات شكوك ضميره.»

سأل: «حسنًا. هل هناك شخصٌ آخر؟»

فكّرتُ هُنيهة. قلتُ: «هناك السيد أفري، لكنك تعرفه أكثر منّي. لا ينبغي أن أُحمِّله الكثير، لكن لستُ متأكدًا تمامًا؛ إذ لم أحظَ بفرصة التعرُّف عليه عن قرب.»

قال بلنكيرون مندهشًا: «أفري! إنه يستمتِع برفقة الشباب الحمقى مثلما يُحب الأغنياءُ نباتاتِ الأوركيد والخيلَ السريعة. أصبتَ في تخمينك.»

قلتُ: «هذا وارد. لكن ليست لديّ أدلةٌ كافيةُ للتأكد.»

أخذ بلنكيرون ينفث سيجارَه لما يقرب من دقيقة. ثم قال: «لو أخبرتُك يا ديك بما فعلتَه منذ أن حطّت قدَمي على هذه الأرض، لظننتَ أنّني رومانسيٌّ حالم. فقد انغمستُ وسط الكادحين. عملتُ لفترةٍ مؤقتةٍ عاملًا ضعيفًا بسيطًا في أحواضِ بناء السفن في مدينة بارو. ثم عملتُ ساقيًا في فندقٍ على طريق بورتسموث، وقضيتُ شهرًا أسودَ سائقَ أجرةٍ في شوارعِ مدينةِ لندن. كما عملتُ لفترةٍ قصيرةٍ مراسلًا مُعتمدًا لجريدة «نيو يورك سنتينال»؛ حيث ذهبتُ مع الآخرين إلى الاجتماعات المُهمة لنواب الوزراء وجنرالات وزارة الدفاع. خضعَت مقالاتي لرقابةٍ قاسيةٍ فطردَتْني الجريدة. خرجتُ في جولةٍ على الأقدام حول إنجلترا، ومكثتُ مدّة أسبوعَين في مزرعةٍ صغيرةٍ في مقاطعة سافك. عُدتُ بعدها سريعًا إلى فندق «كلاريدجز» والمتجر، بعدما حصلتُ على أغلب المعلومات التي أُريدها.»

واصَل فيما التفتَ إليّ بعينَين مُتأمِّلتَين واسعتَين فضوليّتَين: «أدركتُ أن العمال

البريطانيين أعقلُ الموجودين على وجه البسيطة. يتذمّرون حينًا ويرفُضون الامتثال للأوامر أحيانًا أخرى عندما يرَون فساد الحكومة، لكنهم يتمتّعون بصبر أيوب وعناد الدِّيَكة. كما أنهم يتمتّعون بحسٍّ فكاهيٍّ عالٍ كفيلٍ بإضحاكي بشدة. ليس ثمّة تهديدٌ من هذا الجانب لأن العمال وأمثالهم هم مَن يهزمون الألمان ... لكني لاحظتُ بضعةَ أمورٍ أخرى.»

انحنى للأمام وربّت على رُكبتي. قال: «أودُّ أن أُبديَ إعجابي بجهاز المخابرات البريطاني. فالجواسيس غير قادرين على النفاذ إليه. إذ تَحميه شبكةٌ حصينةٌ مَنيعة، لكنْ هناك ثقبٌ فيها، ووظيفتُنا هي رَتقُه. عدوُّنا في هذه المهمّة داهية. واجهتُه منذ عامَين في أثناء مطاردة دومبا وألبرت، وظننتُ أنه في نيويورك، لكن تبيّن أنني كنتُ مُخطئًا. شَهدت أنشطته مرةً أخرى في أرض الوطن في العام السابق، وتوصّلتُ إلى أن معقله الرئيسي في أوروبا. بحثتُ عنه في سويسرا وهولندا، لكني لم أجد سوى آثاره. توصّلتُ إلى أن عرين ذلك الأسد موجودٌ في إنجلترا، ولمدة ستة أشهر انهمَكتُ في تقَفّي أثَره. تبيّن أن ثمّة عصابةً تُقدّم له المساعدة، عصابة كبيرة ماهرة لكنها بريئة جزئيًا. لكن هناك عقلٌ مدبرٌ واحد، ولأجل مُجابهته ذهبتُ إلى إخوة روبسون لعلاج مَعدتي.»

تسارعَت دقات قلبي، فيما كنتُ أُصغي إليه؛ إذ دخلنا في المهمة أخيرًا.

سألتُ: «أهو اشتراكيٌّ دولي أم لاسلطوي أم ماذا؟»

أجاب: «إنه عميلٌ ألمانيٌّ خالص، لكن لم يسبق له مثيلٌ مِن الجواسيس، يفوقُ ذكاءُه أيَّ جواسيسَ عهدناهم من قبلُ. حمدًا للرب أنّني حدّدتُ موقعه ... لا بدّ أنْ أُطلِعكَ على بعض الأمور.»

استرخى في مقعده الجلدي المُهترئ وتحدّث لعشرين دقيقة. أخبرَني أنه في بداية الحرب كان بحوزة سكوتلاند يارد قائمةٌ كاملةٌ لجواسيس العدو، وأخذَت تتخلّص منهم دون إثارةِ ضجّة. وبعدما فُكّكَت الشبكة، صار التركيز منصبًا على اصطياد الجواسيس المنفردِين. استغرق الأمر الكثير من الجهد. إذ نشطَت جماعاتٌ ثوريةٌ من كل صنف ولون، مثل الماسونيين الحمر واللاسلطويين الدوليين، لكنّ أسوأها على الإطلاق جماعةُ المُروِّجين للاستثمار الدولي، المكوّنة في الغالِب من غريبي الأطوار والمُحتالين العاديِّين، وهم أنفسهم ليسوا عملاءَ ألمان بل أداة في يدِهم. ومع ذلك، عند منتصف ١٩١٥، نجح الجهاز في القبض على غالبية العملاء المُتبقين. لكن ظلّ شرذمةٌ منهم طُلقاء، وبحلول نهاية العام السابق، انهمكَ شخصٌ في تجميعهم وتشكيل شبكةٍ جديدةٍ منهم. على إثر ذلك، ظهرَت قضايا غريبة عن تسريب معلوماتٍ مهمة. ازدادت خطورةُ الوضع،

بحلول شهر أكتوبر ١٩١٦، عندما انطلقَت غواصات الألمان في مهمةٍ خاصة. فجأة، علمنا أن العدو يمتلك معلومات، كنّا نظن أنها غيرُ معروفةٍ إلا لقلةٍ من الضباط. قال بلنكيرون إنه لم يستغرِب تسرُّب المعلومات؛ إذ دائمًا ما يسمع أشخاصٌ كُثرٌ أمورًا ليس من المفترض أن يسمعوها. لكن ما أدهشَه هو سرعة وصول هذه المعلومات إلى العدو.

في فبراير الماضي، عندما بدأَت الغواصات الألمانية الترويع على نطاقٍ واسع، تفاقَم الوضع. كانت التسريبات تحدُث بوتيرةٍ أسبوعية، وهو أمرٌ يُدبِّره حتمًا أشخاصٌ على درايةٍ تامةٍ بالمنظومة؛ إذ نجحوا في تفادي كل المصايد التي أعدَدناها لهم، ولم يُبلغوا العدوَّ بالأخبار المُزيفة التي نشرناها عن عمد. كما هُوجمَت مواكبُ أمنية، خرجَت في سريةٍ بالغة، في مواضعِ عجز. وكانت خططُنا الدفاعية التي أعدَدناها بعناية، تُحبَط حتى من قِبَلِ محاولةِ تنفيذها. قال بلنكيرون إنه لم يكن هناك دليلٌ على أن عقلًا مُدبرًا واحدًا وراء هذه العمليات؛ إذ لا يُوجَد تَشابهٌ بينها، لكن كان لدَيه انطباعٌ قويٌّ طيلةَ الوقت أنها من تدبيرِ رجلٍ واحد. تمكنّا من غلق بعض المَخابئ، لكنّنا لم نقدر على الاقتراب من المعاقل الكبرى. قال بلنكيرون: «آنذاك، أعتقد أنني كنتُ على استعداد تقريبًا لتغييرِ أساليبي. كنتُ أستخدِم ما يَصفه المُثقفون بـ «الاستنباط»، وهو تتبُّع الأفعالِ للوصولِ إلى الفاعل. بعد ذلك أدركتُ حاجتي إلى تَبنّي نهجٍ جديد، وهو تتبُّع الفاعل للوصول إلى الأفعال. ويُسمّون ذلك «الاستنتاج». تراءى لي أنه في مكانٍ ما على هذه الجزيرة ثمّة رجلٌ مهذب، يُمكننا تسميتُه بـ «السيد إكس»، لو تتبّعنا أنشطتَه فسنصل إلى بعضِ سِماته. فكّرتُ جيدًا في نوعية شخصيته. لاحظتُ أن أسلوبه هو الخدعة المزدوجة. بعبارةٍ أخرى، عندما يكون لديه طريقان أمامه، الطريق «أ» والطريق «ب»، فإنه يتظاهر أنه سيسلُك الطريق «ب» حتى يجعلَنا نظُنُّ أنه سيسلك الطريق «أ». ثم سيسلك الطريق «ب» في نهاية المطاف. تراءى لي أن هذا التمويه يتطابق قطعًا مع ذلك الأسلوب الفريد. ولأنه عميلٌ ألماني، فهو لن يتظاهر أنه وطنيٌّ مُخلص أو محافظٌ مُخلصٌ مُتعصب. ستكون هذه خدعةً عادية. إنما فكّرتُ أنه سيكون من دعاة السلام، ذكيًّا بقَدْرٍ يجعله يتحرك في إطار القانون، لكن على نحوٍ يلفتُ إليه أنظار الشرطة. سيكتُب كُتبًا لن يُسمح بتصديرها. سيجعل نفسه مكروهًا في الصحف المشهورة، لكنّه سيُثير إعجاب الحياديين لشجاعته الأخلاقية. هكذا، رسمتُ لنفسي صورةً دقيقةً للغاية للعدوّ الذي أتوقّع أن أجده. بعد ذلك شرعتُ في عملية البحث عنه.»

اكتسى وجه بلنكيرون بإحباطِ فتًى صغير. وقال: «لم تُفلِح مُحاولاتي. واصلتُ الطرقَ على الباب الخطأ، وأنهكتُ نفسي بمُلاحقة الأبرياء الأنقياء.»

هتفتُ وقد ارتبتُ فجأةً في أمرٍ ما: «لكنك عثَرتَ عليه.»

ردّ بحزن: «عُثر عليه لكن ليس بفضل جون س. بلنكيرون. فهو لم يفعل شيئًا سوى أن حرّك المياه الراكدة. وتُرك أمر الإيقاع بالسمكة الكبيرة لآنسةٍ شابة.»

هتفت بحماس: «أعرفها. اسمُها الآنسة ماري لامنتون.»

هز بلنكيرون رأسه مُعاتبًا. قال: «أنتَ مُحقٌ فيما وصلتَ إليه، يا بُني، لكنك نسيتَ لباقتك. عملُنا خطير؛ لذا فإننا لا نذكُر اسم الشابة الكريمة الأصل الطاهرة. ولو فُرض أننا سنتحدّث إليها، فسنُناديها باسمٍ مُستعارٍ مُقتبَس من «سياحة المسيحي» ... على أي حال، لقد أوقعَتِ السمكةَ في الشباك، لكنها لم تصطَدْها بعدُ. هل فهمتَ؟»

شهقتُ: «أفري.»

ردّ: «أجل. أفري. ليس استثنائيًا كما قلتُ. هو رجلٌ عادي، في منتصف عمره، ذو وجهٍ مُستديرٍ أبله، ومعرفةٍ واسعةٍ برياضة الجولف، لا يُثير الشك على الإطلاق. يظهر على ملامحه الكدح، على نحوٍ طفيف، ليظهر أنْ لا علاقة له بالطبقة الأرستقراطية العقيمة. وهو معسولُ الكلامِ لاحِن، يُعشَقُ وقْع صوتِه على الآذان. كما أنه غاية في اللّين والوداعة.»

نهض بلنكيرون من مقعده ووقف أمامي. قال: «أؤكّد لك يا ديك أن هذا الرجل يُصيبُني بالقُشَعْريرة. ليست لدَيه ذرةُ صلاحٍ في قلبه. الهمَج الرعاعُ مقارنةً به وديعون. إنه قاسٍ كالوحوش ماكرٌ كالذئاب. لكنه داهية. وقد التقَط الطُّعم ونجَحنا في خداعه، لكن الرب يعلم إذا كنا سنُفلِح في إحكام قبضتِنا عليه أم لا!»

سألت: «لِمَ لا تعتقِله بحق السماء؟»

أجاب: «ليست لدَينا أدلة؛ أقصد أدلة قانونية مُلزِمة، لكننا لدَينا أدلةٌ كثيرةٌ غيرها. يُمكنني أن أُقدّم حُججًا أخلاقيةً داحضةً تُدينه، لكنه سيهزمني في المحكمة. سينهض خمسون خانعًا، في البرلمان، ويَنعتوننا بالمُضطهِدين. فلدَيه تابعٌ في كل مجموعةٍ من غريبي الأطوار في إنجلترا، بالإضافة إلى المُغفّلين الذين يُقَوقئون عن حرية الفرد، فيما يتجول الألمان بحُريةٍ لاستعباد العالم. لا، يا سيدي، إنها لعبةٌ في غاية الخطورة! كما أن في جعبَتي خطةً أفضَل، لأن موكسون أفري رجلٌ يحتل مكانةً رفيعةً في الدولة. وملفُّه أكثر ملفٍّ مُكتملٍ بعد سجلّاتِ الملائكة الحفَظة. لقد تحقّقنا من مراجعه في كل زاويةٍ من العالَم، وجميعُها سليمةٌ لا تشوبها شائبة. وهي تقول إنه مواطنٌ فاضلٌ منذ

نعومة أظافره. لقد نشأ في نورفولك ولا يزال هناك أشخاصٌ على قَيد الحياة يتذكّرون والده. وتلقّى تعليمَه في مدرسة «ميلتون»، واسمه مُدرَج في سجلّاتها. كما عمل في مدينة فالبارايسو في تشيلي، وثمّة ما يكفي من الأدلة لكتابة ثلاثة مجلّداتٍ عن حياته المُستقيمة هناك. عاد إلى الوطن وقد اكتسب خبرةً متواضعةً قبل عامَين من الحرب، وشغَل الرأي العام منذ ذلك الوقت. كان مُرشحًا ليبراليًّا لدائرةٍ انتخابيةٍ بلندن، وزيّن اسمُه كلّ مجالس إدارة المؤسسات التي تشكّلَت من أجل تحسين المجتمع. لدَيه حُججُ غيابٍ تسدُ عين الشمس، وجميعها محكمةٌ داحضةٌ وإن كانت ملفّقة ... ومع ذلك لا يمكنك هزيمتُه في لعبتِه تلك. إنه أفضلُ مُمثلٍ مشى على الأرض على الإطلاق. يمكنك ملاحظةُ ذلك من وجهه. فهو ليس له وجهٌ بل قناع. ولو شاء لانتحل شخصية شيكسبير أو يوليوس قيصر أو بيلي صانداي أو اللواء–الجنرال ريتشارد هاناي. ليست لدَيه شخصيةٌ واحدة، بل خمسون، وجميعُها لا تُعبّر عنه. أظنّ أنه لو وقع في قبضة الشيطان في نهاية المطاف، لاضطُر أن يُمسِك به بيدَيه وأسنانه مخافة أن يُفلتَ منه.»

جلس بلنكيرون في مقعده مرةً أخرى، وتدلّت إحدى ساقَيه على جانب المقعد.

تابع: «أغلقنا عددًا كبيرًا من قنواتِ اتصالِه في الأشهر الأخيرة. لا، إنه لا يشُك بي. فالعالَم لا يعلم شيئًا عن رجالِه العُظماء، وبالنسبة إليه ما أنا إلا مُتعصبٌ للسلام من شمال الولايات المتحدة الأمريكية، يُعطي تبرعاتٍ كبيرةً للمجتمعات المخبولة، وعلى استعدادٍ للسفر مئات الأميال لإلقاء خطبٍ رنّانة على أي جمهور. لقد زارَني في فندق «كلاريدجز»، ونسّقتُ الأمور على نحوٍ يُسهِّل اطّلاعه على ماضيّ. وهو ماضٍ شنيع، كما تعلَم، لأنني كنتُ متعصبًا للبريطانيين منذ عامَين قبل أن أجد الخلاص وأتعرّض للنفي من بريطانيا. عُدتُ إلى الوطن في نهاية المطاف، وأعلنتُ عن مُعارضتي للحرب بشكلٍ رسمي، عندما لم أكن طريحَ الفِراش. لا يرى السيد موكسون أفري أن جون س. بلنكيرون يُمثّل أي تهديدٍ له. وفي أثناء وجودي في إنجلترا، حرصتُ على التواري عن الأنظار، والعمل بأساليبَ مُلتويةٍ كثيرة، لن يستطيع تتبُّعها إليّ ... كما قلتُ، قطعنا أغلب قنواتِ اتصاله، لكننا لم نصل إلى أهمها بعدُ. ولا يزال يُسرِّب معلوماتٍ في غاية الخطورة إلى الخارج. أنصِت إليّ جيدًا يا ديك؛ فنحن بصددِ مناقشة دورك.»

بدا أن بلنكيرون لديه ما يدعم شُكوكَه بأن القناة لا تزال مفتوحةً ولها علاقةٌ بالشمال. لكن توقّفَت معلوماتُه عند هذا الحد، حتى سمع من عُملائه عن قدوم شخص، اسمه أبل جريسون، إلى جلاسكو من الولايات المتحدة. اكتشف أن المدعو جريسون هو نفسه رانكيستر، رئيس حزب العمال الصناعيين الدولي، المتورط في بعض قضايا

التخريب العنيفة في كولورادو. فضّل بلنكيرون الاحتفاظ بهذه المعلومات لنفسه وعدَم مشاركتها مع الشرطة لئلّا تُعيقَ عمله، لكنه أمر فريقَه بالتواصلِ مع جريسون ومُلاحقته عن قرب. كان الرجل حريصًا جدًا لكنه في غاية الغموض، حتى إنه كان يختفي لمدة أسبوع أحيانًا دون أن يترك أي أثَرٍ خلفه. ولسببٍ مجهول، لم يستطِع تفسيرَه، توصّل بلنكيرون إلى أن جريسون له علاقةٌ بأفري؛ لذا أجرى بعضَ التجاربِ لإثبات صحة تخمينه.

قال: «أردتُ أن أتأكّد من صحة ما وصلتُ إليه بعدة تلميحاتٍ ألقيتُها. وحققّتُ ذلك الليلة قبل السابقة. كانت زيارتي لبيجلزويك مُثمرة.»

قلتُ: «لم أفهم مَغزى تلميحاتك، لكني أذكُر زمان إلقائها. كانت الأولى عندما تحدّثتَ عن الاشتراكيين النمساويين، وأيّدكَ أفري في كلامك. أما الأخرى فكانت بعد العَشاء عندما اقتبس خبرًا من صحيفة «فيزر».»

قال بلنكيرون بابتسامته البطيئة: «أنت لمّاح يا ديك. لقد أصبتَ الهدف من الضربة الأولى. أنتَ تعرفني جيدًا؛ لذا تتبّعتَ طريقتَي في التفكير في هذَين التعليقَين. ولأن أفري لا يعرفني جيدًا، وكان رأسُه منشغلًا بهذا الجدل، لم يلحظ أي شيءٍ غير عادي. ضُخّت هذه الأخبار إلى جريسون حتى ينقلَها إلى شريكه. وقد فعَل ذلك، ونقلَها إلى أفري. وبهما اكتملَت السلسلة.»

قلتُ: «لكنها أخبارٌ عاديةٌ يُمكنه تخمينها بسهولة.»

أجاب: «لا، ليست أخبارًا عادية. كانت أخبارًا سياسيةً دقيقةً حسّاسة يسعى إليها شتّى الجماعات من غريبي الأطوار.»

عقّبتُ: «كانت اقتباساتٍ من الصحف الألمانية على أي حال. ربما وصلَت إليه تلك الصحفُ أبكَرَ مما توقّعت.»

أجاب: «أخطأتَ مرةً أخرى. لم تظهر الفقرة في صحيفة «فيزر» أبدًا. زيّفنا جزءًا اقتطعناه من تلك الصحيفة، لكنه كان تزييفًا مُتقنًا، ولأن جريسون يعمل باحثًا سُمح له بالاطلاع على هذا النص. وأرسلَه بدَوره إلى شريكه. أراني أفري ذلك النص مُنذ ليلتَين. لم يُلطِّخ مثل هذا الخبر العواميد في صحف الألمان. لا، كان دليلًا دامغًا ... والآن، يا ديك، مهمّتك هي ملاحقةُ جريسون.»

قلتُ: «حسنًا. أشعُر بسعادةٍ بالغةٍ لأنني سأعود إلى عملي مرةً أخرى. فقد كسبتُ

بعض الوزن من قلة التمارين. أظن أنك تريدُ مني إلقاءَ القبضِ على جريسون متلبساً بجُرم ثم الزج به وأفري في السجن بلا أي فرصةٍ للهرب.»

قال ببطءٍ شديد وبشكلٍ قاطع: «ليس هذا ما أريد. لا بد أن تتبع التعليماتِ الواردةَ إليك بدقة. أقدّر هذَين الرجلَين الرائعَين كأنهما ولداي الأثيران. ولا أرغب في التعرُّض إلى راحتهما وحريتهما لأي سبب. يجب أن يستمرا في التواصُل مع أصدقائهما. وأنا أريدُ تزويدَهما بكل الوسائلِ المُمكنةِ لذلك.»

وانفجَر ضاحكًا عندما رأى الحَيْرة على وجهي.

قال: «انتبِه لِما سأقوله يا ديك. كيف نريدُ معاملة الألمان؟ نحن نريدُ أن نملأ عقولهم بالأكاذيب الماكرة ونجعلَهم يتصرّفون وفقًا لها. وموكسون أفري يُمِدُّهم بالمعلومات المهمة بصفةٍ مستمرة. إنهم يثقون به ثقةً عمياء، ومن الحماقة أن نُحطِّم ثقتَهم به. لو تمكنّا من اكتشافِ قنواتِ موكسون، فسنستخدمها لصالحنا وسنُرسِل إليهم أخباراً مزيفة باسمه. كل كلمة يُرسلها موكسون تذهب مباشرة إلى هيئة أركان الحرب العُظمى الشديدة السرية. ويعصر العجوزان هندنبورغ ولودندورف عقليهما لحلِّ شفرتها. نريد أن نشجعهما على الاستمرار. سنُرتب إرسال معلومات صحيحة عديمة الأهمية، حتى يستمرا في ثقتهما بموكسون، وسندسُّ وسطها بعض المعلومات المزيفة بالغة الأهمية. لا يُمكننا ممارسة هذه خدعة إلى الأبد، لكن لو حالفنا الحظ سنلعبها فترة طويلة بما يكفي لإرباك خُطَط قادتهم.»

حلّت الجدية على ملامحه وغشِيَته صرامةٌ كصرامة قائد قواتنا في اجتماع التخطيط للهجوم.

قال: «لن أُعطيكَ أي تعليماتٍ لأنك تقدر على اتخاذ القرارات اللازمة بنفسك. لكن سأرسمُ لك الخطوطَ العريضةَ للموقف. أَخبِر أفري أنك ستذهب إلى الشمال لتتقصّى بنفسك حقيقةَ نزاعاتِ حزب العمال الصناعيين. سيبدو الأمر طبيعيًا بالنسبة إليه، وسيجده مُتوافقًا مع سلوكك أخيرًا. سيُخبِر شركاءه أنك استعماريٌّ ساذج، يشعُر بالاستياء من بريطانيا، وربما تكون ذا نفعٍ لهم. ستذهب إلى أحد رجالي، في جلاسكو، وهو مشاغبٌ سياسيٌّ متحمسٌ اختار هذا الطريق لأداء واجبه تجاه بلدِه. وهو طريقٌ شاقٌّ جدًا ووَعْرٌ للغاية. من خلاله ستتواصل مع جريسون، ولن تُفارِق ذلك المواطنَ الماكر. تَقفَّ أخباره، وتحيّن الفرصَ لملاحقته. احذَر من إثارة الريبة في قلبه؛ ولهذا السبب لا بد أن تكون على شفا الخروج عن القانون. اذهب إلى هناك كداعٍ للسلامِ مُتعصِّب وستعيشُ وسطَ أناسٍ يُثيرون اشمئزازك. قد تُضطَر إلى انتهاك القوانين العديمة القيمة

التي ابتدعَتها الحكومة البريطانية من أجل الدفاع عن أرضها، وسيتعيّن عليك ألا تقع في قبضة الشرطة ... تذكّر أنك لن تحصُلَ على أي مساعدةٍ من جانبي. لا بد أن تجمعَ المعلوماتِ بشأن جريسون في الوقت الذي تتّحد فيه قوى بريطانيا ضدّك. أرى أن هذه مهمةٌ خطيرة، لكنك أهلٌ لها.»

وفيما تصافحنا، أضاف كلمةً أخيرة. قال: «خذ ما يَكفيك من الوقت للاستعداد لكن القضية لا تحتمل التأخير. فكلّ يومٍ يُرسِل أفري معلوماتٍ شديدةَ الخطورة إلى العدو. يتجهّز الألمانُ لهجومٍ واسعٍ في ساحة القتال، ولحملةٍ كبيرةٍ لإثارة مواطنينا وتشويش عقولهم. العالم كلّه مُنهكٌ من الحرب واقتربنا من اللحظة الحاسمة. نُراهِن عليك يا ديك؛ لأن الوضع صار في غاية الحساسية.»

اشتريتُ روايةً جديدةً من المتجر وبلغتُ محطة سانت بانكراس في الوقت المناسب كي أتناول كوبًا من الشاي في البوفيه. وجدتُ أفري عند كشك الكُتب يشتري جريدةً مسائية. دخلنا إلى عربة القطار، فأمسك بنسختي من مجلة «بانش»، وراح يضحك، ويجذب انتباهي إلى الرسوم الهَزْلية. نظرتُ إليه وإذا هو صورةٌ مثاليةٌ لمواطنٍ مُتأقلمٍ على حياة الريف في طريقه لبيته البريء في المساء. كان كل شيء طبيعيًّا، بدايةً من ثيابه النظيفة المصنوعة من التويد، والغطاء الواقي للحذاء الفاتح اللون، ووشاح العنق المرقّط، وانتهاءً بمعطفه الواقي الفاخر.

لم أجرؤ على أن أطيل النظر إليه. حمّسَني ما عرفتُه عنه لتفرُّس ملامحه، لكن خشيتُ أن يكتشف اهتمامي المُتزايد به. كنتُ أعاملُه بفتورٍ دائمًا لأنني لم أُحبّه كثيرًا؛ لذا كان عليّ مواصلة طريقتي السابقة في التعامل. كان مرحًا للغاية، كثير الثرثرة، وفي غاية الود والتسلية. أتذكّر أنه تناوَل الكتاب الذي اشتريتُه في الصباح لقراءته في القطار، وهو المجلد الثاني من «مقالات هازليت» وآخر مُقتنياتي من المؤلفات الكلاسيكية، وتحدّث عن الكتب بحكمةٍ حتى تمنّيتُ لو أنّني صَحبتُه لفترةٍ أطولَ في بيجلزويك.

قال: «كان هازليت أكاديميًّا راديكاليًّا في عصره. وأطلق العِنان دائمًا لغضبه النظري تجاه اعتداءاتٍ لم يَختبرها بنفسه. بينما الرجال الذي يثورون على مشكلاتٍ حقيقيةٍ يدّخرون أنفاسهم للقيام بشيءٍ حيالها.»

منحَني هذا النقاشُ الفرصةَ لإخباره عن رحلتي إلى الشمال. قلتُ إنني تعلّمتُ الكثير في بيجلزويك لكن أريد اختبار الحياة الصناعية عن قرب. أضفتُ: «وإلا فسأصير مثل هازليت.»

أثار كلامي اهتمامَه بشدّة وشجّعَني في طلبي أيّما تشجيع. قال: «هذا هو الطريقُ الصحيحُ لمُعالَجة الأمر. أين تفكّر في الذهاب؟»

أخبرتُه أنني فكّرتُ أولًا في مدينة بارو، ثم عدَلتُ عن ذلك وقرّرتُ الذهاب إلى مدينة جلاسكو؛ لأن منطقةَ كلايد دافئة.

قال: «خيارٌ صائب. ليتَني أستطيع الذهاب معك. ستستغرقُ بعضَ الوقتِ في فهم اللغة. وستُواجه عدوانيةً غيرَ معقولةٍ بين العمال؛ إذ لدَيهم شكاوى كثيرة بسبب الحرب مثلما لدَيهم شكاوى كثيرة بشأن سياسات حزب العمال. لكنك ستُقابل الكثير من العقول الحكيمة والقلوب السليمة. لا بدّ أن تكتب لي وتُخبرني باستنتاجاتك.»

كانت أمسيةً دافئة، ونام الجزء المُتبقي من الرحلة. نظرتُ إليه وتمنّيتُ لو أنني أستطيع النظر إلى ما يدور في عقله المُتخبئ خلف وجهه الشبيه بالقناع. كنت لا أساوي شيئًا بالنسبة إليه، بل كنتُ غير كافٍ حتى لأن يَستغلّني، وأنا من أتجهّز لاستغلاله. بدا أنني شرعتُ في مغامرةٍ بائسة. كما أنني طيلةَ هذا الوقتِ لم يُفارقني ذلك الشعورُ المُريبُ بأن وجهَه مألوفٌ لي. حدثتُ نفسي بحماقتي لأن رجلًا بوجهٍ مثل هذا لا بد أن له آلافَ الأشباه. لكن ظلّت الفكرة تُؤرّقني حتى وصلنا إلى وِجهتِنا.

ونحن خارجان من المحطة إلى الأجواء المسائية الذهبية رأيتُ ماري لامنتون مرةً أخرى. كانت تسير بصحبةِ إحدى بنات عائلة ويكس، حاسرةَ الرأسِ على عادة سُكان بيجلزويك، يتلألأ شعرُها في ضوء الشمس. أزال أفري قُبعتَه لتحيتِها، وأثنى عليها بكلماتٍ بليغة، فيما قابلتُ نظراتها الثابتة بنظراتٍ خاليةٍ من التعبير كمُمثلٍ يلعب دور المُتآمرِ على خشبة المسرح.

عقّب أفري فيما ابتعَدنا عنهم: «إنها فتاةٌ جذابة. لكنها لا تخلو من جدية يمكن استخدامها في قضايا نبيلة.»

فكّرتُ، فيما كنتُ أسير لأتناول وجبة عشائي الأخيرة مع عائلة جيمسون، أن الفتاة الآنفة الذكر ستُشكّل في الغالب تحديًا كبيرًا للسيد أفري موكسون قبل أن تنتهي اللعبة.

الفصل الرابع

أندرو آيموس

بعد مرور ثلاثة أيام، ركبتُ في القطار المُتجه من محطة كينجز كروس إلى إدنبرة. ذهبتُ إلى فندق «بنتلاند» في شارع برنسز، حيث تركتُ حقيبةَ سفري، بما تحتوي عليه من ملابسَ داخليةٍ نظيفة وملابسَ إضافية. فكّرتُ في ذلك بعضَ الوقت، وتوصّلتُ إلى أنه لا بد أن يكون لي قاعدةٌ في مكانٍ ما، وثيابٌ نظيفة. بعد ذلك، نزلتُ إلى شوارع مدينة جلاسكو، في ملابسَ مُهترئةٍ من قماش التويد وكيسٍ قماشيٍّ صغيرٍ على ظهري.

سِرتُ من المحطة إلى الموَقع الذي حدّده لي بلنكيرون. كان المساء صيفيًّا حارًّا، وفاضت الشوارعُ بنساءٍ حاسراتِ الرأس وحرفِيّين مُتعبين. تجوّلتُ في شارع دامبارتون مندهشًا من كثرة الرجال الأقوياء البِنية الذين يسيرون في الأنحاء، فكيف وأنت لا تسير ميلًا واحدًا على الجبهة البريطانية دون أن تصطدم بكتيبةٍ من جلاسكو. ثم تذكّرت أن الذخائر والسفن تُصنع في المدينة فتبدّدَت دهشتي.

أرشدَتني سيدةٌ مُمتلئةُ الجسم شعثاءُ في زقاقٍ ضيقٍ إلى مسكن السيد آيموس. قالت: «تقبَع شقتُه في الطابق الثاني. ستجد أندرو في البيت يتناول الشاي. فهو لا يُحب العمل لساعاتٍ إضافية. ودائمًا ما يعود إلى البيت عادةً في تمام السادسة.» صَعِدتُ الدرَج بقلبٍ حزين؛ إذ إنني مثل الأفريقيين الجنوبيين يرُوعُني الغبار. كان المكانُ شديد القذارة، لكن كان على كل بسطةٍ بابان ذويا مِقبضَين مصقولَين جيدًا، ولوحتان من النحاس الأصفر. قرأتُ على إحداهما اسم أندرو آيموس.

فتَح لي البابَ رجلٌ ضئيلُ الجسم، يرتدي قميصًا مع صُدرةٍ محلولةِ الأزرار، ولا يضع ياقةً حول عنقه. هذا ما استطعتُ رؤيته في الضوء الخافت، لكنه مدّ كفًّا كمخلبِ الغوريلا وسحبَني إلى الداخل.

منحَتني غرفة الجلوس، التي تُطل على الكثير من المداخن وسماء صفراء شاحبة تبرز في خلفيتها مدخنتا مصنع بوضوح، ضوءًا كافيًا لأراه بوضوح. كان طوله خمسَ

أقدام وأربعَ بوصات، ومنكباه عريضَين، وشعره أشعثَ أشيبَ. كان يرتدي نظّارة، ويُشبه رجال الدّين الاسكتلنديين التقليديين بسبب حاجبَيه الكثّين وشاربَيه اللذَين التقَيا تحت فكّه، كان حليقَ الذقَن والشّفة العُليا. اصطبغَت عيناه باللون الرمادي الفولاذي، وكانت تغشاهما صرامةٌ بالغة، لكنهما متّقدتان بالحيوية. كان صوته جَهوريًا، ولولا أنه تحدّث بشفتَين نصف مغلقتَين، لاهتزّت جدرانُ الغرفة من دويِّ صوته. لم تكن هناك سِنّةٌ واحدةٌ سليمة في فمه.

قبع صحنُ فنجانٍ مليء بالشاي، وطبقٌ حمَل عجةً باللحم فيما مضى، على الطاولة. أشار إليهما وسألني إذا كنتُ تناولتُ الطعام.

سأل: «ألن تتناول أي شيء؟ حسنًا، قد يُقدّم لك أحدهم جرعة ويسكي، لكن هذا المنزل لا يسمح بتناول الكحوليات على الإطلاق. إذا كنتَ تشعُر بالعطش، فاذهب إلى أقربِ حانةٍ عامة.»

أنكرتُ حاجتي للأكل أو الشرب، وأخرجتُ غَلْيوني، فبدأ يملأ غَلْيونًا قديمًا من الفخار بالتبغ. سأل بصوته الهادر: «اسمك السيد براند، أليس كذلك؟ كنتُ أترقّب وصولك، لكن يا إلهي! تأخّرتَ كثيرًا يا رجل!»

أخرج من جيب سرواله ساعةً فضيةً عتيقة، وتفقّدها بعدَم رضا. قال: «لقد توقّفَت الساعة اللعينة عن العمل. كم الساعة يا سيد براند؟»

شرع يفتحُ غطاءَ ساعتِه عَنوة، بالسكين نفسها التي استخدمها في تقطيع التبغ، وفيما انهمك بفحص آلية الساعة، أدار الجزء الخلفي من الغطاء ناحيتي. نظرتُ وإذا رقاقةُ ماري لامنتون الأرجوانية البيضاء مُلصقةٌ داخلها.

أظهرتُ ساعتي حتى يستطيع رؤية الدليل نفسه. ارتفعَت عيناه الثاقبتان هُنيهة، وتعرّف عليها، ثم أغلق غطاءَ ساعتِه بحدّة، وأعادَها إلى جيبه. عقب ذلك تبدّد ارتيابُه وأصبح ودودًا.

قال: «هل أتيتَ لزيارة جلاسكو يا سيد براند؟ حسنًا، إنها جيدةُ الإدارة، ويعيش فيها الصالحون والطالحون. أخبروني أنك قَدمتَ من جنوب أفريقيا. إنها بعيدةٌ للغاية، لكن سمعتُ بعض الأشياء عنها؛ إذ سافر ابن عمي إلى هناك لعلةٍ في رئتَيه. كان يعمل في متجر في الشارع الرئيسي، بلوم فاونتان. يَدعونه «بيتر دوبسون». ربما تذكُره.»

تحدّث عن منطقة كلايد. أخبرني أنه قَدِم من الحدود؛ إذ إن مسقط رأسه بلدة

جالاشيلز أو «جاولي» بحسب تسميته. قال: «بدأتُ مسئولًا عن صيانة مغازلَ آليةٍ في مصنع ستافيرت. بعد ذلك مات والدي وورثتُ عنه حرفةَ النجارة. لكن هذا ليس زمانَ الحرفِ الصغيرةِ المُستقلة؛ لذا قدمتُ إلى كلايد وتعلّمتُ بناء السفن. بوسعي أن أقول إنّني صرتُ رائدًا في هذه الصنعة، وعلى الرغم من أنني لستُ من مسئولي اتحاد العمال ويُستبعَد أن أصير واحدًا، إلا أن كلمتي لها وزنٌ كبير. والحكومة على دراية بهذا الأمر لأنها أرسلَتني في مهمّاتٍ في طول البلاد وعرضها للنظر في الغابات ورفع التقارير عن طبيعة الأخشاب. يخالون أنها رشوة، لكن أندرو آيموس لا يقبل الرشوة. وسيقول رأيه في أي حكومةٍ على الأرض بصدقٍ ودون مواربة. وسيُناضِل من أجل حقوق العمال ضد من يضطهدُهم سواء أكانت الحكومة أو النخبة الغنية الذين يُسمّونهم أعضاء حزب العمال. هل سمعتَ عن مُمثلي النقابات يا سيد براند؟»

أقررتُ بسماعي عنهم إذ زوّدني بلنكيرون بتاريخِ نزاعاتِ العمالِ الصناعِيِّين على نحوٍ وافٍ.

قال: «حسنًا، أنا مُمثل نقابة. أُمثّل الأعضاء العاملين أمام أصحاب المناصب الذين فقدوا ثقة العمال. لكنّي لست اشتراكيًّا، فلا تنسَ هذه الحقيقة. أنا من راديكاليِّي الحدود القدامى، ولا أنوي الانحراف عن هذا المسار. أُؤيد حُرية الفرد والمساواة في الحقوق وتكافؤ الفرص. لن أركع أمام مسئولٍ حكومي رفيع، ولا إقطاعيٍّ خريع له أراضٍ عند نهر تويد. اضطُرِرتُ أن أحتفظ بآرائي لنفسي، في وقتٍ انشغلت فيه عقول الشباب بمنشورات الرأسمالية والملكية الجماعية وغيرها من المُصطلحات التافهة الطويلة التي لا أريد تدنيس لساني بنطقها. اللعنة عليهم وعلى الاشتراكية! إن المرء ليجدُ في صفحةٍ واحدةٍ كتبَها جون ستيوارت من الحكمة ما لا يجده في المؤلّفات الأجنبية التافهةِ مُجتمعة. لكن، كما قلتُ، اضطُرِرتُ إلى عدم التعبير عن آرائي؛ إذ انتشَرَت الاشتراكية في العالم كالنار في الهشيم. وهذا كله بسبب تشوّه عملية التعليم.»

سألتُ: «ماذا يقول راديكاليٌّ حدوديٌّ عن الحرب؟»

نزع نظارته ورفع حاجبَيه الكثّين نحوي. قال: سأُخبرك يا سيد براند. يقول إن في صراعه منذ أن بلغ سنّ الرشد مع المُحافظين والإقطاعيين الاسكتلنديين وأصحاب المصانع وأصحاب الحانات والكنيسة الاسكتلندية رأى كثيرًا من مَثالبهم، غير أن تلك الكيانات لم تعدم بعضَ الأخلاق بخلاف الألمان فإنهم ينضَحون بالفساد. عندما اندلعَت الحرب، فكّرتُ في الأمر بهدوء لثلاثة أيام، ثم حدّثتُ نفسي قائلًا: «لقد وجدتَ العدو أخيرًا يا أندرو آيموس. كلٌّ من حاربتَهم من قبلُ كانوا، إن جاز التعبير، أصدقاءَ

مُضللين. إما أنتَ أو قيصر هذه المرة!»

تبدّدَت الصرامة من عينَيه وحلّت محلّها قساوةٌ كئيبة. قال: «لكني لم أتذبذب. تلقيتُ التعليمات مبكراً فيما يخصُّ الطريقةَ المُثلي لخدمة دولتي. لم تكن المهمة سهلة، وبسببها نعتَني الكثيرُ من الصالحين اليومَ بأوصافٍ مُهينة. يعتقدون أنني أحرّض المواطنين في الداخل، وأغضُّ الطرف عن القضية التي يُحارِب الشباب لأجلها في الجبهة. أنا أحاول كبحَ جماحِهم يا رجل. لو لم أناصرهم في مَطالبهم الاقتصادية العادلة، لغَضِبوا ووقَعوا تحت رحمةِ أولِ وغدٍ يروِّج للثورة. أنا وأمثالي نُشكّل صمامات الأمان. ولا تُسِئ الفهمَ يا سيد براند. هؤلاء الرجال الذين يُطالبون برفع الأجور لا يدعمون السلام. إنهم يُحاربون من أجل الشباب في الخارج مثلما يُحاربون من أجل أنفسهم في الداخل. وجميعُهم مستعدُّون لبذل الغالي والنفيس من أجل هزيمة الألمان. لقد ارتكبَت الحكومة الأخطاء، ويجب أن تتحمّل ثمنها. لو لم يحدُث ذلك، لشعر العمّال بالقمع، وأنه لا سبيل لسماع شكواهم. لماذا يجب أن يضاعف أصحابُ الأعمال أرباحهم فيما تُعاني الطبقة العاملة من أجل الحصول على وجبةِ إفطارٍ بسيطة؟ هذا هو جوهرُ إضرابِ العمال، كما يُسمُّونه، وهو شيءٌ إيجابيٌّ في رأيي؛ لأنه إذا لم يكسر العمال القيود من حينٍ لآخر، فستتبدد حيوية الدولة، وسيسحقها هيندنبرج بكل سهولة مثل تفاحةٍ فاسدة.»

سألتُه إن كان يتحدّث عن السواد الأعظم.

أجاب: «تسعون بالمائة في أي اقتراع. لا أقول إنه ليس هناك الكثير من الحثالة مُرتادي الحانات والحمقى الذين لا يقرءون الصحف بإمعان ويُشوّشون عقولهم بالأفكار الغريبة. لكن الرجل العادي في منطقة كلايد، كغيره في الأماكن الأخرى، يكره ثلاثة أصنافٍ من البشر؛ الألمان والاستغلاليين حسب تعبيرهم، والأيرلنديين. لكن كراهته للألمان تحتل المرتبة الأولى.»

هتفتُ في دهشة: «الأيرلنديون!»

صاح آخرُ راديكاليِّي الحدود القدامى: «أجل، الأيرلنديون. تعجُّ جلاسكو في الأيام الحالية بشيئَين، وهما المال والأيرلنديون. أتذكّر اليوم الذي أيّدتُ فيه قانونَ الحكم الذاتي لأيرلندا الذي روّجَت له حكومة ويليام جلادستون، وكيف كنتُ أحتجُّ على خضوع دولتنا الشقيقة السامية الكريمة الدافئة القلب لحكمٍ أجنبي. يا إلهي! لا أتحدث عن أهل أولستر، تلك البؤرة السيئة العقيمة التي عارضَت الحكم الذاتي، بل أتحدّث عن أبناء شعبنا. إن الذين يرفضون بذلَ أدنى جهدٍ لدعم الحرب، ويستغلون حاجتنا لتدبير

عصيانٍ تافه، جديرون بسخط الرب والبشر. عاملناهم بطيبةٍ شديدة، وانظر إلى الشكر الذي حصلنا عليه. يتدفّقون إلى هُنا بالآلاف ويستَولون على وظائف الشباب الذين يُلبُّون نداء الواجب. في الأسبوع الماضي تحدّثتُ إلى أرملة، صاحبة متجرِ ألبانٍ صغيرٍ في شارع دالمارنوك. علمتُ أن لها ولدَين في الجيش؛ أحدهما يخدم في فوج المشاة الاسكتلندي، والآخر في سجون الألمان. أخبرَتْني أنها لم تعُد تستطيع مواصلة العمل، دون مساعدةِ ولدَيها، رغم أنها بذلَت قصارى جهدها. قالت: «من القسوة، يا سيد آيموس، أن تأخذ الحكومة ولديّ الاثنَين، وربما لا أراهما مجدداً مرةً أخرى، فيما تترك العمال الأيرلنديين أحراراً يأخذون اللقمة من أفواهنا». في الأسبوع الماضي، وظّف مصنع الغاز في الشارع المقابل مائة أيرلندي، وجميعهم من الشباب الأقوياء بحق. وفي الوقت نفسه، يُعاني ديفي الصغير المسجون في ألمانيا من الربو، وجيمي من مرض في الأمعاء. هذا ليس عدلًا على الإطلاق!»

توقّف عن الكلام وأشعل عودَ ثقابٍ عَبر تمريره على مؤخرة سرواله. قال: «حان وقتُ إشعالِ مصابيحِ الغاز. سيأتي بعضُ الرجال إلى هُنا بعد العاشرة والنصف.»

على صوت صفير الغاز في المصباح وضوئه المرتعش راح آيموس يصف الضيوف القادمين بإيجاز. قال: «سيأتي اثنان من زملائي، وهما مَكناب ونيفِن. سيحضر جيلكيسون، عامل صيانة الغلايات، والشاب ويلكي، الذي يُعاني من السُلّ، ويكتب مقالاتٍ صغيرةً في الصحف. وسيزروني رجلٌ غريب الأطوار اسمه تومز، أتي من كامبريدج، حيث يعمل أستاذًا جامعيًا حسبما سمعت — على أي حالٍ كلامه مليء بالترّهات الفارغة. أخبرَني أنه قدِم إلى هُنا للتعرُّف إلى العمّال عن كثَب، وأخبرتُه أنه بحاجة إلى النظر أبعدَ من مظهرهم. لكن هذا المسكين لا يتّسِم بأدنى قدْرٍ من الذكاء. كما سيأتي تام نوري، مُحرّر جريدتنا الأسبوعية «العدل للجميع». يتمتّع نوري بحسٍّ فكاهي وسَعة اطلاعه على أعمال روبرت بيرنز، لكنه مُتذبذب للغاية في آرائه ... سترى يا سيد براند أنني ألتزم الصمتَ بين هؤلاء ولا أعبر عن أرائي ما لم تقتضِ الضرورة ذلك. أعرض أفكاري النقدية في بعض الأحيان، وهو ما يُصدِّر عني صورة العقلاني، لكن لا أدع نفسي للثرثرة. غالبية القادمين إلى هُنا الليلة ليسوا العمّال الحقيقيِّين، وإنما هم غثاء السيل، لكنهم سيساعدونك في الوصول إلى غايتك. لا تنسَ أنهم سمعوا عنك بالفعل، واكتسبت شهرة يجب أن تُحافظ عليها.»

سألتُ: «هل سيأتي أبل جريسون؟»

أجاب: «لا. ليس بعدُ. لم نصل إلى مرحلة تبادل الزيارات. لكن القادمون أصدقاء

جريسون، وسينقلون له صورتهم عنك. وهم طريقك الأفضل للتعرّف به.»

دوّت مطرقة الباب، وأسرع السيد آيموس لإدخال أوائل القادمين. تبيّن أن الطارقين مَكناب وويلكي؛ كان الأول رجلًا مُهذبًا، في منتصف عمره، ذا وجهٍ نظيف، يدعم ياقةَ قميصه بياقةٍ بلاستيكية؛ والآخر هو شابٌّ مُتهدّلُ الكتفَين، ذو شَعرٍ ناعمٍ خفيف، وعينَين جاحظتَين، وبشرةٍ لامعة، وهي أماراتٌ معروفة لداء السل. قدّمَني آيموس إلى الحاضرين قائلًا: «هذا هو السيد براند، يا شباب، من جنوب أفريقيا. سرعان ما حضَر نيفن، وهو ضخمُ الجثة ملتحٍ، والمُحرّر السيد نوري، وهو بدينٌ قذرٌ يُدخّن سيجارًا نتِن الرائحة. عندما وصل جيلكيسون، عامل تركيب الغلايات، تبيّن أنه شابٌّ طيب المَعشر، كان يضع نظارةً على عينَيه ويتحدّث بلباقة المُتعلّمين، وكان من الواضح أنه ينتمي لطبقةٍ اجتماعيةٍ مختلفةٍ نسبيًا. كان آخر القادمين تومز، الأستاذ الجامعي في جامعة كامبريدج، وهو شابٌّ نحيفٌ ذو شفتَين عابستَين وعينَين ذكّرتاني بلانسلوت ويك.

قال السيد نوري مُقهقهًا: «لستَ ثريًا يا سيد براند رغم قدومِك من جنوب أفريقيا.»

قلتُ: «لا. أنا مهندسٌ عامل. أبي من اسكتلندا، وهذه هي زيارتي الأولى لمسقط رأسي، مثلما شرح لكم صديقي السيد آيموس.»

نظر إليّ مريضُ السل بارتياب. قال: «بعض رفاقنا، هُنا، نفَتْهم الحكومة الرأسمالية من ترانسفال. ربما تكون على معرفةٍ بهم إن كنتَ تُشاركنا الأيديولوجية نفسها.»

عبّرتُ عن سعادتي البالغة للقائهم مع التنبيه على أنني كنتُ أعمل في منجمٍ على بُعد آلاف الأميال شمالًا، في أثناء وقوعِ الاضطراباتِ المشار إليها.

تلا ذلك محادثةٌ غيرُ عادية لمدة ساعة. بدا تومز، بصوته الجامعي الضعيف الرتيب، متلهفًا للحصول على المعلومات. سأل أسئلةً غير مُتناهية — وجّهَها إلى جيلكيسون بشكلٍ أساسي — لأنه الوحيد الذي يفهم لُغته في الحقيقة. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها رجلًا طليقَ اللسان أجوفَ لكن كانت به مَسْحةُ عنفٍ ضعيفة مثل خروفٍ مهتاج. انهمك الرجل في التنفيس عن غضبه الأكاديمي الشخصي ضد المجتمع، وتخيّلتُ أنه لو اندلعَت ثورةٌ فسأعلّقه بنفسي على عمود الإنارة. في أثناء ذلك، واصل آيموس ومكناب ونيفن محادثتَهم حول قضايا مجتمعِهم غير عابئين بالعاصفة المُستعرة حولهم على الإطلاق.

كان السيد نوري المُحرِّر مَن جذبَني إلى المحادثة.

قال بصوته الهادر: «إن صديقَنا الأفريقي في غاية الخجل. لو لم تمنع الكحول في منزلك يا أندرو، وحظينا ببضعِ رشفاتٍ من الويسكي، لربما حلَلْنا عقدة لسانه. أريد سماع رأيِه في الحرب. أخبرتَني في الصباح أنه صحيح العقيدة.»

قال آيموس: «لم أقُل مثل هذا الكلام. كما تعرف، يا سيد تام نوري، فإنني لا أحكم على «صحة العقيدة» في هذه القضية بطريقتك نفسها. أنا أؤيد الحرب في حال توافُر الظروف التي ذكرتُها أكثر من مرة. لا أعرف شيئًا عن رأي السيد براند، باستثناء أنه ديمقراطيٌّ صالح، وهذا لا ينطبق على بعضٍ من أصدقائك.»

ضحك السيد نوري: «أنصِتوا إلى السيد أندرا. هو يظن أن موظف الدولة في الدولة الاشتراكية لن يقل فساداً عن أرفعِ أرستقراطي. ربما يكون محقًّا بعض الشيء في ذلك. لكن فيما يخص الحرب فهو مخطئ. أنتم تعلمون رأيي في هذا الأمر يا شباب. هذه الحرب بدأها الرأسماليون، ويُحارب فيها العمال؛ لذا يجب أن يُنهيَها العمال. هذا اليوم قريبٌ جداً. هناك من يريدون إطالة الحرب، حتى يضعُف اتحادُ العمال، فيُسَيطروا عليه للأبد. هذه هي الخطة التي نسعى لإحباطها. يجب أن نهزم الألمان، لكن العمال مَن يُحدِّدون لحظة الهزيمة لا الرأسماليون. ما رأيك في ذلك يا سيد براند؟»

أعلن السيد نوري عن ولائه بوضوح، لكنه أعطاني الفرصة التي كنتُ أطمح إليها. أفصحتُ عن رأيي في المسألة بقوة، وهو وجوب إنهاء الحرب من أجل الديمقراطية. أثنيتُ على نفسي حُسن طرح المسألة؛ إذ استدعيتُ كل الحُجَج البغيضة، واستعرتُ كثيراً من مخزون لانسلوت ويك منها. لكن لم أطرحها على نحوٍ مُحكم؛ إذ كان لديّ تصوُّرٌ واضح عن الانطباع الذي أريد تركَه عند الجميع. أردتُ أن أبدو صادقًا ومتحمساً ومتطرفًا بعض الشيء، لكنني مع ذلك رجلُ أعمالٍ واقعي، بشكلٍ أساسي، يتحيّن الفرصةَ المناسبةَ لعقد صفقة. واصَل تومز مقاطعَتي بأسئلته المعتوهة، واضطُرِرتُ إلى إفحامه. في نهاية المطاف طرَق السيد نوري المائدة بغَلْيونه.

قال: «سيُساعِدك هذا يا أندرو. لقد استضفتَ ملاكًا دون أن تدري. ما رأيك فيما يقوله يا رجل؟»

هزّ السيد آيموس رأسه. قال: «لا أنكر أنّ في كلامه بعضَ الصحة، لكن لستُ مقتنعًا أن الألمان تعلموا الدرس بعدُ.» وافقَه مكناب في كلامه، وأيّدَني البقية في رأيي. طلب مني نوري كتابةَ مقالةٍ في جريدته، فيما دعاني مريضُ السل إلى أن ألقِيَ خطبةً في اجتماع.

سأل: «أيمكنك إعادةُ ما قلتَه ليلة غدٍ في محفلنا في شارع نيوميلنز؟ سيُعقد اجتماعٌ لأعضاء حزب «العمال الصناعيين»، وسأجعلهم يضعونك في برنامج الاجتماع.» أبقَى عينَيه المتلألئتَين مثل كلبٍ مريضٍ مثبّتتَين عليّ، وأدركتُ أنني فزتُ بحليفٍ. أخبرتُه أنني قَدِمتُ إلى جلاسكو من أجل التعلّم، لا التدريس، لكن لن أفوِّت أي فرصةٍ للإفصاح عن معتقداتي.»

قال آيموس وهو ينفُض غَلْيونه من فُضالة التبغ: «حان وقتُ ذهابي إلى الفراش يا شباب. سأتصل بك، يا تومز في الصباح بشأنِ مصنع بريجند، لكن كفانا ما ثرثرنا الليلة. أنا رجل يُحب أن يحظى بثماني ساعات من النوم.»

أرشدَهم العجوز إلى الباب وعاد إليّ بشبحِ ابتسامةٍ على وجهه.

قال: «كم هي رفقة غريبة الأطوار يا سيد براند! لم يُعجَب مكناب بكلامك. فقد قُتل ابنه في حملة جاليبولي ولا يتطلع إلى السلام حتى مماته. إنه صديقي الأقرب في جلاسكو. وهو من مشايخ الكنيسة الغيلية في منطقة كاوكادينز، وأنا رجلٌ يُمكنك وصفُه بمتحرّرِ الفكر، لكننا على وئام فيما يخُص الأساسيات. لا يسَعُني سوى الإشادة ببلاغتك في المُحاجاة. سيخبرون جريسون أنك مرشّحٌ واعد.»

قلتُ: «إنها مهمةٌ كريهة.»

قال: «هي مهمةٌ بغيضةٌ حقًّا. وتُصيبني بالغثيان في كثيرٍ من الأحيان. لكن لا يحقٌ لنا التذمر. فهناك رجالٌ أشدٌ بأسًا منا يؤدُّون ما هو أصعب في فرنسا ... سأنصحك نصيحةً يا سيد براند. هلّا تخفض جناحك قليلًا. إنك تنظر إلى الآخرين في أعينهم كأنك رقيب أول كتيبة المشاة في ثكنات ماري هيل.» وغمَز بعينِه اليسرى ببطء وغرابة.

سار آيموس إلى خزانة الصحون وأخرج زجاجةً سوداءَ وكأسًا. قال: «لقد أقلعت عن الكحول، لكن قد ينسيك القليلُ منه ما سمعتَه منذ قليل. ستجد ماء بحيرة لوخ كاترين العذبة في الصنبور ... كما كنتُ أقول، لا ضَررَ كبيرًا من هذه المجموعة. قد يكون تومز عنيفًا قاسيًا إلا أنه مدرسٌ جامعي لو كان تومز عنيفًا قاسيًا إلا أنه مدرسٌ جامعي، والمدرسون الجامعيون سواءٌ على مستوى العالم؛ أي لا خوف منهم. ربما يُبالغون في الحديث عن العمال الصناعيين وعن طموحاتهم الرائعة لهم، لكن الأجواء راكدةٌ هنا في كلايد. قد يجدون ضالّتهم في أيرلندا.»

قلتُ: «لنفترِض أن هناك رجلًا بارعًا جدًا يرغب في مساعدة العدو. ألا تظن أنه

سيجني مكسبًا ولو بسيطًا من إشعال فتيل الفتنة في المصانع هُنا؟»

أجاب: «بلى.»

سألتُ: «هل سيصل إلى هذه النتيجة بسرعة لو كان ذكيًّا؟»

قال: «أجل.»

قلتُ: «لو واصل البقاء هُنا، فهل يعني ذلك أنه خلف هدفٍ أكبر أو هدفٍ خطيرٍ وشنيع حقًّا؟»

قطّب آيموس حاجبَيه ونظر إليّ مباشرة. قال: «أفهم ما تُشير إليه. أجل! هذا ما توصّلتُ إليه. خطر لي ذلك الأمر، منذ بضعة أسابيع، بخصوص الرجل الذي قد تحظى بفرصةِ مقابلتِه ليلةَ الغد.»

سحب آيموس صندوقًا من أسفل الفراش، أخرج منه نايًا بديع الشكل. قال: «اعذرني، يا سيد براند، لكن أحبُّ عزفَ بعض الموسيقى قبل أن أخلد إلى النوم. يتلو مِكناب صلواتِه، وأنا أعزفُ الناي، وغرضُنا واحد.»

هكذا انتهت الأمسية الفريدة بالمُوسيقى التي هي مُعالجةٌ بالِغة اللُّطف والدقة لأغاني الحدود القديمة مثل «فتاتي الشابة بيجي» (ماي باجي إذ يانج ثينج) و«وعندما تعود الماشية إلى البيت» (وين ذا كي كام هوم). غفوتُ وأنا أتخيل آيموس بشفتَيه المُطبقتَين على الناي ونظراتِه الشاردةِ فيما يستدعي إلى عالمه المُعتِم مشاعرَ فتًى صغير.

في صباح اليوم التالي، أحضرَت الأرملة من الشقة المجاورة، التي تعمل مدبرة للمنزل وطباخة والقائمة على خدمة سكان المنزل بصفةٍ عامة، ماءً للحلاقة، لكن اضطُرِرتُ للخروج دون استحمام. دخلتُ المطبخ ولم أجد أحدًا، لكن فيما كنتُ أتناول عجةَ اللحم التي لا يُوجَد سواها عاد آيموس إلى المنزل من أجل تناوُل الفطور. وجلَب معه الجريدة الصباحية.

أعلن: «تقول جريدة «هيرالد» إنه جرت معركةٌ كبيرةٌ في مدينة إيبر.»

فتحتُ الجريدة في عُجالة وقرأتُ عن المعركة الكبيرة التي دارت في ٣١ يوليو وأفسدها الطقس. هتفتُ: «يا إلهي! لقد استولَوا على قرية سانت جوليان وفريزنبرج ريدج البغيضة ... وقرية هوكا ... ومنطقة سانكتشري وود. أحفظ كل شبرٍ من هذا المكان اللعين ...»

قال آيموس محذراً: «هذا لن يُجدي نفعاً يا سيد براند. إن سَمِعَك أصدقاؤنا من البارحة تتحدث بهذه الطريقة فأولى بك أن تركب القطار العائد إلى لندن ... يتحدثونَ عنك في أحواض بناء السفن هذا الصباح. ستحظى بحضورٍ كبيرٍ في اجتماعك في المساء، لكنهم يقولون إن الشرطة ستتدخل. قد لا يكون الأمر خطيراً، لكن أعلم أنك ستأخذ حِذرَك؛ لأنك لن تُصبح ذا نفعٍ إذا وقعتَ في قبضة الشرطة في شارع دوك. سمعتُ أن جريسون سيكون هناك ومعه رسالةٌ أخوية من أصدقائه المَجانين في أمريكا ... رتّبتُ أن تلتقي بتام نوري في فترة الظهيرة كي تُقدِّم له العون في مقاله الصغير بالجريدة. سيُطلعك تام على الصراع الدائر في المنطقة الغربية، وأنتظر منك أن تُبعدَه عن الشرب. هو يزعم أن الكتابة والخمر لا ينفصلان، ويستشهد بروبرت بيرنز، لكنه يعولُ أسرةً مكوّنة من زوجة وخمسة أطفال.»

حظيتُ بيومٍ رائع. جلستُ لمدة ساعتَين في غرفة نوري القذرة؛ حيث انهمك في التدخين والخطابة، لكنه عندما تذكّر مهمّته دوّن انطباعاتي عن وضع حزب العمال في جنوب أفريقيا بصورةٍ مختزَلةٍ من أجل صحيفته المبتذَلة. كانت انطباعاتي غيرَ رسميةٍ ركيكة، ركيزتُها الجهل التام، ولو أنها وصلَت إلى منطقة راند هناك، فلا أتصور ماذا سيكون رأيُ أصحابي في مؤلفها كورنيليس براند. دعوتُه إلى الغداء في مطعمٍ رخيصٍ سيئ الجودة في شارعٍ جانبيٍّ متفرعٍ من طريق بروميلاو، ثم تناولنا الشراب معًا في إحدى الحانات حيث عرّفني على بعضٍ من أصدقائه السيئي السمعة.

في آخر النهار عُدت إلى منزل آيموس، وقضيتُ ساعةً أو ما شابَهَ في كتابة خطابٍ طويلٍ للسيد أفري. حدّثتُه عن جميع مَن قابلتُهم، وبالغتُ في وصف خطورةِ الوضع في منطقة كلايد، واستهجنتُ غياب التفكير المنطقي بين القوى التقدُّمية. رسمتُ صورةً تفصيليةً لآيموس، وتوصّلتُ منها إلى أن الراديكاليين سيُشكّلون على الأغلب عائقًا أمام التقدُّم الحقيقي. كتبتُ: «لقد حوّلوا نضالهم القديم إلى مسارٍ جديد؛ إذن فالنضال بالنسبة لهم مسألة ضمير.» أنهيتُ خطابي ببعض الملاحظات غير الناضجة عن الاقتصاد كنتُ قد انتقيتُها من مُحادثَتي غير الرسمية مع تومز الفَظ. رجوتُ بهذا الخطاب أن أرسمَ شخصيتي في عقل أفري بريئًا مثابراً.

في الساعة السابعة كنتُ في شارع نيوميلنز حيث أمسَك بي ويلكي. وجدتُه وضع ياقةً نظيفةً وغسل وجهه النحيف جزئيًا احتفالًا بهذه المناسبة. كان المسكين يُعاني من سُعالٍ يهزُّ جسدَه بقوة مثلما تهزُّ المولدات الكهربائية جدران محطة توليد الكهرباء.

اعتذَر نيابةً عن آيموس. قال: «ينتمي أندرو إلى الماضي. إنه يحظى بشهرةٍ واسعةٍ

بين جماعته، بالإضافة إلى أنه مقاتلٌ قوي، لكن ليست لدَيه أي رؤية. إنه من كبار مؤيدي حكومة جلادستون، وهي حكومةٌ محكومٌ عليها بالإخفاق ومُستهجَنة في اسكتلندا. كما أنه ليس صاحب فكرٍ حديثٍ يا سيد براند، مثلي ومثلك. لكنك ستقابل الليلة بضعةَ رجالٍ جديرين بالمعرفة. قد لا تكون قطعتَ شوطًا كبيرًا مثلهم لكنكم تتشاركون الوجهة نفسها. أتطلّع إلى اليوم الذي يكون لنا فيه مجالسُ للعمال والجنود في طول البلاد وعرضها مثل الروس، وأن نُمليَ شروطنا على الطّفيليين في البرلمان. لقد أخبروني أيضًا أن الشبان في الخنادق بدءوا في الانضمام إلى صفوفنا.»

دلَفنا إلى القاعة من بابٍ خلفي، وفي غرفة الانتظار الصغيرة قدّمني ويلكي إلى بعض المُتحدّثين. بدَوا حفنةً عشوائية، ولا سيما في هذا المكان الرث. كان رئيس اللجنة مُمثلًا عن أحد اتحادات العمال، وهو رجلٌ ضئيلٌ مشاكس، يتحدّث بلهجة سكان شرق لندن، ويخاطبني بـ «الرفيق». لكن أحدهم أثار فضولي بشكلٍ كبير. سمعتُ اسم جريسون، فاستدرتُ وإذا هو رجل في الخامسة والثلاثين تقريبًا، يرتدي ملابسَ أنيقة، ويضع زهرةً في عُروة سُترته. قال بلهجةٍ أمريكيةٍ خالصةٍ ذكرتني ببلنكيرون: «السيد براند. تشرّفتُ بمعرفتك. قَدمنا أنا وأنت من أماكنَ بعيدةٍ لنحضُر هذا الاجتماع.» لاحظتُ أن لدَيه شَعرًا مائلًا للحمرة، وعينَين متلألئتَين صغيرتَين، وأنفًا مُنحنيًا كأنوف اليهود البولنديين.

فور أن وصلنا إلى المنصة، أحسستُ بوجود مشكلةٍ وشيكة. كانت القاعة مكتظةً بالحاضرين، واحتل نصفَها الأمامي ذلك الصنفُ الذي توقّعتُه من الحاضرين، وهو الطبقة العاملة المعنية بالشأن السياسي التي كانت تتجمهر قبل الحرب في الاجتماعات الحزبية. لكن ليس كل الموجودين في الصفوف الخلفية قد قَدموا للإنصات للحاضرين. بعضهم كانوا من المُشاغبين، والبعض الآخر من موظّفي الطبقة المتوسطة الذين جاءوا من أجل المرح، بالإضافة إلى عددٍ كبيرٍ من الجنود الذين يرتدون الزي العسكري. كما كان هناك بضعةُ رجالٍ مُهذّبين ثمِلين قليلًا.

بدأ الرئيس خطابه بارتكاب خطأٍ فادح. قال إننا اجتمعنا الليلة لمعارضة استمرار الحرب وتشكيل فرعٍ من المجلس البريطاني للعمال والجنود الجدد. وتحدّث إلى الحاضرين بمزيجٍ دقيقٍ من الاستعارات عن ضرورة الإمساك بزمام الأمور؛ لأن المسئولين عن الحرب يتصرفون وفقًا لأجندتهم الخاصة، ويسعَون إلى تحقيق حكم الأقلية من خلال دماء العمال. أضاف أن خلافنا مع الألمان ليس بسوء خلافنا نفسه مع الرأسماليين في بلادنا. وتطلّع إلى اليوم الذي يقفز فيه الجنود البريطانيون من

خنادقهم ويمُدّون يد الصداقة لرفقائهم الألمان.

قال صوتٌ وقور: «كلا! لا أريد الحصول على طلقةٍ في المعدة»، وأثار تعليقُه الضحكاتِ وعباراتِ السخرية.

صَعِد تومز إلى المنصة تاليًا، وألقى خطابًا أسوأ من خطابِ رئيسه. كان مصرًا على الحديث، حسب تعبيره، إلى الديمقراطية بلغتها الخاصة، لذا استخدم كلمة «الجحيم» مرّاتٍ عَديدة، بصوتٍ عالٍ لكن بلا اقتناع. بعد ذلك انتقل إلى أسلوب المحاضر، فازداد ضَجَر الحاضرين. قال: «سأسأل نفسي سؤالًا»، فانبعث من الجزء الخلفي من القاعة صوتٌ يقول: «وستحصل على إجابةٍ قبيحةٍ تمامًا.» عقب ذلك اختفى تومز.

صَعِدتُ إلى المنصة تاليًا في توتّرٍ بالِغ، ولدهشتي لاحظتُ أن الحاضرين يُعيرونني انتباهَم جيدًا. أحسستُ بالدناءة والخزي، لأنني أمقُت التفوّه بالترّهات أمام الجنود، لا سيما أمام اثنَين من الجنود الاسكتلنديين الملكيّين الذين ربما يقاتلون في لوائي حسبما أعرف. تبنّيتُ دور رجلٍ وطنيٍّ عمليٍّ بسيط، قَدِم حديثًا من المُستعمرات، ينظر إلى الأمور من زاويةٍ مختلفة، ويدعو إلى عقدِ صفقةٍ جديدة. التزمتُ الوسطيّة، لكن اضطُررتُ إلى إقحام أجزاءٍ متطرفةٍ في الخطاب كي أُبرّر ظهوري على المنصة، وفعلتُ ذلك من خلال النقد اللاذع لوزارة الذخائر. مزجتُ خطابي ببعضِ عباراتِ الثناء الخفيفة على الألمان، ذاكرًا أنهم مشهورون على مستوى العالم بحُسن أخلاقهم. حظيتُ بتصفيقٍ قليل، لكن لم أتلقّ معارضةً واضحة، وعُدت إلى مقعدي في امتنانٍ بالِغ.

كان المُتحدث التالي هو مسك الختام. كان مشاغبًا سياسيًّا مشهورًا قد رحّلَته السلطاتُ حسبما أعتقد. لم يتلقّه الحضورُ بالفتور؛ إذ فور أن نهض من مقعدِه علت الهُتافاتُ من نصف الحاضرين وصيحاتُ الازدراء والتذمّر من النصف الآخر. استهل خطابه بنقدٍ سريعٍ للأغنياء الخاملين، ثم انتقل إلى الطبقات المُتوسّطة (واصفًا إياهم بخُدّام الرجلِ الغني)، وانتهى بالحكومة. تلقى الحاضرون خطابه بالاستحسان حتى هذه النقطة؛ إذ إن من عادة البريطانيين ذمّ حكوماتهم رغم كراهتهم تغييرَها. بعد ذلك حوّل نقده إلى الجنود وسبّ الضباط (نعتَهم بأنهم «جراءُ الأرستقراطيين») واتهَم الجنرالاتِ بالكسل والجبن وإدمان السُّكْر. أخبرنا أنه يُضَحّى بأصدقائنا وأقاربنا في كلِّ معركةٍ بواسطة قادةٍ ليست لديهم الشّجاعةُ لمشاطرتهم المخاطر. ظهر الاستياءُ على الجنود الاسكتلنديين كأنهم ليسوا متأكّدين مما يَعنيه. لكنه أعرب عن مقصده دون أي مواربة. قال: «أيُنكر الجنود أنهم يؤدّون دَورَ الدروع لحماية الضباط؟»

قال جندي من فوج البنادق الاسكتلندي: «هذا افتراءٌ محض!»

لم ينتبه المُحاضر لهذه المقاطعة، منجرفًا في سيل كلامه المُنمّق، لكنه لم يحسب حسابًا لإلحاح الجندي. نهض الجندي على قدمَيه ببطء، وأعلن رغبتَه في الحصول على اعتذارٍ من المحاضر. قال: «لو وجّهتَ الإهاناتِ للرجال الشرفاء بلسانِك القَذِر، فسأصعدُ على المنصة وأخنقُك بيدي.»

نجَم عن ذلك تلك الجلبةُ المعهودة؛ حيث طلب فريقٌ منهم «النظام» فيما ذهب آخرون إلى طلب «الإنصاف» وانهمَك فريقٌ ثالثٌ في التصفيق. شرع رجلٌ كنديٌّ في الجزء الخلفي من القاعة في غناءِ أغنية، وحصَل دفعٌ للأمام بصورةٍ مخيفة. بدا أن القاعة بأكملها تتحرك من الجزء الخلفي، وفاضت الممرّات بالرجال، وحتى مقدمة المنصة. لم تُعجِبني نظرة الوافدين الجدد، ورأيتُ وسط الحشد عددًا من رجال الشرطة في ثيابٍ مدنية.

همَس الرئيس في أذن المتحدّث الذي واصَل خطابه عندما خفتَت الضوضاء مؤقتًا. فابتعَد عن سيرة الجيش، وعاد إلى الحكومة، وجرى لسانُه بالحديث عن اللاسلطوية الخالصة. لكنه ارتكب خطأً فادحًا مرةً أخرى؛ لأنه استَشهَد بمناصري حزب شين فين مثالًا على الاستقلالية الحقّة. حينها ضجّت القاعة بالفوضى، ولم يُسمح له بمواصلةِ خطابِه مرةً أخرى. جرت عدة اشتباكاتٍ بالأيدي في القاعة بين العامة وبين مؤيدي المُحاضِر الشجعان.

تقدّم جريسون إلى حافة المنصة في محاولةٍ عبثية للسيطرة على الوضع. ولا بد من الاعتراف أنه أفلح في ذلك بصورةٍ استثنائية. فهو مُتحدثٌ مفوّه فيما يتّضح، ولوهلةٍ أتى استجداؤه: «لنهدأ قليلًا يا شباب ونتحدّث بالمنطق» بالتأثير المطلوب. لكن كان الضرَر قد وقع بالفعل، وتدافَع الحاضرون حول ملاذنا الوحيد حيث جلسنا. تبيّن لي أنه رغم مهارته في الحديث لم يُعجِب المُجتمعين منظره. كان وديعًا مثل حمامةٍ قمريةٍ لكنهم لم يُطيقوه. مرّت قذيفةٌ أمام أنفي، ورأيتُ ملفوفًا فاسدًا يحطّ على رأس المُرحّلِ السابع الأصلع. مدّ شخصٌ ذراعًا طويلة، وسحَب كرسيًا، ثم استخدَمه في إفقاد جريسون توازُنه. فجأةً انطفأَت الأضواء، وتقهقَرنا في انتظامٍ عَبْر باب المنصة والحاضرون الغاضبون في أعقابنا.

في تلك اللحظة ظهر نفعُ أفراد الشرطة الذين يرتدون ملابسَ مدنية. فقد أمسكوا بالباب إلى أن هرب المُرحّل السابق من ممرٍّ جانبي. كان هذا الشخص سيموت لا محالة لولا حمايةُ القانون الذي يريد إلغاءه. اضطُر بقيّتُنا، الذين ليس لديهم ما يخشَونه، إلى التسلّل إلى شارع نيوميلنز. وسرعان ما وجدتُ نفسي أركُض بجوار جريسون وأمسكتُ

بذراعِه. كان هناك جسمٌ صلبٌ في جيب معطفه.

لسوء الحظ كان هناك مصباحٌ كبيرٌ في البقعة التي خرجنا إليها، ووجدنا الجندِيّين الاسكتلنديّين، فشَعَرنا بالارتباك. كان كلاهما متأهبًا للقتال وعازمًا على إراقة الدماء. لم ينتبه إليّ أحد، لكن جريسون تحدّث بعدما اشتَعل غضبُهما فقرّرا استهدافَه. أسرعا نحوه وهما يُطلِقان صيحات الفرح.

شعرتُ بيدِه تتسلل إلى جَيبه الجانبي. فهمستُ في أُذنه زاجرًا: «اتركه في مكانه أيها الأحمق.»

قال: «بالتأكيد يا سيدي»، وفي اللحظة التالية وجدنا أنفسنا وسط المعمعة.

مثل الكثير من معارك الشوارع التي شهدتُها من قبلُ، تدافَع حشدٌ ضخمٌ نحونا في حلقةٍ دائرية، لكنه ترك مساحةً فارغةً للقتال. تقهقرتُ وجريسون إلى حائطِ رصيفِ المارة، والجنديان الغاضبان أمامنا. كانت نيّتي عدم القتال إلا عند الضرورة، لكن أثبتَت اللحظة الأولى أنه ليس له أي باعٍ في العراك بالأيدي، وتَملّكَني خوفٌ شديدٌ أن يستعمل المسدس القابع في جيبه. ذلك الخوفُ دفعَني إلى الانضمام إلى القتال. كان الجنديّان قويّين على بكرة أبيهما وتقدّم منهما واحدٌ لقتالنا. عالج ذلك الجندي جريسون بضربةٍ قويةٍ سريعةٍ في فكّه بيده اليسرى، ولولا الحائط لسقط على ظهره. رأيتُ في ضوء المصباح نظرةً متوحشةً في عين الأمريكي، ولاحظتُ تحرُّكَ يدِه صوبَ جيبه. قرّرتُ التدخّل وشكّلتُ حاجزًا بينه وبين مهاجمه.

جلب هذا الإجراء الجندي الثاني إلى ساحة المعركة. وهو عريضُ المَنكِبَين، شديدُ الضخامة، متقوّس الساقَين، قويٌّ البنية، مثل الجنود الذين رأيتُهم يعبُرون مثلث سكك الحديد في أراس بسهولةٍ كالسكين في الزبد. كانت لديه خبرةٌ لا بأس بها في القتال، فلم أغلبه بسهولة، لا سيما أنني كنتُ أُعارك الجندي الآخر في الوقت نفسه، وأحاوِل إبعادَه عن جريسون.

صرختُ: «عودا إلى البيت أيها الأحمقان. اتركا الرجلَ المحترمَ وشأنه. لا أريد إيذاءكما.»

كانت الإجابةُ التي حصلتُ عليها عبارةً عن لكمةٍ خطافيّة اتقيتُها بصعوبة، متبوعةٍ بضربةٍ شديدةٍ باليد اليُمنى ناحيةَ رأسي، لكن تفاديتُها فاصطدمَت براجِمُهُ بالحائط بصوتٍ مُدوّ. سمعتُ صرخةً غاضبة، ونظرتُ فإذا بجريسون قد ركَل مهاجمَه في قصبة ساقه. وبدأتُ أتوقُ لتدخُّل الشرطة.

ثم ماج الحشد كما يحدث عادةً عند اقتراب قوات الأمن. لكن كان قد فات الأوان على الحيلولة دون وقوع الشجار. فقد اضطُرِرتُ إلى أن آخُذ مُهاجمي بجدية دفاعًا عن نفسي، ولكمتُه عندما مدّ يده أبعدَ من اللازم وفقدَ توازُنه. ما ضربتُ أحدًا في حياتي إلا على مضضٍ. على إثْر الضربة، تراجَع الجندي إلى الخلف وسقط على الرصيف على ظهره.

وجدتُ نفسي أشرح لرجال الشرطة ما حدثَ بكل أدب. قلتُ: «هذان الرجلان قاطَعا خطابَ هذا الرجل المُحترم في الاجتماع، واضطُرِرتُ إلى التدخُّل من أجل حمايته. لا، لا! لا أريد توجيه التُّهَم لأي أحد. ما حدث مجرّد سُوءِ تفاهم!» ساعدتُ الجندي المضروب في النهوض على قدمَيه، وأعطيتُه عشرة شلنات ترضيةً له.

نظر إليّ بتجهُّم، وبصَق على الأرض. قال: «احتفظ بمالك القذر. فلم ينتهِ الأمر بيننا، وسأنتقم منكَ ومن ذلك الخائنِ ذي الشعر الأحمر. سأتذكّر وجهَيكما حين أراكما ثانية.»

كان جريسون يمسحُ الدم من خدّه بمنديلٍ حريري. قال: «أنا مدينٌ لك يا سيد براند. تأكّد أني لن أنسى لكَ صنيعكَ هذا.»

عُدت إلى آيموس الذي كان ينتظرني في قلق. قصصتُ عليه ما حدث، وأنصتَ هو إليّ في صمتٍ، ولم يُعلِّق إلا قائلًا: «أحسنتم صنعًا يا جنود فوج البنادق!»

واصَل: «لا أُنكر خطورة الموقف. لكنكَ جعلتَ جريسون مدينًا لك نوعًا ما، وهو ما قد يُفيدُك في المستقبل ... بمناسبة الحديث عن جريسون، لديّ أخبارٌ لك. سيُبحِر على متن سفينة «توبرموري»، يوم الجمعة، بصفته أمينَ حساباتها. تتجوّل السفينة مرةً في الشهر عَبْر المرتفعات الغربية الاسكتلندية حتى بلدة ستورنووي. حجزتُ لك تذكرة، يا سيد براند، كي تسافر على متنها.»

أومأتُ برأسي. وسألتُ: «كيف توصّلتَ إلى هذه المعلومة؟»

أجاب بجدية: «لقد استغرق الأمر بعض البحث لكن لديّ طُرقي ووسائلي الخاصة. لن أُزعجك بنصائحي، فأنتَ مثلي، تعي مهمّتك جيدًا. في الصباح، سأسافر إلى الشمال كي أتفقد أمرًا ما في غابات روس شاير وسأتلقّى البرقيات في قرية كايل. تذكّر ذلك جيدًا. ولا تنسَ أيضًا أنني قارئٌ جيد لرواية «سياحة المسيحي» ولديّ ابن عم اسمه أوكترلوني.»

الفصل الخامس

مغامرات في الغرب

لم تكن سفينة توبرموري مهيئةً للركاب. اكتظّت طوابقها بمختلفِ الأغراض، فلا يستطيع المرءُ السيرَ ولو خطوةً واحدةً دون أن يُضطَر لتغيير مساره. وكان فِراشي عبارةً عن رفٍّ في قاعة طعامٍ صغيرةٍ قذرةٍ تكتنفُها رائحةُ البيض باللحم مثل الضباب. صَعِدتُ على متن السفينة في جرينوك، وتجولّتُ على سطحها مع ربّانها عقب تناوُل الشاي، فيما راح يُخبِرني بأسماء التلال الزرقاء الكبيرة ناحيةَ الشمال. كان له وجه عجوز وسيم ذو لونٍ أحمرَ نُحاسي وسوالف مثل رئيس أساقفة، ولأنه قضى حياته يخوض غمار البحار الغربية، امتلأَت جعبته بالقصص مثل بيتر تمامًا.

قال: «على متن هذه السفينة، لا نعلم ما الذي يُخبّئه المستقبل لنا. قد أقدِّر أنني سأمكثُ في جزيرة كولونساي ساعتَين، وينتهي بي المطاف بالبقاء ثلاثة أيام. حصلتُ على برقية في مدينة أوبان، ثم وجدتُ نفسي في نقطةٍ أبعدَ من جزيرة بارا. كما أن التعاملُ مع الغنم من أصعب الأمور. إذ لا بد من أن أنقلها إلى حيث ستُباع، لكن تحريكها صعبٌ جدًا بسبب بُطئها. كما ترى، يا سيد براند، السفر على متن السفينة ليس أمرًا مُسليًا.»

كان مُحقًا في كلامه، إذ تأرجحَت السفينة المشوشة مثل الخنزير البدين، فور أن دُرْنا حول رأس جزيرة، وواجهنا الرياح الجنوبية. عندما سألني الربّان عن غايتي من هذه الرحلة، فسّرتُ له أنني من مستوطني جنوب أفريقيا ذو أصولٍ اسكتلندية، أزور مسقط رأسي للمرة الأولى، وأردتُ استكشافَ جمال المرتفعات الغربية. تركتُه يُدرك بنفسه أنني لست ثريًا من الناحية المادية.

سأل: «هل معك جوازُ سفر؟ فلن يسمحوا لك بالذهاب إلى أبعدَ من مدينة فورت ويليام دونه.»

لم يُخبرني آيموس شيئًا عن هذا الأمر، فحِرتُ في الجواب.

تابع الربان: «يمكنك المُكث في السفينة طَوال الرحلة، لكن ليس مسموحًا لك

بالنزول إلى يابسة. إن كنتَ تبحث عن المُتعة، فلن تجدها وأنت تجلس على سطح السفينة وتتأمّل إبداعَ الخالقِ دون أن يكون مسموحًا لك بالنزول إلى المرسى. كان من الأفضل لك أن تحصُل على إذنٍ خاص من المسئولين العسكريين في جلاسكو. لكن ستحظى بالكثير من الوقت لتعزمَ أمركَ قبل أن نصل إلى أوبان. سنتوقّف عدة مراتٍ في جزيرتَي مول وإسلاي.»

قَدِم أمينُ المحاسبة لتفقّد تذكرتي، وحيّاني بابتسامةٍ عريضة.

قال الربّان: «إذن أنت تعرفُ السيد جريسون! حسنًا، نحظى برفقةٍ صغيرةٍ سعيدةٍ على السفينة، وهذا أمرٌ عظيمٌ في وظيفتنا تلك.»

حظيتُ بوجبةِ عَشاءٍ سيئة؛ إذ ازدادت شدة الرياح، وتوقّعتُ أن أعاني من الغثيان لعدة ساعات. مشكلتي هي أنني لا أتعافى من الدُّوار بسرعة. تملّكَني الغثيان والصداع، ولم أجد مهربًا منهما إلا إلى النوم. وهكذا، ذهبتُ إلى فِراشي، وتركتُ ربّان السفينة ومساعده، الذي يدخّن نوعًا قويًا من التبغ على مسافةٍ تقلُّ عن ستّ أقدام من رأسي، ونمتُ نومًا مضطربًا. بعد ذلك استيقظتُ، لأجد الغرفة فارغةً تفوح فيها رائحة التبغ العطِن والجُبن. كان حاجباي ينبضان من الألم، وصار النوم ضربًا من ضروب الاستحالة؛ لذا حاولتُ التخفيفَ من حدة الألم، من خلال السير مترنحًا على سطحِ السفينة. كان الجوُّ عاصفًا والسماء صافية تتوهج كل نجمةٍ فيها كقِطَع الفحم المُتقدة، ورأيتُ المياه الداكنة المتلاطمة تجري ناحيةَ التلال السوداء الحالكة. فجأة، انهمر وابلٌ من الرذاذ فوقي، فتقهقرتُ عائدًا إلى فِراشي؛ حيث تمدّدتُ عدة ساعات، أحاول التخطيط للمهمة.

رأيتُ أنه لو أراد آيموس أن أحصُل على جواز سفر، لأمدّني بواحدٍ؛ لذا لم أشأ إزعاجَ نفسي بالتفكير في الأمر مرةً أخرى. لكن مهمّتي هي ملازمة جريسون، ولو مكثَت السفينةُ مدة أسبوع في المرسى نفسه، ونزل هو إلى اليابسة، فلا مفَر من ملاحقته. ومع عدم توافُر جواز سفر، لا بد أن أتفادى الوقوع في المشكلاتِ بأي وسيلةٍ مُمكنة، ما سيَسلبُني سهولةَ الحركة، وليس بمُستبعَد أن يجذبَ إليّ الأنظارَ أكثر مما أرغب. أظن أن آيموس فعل ذلك حتى يجعل جريسون يظن أنه لا خطر منّي. منطقة الخطر، إذن، ستكون البلدة التي تطلب جواز سفر لدخولها، وتقبع في مكانٍ ما، شمال مدينة فورت ويليام.

لكن لا مفَر من المخاطرة ودخول تلك البلدة إن أردتُ ملاحقةَ جريسون. وستسكُن شكوكه، إن وُجدَت، إذا غادرَت السفينة في أوبان، لكن سيتحتّم عليّ متابعة السفينة برًّا إلى الشمال، حتى أبلُغ المكانَ الذي سترسو فيه توبرموري لفترةٍ طويلة. لم يكن

للسفينة المشوشة أي خُطَط؛ فهي تتجوّل في المرتفعات الغربية بحثًا عن الغنم أو أي سلعةٍ أخرى؛ وربّانُ السفينة نفسُه ليس لديه أي جدولٍ زمنيٍّ بخصوص تحرُّكاتها. وليس من المُتخيّل أن يتكبّد جريسون كل هذا العنَاء إذا لم يكن متأكدًا أنه في مكانٍ ما — المكان المناسب — سيحظى ببعض الوقت على اليابسة. لكن لا يُمكنني سؤال جريسون في هذا الشأن؛ فأنا أعتزم أن أنصب شباكي حولَه دون أن يشعر. كنتُ على درايةٍ بالمسار العام للسفينة توبرموري؛ فستجتاز مضيقَ إسلاي وصولًا إلى جزيرة كولونساي، ثم ستتحرّك شرقَ جزيرة مول باتجاه مدينة أوبان، وبعد ذلك ستعبُر مضيقَ مول قاصدةً الجُزرَ الصغيرةَ التي لها أسماء كالمشروبات الكحولية روم وإيج وكول، وستتجه إلى جزيرة سكاي تاليًا، وفي نهاية المطاف ستُبحر إلى جزر هبرديز الخارجية. خمّنتُ أن تلك الأخيرة هي المحطة المنشودة، وبدا أن من الجنون أن أغادر السفينة هناك؛ إذ الله وحده يعلم كيف سأجتاز مضيقَ مينش من الأساس. هذه المسألة وحدَها أطاحت بخُطَطي كلها، ونمتُ نومًا مضطربًا دون أن أصل إلى أي نتيجة.

استيقظتُ في الصباح لأجد السفينة تعبُر المضيقَ الفاصلَ بين جزيرتَي جورا وإسلاي، وتوقفَت لفترةٍ وجيزةٍ في ميناءٍ صغير، بحلول منتصف اليوم، وأفرغَت بعضًا من حمولتها وحملَت بضعةَ رعاةٍ ذاهِبين إلى كولونساي. كانت فترةُ الظهيرة هادئة، ورائحة للملح وأعشاب الخلنج تُداعب أنفي، ما أزالَ الآثارَ المُتبقيةَ من الغثيان، وقضيتُ ساعةً مُثمرةً في اللسان، أتصفّح كُتيِّب سفرٍ يُدعى «دليل بادلي إلى اسكتلندا» وإحدى خرائط بارثاليميو. بدأتُ أشعُر أن آيموس قد يُخبرني بشيءٍ ما؛ إذ استشفَفتُ من حديثي مع الربّان أنه لن تمكُث السفينة طويلًا في أنحاء جزيرتَي روم وإيج. لم يَحِن الموسمُ الكبيرُ للترحال الرعَوي بعدُ، وستُنقل الغنم التي ستباع في سوق أوبان في رحلة العودة. في تلك الحالة، ستكون جزيرة سكاي هي أول هدفٍ يجب أن أُركّز عليه، ولو استطعتُ الوصول إلى أي معلومةٍ عن توافُر حمولةٍ كبيرةٍ هناك، فسأضع خطَطي وفقًا لذلك. آيموس في مكانٍ ما قريبًا من قرية كايل، في الجهة المقابلة للمخانقِ التي تفصلُ بين سكاي والبر الرئيسي. بدا لي، وأنا أتفقّد الخريطة، أنه على الرغم من عدم امتلاكي جوازَ سفر، فقد أتمكن من شَق طريقي عَبْر شبه جزيرة مورفيرن وقرية أرسيج إلى داخل حدود جزيرة سكاي. ستكمُن الصعوبة في عبور الشريط المائي لكن لا بد من وجود قواربَ يمكن للمرء أن يتسوّل ركوبها أو يستعيرها أو يسرقها.

كنتُ منهمكًا في تفحُّص «دليل بادلي»، عندما قدم جريسون وجلس بجواري. لاحظتُ أنه في مزاجٍ رائق، ميّال إلى الحديث، واندهشتُ لمّا رأيتُه يُسهب في الحديث عن جماليات الريف. كان كل شيء حولَنا يكسوه وهجٌ أخضَرُ زاهٍ، وكانت تلالُ الخلنج

المنحدرة باسقةً تُلامِس عَنان السماء مثل أحجار الجمشت الأرجوانية، فيما امتزجَت صفحة المحيط الغربي الذهبية الباهتة بأفق المغيب. دفَع جمالُ المشهد جريسون إلى الإسهاب في الحديث عنه بعاطفةٍ جياشة. قال: «يُجدِّد هذا المشهدُ روحي يا سيد براند. في كثير من الأحيان أجد نفسي مدفوعًا إلى الابتعاد عن تلك البلدة القديمة وإلا زالت عني حيويّتي. يشعُر الإنسان بإنسانيته عندما يكون في مكانٍ عبقِ الرائحة مثل هذا. تُرى ما الذي دفَع البشَر إلى العيش في أقفاصٍ من الحجارة والجير؟ يومًا ما سأقود سفينتي إلى مكانٍ نظيف، وأنزل به، وأكتُب القصائد. هذا المكان سيكون مناسبًا. كما أن هناك بقعةً أخرى في كاليفورنيا، على سلاسل الساحل الجبلية، تُثير اهتمامي.» الغريب في الأمر هو أني أعتقدُ أنه كان يعني ما يقوله. فقد أشرق وجهه القبيح في سعادة جادة.

أخبرني أنه قام بهذه الرحلة من قبلُ، فأخرجتُ «دليل بادلي»، وطلبتُ منه النصيحة. قلتُ: «لا أملك قضاء الكثير من الوقت في العطلات، وأريد زيارة كل المواقع الجذابة. لكن غالبيتها، فيما يبدو، تقع في المنطقة التي تحظُر الحكومة البريطانية الحمقاء دخولَها دون جوازِ سفر. أعتقد أنني سأُضطَر إلى أن أتركك في أوبان.»

قال بشفقة: «يا للأسف. حسنًا، سمعتُ بوجود بعض المعالم السياحية الجذّابة حول أوبان.» وقلّب صفحاتِ الدليل، وشرع في القراءة عن قرية جلينكو.

أخبرتُه أنها ليست ما أنشُده، واختلقتُ حكايةً عن الأمير تشارلي، والدور الذي أدّاه جدٌّ أُمي في تلك المسرحية. أخبرتُه عن رغبتي في زيارة المكان الذي نزل فيه الأمير ورحل إلى فرنسا. قلتُ: «على حدّ علمي لن يقودَني ذلك إلى المكان الذي يتطلب جواز سفر، لكن سأضطَر للسير مسافةً طويلة. حسنًا، أنا معتاد على السفر سيرًا على الأقدام. سأجعل القبطان يُنزِلني في مورفيرن، ثم سأسير حول قمة لاخييل وسأعود إلى أوبان عَبْر مقاطعة أبين. ما رأيك في مسار العطلة هذا؟»

استحسن جريسون المسار. قال: «لكن لو كنتُ مكانك يا سيد براند، لجرّبتُ إرباك رجال الشرطة الشجعان. كلانا لا يثق في الحكومات ولا في قوانينها العديمة القيمة، وستكون لعبةً مسليةً أن تختبر قدرتك في اختراق البلدة المحظورة. ورجلٌ مثلك يستطيعُ خداعَ أولئك الحمقى بكل سهولة. لا أمانع المراهنة على أنك ...»

قلتُ: «لا. خرجتُ لأجل الراحة لا التنافُس. لو أن هناك مكانًا أتطلّع إلى بلوغه بواسطة الحيلة فسيكون جُزر أوركني. لكنها مهمةٌ عسيرة ويمكنني التفكير في أماكن أخرى أفضل للزيارة.»

ردّ: «حقًّا؟ كما شئتَ، استَمتِع بطريقتك الخاصة. سأشعُر بالأسف عند مغادرتك؛ لأنني أدينُ لك بإنقاذ حياتي في أثناء العِراكِ العنيف، ولا تروقني رفقة الربّان العجوز المتحفّظ.»

ذلك المساء تبادلتُ وجريسون سرد القصص بعد العَشاء، فيما عبّر صديقُنا الربّان ومساعدُه عن دهشتهما بكلماتٍ مثل «يا إلهي!» «هل هذا مُمكن؟» ثم ذهبتُ إلى الفراش بعد تناوُل القليل من مشروبِ الرُّوم المُخفّف وعوّضتُ سهرَ الليلة الماضية بنومٍ عميق. كنتُ أحملُ معي حقيبةَ ظهرٍ صغيرة، بالإضافة إلى الملابس التي أضعُها على جسَدي ومحتوياتِ جيوبي المقاومة للماء، لكن وفقًا لنصيحة آيموس أحضرتُ معي مُسدسي الصغير المَطلي بالنيكل. في أثناء النهار يظل المسدس في جيب السروال الخلفي، فيما أضعه وراء وسادتي في الليل. لكن عندما استيقظتُ في صباح اليوم التالي، ووجدتُ أنّنا نرسو في الخليج عند سفح التلال المُنخفضة الوَعْرة، في جزيرة كولونساي حسب معرفتي، لم أجد أثرًا للمسدس. بحثتُ عنه في كل شِبر من الفراش، وما جنيتُ سوى نفض الريش من غطاء الحشية العتيق. تذكّرتُ بوضوح أنني وضعتُه خلف رأسي قبل خلودي للنوم، لكنه الآن قد اختفى تمامًا. بطبيعة الحال، لم أتمكّن من الإعلان عن خسارتي، ولم أكترث للأمر كثيرًا؛ لأن هذه الوظيفة لا يُمكنني أن أستخدم الأعيرة النارية فيها بكثرة. لكن دفعَتْني الحادثة إلى التفكير مليًّا في أمر السيد جريسون. لا يُوجَد أدنى مبرر لإثارة شكوكه حولي، ولو أنه استولَى على مسدسي — وهو ما فعله بلا شك — فهذا بغرض أن يستأثر به لنفسه، لا لأنه يريد تجريدي من سلاحي. وكلّما قلّبتُ الأمر في عقلي، وصلتُ إلى النتيجة نفسها. لا بد أنه يراني مأمونَ الجانب مثل طفلٍ وديع.

قضَينا معظم ساعات النهار في جزيرة كولونساي، ولازَمني جريسون مثل الظل، بقَدْر ما سمحَت له واجباتُه. وقبل أن أنزل إلى اليابسة كتبتُ برقيةً إلى آيموس. كنتُ قد كرّستُ ساعةً مزدحمة لرواية «سياحة المسيحي»، لكن أخفقَت جميع محاولاتي في تأليف أي رسالةٍ ذات معنًى مرجعُها نصُّها. لم تكن نسختي تختلف عن نسخة آيموس؛ فكلتاهما جزء من سلسلة «الخزانة الذهبية»؛ لذا كان بإمكاني تأليفُ ما يُشبه رسالةً مشفرةً من خلال الإشارة إلى سطور الرواية وصفحاتها، لولا أنها ستتطلّب العشرات من نماذج البرقيات، بدا لي أن ذلك سيكون جهدًا لا يتناسب مع غايتي. لذا أرسلتُ الرسالة التالية:

أوكترلوني، مكتب البريد، كايل، آمل أن أقضي جزءًا من العطلة بجوارك، وأن أزورك إن سمح لي برنامج السفينة. هل هناك أي شحناتٍ تنتظِر بجوارك؟ يُرسَل الردُّ إلى مكتب البريد، أوبان.

كان لازمًا ألا يكتشف جريسون أمر هذه الرسالة، لكن لم يكن من السهل التخلص منه. جاء وقت الظهيرة، وخرجتُ في جولة على الساحل، ومررْتُ بمكتب البريد، لكن اللعين لم يترك جانبي أبدًا. كانت فرصتي الوحيدة هي قبل الإبحار مباشرة؛ إذ لن يجد مَفرًا من صعوده إلى السفينة وتفقُّد الشحنات. كان من السهل رؤيةُ مكتبِ البريدِ من فوق سطح السفينة لذا لم أقترب منه قيدَ أنملة. لكن في أقصى القرية الصغيرة، التقيتُ بمُدير المدرسة، واستخلصتُ منه وعدًا بإرسال البرقية. كما اشتريتُ منه بضع رواياتٍ مهترئةٍ من فئة البنسات السبعة.

كانت النتيجة أن أخّرتُ رحيل السفينة عشرَ دقائق، وعندما صَعدتُ إلى السطح، التقيتُ بجريسون الذي كان في قمة غضبه. سأل: «أين كنتَ بحق الجحيم؟ الطقس يزداد سوءًا والعجوز يُريد الانطلاق بأقصى سرعة. ألم تكفِكَ نزهةُ بعد الظهيرة؟»

شرحتُ له بأدب، أنني التقيتُ بمدير المدرسة لشراء بعض الروايات، وأريتُه المجلداتِ الحمراءَ البالية. على الفور انحلّت تلك العقدة التي تكوّنَت بين حاجبَيه. ولاحظتُ كيف سكنَت شكوكُه.

غادرنا كولونساي في حوالي الساعة السادسة مساءً، والسماء خلفَنا تُنذر بعاصفةٍ وشيكة، وتلال جورا تُحاوطها هالةٌ أرجوانيةٌ غاضبة على مَيمنتنا. كان سطح جزيرة كولونساي منخفضًا للغاية فلم يُشكّل أي حاجزٍ من الرياح الغربية الشديدة؛ لذا كان الطقس سيئًا منذ البداية. كان من المُقرَّر أن نتّجه إلى الشمال الشرقي، وعندما اجتزنا نهايةَ الجزيرة، شقَقْنا طريقنا ببطء بين الأمواج المتلاطِمة، كانت السفينة تبتلِع قدْرًا كبيرًا من الماء وترتجٌ كالجاموس. لم تتجاوز معلوماتي عن السفن معلوماتي عن اللغة الهيروغليفية، لكن حتى للعينَين غير الخبيرتَين لم يكن هناك أدنى شك في أننا سنحظى بليلةٍ عاصفة. عزمتُ ألا أُصابَ بالغثيان مرةً أخرى، لكن عندما هبطتُ إلى الطابق السفليّ، أنذرَت رائحة الأمعاء والبصل بنهايتي؛ لذا تناولتُ قطعةً من الشكولاتة وقطعةً من البسكويت، وارتديتُ معطفي المقاوم للماء، وعزمتُ على البقاء على السطح مهما كلّف الأمر.

تمركزتُ بالقُرب من مقدمة السفينة بعيدًا عن روائح المُحرِّك الزيتية. كانت الأجواءُ منعشةً كما لو كنت واقفًا على قمة الجبل، لكنها في غاية البرودة والرطوبة، نظرًا للعاصفة الماطرة ورذاذ الأمواج العالية. وفيما اندفعَت السفينة ناحيةَ الشفق وقفتُ هناك محاولًا الحفاظ على اتِّزاني، مُتشبثًا بحبلٍ مُتدلٍّ من السارية القصيرة بإحدى يديَّ. لاحظتُ أنْ ليس بيني وبينَ الحافة إلا حاجزٌ منخفض، لكن أصابتني خطورة الوضع بالإثارة وساعدَتْني في تجنُّب الإصابة بالغثيان. تمايلتُ مع حركة السفينة، ورغم مُعاناتي من شدة البرودة إلا أنني كنتُ في غاية الاستمتاع. كانت خُطتي هي أن أجعل الطقس يطردُ شعوري بالغثيان، ثم أهبط إلى الطابق السفلي عندما يتملّك منِّي التعَب وأخلُد إلى النوم مباشرة.

وقفتُ هناك حتى حلّ الظلام. كنتُ حينها قد تجمّدتُ في وقفتي مثلما يحدث لحارسٍ يباشرُ نَوبةَ حراسته. جالت أفكاري حول الأرض، بدءًا من المهمة التي انطلقتُ بها، وانتقلتُ على الفور — من خلال استذكار بلنكيرون وبيتر — إلى الغابة الألمانية حيث كادت تفتك بي الحُمّى والعجوز شتوم، في عيد الميلاد المجيد عام ١٩١٥. تذكّرتُ البرودةَ اللاذعةَ لذلك السباق المحموم، وكيف شعَرتُ أن الثلجَ حارقٌ مثل النار عندما تعثّرتُ وغُصتُ بوجهي فيه. فكّرتُ أن الغثيانَ هو أمرٌ تافه مقارنةً بنوبةٍ قويةٍ من الملاريا.

ازداد الطقسُ سوءًا، وطالَني من البحر ما هو أكثر من رذاذ أمواجه. بدأ الخدَر يسري إلى أصابعي، فعانقتُ الحبل بمرفقي. عُدت إلى أحلامي التي دارت بشكلٍ أساسي حول نُزُل «فوس مانر» وماري لامنتون. وغشيَتني راحةٌ تامةٌ كما لو كنتُ نائمًا. حاولتُ أن أستحضر في ذهني صورتَها كما رأيتُها آخر مرة في محطة بيجلزويك ...

ارتطم بي جسمٌ ثقيل، فأفلتَت ذراعي الحبل. انزلقتُ على سطح السفينة وسط دوّامة من الماء. وعلقَت قدمي بإحدى دعامات الحاجز، لكنها انهارت تحت ثقلي، ووجدتُ نصف جسدي يتدلّى من فوق حافة السفينة للحظة. لكن تصارعَت أصابعي في الهواء بجموح حتى تشبّثت بحلقات ما أظن أنها سلسلة المرساة. حملَت هذه السلسلة ثُقلي على الرغم من أني شعَرتُ بثقلٍ هائل يتدلى من قدميّ ... ثم اعتدلَت السفينة، وانحسَر عنها الماء، وتمدّدتُ على السطح المُبلل متقطّعَ الأنفاس، وجالون من الماء المالح في قَصبتي الهوائية.

سمعتُ صوتَ صُراخٍ حاد، وساعدَتْني يدٌ على النهوض على قدميّ. تبيّن أنه جريسون، وبدا أنه في غاية الانفعال.

قال: يا إلهي، أفلتّ من الموت بأعجوبة يا سيد براند. صَعدتُ لأبحث عنك عندما مالت السفينة اللّعينة على جانبها. وجدتُ نفسي أندفع نحوكَ مثل المدفع، ووجّهتُ لنفسي ألفاظًا نابيةً عندما رأيتُك تتدحرج في المُحيط الأطلسي. لو لم أُمسك الحبل بقوّة، لسقطتُ بجانبك مباشرة. أخبِرني، هل تأذّيت؟ من الأفضل أن تذهبَ إلى الطابق السفلي وتتناولَ كأسًا من الروم لتبعثَ الدفءَ إلى أحشائك. أنتَ مُبلّل تمامًا كمِنشَفةِ صحون.

للقتال في المعارك ميزة. هو يُعلّمك أن تأخذ ما يُلقيه إليك الحظ ولا تقلق بشأن ما فاتك. لم أُفكِّر كثيرًا في المسألة باستثناء أنها عالجَتْني من دُوار البحر. نزلتُ إلى المقصورة الكريهة الرائحة دون أدنى شعورٍ بالغثيان، وتناولتُ مقدارًا كبيرًا من الجُبن على شريحة خبزٍ محمَّرة وخمر الباس المُعبّأة متبوعةً ببضعِ رشفات من الروم. ثم نزعتُ ملابسي المبلّلة، ونمتُ في الفراش، حتى رسَونا بالقرب من إحدى قرى جزيرة مول في صباحٍ صافٍ.

استغرق الوصولُ إلى مدينة أوبان أربعةَ أيامٍ زحَفْنا فيها على امتداد الساحل، إذ أدّينا دَور متجرٍ عامٍّ عائمٍ لكل قرية في تلك الأرجاء. تصرّف جريسون بلُطفٍ بالغ، كأنه يريد التعويض عن فعلَته التي كادت أن تُودي بحياتي. لعبنا البوكر قليلًا، وقرأتُ الروايات التي اشتريتُها من كولونساي، ثم أعددنا خيط صنارة الصيد، واصطدنا أسماك البلوق، والقد، وكنا في بعض الأحيان نصيد سمكةَ حدوق كبيرة. لكن كان الوقت يمضي ببطء، وكنتُ سعيدًا عندما وصلنا، ذات يومٍ في فترة الظهيرة تقريبًا، إلى خليج تسُدُّه الجزُر، ورأيتُ مدينةً صغيرةً نظيفةً تتربّع على التلال ودخانًا منبعثًا من قطار السكة الحديدية.

نزلتُ إلى اليابسة، واشتريتُ قُبعةً فخمةً من متجرٍ لملابس التويد. ثم اتجهتُ مباشرةً إلى مكتب البريد وسألتُ ما إذا كانت هناك برقياتٌ من أجلي. أعطاني المسئول برقية، وفيما كنتُ أفتَحُها، رأيتُ جريسون بجواري.

كان نصها:

> براند، مكتب البريد، أوبان.
> الصفحة رقم ١١٧، الفقرة ٣. أوكترلوني.

مرّرتُ البرقية إلى جريسون بوجهٍ حزين.

قلتُ: «برقيةٌ حمقاء. لديّ ابن عم — وهو قسٌّ مشيخي في روس شاير — وقبل أن أدركَ حماقةَ جواز السفر، كتبتُ إليه وعرضتُ عليه زيارته. أخبرتُه أن يراسلني هُنا، حينما يتيسّر له الأمر، وقد أرسل لي العجوزُ الأحمقُ برقيةً خاطئة. لا بد أنه قصد إرسالها إلى أخٍ من القساوسة الذي تلقّى برقيّتي بدَوره.»

سأل جريسون بفضول، فيما تطلّع إلى التوقيع أسفل البرقية: «ما اسم الرجل؟»

قلتُ: «أوكترلوني. ديفيد أوكترلوني. هو بارعٌ في كتابة الكتب لكنه عديمُ الحيلة عندما يتعلق الأمر بالبرقيات. لكن، لا يهم؛ فلن أستطيع الذهاب إليه على أي حال.» جعدتُ البرقية الوردية وألقيتُها على الأرض. ثم سرتُ وجريسون إلى توبرموري.

عندما سنحَت لي الفرصة في المساء، أخرجتُ نُسختي من رواية «سياحة المسيحي». كان نص الفقرة الثالثة، صفحة ١١٧ كما يلي:

> قال صاحب الرؤيا، حينئذٍ رأيتُ أن رجلًا يُقال له ديماس كان جالسًا بالقُرب من الطريق إلى جانبِ منجمِ الفضة، يدعو أبناء السبيل إلى التفرُّج عليه. فلما دنا منه المسيحي وصاحبُه قال لهما: «عرِّجا إلى هنا لأريَكُما منظرًا عجيبًا.»

فيما كنا نشرب الشاي، أدرتُ دفّة الحديث إلى ماضيّ. أسهبتُ في الحديث عن خبراتي في هندسة التنجيم، وقلتُ إنني لن أُفلِح أبدًا في التخلُّص من عادة تأمُّل البلاد من منظور المنقِّب. وأضفتُ: «على سبيل المثال، لو أننا في روديسيا، لقلتُ إن احتمالية توافُر النحاس في التلال المُطلّة على البلدة كبيرة. فهي تُشبِه التلال المُحيطة بمنجم ميسينا.» أخبرتُ الربّان أنني فكّرتُ في الالتفات إلى المرتفعات الغربية والبحث عن المعادن بعد انتهاء الحرب.

ردّ الربّان: «لن تجني شيئًا من هذا. فتكاليف التنقيب باهظة، وحتى لو عثرتَ على المعادن، فستدعوك الحاجة إلى جلب الأيدي العاملة من الخارج. وهذا لأن سكان المرتفعات الغربية غيرُ مولَعين بالأعمال الشاقّة. هل سمعتَ من قبلُ عن أنشودة المزارعين؟

ليت الأعشاب الجافة تقطع نفسها،
والأسماك تتحوّل إلى شرائحَ كبيرةٍ على الشاطئ،

وأنا في فراشي أستلقي،
إلى الأبد!

سألتُ: «هل جرّب أحدٌ البحث عن المعادن؟»

أجاب: «كثيرًا. هناك محاجر الرخام والأردواز، وسمعتُ شائعاتٍ عن وجود الفحم على جزيرة بنبيكولا. كما أن هناك مناجمَ حديدٍ في بلدة رانا.»

سألتُ: «أين تُوجَد هذه البلدة؟»

قال: «في مواجهة جزيرة سكاي. نمُر عليها ونمكُث قليلًا عادةً. لدَينا شحنةٌ كبيرةٌ متجهةٌ لبلدة رانا، وفي العادة نحمِل شحنةً كبيرةً في العودة. لكن كما أخبرتُك، لا يعمل هناك سوى القليل من سكان المُرتفعات. أما غالبية العمّال فهم من الأيرلندِيين والشباب القادمين من شِبه جزيرة فايف وبلدة فالكيرك.»

لم أواصل الكلام في الموضوع؛ فقد عثَرتُ على منجم فضّة ديماس المنشود. لو رست سفينة توبرموري في جزيرة رانا، لمدة أسبوع، فسيتوافر لجريسون الوقتُ الكافي للقيام بمهمته السرية. لكنها ليست البُقعة المنشودة لأنها مكشوفةٌ للعالم بأَسْره بحُكم موقعها وسط قناةٍ يكثر سالكوها. لكن جزيرة سكاي تقع في الجهة المُقابلة، وعندما تفقدتُ شِبه جُزرها الكبيرة المتشعّبة على خريطة، تأكّدتُ من صحّة ما وصلتُ إليه؛ وهو أن سكاي هي وجهتي المنشودة.

قضيتُ المساء مع جريسون على سطح السفينة، وسط أجواءٍ ساحرةٍ من السكون والنجوم التي تُرصِّع السماء، ورُحنا نُراقِب مصابيحَ البلدة وهي تخفتُ رويدًا رويدًا، ونتحدّث في الكثير من الموضوعات. لاحظتُ — وهو ما رأيتُ ملمحًا منه في السابق — أن رفيقي ليس رجلًا من العامة. كانت هناك لحظاتٌ ينسى فيها نفسه، ويتحدث كرجلٍ مهذّبٍ مثقّف، ثم يتذكّر ويعود إلى لهجة أهل مدينة ليدفيل بولاية كولورادو. وجّهتُ إليه أسئلةً صعبةً عن السياسة والاقتصاد — متبنيًا شخصيةَ السائل الساذج — وتظاهرتُ بمعرفتي بهذه الأمور من خلال التصفُّح السطحي للكتبِ غيرِ المُتخصِّصة. بصفةٍ عامة، كان يُجيب بالكلمات الرائجة العامية، لكن عندما تأخُذه الحماسة بعيدًا — وهو ما كان يحدث من وقتٍ لآخر — يُلقي عليَّ محاضرةً كما لو كنتُ واحدًا من أقرانه. واكتشفتُ أمرًا آخر، وهو أنه مهووسٌ بالشعر وذو ذاكرةٍ قويةٍ لحفظه. نسيتُ كيف انجرفنا في حديثنا إلى الشعر، لكن أذكُر اقتباسه لأبياتٍ مؤثرةٍ غريبة، زعم أنها لسوينبرن، وأبياتٍ لشعراءَ آخرين سمعتُ عنهم من ليتشفورد في بيجلزويك. شعَر من

صمتي أنه قد أفرط في الحديث، فتراجَع إلى لهجة غرب أمريكا. سأل عن خُطَطي، ونزَلنا إلى المقصورة، وتفقدّنا الخريطة. شرحتُ له المسارَ الذي أنوي اتخاذه، وهو الاتجاه شمالًا إلى شِبه جزيرة مورفيرن، ثم الدوران حول لسان لوخيل، والعودة إلى أوبان من الجانب الشرقي من بحيرة لوخ لينيه.

قال: «فهمتُك. تنتظرك نزهةٌ طويلةٌ على الأقدام. لم أتحمّس لهذا الأمر قط، فلا أحسُدك. وماذا ستفعل بعد ذلك يا سيد براند؟»

قلتُ بخفّة: «سأعود إلى جلاسكو لتأدية بعض المهام الخاصة بالقضية.»

قال بابتسامةٍ واسعة: «أنتَ مُحِق. يفوزُ باللّذات كلُّ مثابر.»

في فجر اليوم التالي، أبحرنا من الخليج، وبحلول الساعة التاسعة صباحًا، نزلتُ إلى اليابسة، في قريةٍ صغيرة تُدعى لوخاليين. حملتُ كل مقتنياتي في حقيبة الظهر، وملأتُ جيوب المعطف الواقي من المطر بعُلَب الشكولاتة والبسكويت التي اشتريتُها من أوبان. حاول الربّان أن يَثنيَني عن رحلتي. قال: «ستعجزُ أمام المرتفعاتِ يا سيد براند، من قبل أن تتمكّن من الدوران حول اللسان البحري. وستودُّ لو أنك تعود إلى توبرموري.» لكن حثّني جريسون على الرحيل، وقال إنه يتمنّى القدوم معي. بل ذهبَت به الحماسة إلى مرافقتي مسافةَ مائةِ ياردة، قبل أن يُلوّح بقُبعتِه ويُودّعني، عندما بلغتُ طريقًا جانبيًا.

كان الجزء الأول من رحلتي مُبهجًا للغاية. كنتُ ممتنًا لخلاصي من السفينة الكئيبة، ومسَح عني الهواءُ الدافئُ المُحمّل بروائح الصيف أثناء نزولي إلى الوداي تعبَ هواءِ البحرِ البارِدِ المالح. كان الطريق يمُر بجانب خليجٍ صغير يستقرُّ على قِمته منزلٌ أبيضُ كبير بين البساتين. وسرعانَ ما تركتُ الساحلَ ووجدتُ نفسي في وادٍ يجري فيه نهرٌ مُتعرّج تقطنه أسماك السلمون عَبْر أرضٍ واسعةٍ تكسوها أعشابُ الميرقية الحلوة. كان منبعه بحيرة يرتفع من ورائها جبلٌ شديد الانحدار؛ كانت صفحتُها برّاقةً للغاية فعكسَت بوضوحٍ كلَّ شَقٍّ وتجعيدٍ في جانب الجبل. بعد ذلك اجتزتُ دربًا مُنخفضًا يُفضي إلى خليجٍ صغيرٍ آخر، واتبعتُ الخريطة فصَعدتُ تلةً كبيرةً وجلستُ أتغدّى عليها، مُطلًا على منظرٍ بديعٍ من الأشجار الكثيفة والمسطّحات المائية بالأسفل.

قضيتُ ساعاتِ النهارِ وأنا في غاية الفرح، لا أفكّر في جريسون ولا أفري، بل أُريح عقلي عَبْر تأمُّلِ المساحات الشاسعات، واستنشاقِ هواءِ التلال العليل. لكن لاحظتُ شيئًا مثيرًا للانتباه. في رحلتي الأخيرة إلى اسكتلندا، عندما توغّلتُ في المروج وسرتُ مسافاتٍ طويلةً في اليوم الواحد لم يَسِرْها رجلٌ قط منذ مسألة كلافير هاوس، كنتُ

مأخوذًا بالأجواء وانهمكتُ بالتخطيط للتقاعُد في هذه البقعة. لكن الآن، بعد ثلاث سنوات من الحرب والدمار العام الذي خلّفَته، لم أعُد مفتونًا بها مثلما كنتُ في الماضي. أردتُ مكانًا أكثرَ خضرةً وأمانًا وصالحًا للسُّكنى، ووجدتُ ذكرياتي تعود إلى منطقة كوتسوولدز في شوقٍ.

احترتُ في سبب هذا التغيُّر، حتى أدركتُ أن شخصيةً بعينها تظهر وتختفي في ذكرياتي عن تلال كوتسوولدز — صبية لها شعرٌ ذهبيٌّ غزير وهيئة صبيٍّ رشيقٍ قوي، وهي نفسُها التي سمعتُها تُغَني «كرز لذيذ» في الحديقة تحت ضوء القمر. على منحدَر التلِّ فهمتُ بوضوح أنني أُغرمتُ بصبيةٍ تصغرني نصفَ عمري، وأنا الذي لم يعبأ بالنساء كناسكٍ متعبد. لم يكن الاعترافُ بهذا الاستنتاج أمرًا سهلًا على نفسي على الرغم من أنه ظل يُلِح عليّ لأسابيع. لا أقصد أنني لا أستمتع بهذا الحب المجنون، غير أنني أراه ضربًا من ضُروب المُستحيلات، ولستُ بحاجة للعلاقات العابرة. لكن، في أثناء جلوسي على الصخرة والتهام الشكولاتة والبسكويت بنهَم، واجهتُ الحقيقة مباشرة وعزمتُ على أن أثق بحظي. على أي حال، نحن زميلان في مهنةٍ خطيرة، والآن لديّ فرصة لأن أُظهِر الشجاعة الكافية لأفوز بقلبها. استجمعَت هذه الفكرةُ كل ذرةِ شجاعةٍ موجودةٍ داخلي. وكلُّ المهام العسيرة بدَت يسيرةً من أجل نَيل رضاها والفوز بمرافقتها بعد ذلك. جلستُ لفترةٍ طويلةٍ مستغرقًا في هذا الحلم السعيد، أتذكَّر كل المرّات التي حظيتُ فيها برؤيتها بصورةٍ سريعة، وأُدَندِن بأغنِيتها لمُستمعي الوحيد، وهو خروفٌ أسودُ الوجه.

في الطريق الرئيسي بالأسفل، وعلى بُعد نصف ميل من مكاني، رأيتُ شخصًا يصعد التلة بواسطة دراجة، ثم يترجّل عند القمة ليمسح وجهَه من العرق. التفتُّ إليه، بمنظار «زايس» المعظم، وأدركتُ أنه شرطيٌّ ريفي. انتبَه الشرطي لوجودي، وحملَق هُنيهة، ثم وضع درّاجتَه على جانب الطريق، وبدأ يصعَد جانب التلّة ببطءٍ شديد. فور أن توقّف، لوّح إليّ بيده، وقال شيئًا بصوتٍ عالٍ لم أستطع فهمه. جلستُ أُنهِي وجبةَ الغداء، حتى برزَ عجوزٌ بدين، يلتقط أنفاسَه بصعوبة، وتستقرُّ قُبعتُه في مؤخرة رأسه الأصلع، وينعقد طرفا سرواله عند قصبتَي ساقَيه بواسطة حبلٍ.

كان بجانبي ينبوعُ ماء، فملأتُ منه قارورة الماء لأختم وجبتي.

قلتُ: «تفضّل بعضَ الماء.»

تلألأَت عيناه وارتسمَت ابتسامةٌ عريضةٌ على وجهه المتعرِّق.

قال: «أشكرك يا سيدي. إن صعود منحدَر التل يُصيبُك بالعطشِ الشديد.»

قلتُ: «ما كان ينبغي لك أن تفعل. أنا أعني ذلك. فصعودُ تلةٍ بسرعةٍ ثم بذل جهدٍ مضاعفٍ لاجتياز الجبل الذي يليها ليس جيداً لرجلٍ في مثل عمرك.»

رفع سدادةَ القارورة في تحيةٍ رصينة. قال: «في صحتك.» ثم أطبق شفتَيه بصوتٍ عالٍ وتجرّع قدْرًا كبيراً من ماء الينبوع.

سأل بصوتِه العذب بعدما استعاد أنفاسَه أخيراً: «هل أتيتَ من أخرانيك؟»

أجبتُ: «هذا صحيح. الجو مناسبٌ لاصطياد الطيور.»

قال: «كلّا. لن يكون هناك صيّادون اليوم، إذ لم يتبقّ نبلاءُ في مورفيرن. لكن سألتُك عن أخرانيك، لأعرف ما إذا رأيتَ أحداً في طريقك إلى هُنا.»

أخرج مظروفًا بُنيًّا من جيبه وبرقيةً ضخمة. وقال: «هلّا قرأتَها يا سيدي لأنني نسيتُ نظارتي؟»

اشتملَت البرقية على أوصاف رجلٍ مشتبهٍ به من جنوب أفريقيا، اسمه براند، تطلُب الشرطة القبض عليه وإعادته إلى أوبان. لم تكُن الأوصاف سيئة، لكنها لم تذكُر أي صفةٍ مميزة. ولا شك أن الشرطي رآني عابرَ سبيلٍ بريئًا أو ضيفًا ينزل في أحد أكواخ الصيادين وسط المروج، خاصة مع وجهي الأسمر وملابسي المصنوعة من التويد وحذائي ذي النعل المُدعم بالمسامير.

قطّبتُ حاجبي في تأمُّل. ثم قلتُ: «رأيتُ رجلًا على منحدَر التل على بُعد حوالي ثلاثة أميال. هناك حانة عند الجدول وأظنه كان يقصدها. قد يكون رَجُلَك المنشود. تقول البرقية «جنوب أفريقيا»، وأتذكّر الآن أنه بدا كسكانِ المُستعمرات.»

تنهّد رجلُ الشرطة. «إنه هو بلا شك. ربما كان يحمل مسدسًا وسيُطلِق النارَ عليّ.»

ضحِكْت: «لا. بدا الرجل في حالةٍ يُرثى لها وسيرتعبُ بمجرد رؤيتك. لكن، خذ نصيحتي، واصحَب أحد رجال الشرطة معك، قبل أن تُواجِهه. من الأفضل وجودُ شاهدٍ تحسبًا لوقوع عراكٍ.»

قال بوجهٍ مشرق: «أنتَ محق. تبًا، يا لها من أيامٍ عصيبة! في الماضي لم يكن هناك ما أفعلُه سوى حراسةِ أبوابِ معارضِ الزهور ومنعِ اليخوتِ من الصيد الجائر لأسماك

التروتة. لكن الآن لم يعُد هناك شاغلٌ لنا سوى الجواسيس، يقولون لك: «انهَض من فراشك، يا دولاند، وسِرْ عشرين ميلًا لتقبض على جاسوسٍ ألماني». ليت الحرب تنتهي ونتخلّص من الألمان للأبد.»

هتفتُ: «يا ليت، يا ليت!» وأعطيتُه شربةَ ماءٍ أخرى تعبيرًا عن موافقتي له.

صحبتُه إلى الطريق، وانتظرتُه حتى ركب دراجته، ورأيتُه يتعرّج في سَيره أسفل التل مثل طائر الشنقب ويتّجه صوبَ أخرانيك. بعد ذلك انطلقتُ ناحيةَ الشمال بسرعة. أدركتُ أنه كلما تحرّكتُ بسرعة كان ذلك أفضل.

سِرتُ، وأنا أعترف على مضضٍ بكفاءة الشرطة الاسكتلندية. تعجّبتُ كيف عرفوا بأمري. ربما بسبب لقاء جلاسكو أو علاقتي بأفري في بيجلزويك. على أي حال، هناك شخصٌ ما، في مكانٍ ما، قد جمع معلوماتٍ كافيةً عني بسرعةٍ بالِغة. ولا بد من الإسراع إلى ساحل قرية أريسيج إلا إذا كنتُ أرغب في العودة إلى أوبان والأغلال في يدي.

قادني الطريق على الفور إلى خليجٍ بحريٍّ ضيقٍ متلألئ، يشُق طريقه عَبْر التلال الأرجوانية مثل نصل سيفٍ أزرقِ اللون. في نهاية الشريط، قبعَت قريةٌ صغيرة، وسط أشجار البتولا والسَّمن، عند مصَبِّ جدولٍ بُنيٍّ مُصفَر في البحر. وطِئتُ هذه البقعة، في حوالي الساعة الرابعة مساءً، وشعرتُ بسلامٍ مطبقٍ يكتنف المكان. في الشارع المُشمِس الواسع لم تكن هناك أيُّ دلائلَ للحياة أو أيُّ أصوات، باستثناء قوقأة الدجاج وطنين النحل بين الورود. كما كانت تُوجَد كنيسةٌ رماديةٌ صغيرةٌ كالعلبة، وكوخٌ مسقوفٌ بالقش بالقُرب من الجسر يحمل لافتةً تُشير إلى أنه مكتب البريد والبرق.

خلال الساعة الماضية انشغلتُ بأمر التجهُّز لما قد ألقاه من عراقيل. إذ كانت الشرطة في تلك الأنحاء قد تلقّت تحذيرًا بشأني؛ فقد لا أستطيع التعامُل معها وحدي، وسيُباشِر جريسون رحلتَه بلا مُنافس. الشيء الوحيد الذي يُمكِنُني فعلُه هو إرسالُ برقيةٍ إلى آيموس وتركُه يتعامل مع الأمر. ويتوقّف نجاحُ ذلك على مكتب البريد النائي هذا.

دخلتُ المتجر الصغير، وانتقلتُ من الشمس الساطعة إلى عتمته التي تفوحُ فيها رائحةُ الكيروسين وحلوى النعناع ذات الخطوط السوداء. ورأيتُ عجوزًا، ترتدي قُبعةً قطنية، جالسةً في مقعدٍ خلف الشبّاك. نظرَت إليّ من فوق إطار نظارتها وابتسمَت، فأحببتُها على الفور. كان لها وجهٌ متجعّد حكيمٌ يُحبه الرب.

بجوار العجوز، لاحظتُ كومةً صغيرةً من الكُتب من بينها الكتاب المقدّس. وفي حجْرِها، قبعَت الصحيفةُ الشهرية، «الكنيسة الحرة المتحدة»، مفتوحة. لاحظتُ هذه

التفاصيل بنهَمٍ؛ إذ كان لا بد من اختيار الدور الذي سأؤديه.

قلتُ، وأنا أنتقل إلى اللهجة العامية لسكان المنخفضات؛ إذ راودَني شعورٌ أنها ليست من سُكان المرتفعات: «يا له من يومٍ حارٍّ يا سيدتي.»

وضعَت الجريدةَ جانبًا. وأجابت: «هذا صحيحٌ يا سيدي. هو طقسٌ ملائم جدًّا للحصاد، لكن موسمه لا يحين قبل نهاية سبتمبر، كما أن الشوفان لم ينضجْ بعدُ على أحسن الأحوال.»

قلتُ: «صحيح. يختلف الأمر في وادي أنانديل.»

انفرجَت أساريرُ وجهها. وسألَت: «هل أنتَ من بلدة دومفريس يا سيدي؟»

قلتُ: «أنا من دومفريس، كما أني على درايةٍ جيدةٍ بمنطقة الحدود.»

هتفَت: «لن تجد أفضل منها. لا أعني أن المكان هنا سيئ، بل أنا ممتنّة للكثير من الأشياء هنا منذ أن أحضرَني جون ساندرسون، زوجي، إلى هذا المكان قبل سبعةٍ وأربعين عامًا، في عيد القديس مارتن. لكن كلما طعنتُ في السن، ازداد حنيني إلى مسقط رأسي. وهو على بُعد ثلاثةِ أميالٍ من قرية وامفري، على طريق لوكربي، لكن سمعتُ أنه لم يتبقَّ منه سوى كَومةٍ من الأحجار.»

قلتُ: «أتساءل يا سيدتي أين يمكن أن أشرب كوبًا من الشاي في هذه القرية.»

قالت: «فلتَحتسِه معي. لا يفدُ إلينا من منطقة الحدود أناسٌ كثيرون. الإبريق على النار.»

قدّمَت إليّ العجوزُ الشاي مع الكعك والزبد ومربّى الكشمش الأسود وبسكويت العسل الأسود الذي يذوب في الفم. وفيما كنا نشرب الشاي تحدّثنا في موضوعاتٍ شتى تمحورَت حول الحرب وشرور العالم.

قالت: «لم يبقَ هنا فتيان. فجميعهم التحقوا بفوج البنادق الاسكتلندي، ولقي أغلبُهم حتفَهم في تلك الموقعة المريعة في مكانٍ يدعى لووس. لم نُرزق أنا وزوجي جون بأي أبناء، لكن لديّ بنتٌ واحدةٌ تزوّجَت من دونالد فرو، وهو حمّال من قرية سترونتيان، وكنتُ أقلق بشأنها، لكني أحمد الله أن عافاني من ألَم الفَقْد. لكَم تمنّيتُ لو أن لي ابنًا يُحارب لأجل بلده. أحيانًا أتمنّى لو كنتُ كاثوليكيةً كي أُصلي من أجل الجنود الذين قضَوا نحبهم. الصلاة لهم حتمًا تعزيةٌ كبيرة.»

أخرجتُ رواية «سياحة المسيحي» من جيبي فجأة. وقلتُ: «هذا كتابٌ عظيم لهذه الأوقات العصيبة.»

قالت: «أعرف هذه الرواية. ربحتُ نسخةً منها جائزةً من المدرسة السبتية عندما كنتُ فتاةً صغيرة.»

قلّبتُ صفحاتِ الرواية. وقرأتُ بضعَ فِقرات، ثم تظاهرتُ أنني تذكّرتُ شيئًا ما.

قلتُ: «هذا مكتبُ برقٍ يا سيدتي. فهل تكرّمتِ بإرسالِ برقيةٍ من أجلي؟ لديّ ابن عم، يعمل قسًّا في قرية كايل بمقاطعة روس شاير ونحن نتراسل بصفةٍ دائمة. كان قد سألَني بشأن فِقرة في «سياحة المسيحي»، وأفكِّر في أن أرسِل برقيةَ إجابةٍ على سؤاله.»

قالت: «سيكون الخطاب أقل ثمنًا.»

قلتُ: «أجل، لكن أنا في عطلة، ولا أملك وقتًا للكتابة.»

أعطَتني نموذجًا وكتبتُ:

> أوكترلوني. مكتب البريد. كايل. سيصل ديماس منجمه خلال هذا الأسبوع. حاوِل إيقافَه؛ لأنني أخشى أن تخورَ قُوايَ في أثناء الرحلة.

اكتفَت العجوز بالتعليق: «أنتَ فصيحُ اللسان يا سيدي.»

تركتُها آسفًا، وكدنا نتشاجر عندما عرضتُ أن أدفع ثمنَ الشاي. طلبَت منّي أن أرسِل تحياتِها لمزارعٍ في مزرعة «نيذر ميركلوتش» يُدعى ديفيد تادهول عندما أزورُ قريةَ وامفري ثانية.

غادرتُ القرية هادئةً كما دخلتُها. شقَقتُ طريقي صاعدًا التلة، أشعُر براحة البال لأنني أرسلتُ البرقية، آملًا أن أكونَ قد غطّيتُ آثاري. فصديقتي مديرةُ مكتب البريد لو سُئلَت عن المشتبه القادم من أفريقيا الجنوبية، فإنها على الأغلب لن تظن أنه هو المسافر الذي تلمّسَت فيه الصدق والبساطة وتحدّث إليها عن أنانديل و«سياحة المسيحي».

بدأَت التلال تصطبغ بلَون الغروب الأرجواني. كنتُ آمُل أن أقطعَ الأميالَ التي تفصلُني عن القرية التالية على الخريطة قبل أن يُسدِل الظلامُ ستاره، كي أجد مكانًا

للمبيت. لكني لم أكن قد اجتزتُ مسافةً بعيدة حتى سمعتُ هديرَ محرّكٍ قادمٍ من خلفي، ثم مرّت سيارة تحمل على متنها ثلاثة رجال. تفحّصَني السائق بنظرةٍ حادةٍ ثم ضغَط على المكابح. لاحظتُ أن الرجلَين الجالسَين في الصندوق الخلفي للسيارة يحمِلان بنادقَ صيد.

هتَف: «أنت يا سيد. تعالَ هنا.» ووضَع الرجلان المسلّحان، وهما دليلا صيد، بندقيتَيهما في وضع التأهّب.

قال السائق: «يا إلهي. إنه الرجل. ما اسمك؟ صوِّب بندقيتك عليه يا آنجوس.»

امتثل الدليلان لأوامر رئيسهما، ولم أُحب منظر بندقيتَيهما المُشهرتَين في وجهي. بدوَا متفاجئَين مثلي تمامًا.

لم أمتلك سوى نصف لحظة كي أضع خطة. تقدّمتُ نحو السائق، بخطواتٍ صارمة، وسألتُه عن مقصد كلامه. توقّفتُ عن استخدام لهجة سكان المنخفضات الاسكتلندية. وانتقلتُ إلى نبرة ضابطٍ مساعدٍ من كتيبة الحرس.

كان متفحّصي رجلًا طويلًا يرتدي معطفًا فضفاضًا ويعتمر قبعةً خضراءَ من الصوف على رأسه الصغير. كان له وجهٌ نحيلٌ مُهذّب وعينان زرقاوان مشاكستان. خمّنتُ أنه جنديٌّ قديمُ الطراز متقاعدٌ من كتيبة المنخفضات أو ربما من الخيالة.

أخرج نموذجَ برقيةٍ مثل الذي أراني إيّاه الشرطي العجوز.

«متوسط الطول وقوي البنية، يرتدي حلةً رماديةً من التويد وقبعةً بنية، ويتحدث بلهجة سكان المستعمرات، وداكن البشرة. ما اسمك يا سيدي؟»

لم أجبْه بلهجةِ سكانِ المستعمرات بل عدَلتُ إلى تلك الغطرسة التي يتحدث بها ضابطٌ بريطانيٌّ عندما يوقفه حارسٌ فرنسي. سألتُه مرةً أخرى عما سيفعل باسمي. فاستشاط غضبًا وبدأ يتلعثم في الكلام.

قال: «سأعلمك ماذا سأفعل به. أنا نائب حاكم هذه المقاطعة، ووردَتني أوامرُ من مكتب الأميرالية بمراقبة الساحل. اللعنة، يا سيدي، أحمل برقيةً واردةً من مأمور الشرطة تشمل أوصافك. أنتَ براند، رجل في غاية الخطورة، وأريد أن أعرف ماذا تفعل هنا بحق الجحيم.»

نظرتُ إلى عينَيه الغاضبتَين، ورأسه النحيل الذي يفتقر إلى الذكاء، ووجدتُ أنه من الضروري تغيير نبرة صوتي. أدركتُ أنني لو استفززْتُه أكثر من ذلك، فسيُعقد

الأمور ويرفض الإنصات إليّ ويوقفني عدة ساعات. لذا تحدّثتُ بنبرة تفيضُ احتراماً.

قلتُ: «أستميحك عذراً، يا سيدي، لكنني لم آلف أن يعترض أحدٌ طريقي ويسألني عن هويتي. اسمي هو بلايكي، النقيب روبرت بلايكي، من فوج البنادق الاسكتلندي. عُدت إلى الوطن في عطلةٍ لمدة ثلاثة أسابيع لأنال قسطاً من الراحة بعد معركة هوج. عادت قواتُنا منذ خمسة أيام فحسب.» رجوتُ في أعماق قلبي أن يُسامحني صديقي القديم، القابع في مشفى الصدمات النفسية في أيشم، على استعارة هويته.

ارتبك الرجل. وقال: «وكيف سأتأكد من صحة كلامك؟ أتحمل معك أوراقَ إثباتِ الهوية؟»

قلت: «لا، بالطبع. لا أحمل جوازَ السفر فيما أطوف سيراً على الأقدام. لكن يمكنك إرسال برقيةٍ إلى مركز التدريب أو إلى عنواني في لندن.»

فتل العقيد شاربه الأصفر. وقال: «ليتني أعرف ما يُمكنني فعلُه. أريد العودة إلى المنزل وتناول العشاء. دعني أخبرك، يا سيدي، سآخُذك معي للمبيت في منزلي الليلة. ولدي في المنزل يقضي فترةَ نقاهته، ولو قال إنك صادقٌ في كلامك، فسأطلب منك الصفحَ وسأقدّم لك زجاجةَ بورت فاخرة. أنا أثق بولدي وأحذّركَ من فراسته.»

لم يسَعْني سوى الإذعان، فجلستُ في المقعد المجاور للسائق، بنفسٍ مُضطربة. ماذا لو اكتشَف الابن الخدعة! سألتُ عن اسم كتيبة الابن وعرفتُ أنها كتيبةُ المرتفعات الشمالية العاشرة. لم تكن هذه الأخبار سارةً لأن هذه الكتيبة انضمّت للوائنا في معركة السوم. لكن العقيد برودبيري — حسبما أخبرَني باسمه — تطوّع وأمدّني بمعلومةٍ أخرى بدّدَت مخاوفي. وهي أن ابنه لم يبلغ العشرين بعدُ، ولم يفُت على خدمته في الجيش أكثر من سبعة أشهر. لكنه أُصيب في معركة آراس بشظية في الفخذ، عبثت بعرق النسا، ولا يزال يتكئ على عكازَين في السير.

اجتزنا المرجَ المتعرّج بسرعة، دون أن نحيد عن الشمال، ثم توقّفنا عند منزلٍ جميلٍ أبيضِ اللون قريبٍ من البحر. قادني العقيد برودبيري إلى ردهة؛ حيث اشتعلَت نارٌ صغيرةٌ وقودُها الخث، وبجوار المدفأة قبعَت أريكةٌ يتمدّد عليها شابٌ هزيلٌ شاحبُ الوجه. تخلى العقيد عن أسلوبه الشرطي وتصرّف مثل رجلٍ مهذب. قال: «أحضرتُ صديقاً للمبيت يا تيد. خرجتُ للبحث عن مُشتبهٍ به ووجدتُ جنديّاً بريطانيّاً. قدِّم التحية إلى النقيب بلايكي من فوج البنادق الاسكتلندي.»

نظر إليّ الشاب بابتهاج. وقال: «سُرِرتُ بمعرفتك يا سيدي. اعذرني لأنني لا

أستطيع النهوض وتحيتك كما يليقُ بسبب إصابة في الساق.» كان الشاب يُشبه أباه تماماً غير أن ملامحه داكنةٌ وشاحبةٌ بخلاف ملامح أبيه الشقراء. اتسم الشاب، مثل أبيه، بجبهةٍ غيرِ عريضة وفمٍ عنيدٍ وعينَين صادقتَين متقدتَين. كان من نوع جنود الأفواج المندفعين الذين يُمنَحون وسامَ صليبِ فيكتوريا لشجاعتهم ويُقتلون بأعدادٍ كبيرة. لم أكن من ذلك الصنف أبداً. فأنا أفضَلُ مدرسة الجبناء الأذكياء.

في نصف الساعة الذي يسبقُ وجبةَ العشاء، تبدّدَت آخرُ ذرةٍ من الشكوك من عقل مُضيفي. انغمستُ على الفور مع تيد برودبيري في مناقشة «خبراتنا العسكرية». كنتُ قد قابلتُ غالبيةَ رؤسائه، بالإضافة إلى درايتي بجميع تحرّكاتهم في معركة آراس؛ إذ كان لِواؤه يقاتل في الجهة المقابلة من النهر، على اليسار من لوائي. استرجعنا المعركة بتفاصيلها، وأسهبنا في الحديث عن التفاصيل الفنية، وسبّبْنا هيئة الأركان كما يفعل الجنود الشباب، فيما كان العقيد يُقاطعنا بأسئلةٍ عكسَت مدى افتخاره بابنه. اغتسلتُ قبل العشاء، وفيما كان مُضيفي يقودني إلى المرحاض، اعتذَر لي بشدة عن سوء معاملته لي. وقال: «لقد أرسلكَ الرب إلى تيد. فقد أصابه المُكثُ في المنزل بالكآبة. وعلى الرغم من أنه من غير اللائق الثناء على ابني فإنه شابٌّ صالحٌ بحق.»

حصَلتُ على زجاجة البورت الموعودة، وبعد العَشاء نافستُ العقيد في البلياردو. ثم جلَسْنا في غرفة التدخين، وبذلتُ غايةَ ما في وسعي لتسليتهما. كانت النتيجة أن عرَضَا استضافتي لمدة أسبوع، لكني تعذّرتُ بقِصَرِ العطلة، وتحدّثتُ عن ضرورة الذهاب إلى محطة القطار والعودة إلى بلدة فورت ويليام من أجل استعادة أمتعتي.

هكذا أقمتُ الليل بين أغطية الفراش النظيفة، وتناولتُ إفطاراً شهيّاً مشبعاً في الصباح، ثم منحَني المضيف سيارتَه لأقطع بها جزءاً من الطريق. قطعتُ ستةَ أميال، ثم أرسلتُ السيارةَ إلى صاحبها، واستكملتُ رحلتي عَبْر التلال إلى الغرب مُسترشداً بالخريطة. وبحلول منتصف النهار، وصلتُ إلى قمة حافةٍ جبلية، ورأيتُ مضيقَ سليت المتلألئ في الأسفل. كان المنظر الطبيعي أمامي يشمل أيضاً عناصرَ أخرى. ففي الوادي على يَميني رأيتُ قطار بضائعَ طويلاً يزحف إلى محطة سكة حديد ملايج. وفي الطرَف المقابل من الشريط المالح، شمخَت المعاقلُ المعتِمة وأبراجُ تلال جزيرة سكاي على مثال حصون الآلهة القديمة.

الفصل السادس

محيط تلال كويلن

كان من البداهة الابتعادُ عن استخدام القطار. لو كانت الشرطة في شبه جزيرة مورفيرن تبحث عني، فلا بد أنها حذّرَت خطّ القطار هذا لأنني سأضطرَ إلى استخدامه للتوغل شمالًا. تفقّدتُ الخريطة، ورأيتُ أن خطّ القطار ينعطفُ عن الساحل متجهًا شمالًا، وتوصّلتُ إلى أن المكان الذي يجب أن أقصدَه هو الساحل، جنوب نقطة الانحراف؛ حيث سأنتظر أن يُحالفَني الحظ وتُرسِل لي السماء قاربًا من القوارب. كنتُ مُتيقنًا أنّ كل حمّالٍ وناظرٍ محطةٍ في هذه المنظومة السيئة الإدارة مُتحمّسٌ للتعرٌف عن قُرب على شخصي المتواضع.

تناولتُ الشطائر التي أعدّها لي آل برودبيري في وجبة الغَداء، ثم شقَقتُ طريقي إلى أسفل التل تحت شمس الظهيرة الساطعة، حتى وصلتُ إلى بحيرةٍ عذبةٍ صغيرة، يخرج منها جدولٌ حاذَيتُه عَبْر غاباتِ أشجارِ البُندق المليئة بالذباب الصغير إلى أن وصلتُ إلى نقطة التقائه مع البحر. كان الطريق شاقًا، لكن في غاية الروعة، وعُدتُ إلى المزاج الرائق نفسه لصباح الأمس. لم أرَ أحدًا. في بعض الأحيان كان غزال يحمور أوروبي ينبثق من مَخبئه أو يُفاجئني طيهوجٌ أسودُ عجوز بلسانه السليط. تلألأ المكان بأعشابِ الخلنج التي كانت لا تزال في بداية تفتّحها وتفوحُ منها رائحةٌ أذكى من رائحة عُشبة المر العربية. كان الوادي الصغير بديعًا، وكنتُ في أوْجِ سعادتي حتى بدأ الجوع ينهشُني، وأدركتُ أن الله وحدَه يعلم متى سأحصل على طعامٍ مرةً أخرى. كان لا يزال لديّ بعض الشكولاتة والبسكويت لكني رغبتُ في تناوُلِ وجبةٍ مشبعة.

تبيّنَ أن المسافةَ أكبرُ مما ظنَنتُ، ووصلَتُ إلى الساحل بعد غروب الشمس. وجدتُ الساحلَ مكشوفًا ومُقفرًا — مجرد أكوامٍ عظيمةٍ من الحصى محفوفة بأشجارِ جارِ الماء والبندقِ الشاردة من التل. لكن فيما كنتُ أتقدّمُ شمالًا، وأدورُ حولَ لسانٍ صغير، رأيتُ عند منعطَف الخليج كوخًا تتصاعد منه أعمدةُ دخان. كان هناك رجلٌ مُنحَني الظهر يجُر رجلَيه بمحاذاةِ حافةِ الماءِ حاملًا الشباك ومصائدَ الكركند. ورأيتُ أيضًا قاربًا راسيًا على الشاطئ الحصوي.

أسرعتُ الخُطى حتى أدركتُ الصيّاد. كان رجلًا عجوزًا ذا لحيةٍ رماديةٍ غير مُتناسقة، ويرتدي حذاءَ بحّارٍ وقميصًا صوفيًا أزرقَ مُرتّقًا. لاحظتُ أنه أصمٌّ إذ لم يسمعني عندما ألقيتُ عليه التحية. وعندما رآني، لم يتوقّف عن السير، غير أنه ردّ التحية برصانةٍ بالغة. مشيتُ معه، حَذْو النعل بالنعل، ووصَلْنا إلى الكوخ صامتَين.

توقف الصيّاد أمام الباب وأراح ظهرَه من أعبائه. كان كوخًا ذا غرفتَين، وسقفٍ من القش، وجُدرانٍ يُغَطيها نباتٌ مُتسلقٌ أصفرُ الزهر. اعتدَل العجوزُ واقفًا، وجال ببصره في البحر والسماء، كأنه يُحاول التنبؤ بالطقس. ثم عاد إليّ بعينَيه المستغرقتَين الرقيقتَين. وقال: «ينتظرنا طقسٌ عليلٌ يا سيدي. هل تبحثُ عن مكانٍ ما؟»

أجبتُ: «أبحث عن مكانٍ للمبيت. سِرتُ مسافةً طويلةً في التلال وأطمعُ في الاستراحة قليلًا.»

ردّ الصيّاد بصرامة: «ليس لدَينا مكانٌ للمبيت لرجلٍ نبيل.»

قلتُ: «لا أمانع في النوم على الأرض إن وفّرتَ لي غطاءً ووجبةَ عشاء.»

ابتسَم الرجل ببطء: «كلّا لن تنام على الأرض. دَعْني استشِر زوجتي. تعالِي يا ماري!»

ظهرت امرأةٌ عجوزٌ استجابةً لندائه، وبدا وجهُها طاعنًا في السنّ كأنها أُمّه لا زوجتُه. في المرتفعات تشيخ النساء بوتيرةٍ أسرعَ من الرجال.

قال الزوج: «هذا الرجلُ النبيلُ يريد المبيتَ عندنا الليلة. أخبرتُه أن منزلنا صغيرٌ فقيرٌ لكنه قال إنه لا بأس في ذلك.»

نظرَتِ المرأة إليّ بأدبٍ مُتحفّظ لا تجده إلا في أهل المناطق النائية.

قالت: «سنبذلُ أفضلَ ما لدَينا يا سيدي. يمكن أن ينام السيدُ النبيلُ في فِراش كولن في العليّة لكن عليه أن يتناوَل طعامَنا البسيط. العَشاء جاهزٌ إذا دخلتَ الآن.»

نظّفتُ جسدي بقطعةِ صابونٍ صفراءَ في الجدول المُجاوِر، ثم دخلتُ المطبخَ الذي انبعثَت منه أبخرةُ الخث المحترق الكريهة. تناولنا سمكًا مسلوقًا، وكعكَ الشوفان، وجبنًا منزوع الدسم، مع الشاي القويّ لاستساغة الطعام. أظهَر الزوجان أخلاقَ الأمراء. كانا يحثّانني على تناوُل الطعام ولم يُوجّها إليّ أيّ أسئلةٍ حتى اضطُرِرتُ إلى اختلاق قصة، والتعريف عن نفسي من باب الأدب المحض.

علمتُ أن لدَيهما ابنًا يخدم في فوج الأرجيل وصبيًا صغيرًا في البحرية. لكن بدا أنهما يتجنّبان الحديثَ عنهما أو عن الحرب. وبالصدفة توصّلتُ إلى الأمر الذي يستحوذ على اهتمام الرجل العجوز. كان مولَعًا بالأرض. وشاركَ في نزاعاتٍ طواها النسيان، وتعرّض للطرد في نزاعٍ قديمٍ مع مُلّاك الأراضي في أقصى الشمال. وعلى الفور أفضى إليّ بكل مخاوفِ المزارعين الصغار — مخاوف بدت عتيقةً ومنسية، فاستمعتُ إليه كما يستمع المرء إلى أغنيةٍ قديمة. ظل يكرّر: «لم تسمع عن هذه الأمور لأنك أجنبيٌّ عن البلاد»، لكني أصغيتُ إليه، أمام الخثّ المُشتعِل، لأعوّض ما فاتني من معرفة. أخبرَني عن عمليات الطرد التي حدثَت في الماضي. حكى لي عن عمليةِ طردٍ وقعَت في مكانٍ ما بمُقاطعة ساذرلاند وعن المعاملة السيئة التي تلقّاها المزارِعون الصغار في الجُزُر الخارجية. كان الأمر أكثر من مجرّد ضغينةٍ سياسية. كان يرثي الأيام الخوالي والأخلاقَ المنسيةَ للمحافظين. قال: «في الماضي كانت أراضي سكاي خِصبةً يرعى فيها البقرُ الأسودُ وكان جميعُ المزارعين يخرُجون بقُطعانهم الصغيرة إلى منحدَر التل. لكن قال الإقطاعيون إن الأراضي أنسبُ لرعي الغنم، ثم قالوا إنها لا تُناسب الغنم؛ لذا خصّصوها للغزلان، حتى لم يعُد هناك أيٌّ بقرٍ على جزيرة سكاي.» وأنا أستمع إلى العجوز شعَرتُ أنني أنصت إلى عزفِ موسيقى حزينة بمزمارِ القربة. الحربُ وما شابهها من الأمور المعاصرة لا تعني له أيّ شيء؛ كان يعيش وسط مآسي فترةِ شبابِه وفتوّتِه.

أنا من حزب المحافظين، وأدعم سياساتِ الإصلاح الزراعي؛ لذا توافَقْنا جيدًا. انسجَمْنا حتى حصلتُ على ما أريده دون أن أطلبه. أخبرتُ العجوز أنني سأذهب إلى سكاي، فعرض أن يُوصلَني بقاربه إلى الجزيرة في الصباح. قال: «لن أتكبّد أي عَناء. صدِّقني. سأذهب إلى هناك للصيد.»

أخبرتُه أنه بعدَ أن تضعَ الحربُ أوزارها لا بد أن يستغل البريطانيون كل شبر من الأرض التي استردُّوها بدمائهم. لكن لم تطِب نفسُه بهذا الحديث. فلم يكترث بالأرض بل بالمزارعين الذين أُجلوا عنها منذ خمسين عامًا. لم يرغب في الإصلاح، بل في ردِّ الحقوق إلى أصحابها، وهذا ما لا تقدر عليه أيٌّ حكومةٍ من الحكومات. ذهبتُ إلى فراشي في العليّة، منشغلًا بكلام العجوز في حزن، وتأملتُ أننا في خِضَم التحوُّل إلى آلاتِ الحرثِ الحديثة نسينا أننا سنهدم الكثير من تلال حيوان الخُلد، وكم كانت حياةُ حيوان الخُلد نافعةً ولا بديل لها.

انطلقنا إلى جزيرة سكاي في صباحٍ مشمسٍ عليل فيما تهبُّ الرياح من الجنوب الشرقي. وامتد أمامنا صفٌّ بنيٌّ من التلال المُنخفضة، وخلفه ناحيةَ الشمال قليلًا سلسلةٌ

من التلال السوداء المتعرِّجة، التي رأيتُها أول أمس من فوق الحافة الجبلية في قرية أريسيج.

قال الصيّاد: «هذه هي تلالُ كويلن. إنها منطقةٌ وَعْرة لا تستطيع حتى الغزلان دخولها. لكن بقية الجزيرة كان فيما مضى مراعيَ خصبةً للبقر.»

فيما كنا نقترِب من الساحل، أشار العجوز إلى عدة أماكن. قال: «انظر إلى ذلك الوادي الصغير. كنتُ أرى حوله ستة أكواخ كانت تنبضُ بالحياة فيما مضى، لكنها اختفت جميعًا الآن. كان لديّ ثلاثةُ أقارب يمتلكون مزارعَ صغيرةً في الأراضي المُنبسطة هناك، ولو ذهبتَ إليها فلن تجد سوى بقايا بساتينهم. ستستدل على المكان من أشجارِ الكرز.»

أنزلني الصيّاد على الشاطئ، بين التلال الخضراء المُغطّاة بنباتات السرخس دون أن يتوقّف حديثُه عن الماضي. أقنعتُه أن يأخذ جنيهًا، رسوم النقل بالقارب لا المبيت في بيته؛ إذ لم أجرؤ على عرض الثاني وإلا لضربني بمجدافه. وصلتُ إلى قمة التل، والتفتُّ ورائي، ورأيتُ الصيّاد، لآخرِ مرة، واقفًا في مكانه يتأمّل الأراضيَ المهجورةَ التي كانت زاخرةً فيما مضى بمساكن المزارعين.

سرتُ بمحاذاة الحافة الجبلية لبعض الوقت، على يميني مضيقُ سليت، الذي امتدّت خلفَه تلالُ شبه جزيرتَي كنويدارت وكينتيل. بحثتُ بنظري عن السفينة توبرموري، لكني لم أرَ لها أيّ أثَر. خرجَت سفينةٌ من ميناء ماليج، ورأيتُ العديد من سفن الصيد تشُق طريقَها عَبْر القناة ببطء، كما لمحتُ رايةً بيضاء وسفينةً حربية تندفعُ ناحيةَ الشمالِ بسرعةٍ تاركةً سحابةً من الدخان الأسود في أعقابها. تفقّدتُ الخريطة، ثم توغّلتُ في الريف ملازمًا الأراضيَ المرتفعة، غير أني لم أعُد أستطيعُ رؤيةَ البحر إلا لفتراتٍ وجيزة. توصّلتُ إلى أن مهمّتي هي الوصولُ إلى حيّز جزيرة رانا في أقربِ وقتٍ ممكن.

فور أن غيّرتُ وجهتي، لم يعُد لي رفيقٌ سوى جبال كويلن. لطالما كنتُ مولعًا بالجبال، يأسرني سوادُ وغموضُ قِممها القاتمة. نسيتُ كلّ ما يتعلق بنُزُل «فوس مانر» وكوتسوولدز. كما نسيتُ ذلك الشعور الذي طاردَني منذ أن غادرتُ جلاسكو الذي يتعلق بعبثية المهمة الواقعة على عاتقي. فقد بدا كل ذلك عصيًا على التصديق وغريبًا. لم يبدُ أن هناك خطرًا كبيرًا على حياتي، لكني خشيتُ دائمًا دهاءَ بلنكيرون وألا يكون الأمر سوى محضِ وهم. لكن غيّرَت الجبالُ السوداءُ نظرتي. بدأ يتسلّل إليّ شعورٌ غريبٌ أن هذا هو المكان المنشود، وأنه قد يُخفي في طيّاته شيئًا ما في غاية الخطورة. أتذكّر أنني جلستُ على القمة، نصف ساعة، أُمشِّط التلال بمنظاري. تبيّنتُ أجرافًا بشعةً وأوديةً

صغيرةً يكسوها سوادٌ عتيق. وحينما كانت أشعة الشمس تسقط على هذه القمم — إذ كان الجو غائمًا — لم تكن تعكسُ أي ألوان وإنما ظِلها بدرجاتٍ متفاوتة. كل الجبال التي رأيتُها مثل جبال كدراكنزبرج، وتلال دامارالاند الحمراء، والقمم البيضاء الباردة حول أرضروم لم تبدُ مخيفةً غامضةً مثل هذه.

وللغرابة أيضًا ذكّرني منظرُ تلك الجبال بأفري. للوهلة الأولى بدا أنه لا صلِة بين شخصٍ قليل الحركة، هادئ البال، يتنقّل بين القصور وقاعات المحاضرات، وبين المنحدرات الشديدة الوعورة. لكن داخلي، أحسستُ بهذه الصلة، إذ بدأتُ أدرك خطورةَ خصمي. وقد أخبَرَني بلنكيرون من قبلُ أن لأفري شبكةً كبيرةً من العملاء. ولم يكن مُستغربًا نفوذُه بين الشباب الأحمق في بيجلزويك، والمجتمعات المناصرة للسلام، وحتى الرجال الأشداء في كلايد. فلا أجد صعوبةً في تصوُّر تأثيره في تلك المجتمعات. لكن حقيقة إجرائه لأنشطته في تلك المنحدرات السوداء الغامضة جعلَته مخيفًا وخطرًا يمثل تحديًا من نوعٍ مختلف تمامًا. لم تضايقني تلك الفكرة؛ إذ إنني ما شكَوتُ في الأسابيع الماضية إلا لأنني أُبعِدتُ عما أبرع فيه، وها قد عُدتُ إلى ملعبي. دائمًا ما كنتُ أشعُر أنني أليقُ بقاطعِ طريقٍ من رجلٍ تحرٍّ. لكن امتزج شعوري بالرضا بالانبهار. راودَني تجاه أفري ذلك الشعورُ الذي راوَدَني حيالَ شياطينِ عصابة «بلاك ستون» الثلاثة الذين طاردوني قبل الحرب، بطريقةٍ لم أشعر بها تجاه جنديٍّ ألماني من قبلُ. فالذين حاربناهم على الجبهة، والجنود الذين قابلتُهم في مهمة «العباءة الخضراء» وحتى العجوز شتوم مجرمون لا يخلون من صفات الإنسانية. كانوا مُخيفين لكن لا يزالُ بوسعك قياسُ وتقديرُ قدراتهم البشرية. أما أفري فكان مثل الغاز السام، يعلقُ في الهواء ويتسربُ إلى الشقوق غير المتوقّعة، ولا يمكنك محاربتُه دون حيلة أو مكيدة. حتى ذلك الوقت، وعلى الرغم من جدية بلنكيرون، كنتُ أعتبر أفري مجرّد مشكلة. لكنني صرتُ أراه عدوًا قريبًا، موجودًا في كل مكان، وغامضًا كروحٍ شريرةٍ في منزلٍ مسكون. وأنا أجلس على قمة الجبل التي تغمُرها أشعةُ الشمس وتُحاوِطني الرياح القادمة من البحر ونداء طيور الكروان، شعَرتُ بالقُشَعريرة من مجرد التفكير في أفري.

يؤسِفني الاعترافُ أنني شعَرتُ أيضًا بالجوع الشديد. ثمّة شيءٌ ما في الحرب يُصيبني بالشره، وكلما ندر الطعام ازدادت حاجتي إليه. لو أنني في لندن، ولديّ عشرون مطعمًا تحت إمرتي، لربما فقدتُ الشهية. هكذا هي معدتي عنيدة. كان لا يزال معي بعض الشكولاتة، وتناولتُ فطائر الزبدة التي أعطاها لي الصياد على الغداء، لكن سرعان ما انشغلَت أفكاري بمعدتي الفارغة قبل حلول المساء بفترةٍ طويلة.

قضيتُ الليل في كوخٍ لأحد الرعاة يبعُد عن العمران مسافةً طويلة. اسم الرجل هو ماكموران، وقد قَدِم من مدينة جالاواي في وقتِ انتعاشِ تجارة الغنم. بدا الرجل عبارةً عن محاكاةٍ مثاليةٍ للهمج بشعره الأحمر وعينَيه الحمراوَين، ويبدو كأحد أفراد جماعة البيكت. وكان يعيش مع ابنته، التي عملَت خادمةً في جلاسكو في زمنٍ من الأزمنة، وهي شابةٌ بدينةٌ ذات وجهٍ مليءٍ بالنمش، تبدو عليه أماراتُ العبوس غائرةً من فرط العبوس. ولا غرابة في ذلك فقد كان الكوخ في غاية الرداءة. وفاحت منه رائحةُ الخث المُحترق الكريهة قويةً إلى حدٍّ يجعلها تُسبِّب احتقان الحلق والعينَين. كما كان مُتداعيًا، ولا بد أنه كان مثل المصفاة، تتسرّب مياه الأمطار إلى داخله أثناء هبوب العواصف. بدا الأب نكدًا، وكان حديثُه عباره عن تذمُّرٍ طويلٍ من العالم وارتفاعِ الأسعار وصعوبةِ نقل غنمه وسوءِ معاملةِ سيده وطبيعةِ سكاي المعزولة. قال: «ها أنا ذا لم أذُق الخبز منذ شهر، ولا أحظى إلا بمرافقة حفنةٍ من سكان المرتفعات الجهلاء الذين يتحدّثون الغيلية. ليتني أعود إلى قرية جلينكينز. لو حصَلتُ على مُستحقّاتي المالية فسأرحل من هنا في الصباح.»

لكن الراعي قدّم لي العَشاء، وهو عبارةٌ عن لحمٍ فاسدٍ وكعكةٍ من الشوفان، اشتريتُ ما تبقّى منهما لأتناوَلَه في اليوم التالي. لم أثِق بأغطيةِ الراعي؛ لذا نمتُ بجوار المدفأة، في مُتّكأ مُتهالك، واستيقظتُ عند الفجر بمذاقٍ كريهٍ في فمي. اغتسلتُ في الجدول، فشعَرتُ بالانتعاش من جديد، وبعد تناوُل وعاءٍ من عصيدة الشوفان، واصلتُ رحلتي. كنتُ أتحرّق شوقًا للوصول إلى أي قمةٍ جبليةٍ تُطِل على جزيرة رانا.

قبل أن ينتصف النهار، كنتُ قد اقتربتُ من الجزء الشرقي لتلال كويلن، عَبْر طريقٍ وَعْرٍ للغاية. وسرعان ما رأيتُ منزلًا كبيرًا أمامي يُشبه النُّزُل، فقرّرتُ الابتعادَ عنه، وقطعتُ الطريقَ السريعَ المؤدي إليه مُتجهًا إلى الشمال. ثم انحرفتُ شرقًا، وكدتُ أن أتسلّق تلةً قدّرتُ أنها تفصل بيني وبين البحر عندما سمعتُ صريرَ عَجلاتٍ في الطريق، فنظرتُ خلفي.

وجدتُ أنها عربةٌ صغيرة تحمل شخصًا واحدًا على متنها. كنتُ أبتعد عن العرَبة مسافةَ نصف ميلٍ، لكن ثمّة شيءٌ ما في هيئة الرجل جعله يبدو مألوفًا بالنسبة إليّ. صوّبتُ منظاري المُعظم إليه، ووجدتُه قويّ البنية قصيرَ القامة، يرتدي معطفًا واقيًا من المطر، ويلفُّ وشاحًا صوفيًا حول رقبته. وفيما كنتُ أراقبه، حرّك يده وكأنما ليحكّ أنفه في كمِّ معطفه. كانت تلك هي عادة شخصٍ بعينه. تسلّلتُ مختبئًا خلف نباتات الخلنج الطويلة كي أسبقَ العربةَ إلى الطريق. وبرزتُ من جانب الطريق مثل الشبح،

فأجفل الخيلُ لا السائق.

قال صوتُ آيموس: «أنت هُنا إذن. لديّ أخبارٌ لك. لا بد أن توبرموري وصلَت إلى جزيرة رانا الآن. فقد اجتازت قرية برودفورد منذ ساعتَين. ما إن رأيتُها، حتى شددتُ الرحال، وقدمتُ على أمل لقائك.»

سألتُ مندهشًا: «كيف اهتديتَ إلى مكاني بحق السماء؟»

أجاب: «أوه، أدركتُ كيف تفكّر من البرقية التي أرسلتَها. وقلتُ لنفسي إن براند رجلٌ لا يُقهَر بسهولة. لكنني خشيتُ أن تتأخر مسافةَ يوم؛ لذا قَدمتُ للسيطرة على الموقف في غيابك. أنا سعيدٌ برؤيتك يا رجل. أنتَ أصغرُ سنًّا وأكثرُ رشاقةً مني، وجريسون فتًى مثيرٌ للمتاعب.»

قلتُ: «هناك خدمةٌ واحدةٌ أريد أن تُسديَها إليّ. لا أستطيع دخول النُّزُل والمتاجر لأسُدّ جوعي. وفقًا للخريطة هناك بلدةٌ على بُعد ستة أميال. اذهب إلى هناك واشترِ أي طعامٍ معلّب من البسكويت واللحم والسردين بالإضافة إلى بضع زجاجاتٍ من الويسكي إن استطعتَ. قد تطول هذه الرحلة، فابتَعِ الكثير.»

كان سؤاله الوحيد: «أين سأضع الطعام؟»

اتفقنا على مخبأ، على بُعْد مائة ياردةٍ من الطريق الرئيسي؛ حيث تقترب سلسلتان جبليتان من بعضهما وتحجُبان الرؤية، فلا يكشفان إلا مساحةً صغيرةً من الطريق.

قال: «سأعود إلى قرية كايل، ولو وجدتَ طريقة لإرسال رسالة أو الحضور بنفسك، فسيدُلّونك على مكاني. أوه، وأحمل إليك رسالةً من السيدة. قالت إنه كلما عُدتَ إلى «سوق الأباطيل» أبكر كان أفضل شرط أن تجتاز «جبل الصعوبة».»

ارتسمَت ابتسامةٌ على وجه آيموس المليء بالتجاعيد، وضرب الفرسَ بسوطه استعدادًا للرحيل. ظننتُ أن رسالة ماري تحثّني على الإسراع لكن ما باليد حيلة. يتوقّف ذلك على جريسون. شعَرتُ بالقليل من الانزعاج، حتى أطربتُ خاطري بترجمة أخرى للرسالة. قلتُ في نفسي إنها قد تكون قلقةً بشأن سلامتي وتريد رؤيتي مرةً أخرى؛ فمجرّد إرسال الرسالة يعني أنها تكترثُ لأمري. استغرقتُ في ذلك الحُلْم الجميل، فيما كنتُ أصعد التل مستفيدًا من الغطاء الذي تمنحه الأخاديد الكثيرة. وصلتُ إلى القمة، ونظرتُ إلى جزيرة رانا والبحر بالأسفل.

رأيتُ السفينة توبرموري وقد رسَت في الميناء تُفرغُ حمولتَها. وحتمًا لن يتمكّن

جريسون من الرحيل على الفور. لم أرَ أي زورقٍ في القناة؛ لذا قد أُضطَر إلى الانتظار لساعاتٍ طويلة. جلستُ بين صخرتَين بعيداً عن الأنظار، لكن كنتُ أرى البحر والساحل بوضوحٍ. وسرعان ما اكتشفتُ حاجتي إلى أعشاب الخلنج، كي أجلس عليها، فنهضتُ من مكاني لأجمع بعضها. ما إن رفعتُ رأسي حتى خفضتُه على الفور. فقد أدركتُ أن لي جاراً على القمة القريبة.

كان الرجل على بُعد مائتَي ياردة تقريبًا، قاب قوسَين أو أدنى من القمة، يسير دون أن يخشى اكتشافَه على عكسي. رأيت عينَيه منصبّتَين على جزيرة رانا؛ لذا لم يلحظ وجودي، وانتهزتُ الفرصة كي أتفحّصَه بإمعان من مخبئي. بدا رجلًا ريفيًا عاديًا، يرتدي سروالًا فضفاضًا يصل إلى الركبة، من النوع الذي يرتديه أدلّة الصيد في العادة. كانت ملامحُه تُشبه ملامحَ يهود البرتغال، لكني رأيتُها من قبلُ في أهل المرتفعات؛ قد يكونون يهوداً وقد يكونون لا، لكنهم يتحدثون اللغة الغيلية. فجأةً اختَفى الرجل. لا بد أنه سار على نهجي وبحث عن مخبأٍ يختبئ فيه.

كان الجوّ حاراً والسماءُ صافية لكنه استحال عليلًا في ذلك المكان الجيد التهوية. انبعثَت روائحُ عطرةٌ من البحر، وكانت نباتات الخلنج دافئةً وعبقة، والنحل يحلِّق في الأجواء، فيما مشّطَت طيور النورس الحافة الجبلية بأجنحتها. كنتُ أتفقد جاري بين الحين والآخر، لكنه لم يخرُج من مخبئه. ركّزتُ منظاري على الجزيرة معظم الوقت، وراقبتُ تحركاتِ سفينةِ توبرموري. كانت المرساة في البحر، وبدت السفينةُ غيرَ متعجِّلة في إفراغ حمولتها. شاهدتُ ربّان السفينة ينزل على الرصيف، ويسير إلى منزلٍ على منحدَر التل. مشى بعضُ العاطلين إلى السفينة بخطواتٍ متئدة، ثم توقفوا وأشعلوا السجائر بالقرب منها. عاد ربّان السفينة ثم رحل مرةً أخرى. ظهر رجلٌ يحمل أوراقًا في يده، وامرأةٌ تُمسك ما يشبه البرقية. خرج مساعد الربّان إلى اليابسة مرتديًا أفضل ملابسه. في نهاية المطاف، ظهر جريسون بعد منتصف الظهيرة. وانضَم إلى الربّان في مكتب مدير الرصيف، قبل أن يظهر على الجانب الآخر من الرصيف حيث ترسُو القواربُ الصغيرة. قَدِم رجلٌ من سفينة توبرموري استجابةً لندائه، وانطلَق قاربٌ وبدأ يشُق طريقَه في القناة. جلس جريسون في مؤخرة القارب يتناول غَداءه بمزاجٍ رائق.

راقبتُ عملية العبور بانتباهٍ شديد، أشعُر بالغبطة فيما تبيّن صحةُ تخميني. وفي منتصف الطريق تقريبًا، تناول جريسون المجاذيف، لكنه سرعان ما سلّمها إلى أحد أفراد طاقم سفينة توبرموري، وأشعل غَليونًا. بعد ذلك، أخرج من جيبه منظاراً مُعظماً ليتفقّد منحدَر التل حيث اختبأتُ. حاولتُ التأكد من تبادُله الإشارات مع الشخص الآخر، لكن

ظلت الأجواء ساكنة. على الفور، توارى القارب عن الأنظار، واحتجب خلف جزءٍ ناتئٍ من التل، ثم تناهَى إلى مسامعي صوتُ احتكاكِه بالشاطئ.

بخلاف جاري، وجد جريسون صعوبةً في صعود التل. واستغرق ما يقرُبُ من ساعة في الوصول إلى قمته، قبل أن يتوقف عند نقطةٍ لا تبعُد أكثر من ياردتَين عن مخبئي. خمّنتُ من أنفاسه المتسارعة أنه في غاية الإنهاك. ثم سار على القمة مباشرة، حتى توارى عن جزيرة رانا، وألقى بنفسه على الأرض. وصار على بُعد خمسين ياردةً من موضعي؛ لذا تحركتُ من مكاني لتقليل المسافة الفاصلة بيننا. كان يُحيط بالجانب الشمالي من التل خندق معشوشب عميق تكتنفه نباتات خلنج كثيفة. سرت في الخندق، إلى أن أصبحتُ على بُعد اثنتَي عشرةَ ياردةً من جريسون، ثم لم يعُد بإمكاني التقدم إذ وصلتُ إلى نهاية الخندق. استرقتُ النظر من مخبئي فرأيتُ الرجل الآخر ينضم إلى جريسون ثم تعانق الغبيّان.

لم أجرؤ على التقدم قيدَ أنملة، وانخرط الرجلان في الحديث بصوتٍ منخفض، فلم أسمع شيئًا ممّا قالاه. ما سمعتُ إلا عبارةً واحدةً كرّرَها الرجل الغريب مرتَين بنبرة تأكيد. قال: «ليلة الغد»، ولاحظتُ أن نبرته لا تُشبه نبرة سكان المرتفعات التي توقّعتُ سماعها. أومأ جريسون، ونظر إلى ساعته، ثم بدأ الاثنان يهبطان التل، قاصدَين الطريق الذي سافرتُ خلاله هذا الصباح.

مشيتُ في إثرهما قَدْر الإمكان، عَبْر جدولٍ ضحلٍ جافٍّ اتخذَتْه الغنم مسارًا لها؛ إذ حافظ على بقائي على مستوًى منخفضٍ من المرج. قادني الجدولُ أسفل التل، لكن بعيدًا عن المسار الذي اتخذه الرجلان، وفي كثيرٍ من الأحيان كنتُ أُضطَر إلى استطلاع محيطي لتبيُّن تحركاتهما. كانا لا يزالان على بُعد ربع ميل أو ما شابَه من الطريق عندما توقّفا وحملقا أمامهما. في ذلك الطريق المُوحش يندُر وجود المسافرين، وما استوقفهما كان عبارة عن عربةٍ صغيرةٍ يقودها عجوزٌ قويٌّ البنية، يضع وشاحًا صوفيًّا حول عنقه.

كانت لحظةً عصيبة، وفكّرتُ أنه لو تعرّف جريسون على آيموس، فقد يُصَاب بالذعر. وربما شاركَني السائقُ مخاوفي؛ إذ تظاهر أنه في غاية السُّكر. رأيتُه يُلَوِّح بسوطه، ويُحرك زمامَ الفرَس بحركاتٍ مباغتة، ويُحاول أن يُغَني. ثم نظر ناحيةَ الشخصَين الواقفَين عند منحدر التل وتفوَّه بشيءٍ ما بصوتٍ عالٍ. تفادت العربةُ الخندقَ بأعجوبة قبل أن تُطلِقَ الفرسُ سيقانها للريح، فتنفّستُ الصُّعَداء. ترنّحَت العربة، مثل سفينة في ريحٍ عاصفةٍ، وتوارت خلف التل، عند مخبأ مؤني. لو تمكّن آيموس من إيقاف الفرس

ووضع المؤن، فسيكون قد قدّم عرضًا هزليًا بارعًا.

أثار هذا العرضُ الهزليٌ ضحك الرجلَين قبل أن يفترقا. عاد جريسون من حيث أتى وصَعِد التل. أما الرجل الآخر — الذي لقّبتُه في رأسي باليهودي البرتغالي — فسار بخطواتٍ سريعةٍ ناحيةَ الغرب، واجتاز الطريق، ثم سار عَبْر رقعةِ أرضٍ مُستنقعيةٍ قاصداً أقصى شمال تلال كويلن. كانت لدَيه مهمة، يعلمها جريسون وحده، وبدا في غاية العَجَلة لتنفيذها. وكان عليّ مطاردته بلا شك.

أنهكَتْني فترة الظهيرة. راح الرجل يقطع المرج بسرعةٍ مثل الغزلان، وتركَني ألهَث خلفه في طقس أغسطس الحار. اضطُررتُ إلى الحفاظ على مسافةٍ بيننا، والاختباء قَدْر الإمكان، خشيةَ أن يُبصرني إن التفتٌ خلفه؛ وهذا يعني أني كنتُ أضطَر إلى أن أضاعِف سرعتي عندما يعبُر حافةً جبلية، حتى لا يبتعدَ عن مرمى بصري، وأن أسلكَ مساراتٍ ملتفةً عندما نكون في منطقة خلاء، حتى لا يكتشف وجودي. وفي نهاية المطاف، سلكنا طريقًا يمُر عَبْر دربٍ مستوٍ يلتفٌ حول المحيط الجانبي للجبال، وتابعنا السير فيه حتى وصلنا إلى الجانب الغربي، وأصبح البحر على مرمى أبصارنا. في ذلك المكان، كان الجو بديعًا، ورأيتُ أشرعةً ساحرةً تتمايل في المياه الزرقاء، والنسائم العليلة تُحدث أمواجًا صغيرةً في المياه الهادئة، فيما كنتُ أشعٌ حرارةً مثل موقد. لحُسن الحظ كنتُ أتمتع بلياقةٍ عالية؛ فقد كنتُ في حاجةٍ ماسةٍ إليها. إذ كان اليهودي البرتغالي يقطع هذه الأراضي الوَعْرة بمقدار ستة أميال في الساعة حسب تقديري، وبوتيرة ثابتة.

في حوالي الساعة الخامسة، وصلنا إلى منطقة لم أجرؤ على ملاحقة اليهودي فيها. وهي طريقٌ مستوٍ يُحاذي الساحل منكشفًا لمسافةِ عدة أميال. والأهم من ذلك أن الرجل بدأ يتلفّت حوله بين الحين والآخر. لا بدّ أنه يقترب من شيءٍ ما لذا فإنه يريد التأكد من خُلُو المكان من العابرين. تركتُ هذا الطريق، وفقًا للمُستجدّات، ولزمتُ منحدَر تلٍّ كان لسوء حظي مكونًا من ركام الصخور والحجارة المتدحرجة. رأيته يختفي خلف تلٍّ، بدا أنه حافةُ خليجٍ صغير، ينحدر إليه أحدُ أكبر التجاويف الجبلية. وأظن أنه قد مضى ما يقرُب من نصفِ ساعةٍ قبل أن أصل إلى هذه المنطقة من فوق منحدَر التل الذي ازدادت وعورته. نظرتُ إلى الوادي الصغير لكن الرجل قد اختفى.

لا يمكن أن يكون قد اجتاز الوادي؛ إذ تبيّن أنه أوسعُ مما تخيّلت. على بُعد نصف ميل من الشاطئ، انحدَرَت حلقةٌ من الأجراف السوداء، مُحتضنة جدولًا واسعًا؛ تشكّل من بركٍ ضحلةٍ عند مستوى البحر، وسلسلةٍ من الشلالات المُتدفقة من علٍ. اختفى الرجل في الأرض مثل حيوان الغرير، ولم أجرؤ على التحرك شبراً واحداً، تحسبًا أن يكون منشغلًا

بمُراقبتي من خلف إحدى الصخور الكبيرة.

لكن بينما كنتُ أقف مترددًا، ظهر مرةً أخرى، وهو يعبُر الجدول موجهًا بصَرَه صوبَ الطريق الذي أتينا منه. لقد أنجز مهمّته أيًا كانت، وهو الآن يتعجّل العودةَ إلى سيده بالأخبار. لوهلةٍ فكّرتُ في ملاحقته، لكن تملّكَني حدْسٌ آخر. هذا الرجلُ لم يأتِ للبراري لتأمُّل الطبيعة. في مكانٍ ما، جنوب الوادي، لا بد أن هناك شيئًا أو شخصًا ما يمتلك مفتاحَ حلِّ هذا اللُّغز. وارتأيتُ البقاء هناك إلى أن أُجليَ الغموض. كما أن الظلام سيسود في غضونِ ساعتَين، وقد بلغ منّي التعبُ مبلغَه من طول السير.

سرتُ إلى الجدول، وارتويتُ منه. خلفي، استضاء التجويفُ الجبليٌّ بشمس المغيب، وتوهَّجَت الأجرافُ الجرداءُ باللونَين الورديّ والذهبي. امتدّت أراضٍ عشبيةٌ على جانبَي الجدول مثل المروج، تبلغ مائةَ ياردةٍ تقريبًا عرضًا، متبوعة بكتلة متشابكةٍ من نباتات الخلنج الطويلة والصخور الكبيرة التي تنتهي عند حافة الصخور العظيمة. لم أشهد مساءً ساحرًا كهذا من قبل، لكني لم أستطع الاستمتاع بهدوئه، بسبب انشغالي باليهودي البرتغالي. لم يقضِ في المكان إلا نصفَ ساعة، وهي فترةٌ تكاد تكون كافيةً لأن يعبُر الجدول ويبلُغ أول حافةٍ جبليةٍ على جانبه المقابل ثم يعود أدراجه. مع ذلك تسنّى له تنفيذُ مهمته. ربما ترك خطاباً في مكانٍ مُرتَّبٍ له مُسبقًا؛ في كل الأحوال، سأبقى هناك حتى يأتي الرجل المنشود ليأخذ الخطاب. وقد يكون التقى بشخصٍ ما لكني أرى هذا الأمر بعيدًا عن الاحتمال. فيما كنتُ أفحص المروج الشاسعة الوعرة، وأتأمّل مُداعبة الأمواج للرمال الرمادية بلطفٍ، راودَني شعور أن مشكلةً صعبةً في انتظاري. لم يكن من المُمكن تتبُّع خطواتِ الرجلِ بسببِ شدةِ الظلام. فاضطُررتُ إلى تأخير هذه المهمة إلى الصباح، ودعوتُ الله ألا تمطر السماء هذه الليلة.

تناولتُ معظم لحم الشاة السقيمة وكعكة الشوفان، اللذَين أحضرتُهما من كوخ ماكموران، على العشاء. اضطُررتُ إلى أن أكبح نفسي بعض الشيء — نظرًا لجوعي الشديد — كي أدخر جزءًا من الطعام لفطور صباح اليوم التالي. بعد ذلك، انتزعتُ بعضًا من الخلنج والسرخس، لأصنع فِراشًا خلف صخرةٍ على رابيةٍ تُطل على النهر. كان فِراشي مخبّأً جيدًا لكنه يكشف المكان بأكمله؛ إذ ما جدٌّ جديدٌ عند طلوع الفجر. أبقاني معطفي الواقي من المطر في غاية الدفء، وخلدتُ للنوم بعدما تناولتُ غَليونَين.

لم أنعَم بنومٍ هادئ. في البداية، قَدِم ثعلبٌ إلى فِراشي ونبَح في أذني، فاستيقظتُ لأجد نفسي وسط ظلمةٍ حالكةٍ لا تكاد تظهر فيها أي نجوم. وفي المرة التالية استيقظتُ على صوتِ هبوب رياحٍ بين التلال، لكن عندما جلستُ وأرهفتُ السمع، خُيِّل إليّ أنني رأيتُ

بصيصَ ضوءٍ بالقُرب من حافة البحر. اختفى الضوء في غضونِ لحظة، لكنه أصابني بالقلق. نهضتُ من مكاني، وتسلقتُ الصخرة إلى قِمتها، لكن كانت الأجواء ساكنة، باستثناء صوتِ عبثِ الأمواج برمال الشاطئ، وتردُّد نعيقِ طائرٍ ليلي بين المُنحدرات. وفي المرة الثالثة، صحوتُ فجأةً دون سبب؛ إذ لم أكن أحلُم. لقد نمتُ مئاتِ المراتِ وحدي، بجوار فرسي في المروج، ولم أعلم لاستيقاظي فجأةً إلا سببًا واحدًا، وهو وجودُ شخصٍ بالقُرب منّي. فأيُّ رجلٍ يعتاد العُزلةَ يكتسب حاسةً سابعة، تُعلِن، مثل جهاز التنبيه، عن اقترابِ شخصٍ منه.

لكن لم أسمع شيئًا. ما سمعتُ إلا احتكاكًا وخشخشة في البراري لكنهما صدَرا عن الرياح والكائنات البرية الصغيرة الساكنة في التلال. قد يكون منشَؤهما ثعلبًا أو أرنبًا جبليًا. هكذا أقنعتُ عقلي لا حواسي، وبتُّ مُستيقظًا لساعاتٍ طويلة، مُرهفَ السمع مُستنفَر الحواس. بعد ذلك غفوتُ واستيقظتُ مع أول بشائر الفجر.

أشرقَت الشمس من خلف تلال كويلن، فتكحّلَت التلالُ بلونٍ أسودَ كالحبر، لكن بعيدًا ناحية الغرب، تألق شريطٌ ذهبيٌّ عريضٌ على صفحة البحر. نهضتُ من مكاني ونزلتُ إلى الشاطئ. وجدتُ مصَبّ الجدول ضحلًا، لكن عندما تحركتُ ناحية الجنوب، وصلتُ إلى قطعةٍ يحتضن فيها رأسان صغيران خليجًا. خمّنتُ أنه وليدُ صدعٍ في صخرةٍ بركانية؛ إذ كان شديد العمق. نزعتُ ملابسي، وغطستُ في الخليج البارد اللُّجِّي، دون أن أصل إلى قاعه. سبَحتُ إلى السطح متهدِّج الأنفاس، وانطلقتُ صوب البحر؛ حيث طفتُ على ظهري وتأملتُ الجدار الجرفي الهائل. أدركتُ أن المكان الذي قضيتُ فيه الليلةَ السابقة لم يكُن إلا واحةً عشبيةً خضراءَ عند سفح تجويفٍ جبليٍّ يصعُب أن يتصوّر العقل وجودَ أقتم منه. كان التجويفُ قاحلًا مثل دامارالاند. ولاحظتُ أيضًا شدة انحدار الأجراف عن مستوى الأرض. كما كانت هناك صدوعٌ وأخاديد، يمكن أن يتسلّقها المرء إلى القمة، لكنها تستعصي على الجميع باستثناء مُتسلقي الجبال المحترفين.

صرتُ أشعُر بالتحسّن، بعد أن أذهبَت السباحة آثار النُّعاس، وجفّفتُ نفسي عَبْر الركض خلال نباتات الخلنج جيئةً وذهابًا. فجأةً لاحظتُ شيئًا ما. وجدتُ آثار أقدام عند حافة الخليج اللجي، لا تعود إليّ؛ إذ كانت على الجانب الآخر. ورأيتُ تعرُّض الأرض المُعشوشِبة على جانب البحر للدّعس والدّوس في أماكن عدة، وتقطُّع بعض سيقان نباتات السرخس. وخطر لي أن صيادًا نزَل بالمكان كي يبسُط ساقَيه.

غير أن ذلك دفعَني إلى التفكير في اليهودي البرتغالي. تناولتُ آخِر ما تبقى من الطعام — وهي مُضغةٌ من لحم الشاة وقَضمةٌ من كعكة الشوفان — على الفطور ثم

شَرعتُ في اقتفاء أثَره بدايةً من نقطة دخوله إلى الوادي. عُدتُ من حيث أتيتُ كي أستوعِبَ الاتجاهاتِ جيداً، وبعد أن بذلتُ جهداً مُضنيًا في البحث، عثَرتُ على آثار أقدامه. بدت واضحةً وضوحَ الشمسِ حتى الجدول؛ إذ كان يسير — أو بالأحرى يركُض — على أرضٍ يُغَطي الحصى رقعًا كثيرةً منها. بعد ذلك، لم تعُد آثارُه واضحةً كما كانت، واختفت تمامًا في الأرض الوَعْرة التي تُغَطيها نباتاتُ الخلنج أسفل المنحدرات. ما توصّلتُ إليه يقينًا هو أن اليهودي عَبَر الجدول، وأنه نفّذ مهمّته أيًا كانت في حيِّز الرقعة الوَعْرة أسفل المنحدرات.

قضيتُ صباحًا محمومًا هناك، لكن لم أجد شيئًا إلا هيكلًا عظميًا لشاة التهمَتْها الغربانُ عن آخرها. كانت مهمةً غيرَ مثمرة، وشعَرتُ بالاستياء الشديد. راودَني شعورٌ قبيحٌ أنني اقتفيتُ الآثار الخاطئة وأنني أهدرتُ الوقت. تمنّيتُ لو أنّ بيتر العجوز معي. فلدَيه القدرةُ على اقتفاء آثارِ الأقدامِ كرجل الأدغال، ولاستطاع تقفّي أثَر اليهوديّ في أكثر الأراضي وعورة. لم أتعلم قَط هذه المهارة، لأنني كنتُ أتركها للسكان الأصليين في الأيام الخوالي. أقلعتُ عن المحاولة، وجلستُ على رقعةٍ عشبيةٍ دفيئةٍ في عبوس، أدخّن وأفكّر في بيتر. لكن انشغَل عقلي بالتفكير في الفطور الذي تناولتُه في الخامسة فجرًا، والساعة الآن الحادية عشرة وأنا في غاية الجوع، وليس هناك ما يسُدُّ جوعَ جرادة، وسأموت جوعًا إن لم أحصُل على الإمدادات.

كانت المسافة بيني وبين مخبئي السري طويلة، لكن لم يكن هناك خيارٌ آخر. فأملي الوحيد هو الجلوس مُنتبهًا في الوادي الصغير، وقد أُضطَر إلى الانتظارِ لعدة أيام. وليس بوسعي الانتظارُ بلا طعام، ولو دفعَني ذلك إلى التخلّي عن الحراسة لمدة ستِّ ساعات، فلا بد من المخاطرة. وهكذا، انطلقتُ في رحلتي بخطواتٍ سريعة، أشعر بالكآبة.

كان هناك طريقٌ مختصر، وفقًا للخريطة، يمتدٌّ فوق ممرٍّ في السلسلة الجبلية. قرّرتُ أن أسلكَه، لأجده ملعونًا من قِبل السماء مثل غالبية الطرق المُختصرة. لن أُسهِب في الحديث عن مشاقِّ الرحلة. فقد انزلقتُ بين ركام الصخور، وتسلّقتُ الصدوعَ الشديدةَ الانحدار، وسرتُ على طول حوافٍ حادةٍ كالأمواس مُعرِّضًا نفسي للمخاطر. أوشك حذائي أن يتمزّق بسبب الصخور الشيطانيةِ المُنقّرة كأنها أصيبت بداء الجدري. عبرتُ الفجوة، في نهاية المطاف، ووجدتُ صعوبةً بالغةً في الانتقال من مستوًى لآخر في التجويف الجبلي المُرعب؛ إذ كنتُ أتحسّس موضعَ قدمي إذ كنتُ أخطو فوق صخورٍ ملساءَ زلقةٍ للغاية. أخيرًا، وجدتُ نفسي بين المستنقعات في الجزء الشرقي، وبلغتُ المكان القريب من الطريق حيث مخبأ المؤن.

لم يخذلني آيموس الوفي. كانت المؤن عبارة عن بضعةِ أرغفةٍ صغيرة، وعدة عُلبٍ من الأطعمة المعلّبة، وزجاجة ويسكي. حزمتُ السلع في معطفي الواقي جيدًا، وعلقتُها في عصاي، وانطلقتُ في طريق العودة، أفكر أنني أبدو حتمًا كصورة المسيحي على غلافِ رواية «سياحة المسيحي».

قبل الوصول إلى مقصدي كنتُ مثل المسيحي بعد أن اجتاز «جبل الصعوبة». كانت الجولة الصباحية سيئةً لكن فاقَتْها جولة الظهيرة في السوء؛ لأنني في خضَم تعجُّلي للعودة وضجري من الجبال، سلكت الطريق الطويل مثل الأمس. خشيتُ كثيراً أن يكشفني أحدٌ لغرابة مظهري؛ لذا تفاديتُ كل المواضع التي لا أرى فيها الطريق أمامي بوضوح. بلغ مني التعبُ مبلغَه وأنا أنحرف بين المستنقعات وركام الصخور والجداول الحجرية الطويلة. لكنني بلغتُ غايتي في النهاية، وتنفّستُ الصُّعَداء، فيما ألقيتُ حزمة المؤن بجوار النهر؛ حيث قضيتُ ليلتي السابقة.

حظيتُ بوجبةٍ مُشبعة، وأشعلتُ غَليوني، مُغشّيًا نفسي ذلك المزاج الهادئ الذي يلي الاستراحة بعد عناء والشبع بعد جوع. كانت الشمس تميل ناحية المغيب، وسقطَت أشعتُها على الجدار الصخري، في المكان الذي أقلعتُ فيه عن بحثي عن آثار أقدام اليهودي.

فيما كنتُ أتأمّل المكان بذهنٍ شارد، رأيتُ شيئًا مثيرًا للانتباه.

بدا كأن هناك فلقًا في الجدار الصخري ينفُذ من خلاله شعاعٌ من ضوء الشمس. ليس ثمّة شكٌّ في ذلك. فقد سقط طرَف الشعاع على المرجِ أسفلَه فيما توارى باقي المشهد في الظلّ. فركتُ عينيّ، وأخرجتُ منظاري. ثم توصّلتُ إلى تفسير هذه الظاهرة العجيبة. لا بُد أن برجًا من الصخور تشكّل بالقُرب من صفحة المنحدَر الرئيسي حتى إنه يتعذّر على الناظر إلى المنحدَر مباشرةً التفريقُ بينه وبين البرج. ولا سبيل إلى اكتشاف البرج إلا بسقوط أشعّة الشمس عليه من زاويةٍ مائلة. وبين البرج الصخري والمنحدَر كانت هناك فجوةٌ كبيرةٌ بطبيعة الحال.

لما أدركتُ ذلك هبَبتُ واقفًا وركضتُ بأقصى سرعة إلى طرَف شعاع الضوء. تركتُ نباتات الخلنج ورائي، وتسلّقتُ ركام الحجارة بسرعة، وواجهتُ صعوبةً في اجتياز بعضِ الصخور الملساء الزلِقة، ولم يمنَعْني من الانزلاق إلا احتكاكُ التويد المصنوعة منه ملابسي بسطحِ الصخورِ الخشن. شقَقتُ طريقي إلى بصيص الضوء رويدًا رويدًا إلى أن وجدتُ بروزًا أتشبّث به ودفعتُ بجسَدي إلى داخل الفَلْق. وجدتُ واجهة التل، فيما قبَع البرجُ الصخريُّ البالِغ تسعين قدمًا على وجه التقريب في الجانب الآخر،

وبينهما امتدّ فلْقٌ طويلٌ عرضُه ما بين ثلاثة وستة أقدام. وكشَف الفلْقُ عن رقعةٍ صغيرةٍ متلألئةٍ من البحر.

ليس هذا كل شيء؛ فبمجرّد ما دلفتُ إلى الصّدع وجدتُ بروزًا علويًا صنع تجويفًا كالمغارة، كانت منخفضةً في بدايتها ومرتفعةً قَدْر اثنتَي عشرة قدمًا في داخلها، وجافةً مثل الحطب. فكّرتُ أن هذه المغارة هي مخبأٌ مثالي. قبل أن أغوصَ في الأعماق، قرّرتُ أن أرجع للتزوُّد بالطعام. لم تكن عمليةُ الهبوط سهلةً على الإطلاق، بالإضافة إلى أنني انزلقتُ نحو عشرين قدمًا، إلى أن سقطتُ على رأسي على رُكام الحجارة الناعم. على جانب الجدول، ملأتُ قارورتي بالويسكي، وملأتُ جيوب معطفي الواقي من المطر بنصف رغيفٍ من الخبز، وعُلبة من السردين، وعُلبة من اللحم، وظرف من الشكولاتة. استغرقتُ بعضَ الوقت في الصعود إلى الكهف مرةً أخرى، نظرًا لحمولتي الثقيلة، لكن وصلتُ في النهاية، وأودعتُ مقتنياتي في الزاوية. بعد ذلك انطلقتُ لاستكشاف بقية الفلْق.

انحدرَت الأرض، ثم ارتفعَت مرةً أخرى، عند منبسطٍ صخري. بعد ذلك، انخفضَت بصورةٍ تدريجيةٍ إلى المرج القابع وراء البرج. لو أن اليهودي البرتغالي كان هُنا، فلا شك أنه سلَك هذا الطريق للوصول إلى البرج؛ إذ لن يكون لديه متّسعٌ من الوقت لرحلةِ الصعودِ الطويلةِ التي قمتُ بها. خطوتُ بحذَرٍ شديد؛ إذ شعَرتُ أنني على وشكِ اكتشافِ شيءٍ هام. كان المنبسَط الصخري مختفيًا بشكلٍ جزئيٍّ من زاوية رؤيتي، بواسطةِ حَنيةٍ في الفلْق، كما كان محجوبًا، بشكلٍ أو آخر، بالحصن الخارجي للبرج في الجانب الآخر. كان سطح المُنبسَط مُغطًى بغبارٍ ناعمٍ دقيقٍ مثل الطريق المتدرِّج وراءه. دفعَتْني الحماسة إلى الانحناء وفحص الغبار.

كانت هناك آثارُ أقدامٍ واضحة بما لا يدع مجالًا للشك. آنذاك، كنتُ قد حفظتُ آثار أقدام اليهودي البرتغالي عن ظهر قلب، فميّزتُها من الآثار الأخرى، لا سيما في زاويةٍ بعينها. لكن وجدتُ آثار أقدام مختلفة. كان بعضها لنعلَي حذاء مُخصّص للأراضي الوَعْرة، وكان البعضُ الآخرُ لحذاءٍ ذي نعلَين أملسَين. وتمنّيتُ مرةً أخرى لو أن بيتر معي كي يؤكّد لي ما توصّلتُ إليه رغم تيقّني منه. وهو أن الرجل الذي لاحقتُه أتى إلى هذا المكان دون أن يمكُث لفترةٍ طويلة. وقَدم شخصٌ آخر، في وقتٍ لاحقٍ على الأغلب؛ لأن آثار النعل الأملس كانت موجودةً فوق آثارِ حذاء الأراضي الوَعْرة. قد يكون الأول ترك رسالةً للآخر. وقد يكون الآخر هو مَن أحسستُ بوجوده بشكلٍ غيرِ قاطعٍ في أثناء الليل.

محوتُ أثَر خطواتي من على الأرض بعناية، وعُدتُ إلى الكهف. كان رأسي منشغلًا

بهذا الاكتشاف. تذكّرتُ ما قاله جريسون لصديقه: «ليلة الغد». استنتجتُ أن اليهودي البرتغالي حمل رسالة من جريسون إلى شخصٍ آخر، وأن هذا الشخصَ قَدِم من مكانٍ ما، وأخذ هذه الرسالة. ولا بُد أن الرسالة تشير إلى لقاءٍ سريٍّ في تلك الليلة بعينها. عثَرتُ على زاويةٍ للمراقبة؛ لأنه من المُستبعَد أن يقترب أحدٌ من الكهف، نظرًا لوعورة الطريق إليه من المرج. سأُخيِّم هناك في العَراء، وأنتظِر ما يحمله إليّ الظلام من أخبار. أتذكّر أنني فكّرتُ في حظي السعيد الذي رافقَني لهذه البقعة البعيدة. تأمّلتُ ضوء الشفَق الأزرق الباهت وهو يزحفُ فوق البحر، فيما تسارعَت دقّاتُ قلبي من شدة الترقُّب.

ثم سمعتُ صوتًا بالأسفل، فمدَدتُ عنقي لأنظر من خلف حافة البرج. رأيتُ رجلًا يتسلّق المنحدَر من نفس المسار الذي اتخذتُه.

الفصل السابع

أعرف بأمر الطيور البرية

رأيتُ قُبعةً خضراءَ من اللبّاد، وتحتها كتفَين ممشوقَين مغطّيَين بقماش التويد. ثم رأيتُ حقيبةَ ظهرٍ تتدلى من أربطتها عصًا، فيما كان صاحبها يجتاز رفًا صخريًا. سرعان ما رفَع الرجلُ رأسَه ليحسبَ المسافةَ المتبقية إلى السطح. كان وجهَ شابٍّ، شاحبًا ونحيلًا، لكن تسرّبَت إليه الحمرةُ نتيجةً لتعرُّضه للشمس وعَناء التسلّق. كان وجهًا رأيتُه لأول مرة في نُزُل «فوس مانر».

غشيَتْني موجةٌ من الغثيان والحزن على حين غرّة. لا أدري سببها، لكن لم يخطُر ببالي قَط تورُّط مُثقفي بيجلزويك في مثل هذا الأمر. لم أشُكّ في أحد سوى أفري، وقد كان يختلف عن البقية. كانوا بلهاء ومتعجرفين لا أكثر، وكنتُ سأحلف على براءتهم. لكن ها هو أحدهم متورطٌ في جريمة الخيانة العظمى لوطنه. شعَرتُ بالنبض في صدغيّ عندما تذكّرتُ أن ماري صديقةُ هذا الشاب، وأنه أمسَك يدَها، وأنه ناداها باسمها الأول. ولوهلةٍ اجتاحَتْني رغبةٌ عارمةٌ في انتظارِ وصوله إلى السطح ثم إلقائه بين الصخور الكبيرة حتى يحتار شركاؤه الألمان في أمرِ جُثّته.

سيطرتُ على غضبي بصعوبة. يجب أن أُنفّذ المهمّةَ المنوطةَ بي، والحفاظ على علاقتي بذلك الشاب جزءٌ منها. لا بد من إقناعه أنني شريكٌ له، وهي ليست بالمهمة السهلة. انحنيتُ على حافة المنحدَر، وفيما كان الشابُّ يضع قدَمَه على الحافةِ الناتئةِ فوق الصخور الناعمة أطلقتُ صفيراً كي أجذبَ انتباهه.

قلتُ: «مرحبًا يا ويك.»

أجفل ويك، وحدّق بي هُنيهة، ثم تعرّف عليّ. كان واضحًا أنه لم يسعَد كثيرًا برؤيتي.

هتف: «براند! كيف وصلتَ إلى هُنا؟»

تسلّق إلى حيثُ كُنت، ثم اعتدل واقفًا، وحلّ مشبكَ حقيبةَ ظهره. قال: «ظننتُ أن هذا المكان ملجَئي وحدي، وأنْ لا أحدَ يعلم بوجوده سواي. أرأيتَ الكهف؟ لا يُوجَد مكانٌ

للنوم أفضل منه في جزيرة سكاي بأكملها.» كانت نبرةُ صوتِه لاذعةً للغاية كعادته.

كان الدم يفور في عروقي. وددتُ لو أنني أضع يديّ على عنقه، وأخنق ذلك الخائن المتعجرف. لكن ركزت على غاية واحدة، وهي إقناعه أنني أشاركه في سره، وأنني في صفه. بدت رباطة جأشه الارتجالية مجرّدَ ستارٍ بارع لمُتآمِر كُشِفَ أمره على حين غرة يبحث عن خطة لإنقاذ نفسه.

دخلنا الكهف، وألقى ويك حقيبةَ ظهرِه في زاوية. قال: «آخر مرة أتيتُ فيها إلى هُنا، صنعتُ غطاءً للأرضية من نباتات الخلنج. لا بد أن نجمع المزيد إذا كنا نرغب في فِراشٍ مريحٍ للنوم.» لم تكن ملامحُه واضحةً في ضوء الشفق، لكنه بدا مختلفًا عن ذلك الشخص الذي رأيتُه آخِر مرة في «مووت هول» في بيجلزويك. بدا جسَدُه النحيفُ يفيض قوةً ووجهه ينبض عزمًا. كم كنتُ أحمقَ عندما حكمتُ أنه ليس سوى عاطلٍ متعجرف!

خرج ويك إلى الرف الصخري، واستنشق هواءَ المساءِ العليل. كان أفقُ المَغيب قد اصطبغَ بلونٍ أحمرَ خلاب، لكن أظلمَت الأجواء داخل الفلْق، واستأثرَت البقعُ الساطعةُ في كِلا الجانبَين بأنباء المغيب.

قلتُ: «لا بدّ أن نتفاهم يا ويك. أنا صديق أفري، وأدرك الغاية من هذا المكان. لقد اكتشَفتُه بطريق الصدفة، لكن أريدك أن تعلم أنني أدعمك قلبًا وقالبًا. بوسعك أن تثقَ بي في مهمة الليلة كما لو أنني أفري بالضبط.»

استدار ويك ناحيتي، ونظر إليّ بحدة. كانت عيناه محتقنتَين، مثلما كانت عند لقائنا الأول.

سأل: «ماذا تقصد؟ ما مقدار ما تعرفه؟»

اعتراني الغضب، فسيطرت على نفسي لأُجيب عن سؤاله.

قلتُ: «أعلم أن شخصًا ما ترك رسالةً في الزاوية البعيدة من الصدع، ليلة الأمس، وأن شخصًا آخر قَدِم من ناحية البحر والتقطها. أعلم أن هذا الشخص سيأتي مرة أخرى، عندما يحلّ الظلام، وسيترك رسالةً جديدة.»

أدار ويك رأسه بعيدًا. قال: «لا تتفوّه بالترهات. ليس بإمكان أي غواصةٍ أن ترسُوَ على هذا الساحل.»

أدركتُ أنه يختبرني.

قلتُ: «سبَحتُ هذا الصباح في ذلك الخليج اللُّجِّي بالأسفل. لا يُوجَد مخبأٌ للغواصات أفضلُ منه في بريطانيا كلها.»

كان لا يزال مُشيحًا بوجهه عني، فيما ينظر إلى الطريق الذي جاء منه. ظلّ صامتًا هُنيهة، ثم تحدّث بتلك النبرة البطيئة اللاذعة التي أثارت استيائي في «فوس مانر».

قال: «كيف تُوفّق بين هذه المهمة ومبادئك يا سيد براند؟ لطالما كنتَ رجلًا مُحبًّا لوطنه، حسبما أذكر، وإن كنتَ لا تتفقُ مع الحكومة تمامًا.»

لم أتوقّع هذا السؤال، ولم أكن مستعدًّا. تلعثمتُ في إجابتي. قلتُ: «لأنني أُحب وطني فأنا أريد السلام. أظن أن ... أعني ...»

سأل: «ألهذا تريد مساعدة العدو في الانتصار؟»

أجبتُ: «لقد انتصَر بالفعل. أريد أن نعترفَ بذلك، فنتعجّل بالسِّلم.» بدأ ذهني يصفو، وتحدّثتُ بطلاقة عن ذي قبل.

تابعتُ قائلًا: «كلما طالت الحرب، لحق بالدولة الكثيرُ من الدمار. يجب أن نُخبر الشعب بالحقيقة، و...»

لكنه استدار فجأة، وتأجّجَت عيناه.

صاح: «يا لك من وغد! يا لك من وغدٍ لعين!» وانقضّ عليّ كالنمر.

حصلتُ على إجابتي. لم يصدقني لأنه يظن أنني خائن، وعزم على قتلي. ابتعَدنا عن التحضُّر، وعُدنا إلى البربرية. صارت حياته في مقابل حياتي. ثارت ثائرتي، عندما تلاحَمنا، وغمرَني شعور عارم بالرضا.

كان انتصاره مستحيلًا؛ فرغم أنه مَمشوق القوام ولدَيه جسدٌ نحيلٌ خفيفٌ مثل مُتسلقي الجبال، فهو لا يتمتّع بربع قوّتي. إلى جانب أن موضعه لم يكن مُواتيًا؛ إذ كان يُهاجمني من الخارج. ولو كان يُهاجمني من داخل الكهف، لربما استطاع أن يُلقيَ بي من فوق الحافة بهجومه المباغت. على غرار ذلك، صرعتُه وطرحتُه أرضًا، قاطعًا النفس عن جسَده أثناء ذلك. ولا بد أنني آلمتُه بشدة، لكنه لم تصدُر عنه صرخةٌ واحدة. بعد عناءٍ ربطتُ يدَيه خلف ظهره بحزامِ معطفي الواقي، ثم حملتُه إلى الكهف وألقيتُ به في الطرف المُظلم منه. ثم أوثقتُ قدمَيه برباطِ حقيبةِ ظهره. كان يُمكنني سدُّ فمه، لكنني فضّلتُ الانتظار.

يجب أن أبتكر خطة عمل من أجل الليلة لأنني لا أعلم ما الدور الذي كان سيؤديه لولا تدخُّلي. ربما يؤدي دور الرسول بدلًا من اليهودي البرتغالي، وفي تلك الحالة ستكون الرسالة في حوزته. لو كان يعرف الكهف، فلا بد أن الآخرين يعرفونه بدورهم؛ لذا من الأفضل أن أنقلَه من الكهف قبل وصولهم. نظرتُ إلى ساعة معصمي، وأشار قُرصُها المضيء إلى التاسعة والنصف.

سمعتُ صوتَ نحيبٍ صادرٍ عن الكَومة البشرية في الزاوية. بدا النحيب مريعًا وأصابني بالقلق. كان لديّ مصباحٌ يدويٌّ جيبي، فسلطتُ ضوءه على وجه ويك. لو كان يبكي، لكان يفعل ذلك بعينَين خاليتَين من الدموع.

سأل: «ماذا تنوي أن تفعل بي؟»

قلتُ بتجهُّم: «حسب الظروف.»

قال: «حسنًا، أنا مستعد. قد أكون ضعيفًا لكن تأكّد أنني لا أخشاك ولا أمثالك.» تقاطَر كلامُه شجاعة، لكنها شجاعةٌ زائفة؛ فقد رأيتُ أسنانَه تصطكّ من الرعب.

قلتُ: «أنا مستعدٌّ لعقد صفقة.»

أجاب: «لن تحصلُ عليها. اقطع رأسي إن شئت، لكن لا داعي لأن تُهينَني بحق السماء ... أشعر بالتقزّز عندما أُفكّر بك. نزلتَ بيننا، فرحّبنا بك، واستقبلناك في بيوتنا، وأفضَينا إليك بمكنون صدورنا، وما أنت إلا خائنٌ لعينٌ طيلة هذا الوقت. أنت تريد بيعنا لألمانيا. ربما فزتَ الآن، لكن الويلُ لك! سيحينُ دورُك! هذه هي كلمتي الأخيرة لك ... أيها الحقير!»

هدأَت ثورتي. رأيتُ نفسي فجأة أحمقَ، أعمَى بلا عقل. مشَيتُ إلى ويك بخطواتٍ واسعة، وعندما رآني أغلَق عينَيه مخافةَ أن ألكُمه. لكنني بدلًا من ذلك حلَلتُ وثاق ساقَيه وذراعَيه.

قلتُ: «يا لي من غبي يا صديقي العزيز ويك. يمكنك شتمي بأفظع الشتائم. وسأتركك تضربني ضربًا مبرحًا دون الدفاع عن نفسي. لكن ليس الآن. فالآن تنتظرنا مهمةٌ أخرى. نحن نعمل في الجانب نفسه يا رجل، ولم أدرك ذلك على الإطلاق. أعلم أن هذا ليس عذرًا، ولعلك تجد بعضَ العزاء في حقيقة أنني أشعُر أنه ليس هناك أحمقُ في أوروبا كلها مثلي في اللحظة الحالية.»

انتصَب في جلستِه وانهمَك في دلك كتفَيه المصابتَين بالرضوض. سأل بصوتٍ

مبحوح: «ماذا تقصد؟»

قلتُ: «أقصد أننا حلفاء. اسمي الحقيقي ليس براند. أنا جندي — جنرال — إذا كان يهمك معرفة الحقيقة. ذهبتُ إلى بيجلزويك استجابةً للأوامر التي جلبَتْني إلى هُنا بطبيعة الحال. أفري هو أكبر عميلٍ ألماني في بريطانيا، وأنا أُلاحقه. اكتشفتُ قنواتِ اتصاله، وهذه الليلة، إن شاء الله، سنصل إلى المفتاح النهائي لهذا اللغز. أتسمعني؟ نحن في هذه المهمة معًا، ويجب أن تساعدني.»

حكيتُ له عن جريسون بإيجاز، وأنني اقتفيتُ آثاره حتى وصلتُ إلى هُنا. تناولنا العَشاء، فيما كنتُ أتحدث، وتمنّيتُ لو أنني كنتُ أستطيع رؤية وجه ويك. وجّه إليّ الكثير من الأسئلة لأنه لم يقتنع بسهولة. أظن أنه لم يقتنع إلا عندما ذكرتُ ماري لامنتون. لا أعلم السبب لكن بدا أن ذلك أزال شكوكه. لكنه لم يكن مستعدًا للإفصاح عن نفسه.

قال: «يمكنك الاعتماد عليّ؛ لأن هذه خيانةٌ عظمى لا خيانة بعدها. لكنك تعلم آرائي السياسية ولن أحيد عنها لهذا الغرض. لقد زادت مُعارضَتي لحربك اللعينة أكثر من ذي قبل، خاصةً بعدما علمتُ بما تنطوي عليه.»

قلتُ: «أنت محقٌّ فيما تقوله. أنا أدعم فكرة السلام. ولن تسمع منّي خطبًا رنانةً عن مآثر الحرب. أؤيد السلام قلبًا وقالبًا، لكن يجب إسقاط هؤلاء الشياطين أولًا.»

لم يكن آمنًا بالنسبة إلينا مواصلة البقاء في الكهف؛ لذا مَحَونا علاماتِ نزولنا في الكهف، وأخفَينا حقائبنا في شقٍّ عميق في المنحدر. أعلن ويك عن نيتِه في تسلُّق البرج قبل أن يسود الظلام التام. قال: «إن قمة البرج فسيحة، ويُمكنني مراقبة البحر من مكاني تحسبًا لظهور أي ضوء. تسلّقتُ البرج من قبلُ. واكتشفتُ الطريق إليه منذ عامَين. نمتُ أغلب الظهيرة فوق قمة جبل سكور فيكوينك وأنا في غاية اليقظة الآن.»

راقبتُه فيما يتسلق واجهة البرج، وانبهرتُ بسرعته ورشاقته. سِرتُ بمحاذاة الفلق جنوبًا إلى أن وصلتُ إلى التجويف، أسفل المُنبسَط الصخري الذي عثرتُ فيه على آثار الأقدام. كانت هناك صخرةٌ كبيرةٌ تحجُب المنبسط جزئيًا عن نظر الواقف ناحية الكهف. كان المكان مثاليًا لغرضي؛ إذ كانت هناك فرجةٌ ضيقةٌ بين الصخرة وجدار البرج، ومن خلالها يُمكنني سماعُ ما يجري على المُنبسَط الصخري. وجدتُ بقعةً يُمكنني الاسترخاءُ فيها ومراقبةُ ما يجري من خلال الفُرجة.

كان لا يزال هناك ضوءٌ خافتٌ يسطع على المنبسط الصخري، لكنه سرعان ما اختفى

وحل الظلام الدامس على التلال. كان القمر محاقًا، وكما حدث في الليلة السابقة، تناثَرَت سُحبٌ خفيفةٌ في السماء فحجبَت النجوم. خيّم صمتٌ تامٌّ على المكان، لكني كنتُ أسمع من حين لآخر نعيقَ طائرٍ في الأجراف العالية أو صياحَ خرشنةٍ أو صائد محار على الشاطئ. سمعتُ نعيقَ بومةٍ قادماً من أعلى البرج. خمّنتُ أنها إشارة وِيك، فنعقتُ بدوري، وأجابني. نزعتُ ساعةً معصمي ووضعتُها في جيبي، حتى لا يكشف قُرصُها المضيء في الظلام عن مكاني، ولاحظتُ أن الساعة توشك أن تدق الحادية عشرة مساءً. كنتُ قد خلعتُ حذائي، وزرّرتُ معطفي حتى الياقة لإخفاء قميصي. تراءى لي أن القادم الجديد لن يتكبد عناء استكشاف التجويف الكامن وراء المُنبسَط الصخري، لكن أردتُ الاستعداد للطوارئ.

تلا ذلك ساعة من الانتظار. اجتاحني شعور بالبهجة والسعادة؛ لأن ويك أعاد ثقتي في الطبيعة الإنسانية. في ذلك المكان الغريب أحاط بنا الغموضُ مثل الضباب. أتى شخصٌ مجهولٌ من ناحية البحر، رسول تلك القوة التي نتصارع معها منذ ثلاثة أعوام. بدا كأن الحرب وصلَت إلى عتبة بابنا، ولم أشعُر من قبلُ، حتى في غابة جنوب ألمانيا، أننا تحت رحمة قدَرٍ متقلّب. تمنّيتُ فقط لو أن بيتر بجواري. وهكذا ذهبَت أفكاري إلى بيتر في معسكر الاعتقال، وتلهّفتُ لرؤية صديقي العزيز مرةً أخرى، مثلما تتلهف فتاةٌ لرؤية حبيبها.

ثم سمعتُ نعيق البومة، وتلاه على الفور صوتُ خطواتٍ حذرة. لم يكن من الممكن رؤية أي شيء، لكن خمّنتُ أنه اليهودي البرتغالي، إذ سمعت احتكاك حذائه ذي المسامير بالصخور الصلبة.

التزم القادم بالهدوء التام. خُيّل إليّ أنه جلس على الأرض، ثم نهض من مكانه وعبث بموضعٍ في جدار البرج وراء الصخرة التي أختبئ خلفها مباشرة. بدا أنه حرك حجراً قبل أن يعيده إلى مكانه. بعد ذلك، خيّم صمتٌ على المكان، ثم نعقَت البومة مرةً أخرى. سمعتُ وَقْع خطواتٍ على الدرَج الصخري، وهي خطواتٌ تنبئ عن رجلٍ لا يعرفُ طريقه جيداً؛ لذا فإنه يتعثّر في مشيته. والأدهى من ذلك أنها خطواتٌ صادرةٌ عن حذاءٍ أملسِ النعل بلا مسامير.

بلغَا المنبسط الصخري وتحدّث أحدهما. تبيّن أنه صوتُ اليهودي البرتغالي وتحدّث الألمانية بطلاقة.

قال: «العصافير الصغيرة سكنَت في الغابة.»

أجاب الآخر بصوتٍ حازمٍ واضح.

قال: «صبراً فلن تلبث أنت أيضًا أن ترتاح.»

ليس ثمّة شكٌّ في أن كلامهما شفرةٌ من نوعٍ ما؛ إذ لن يتحدّث العقلاءُ عن الطيور في مثل هذا الموقف. شعَرتُ أنني أسمع شعرًا خاليًا من الروح.

تحدّث الرجلان بعد ذلك حديثًا خافتًا، لم أتبيّن منه سوى بضعِ عباراتٍ متقطعة. سمعتُ اسمَين؛ أحدهما كيليوس والآخر بوميرتس وهو اسم هولندي فيما يبدو. ولسعادتي سمعتُ كلمة «ألفينباين» التي تعني العاج لُفظَت وأُتبعَت بضحكة. تكرّرَت عبارة «الطيور المنزلية تفهم»، لكني لم أفهم معناها تمامًا. نطَق هذه العبارةَ الرجلُ القادمُ من البحر. ثم سمعتُ كلمة «الطيور البرية». بدا أن الرجلَين مولَعان بالطيور.

وللحظةٍ يسيرة، سطع ضوءُ مصباحٍ يدوي في المنطقة المحيطة بالصخرة الكبيرة، فتمكّنتُ من رؤية وجه ملتحٍ مُسمر يتفقّد بعض الأوراق. ثم عاد الظلام يغلّف المكان، ومرةً أخرى سمعتُ اليهودي البرتغالي يعبث بالحجارة في قاعدة البرج. لحُسن حظي أنه كان قريبًا من الصدع الذي أختبئُ خلفه فسمعتُ كل كلمةٍ يقولها. قال: «لا يُمكنك التردّد على هذا المكان كثيراً، وقد لا نستطيعُ تنسيقَ لقاءٍ بيننا. لهذا اخترتُ مكانًا أضع فيه طعامَ الطيور. سأتحيّن الفُرصَ للقدوم إلى هنا، وستأتي أنتَ أيضًا عندما تتهيأ لك الظروف. تارةً ستجد الكثير وتاراتٍ أخرى لن تجد شيئًا.»

شعَرتُ أن الحظ حليفي، وأخذَتْني البهجةُ فتخلّيتُ عن حذَري. انزلقَت حجارة، من تحت قدمي، ورغم أنني تمالكتُ نفسي على الفور، إلا أن تلك الحجارةَ اللعينةَ تدحرجَت إلى التجويف وأحدثَت جلبة. تجمّدتُ في مكاني في أحضان الصخرة، وانتظرتُ وأنا أسمع دقاتِ قلبي المتسارعة. كان المكان غارقًا في ظلامٍ دامس، لكن كان مع الرجلَين مصباحٌ يدوي، ولو أنهما سلّطا ضوءَه عليّ، لانتهى أمري. سمعتهما يُغادران المنبسط الصخري ويهبطان إلى التجويف. توقّفا هناك في غاية الانتباه، فيما حبستُ أنفاسي. ثم سمعتُ: «لا شيء يا صديقي»، وعاد الاثنان، والضابط البحري يتعثّر فوق الحصى.

لم يغادر الرجلان المنبسط الصخري معًا. ودّع الرجلُ القادمُ من البحر اليهوديَّ البرتغاليَّ بسرعة، واستمع إلى رسالته الأخيرة بنفادِ صبرٍ كأنه يتعجّل الرحيل. مضى ما يقرُب من نصف الساعة قبل أن يرحلَ الرجلُ الأخير، وسمعتُ ضجيجَ حذائه ذي المساميرِ على الأرض حتى تلاشى ببلوغِه نباتاتِ الخلنج في المرج.

انتظرتُ قليلًا، ثم زحفتُ عائدًا إلى الكهف. صدحَت البومةُ مرةً أخرى، وسرعان ما

هبط ويك بخفة إلى جواري؛ كان من الواضح أنه يحفظ كل موطئ قدمٍ وموضعِ يدٍ عن ظهر قلب ليتمكّن من شَق طريقه وسط الظلام الدامس بهذه السهولة. أتذكّر أنه لم يُوجّه إليّ أي سؤال، لكنه استخدم لغةً يندر أن تخرج من شفاه مُعارضي الحرب الأتقياء بشأن الرجلَين الذين كانا يقفان في التجويف الصخري منذ فترةٍ وجيزة. بعد ذلك تكوّرنا، نحن من كنا على وشك أن نقتل بعضنا منذ أربع ساعات، على الأرض الصلبة، ونمنا نومًا عميقًا من فَرْط التعب.

استيقظتُ لأجد ويك متكدرًا. كان أبرز ما علقَ بذهنه من أحداث الليلة الماضية هو شجارنا وإهانتي له. لَم ألُمْه على ذلك؛ إذ لو اتّهمَني أيّ شخصٍ بالتورط مع الألمان لأرقتُ دمه، ولم تُفلِح محاولتي إقناعه بأنه مَنحَني أسبابًا وجيهةً لأشُكّ به في التسرية عنه. كان في غاية الحساسية فيما يخُص مبادئه المباركة مثلما تتحسّس الفتاة العانس من التعرّض إلى سنّها. وزاد الوضعَ سوءًا أني كنتُ أؤنّب نفسي على حماقتي. بدا وجهُه مكفهرًا ونحن نقصد الشاطئ للاستحمام؛ لذا التزمتُ الصمت. كان يجترُّ كبرياءَه المجروحة.

لكن ماء البحر المالح صفّى كدره. فلا يمكن للمرء أن يظل نكدًا وهو يسبح في ذلك البحر المتلألئ الساحر. سابقَ أحدنا الآخر إلى البحر المفتوح خارج الخليج الصغير، الذي تموّج سطحُه بنسيم الصباح المنعش. ثم عُدنا إلى صخرةٍ ناتئةٍ مُغطّاة بنباتات الخلنج، حيث جفّفَتْنا أوّل أشعة الشمس التي سطعَت من خلف تلال كويلن. جلس ويك مُنحنيَ الظهر يُحملق في الجبال، فيما جلستُ أفحصُ الصخورَ عند الحافة. رأيتُ في مضيق مينش مُدمّرتَين تُسرعان ناحية الجنوب، وتساءلتُ عن مكان السفينة التي قدِمَت إلى هُنا في أثناء حراستنا بالليل في هذه المياه الزرقاء الشاسعة.

وجدتُ أثَر أقدام الرجل الذي قَدِم من البحر لا يزال واضحًا على الحصى فوق خط المدّ.

قلتُ: «ها هو أثَرُ صديقِنا من الليل.»

أجاب ويك وعيناه مثبّتتان على شقوقِ جبلِ سكور ديارج: «أرى أن الأمر برُمّته مجرّد موقفٍ عابر. قد يكون الرجلان من سكان المنطقة، ربما كانا صائدَين غيرَ شرعيّين أو غجريّين.»

علّقتُ: «لكن سكان تلك المنطقة لا يتحدّثون الألمانية.»

قال: «ربما كانت اللغة التي استخدماها الغيلية.»

قلتُ: «ماذا تقول في هذا إذن؟» واقتبستُ العبارتَين اللتَين عن الطيور اللتَين استخدمهما الرجلان في تحية أحدهما الآخر.

أثار كلامي اهتمامَ ويك. قال: «إنها قصيدة «فوق كل القمم هدوء» من الشعر الألماني. هل قرأتَ شعرَ جوته من قبل؟»

أجبتُه: «لا. وماذا تقول في تلك الصخرة المسطّحة تحت خط المد المغطّاة بكتلةٍ متشابكةٍ من الأعشاب البحرية؟ تبدو لينةً مقارنةً ببقية الحجارة في التلال، كما أن شخصًا ما كشط نصف الأعشاب البحرية وجزءًا من الجانب. لم يحدُث هذا صباح الأمس، لأنني اغتسلتُ في هذا المكان.»

نهض ويك من مكانه وفحص الأرجاء. فتّش الشقوق الموجودة في الصخور التي تصطفٌ على طول الخليج، وغاص في الماء مرةً أخرى كي يفتّش الأعماق جيدًا. ثم انضَم إليّ بابتسامةٍ على شفتَيه. قال: «أعتذرُ عن تشكيكي في كلامك. لقد مرّت سفينةٌ ذاتُ محرّك يعمل بالبنزين من هُنا في الليل. يُمكنني شمٌ رائحة البنزين، فأنا أتمتّع بحاسةِ شمّ قويةٍ مثل كلاب الصيد. دعني أقول إنك تسيرُ على الدرب الصحيح. على أي حال، على الرغم من معرفتك الضئيلة باللغة الألمانية إلا أنني لا أتخيّل أن تجودَ قريحتُك بهذا الشعر السرمدي.»

نقلَنا أمتعتَنا إلى منعطف الجدولِ الأخضرِ وتناولنا وجبةَ إفطارٍ مشبعة. لم يكُن في حقيبة ويك سوى بسكويتِ اللبن المُجفّف والزبيب؛ إذ ذلك هو زاد مُتسلقي الجبال حسب قوله، لكنه لم يكره أنْ يتذوق عينةً بسيطةً من طعامي المعلّب. تراءى لي أن حجم ويك قد اختلف وسط التلال فلم يعُد ذلك المُفكّر الهزيل من بيجلزويك. نسي حياءه الشديد وتحدّث عن هوايته بشغفٍ بالغ. بدا من كلامه أنه تسلّق جبال أوروبا طولًا وعرضًا من القوقاز إلى جبال البرانس. تيقّنتُ من براعته؛ إذ لم يتفاخر ببطولاته ومآثره. كانت الجبال هي ما يُحب لا عملية التسلق الشاقة نفسها. وكانت تلال كويلن حسبما قال هي منطقته المفضّلة؛ إذ يبلغ ارتفاع بعضها ألفَي قدم في الارتفاع. وجّهْنا منظارَينا إلى واجهة سكور ألسدير، وأرشدَني ويك إلى العديد من الطرق لبلوغ قمته القاتمة. قال لي إنه صار يُفضّل تلال كويلن وسلسلة جبال دولوميت لشعوره بالضجَر من شامونيه إيجويه. أتذكّر حماستَه الشديدةَ وهو يحكي لي مُتعةَ شهود مطلعِ الفجرِ في منطقة تيرول، بعدما صَعد خلال فدادين من المروج المزهرة ليبلغ قمةً جيريةً بيضاءَ ناصعةً تلقاءَ السماء الزرقاء الصافية. تحدّث أيضًا عن التلال الوَعْرة في سلسلة فترشتاينجبرج الجبلية في ألمانيا، وعن المرشد الذي التقى به هناك ودرّبه على مهارة

التسلق.

قال: «يَدْعونه سيباستيان بوخفيزر. إنه ألطف فتًى يمكن أن تُقابله في حياتك، ويتنقل بين الأجراف برشاقة مثل ظبي الشمواة. ربما مات الآن، مات في كتيبة ياغر القذرة. بسببك أنتَ وحربك اللعينة.»

قلتُ: «حسنًا، لنعمل ونُنهِها بالطريقة الصحيحة. ولا بد أن تُساعدَني في ذلك أيها الشاب.»

كان ويك بارعًا في رسم المُخطَّطات، وتمكّنتُ عَبْر مساعدته من رسم خريطةٍ مبدئيةٍ للتجويف الذي بِتْنا فيه الليلة الماضية، وتحديدِ موقعه بدقةٍ بالنسبة للجدول والبحر. بعد ذلك، دوّنتُ كل التفاصيل المُتعلقة بجريسون واليهودي البرتغالي مع الإسهاب في وصف الأخير حتى أدق التفاصيل. تعرّضتُ أيضًا لوصف موضع المخبأ الذي اتفق الاثنان على وضع الرسائل فيه بدقةٍ بالغة. أنهى الأمرُ الأخيرُ مخزوني من الورق، وأرجأتُ تسجيلَ العباراتِ الغريبةِ التي التقطتها فيما كنتُ أسترق السمع لحديث الرجلَين لوقتٍ لاحق. وضعتُ الأوراق في حقيبةِ سجائرَ جلديةٍ قديمةٍ كنتُ أحملها معي، وأعطيتُها لويك.

قلتُ: «اذهب إلى قرية كايل مباشرةً دون إهدار الوقت. لن يشُك بك أحد؛ لذا اسلُك أيّ سبيلٍ شئت. عندما تصل إلى هناك، اسأل عن السيد أندرو آيموس الذي يعمل في وظيفةٍ حكوميةٍ في المنطقة السكنية. أعطِه هذه الأوراق. سيعرفُ ما يفعلُه بها على الفور. أخبِره أنني سأصل إلى كايل بطريقةٍ ما قبل منتصف النهار بعد الغد. أنا مُضطَر لأن اتخفّى؛ لذا لن أستطيع مرافقتَك، وأريدُك أن تُسلّم هذه الأوراق إلى آيموس بأسرعِ ما يمكنك. إن حاوَل أحدٌ سرقتَها منك، فلا تُمكِّنه من بُغيتِه. أنتَ تعلم مدى خطورتها.»

قال: «سأعود إلى إنجلترا في غضون ثلاثة أيام. هل تريد أن أحمل أي رسائل لأصدقائك الآخرين؟»

قلتُ: «انسَ كل ما يتعلق بي. لم ترَني هُنا أبدًا. لا يزال اسمي براند، مجرّد إمبرياليٍّ ودودٍ يدرُس الحركات الاجتماعية لا أكثر. إن قابلتَ أفري، فأخبره أنك سمعتَ عن انغماسي في التحريضِ على السلطة في كلايد. لكن إن رأيتَ الآنسة ماري لامنتون، فلا بأس في أن تُخبرها أني تجاوزتُ «جبل الصعوبة». سأعودُ متى تشاءُ الأقدار، وسأنضَم إلى النشطاء في بيجلزويك. لكني تلك المرة سأكون أكثر نضجًا

في آرائي ... لا تنزعج. أنا لا أقول شيئًا يُخالِف مبادئك. نحن الاثنان نتفق في كراهيتنا للخيانة القذرة.»

وضع ويك الحقيبةَ الجلديةَ في جيب صدريّته. قال: «سأدور حول جبل جاربيهين وأجتاز خليج كاماسيوناري. وسأُبلغ كايل قبل حلول المساء بفترةٍ طويلة. على أي حال أنوي المبيت في قرية برودفورد ... إلى اللقاء يا براند، لأنني نسيتُ اسمك الأصلي. لستَ شخصًا سيئًا، لكنك ورّطتَني في مؤامرةٍ لأول مرة في حياتي البعيدة عن الإثارة. لا أغفرُ لك أنك ربطتَ تلال كويلن بالمؤامرات الدنيئة. لقد دنّستَ قداستَها.»

قلتُ: «لديك فكرةٌ مغلوطةٌ عن الرومانسية. مَرْحَى يا رجل، لقد قاتلتَ الليلةَ الماضيةَ على الجبهة حيث يلتحِم جيشنا مع العدو. بوقوفك على تلك القمة كنتَ تُحارب في قلب المعركة.»

ضحك ويك. قال: «هذه ترجمةٌ أخرى للموقف»، ثم ابتعَد بخطواتٍ ثابتةٍ وظللْتُ أراقبُ هيئته الرشيقة حتى اختفى خلف منعطف التل.»

قضيتُ ذلك الصباح أُدخّن بهدوء عند الجدول، فيما انشغل عقلي بتحليل المسألة برُمّتها. حصلَتُ على ما أراده بلنكيرون بالضبط، وهي وسيلةُ تواصُل العدو. سيتطلب الأمر معالجةً حَذِرة، لكن أرى أكاذيبَ مثيرةً تسافر إلى مقرّ العدو الرئيسي. لكن ظل يُلازمني شعورٌ مقلق، سببُه أنني نجحتُ في مهمّتي بسهولةٍ بالغة، وأن أفري ليس بالرجل الذي يُمكِن خداعُه على هذا النحو لفترةٍ طويلة. وجدتُني مدفوعًا للتفكير في المحادثة الغريبة التي جرت بين الرجلَين في الفَلْق. على الأرجح كانت أبياتُ الشعر التي اعتبرتُها شفرةً عاديةً تتغير كل مرة. لكن من هما كيليوس وبوميرتس، وماذا تعني الطيور البرية والطيور المنزلية بحق السماء؟ تعرّضتُ لمثل هذه الأحجية مرتَين في السنوات الثلاث السابقة؛ كانت الأولى عندما اضطُررتُ لفك طلاسم الملاحظات التي دوّنها سكادر في دفتره الصغير، والأخرى عندما حاولتُ فهم كلمات هاري بوليفانت الثلاث. أتذكّر أن التفكير الطويل فيهما هداني إلى حلهما، وتساءلتُ ما إذ كان القدَر سيُرشِدني إلى حلِّ هذه الأحجية أيضًا.

أما الآن فكان لا بد من العودة إلى لندن مُتخفيًا كما جئت. وقد لا يتحقق ذلك إلا بعد عناءٍ طويل؛ فلربما لا تزال الشرطة النشطة في مورفيرن تبحث عني، بالإضافة إلى أنه من الضروري أن أتجنّب المشكلات وأُخفي عن جريسون وأصدقائه ما يدُل على توغّلي في الشمال. لكن سأتركُ هذا الأمر لتوجيهات آيموس، وعند حلول الظهر ارتديتُ معطفي الواقي من المطر بجيوبه المكتظّة وانطلقتُ في مسارٍ ملتفٍّ طويلٍ بمحاذاة

الساحل. طيلةَ هذا اليوم البديع، لم أقابل أحداً تقريباً. مررتُ بمصنع تقطير الكحول، بدا أنه متوقفٌ عن العمل، وفي المساء وصلتُ إلى بلدةٍ صغيرةٍ على البحر حيث حصلتُ على مكانٍ للمبيت ووجبةٍ للعَشاء في حانةٍ مريحة.

في اليوم التالي، تحرّكتُ صَوبَ الجنوب، وحدثَت حادثتان مثيرتان للاهتمام. تفحّصتُ ساحل جزيرة رانا، ولاحظتُ أن سفينة توبرموري رحلَت من الميناء. لقد جعلَها جريسون تنتظر لمدةٍ كافيةٍ لإنهاء مهمته؛ فهو يتحكّم في الربان العجوز كخاتم في إصبعه. الحادثة الأخرى هي أنني رأيتُ ظهر اليهودي البرتغالي عند باب ورشة حدادة في قرية. كان يتحدّث الغيلية، هذه المرة، بطلاقةٍ حتى لَيَحسبُه المرء مجرد خادمٍ عاديٍّ وسط تلك الزمرة من العاطلين.

لم يرَني، ولم أشأ ذلك، إذ كان لديّ شعورٌ غريب أنّ تعارُفَنا في المستقبل كغريبَين قد يُحقّق لي النفع.

في تلك الليلة، تجرّأتُ على المبيت في قرية برودفورد؛ حيث حصَلتُ على وجبةٍ كبيرةٍ من سمك التروتة الطازج القادم من البحر، وتذوّقتُ للمرة الأولى مشروباً كحولياً ممتازاً مصنوعاً من العسل والويسكي. في صباح اليوم التالي، واصلتُ السير على الأقدام في وقتٍ مبكّر، وقبل منتصف اليوم بالضبط بلغتُ مشارف كايل والقريتَين الصغيرتَين المتقابلتَين على جانبَي المضيقِ البحري.

على بُعد ميلَين من منعطف الطريق مررتُ بعربةِ مزارعٍ متوقفةٍ على جانب الطريق، تقتات الفرس التي تجرُّها على حشائش المرج. ووجدتُ رجلًا يجلس على الضفة يدخّن، لافًّا زِمام الفرس حول ذراعه اليسرى. كان الرجل متقدماً في السن، قويّ البنية قصيراً، ويرتدي وشاحاً صوفياً حول عنقه.

الفصل الثامن

مغامرات بائع متجول

قال آيموس: «أتيتَ في موعدك بالضبط يا سيد براند. لكن يا إلهي! ماذا حدث لسروالك؟ وحذائك؟ تبدو رثّ الهيئة.»

لقد تركَت تلالُ كويلن اللعينة بصمتَها على حذائي الذي لم أُنظّفه منذ أسبوعٍ بالمناسبة، كما شقّت معطفي عند الكتف، ومزّقَت سروالي أعلى الركبة اليُمنى، ولطّخَت كل جزءٍ من ملابسي بالخث والطحالب.

ألقيتُ نفسي على الضفة بجوار آيموس وأشعلتُ غَليوني. سألتُ: «هل بلغَتكَ رسالتي؟»

قال: «نعم. هي في طريقها لوجهتها المعروفة تحملُها يدٌ أمينة. أحسنتَ التصرُّف يا سيد براند، لكن أتمنّى لو أنك تعود إلى لندن.» أخذ يستنشقُ الدخان من غَليونه، فيما تقطّب حاجباه الكثيفان بشدة حتى أخفى عينَيه الحذرتَين. ثم شرع يفكّر بصوتٍ عالٍ.

«لا يُمكنك العودة عَبْر ميناء ماليج. لا أفهم السبب حقًّا، لكنهم يبحثون عنكَ في ذلك الاتجاه. أشعُر بالانزعاج عندما يبذل أصدقاؤك، أعني الشرطة، جهدَهم لإحباط خُططِك، فيما أنت عاجزٌ عن شرح حقيقة الأمر لهم. يُمكنني إرسالُ رسالةٍ إلى رئيس الشرطة حتى يضمنَ وصولكَ إلى لندن مباشرةً مثل حمولةِ سمكٍ قادمةٍ من أبردين، لكن هذا من شأنه أن يكشف الشخصية التي تكبّدْتَ العَناء في تقمُّصها. لا، لا! يجب أن تُجازِف وتُسافِر عَبْر منطقة مويرتاون دون أوراقِ إثباتِ الهُوية.»

قاطعته: «لن تكون مخاطرةً كبيرة.»

قال: «لستُ واثقًا. لقد غادر جريسون السفينة توبرموري. وعَبَر من هنا قادمًا على متنِ عبّارة ماليج بالأمس، في صحبةِ رجلٍ داكنِ البشرةِ ضئيل الجسمِ نزل في كايل. لا يزال هذا الرجل هناك يُقيم في أحد الفنادق. يَدْعونه «لينكليتر» ويُسافِر لأغراض تجارة الويسكي. لم أطمئن إليه.»

سألتُ: «لكن جريسون لا يشُك بي، أليس كذلك؟»

أجاب: «قد لا يشُك بك. لكن من الأفضل ألا يراك هُنا. هؤلاء الرجال لا يُحبون المجازفة. تأكّد أن كل شخصٍ في جماعة جريسون يعرف كل شيءٍ عنك، ولديه أوصافُك كاملةً حتى تلك الشامة على ذقَنك.»

أجبتُ: «إذن فهي أوصافٌ خاطئة.»

قال آيموس: «أتحدّث على سبيل المجاز. فكّرتُ فيما قد تحتاجُه طيلة أمسِ تقريبًا، وأحضرتُ ما استطعتُ في العربة. ليتَ ملابسَك في حالةٍ جيدة، لكنّ معطفًا خفيفًا جيدًا سيُخفي حالتَها البالية.»

أخرج آيموس حقيبةً جلديةً قديمةً من مؤخرة العربة وكشَف عن محتوياتها. كان بداخلها قُبعةٌ مستديرةٌ بدت شعبيةً وقديمةَ الطراز، كما كان هناك معطفٌ تجاريٌّ طويلٌ داكن، من ذلك النوع الذي يرتديه الموظفون في طريقهم إلى العمل، ووجدتُ أيضًا كُمّين قابلَين للفصل من الباغة، وياقةً من الكتّان، ورابطةَ عنق. أحضر آيموس بالإضافة إلى ذلك حقيبةَ يدٍ كالتي يحملها الباعة المتجوّلون في جولاتهم.

قال آيموس بافتخار: «هذه حقيبتُك. ستجدُها مليئةً بالكُتيّبات. ستُلاحظ أنني انتبهتُ لمقاساتِ جسدكَ في جلاسكو لذا ستُلائمكَ الملابس. لديك اسمٌ جديدٌ يا سيد براند، وقد استخدمتُه في استئجار غرفة لك في الفندق. اسمك هو أرتشبولد مكاسكي، وتُسافِر من شركة «تود صانز آند برادزر» من أدنبره. أتعرفها؟ إنها تختصٌ ببيع الكتب الدينية وأنت تُحاوِل بيع تلك الكُتب لقساوسة الكنيسة في جزيرة سكاي لمنحها لطلبة المدرسة السبتية المتميّزين.»

أعجبَت آيموس الفكرة، فقَهقَه قهقَهتَه الفاترةَ المعهودة حين يضحك.

وضعتُ قُبعَتي ومعطَفي الواقي من المطر في الحقيبة وارتديتُ القُبعةَ المستديرةَ والمعطفَ الطويل. وجدتُهما مناسبَين تمامًا. كما ارتديتُ الكُمّين والياقة، لكن واجهَني عائق؛ لأنني فقدتُ وشاحي في مكانٍ ما في كويلن، ووجد آيموس نفسَه مدفوعًا، بطبعه السخي، لأن يُعطيَني وشاحَه الأسودَ البالي الذي كان يزينُ عنقه. بدا مظهري غريبًا، وشعَرتُ بعدم الراحة، لكن كان آيموس راضيًا عن إنجازه.

قال: «تبدو يا سيد ماكسكي مثل مندوب دور النشر تمامًا. يُفضّل أن تراجع بعض التفاصيل عنك ربما غابت عن ذاكرتك. أنتَ قادم من إدنبرة، لكنك في لندن منذ عدة

سنوات، وهذا يفسِّر لكنتَك. تعيش في ٦ شارع راسيل، بالقرب من المروج، وأنتَ شيخٌ في الكنيسة المتحدة الحرة في نيثرجيت. ألديك هوايةٌ معينةٌ يمكنك الإسهاب في الحديثِ عنها إن تحدّث إليك أحد؟»

اقترحتُ الكلاسيكياتِ الإنجليزية.

قال: «ممتاز. لا بأس في الحديث عن السياسة أيضًا. يُفضّل أن تُصرِّح أنك مؤيدٌ للتجارة الحرة متأثرًا بسياسات جورج لويد بعد أن كنتَ رافضًا لها. لن يستغربَ ذلك أحد، ويجب أن تتظاهر بأنك شخصٌ عادي ... لو كنتُ مكانك، لتجوّلتُ في الأنحاء قليلًا، حتى أصل إلى الفندق بعد حلول الظلام. حينها، يمكنك تناول العشاء والخلود للنوم. يغادر القطار المتجه إلى مويرتاون في السابعة ونصف صباحًا ... لا، لا يمكنك الذهاب معي. لن يكون من الجيد أن يرانا أحدٌ معًا. لو قابلتُك في الطريق، فسأتظاهر أنني لا أعرفك.»

ركب آيموس في عربتِه وانطلَق صوبَ منزله. اتجهتُ إلى الشاطئ وجلستُ بين الصخور، وبحلول آخر النهار أنهيتُ ما تبقّى معي من طعام. حلّ الغسَق بهدوئه، وسِرتُ إلى القرية الصغيرة، واستأجرتُ قاربًا كي ينقلَني إلى الفندق. وجدتُ الفندق مريحًا، تُديره عجوزٌ عطوفةٌ أرشدَتني إلى غرفتي ووعدَتني بتحضير عجّة اللحم والسالمون البارد على العشاء. اغتسلتُ جيدًا؛ إذ كنتُ في حاجةٍ ماسةٍ إلى ذلك، وحاولتُ أن أُهَندمَ ملابسي قَدْر الإمكان، ثم نزلتُ للطابق السفلي لتناوُل العَشاء في غرفة القهوة التي لا يُضيئُها إلا مصباح كيروسين خافت.

كان الطعام ممتازًا، وكلما تناولتُ لقمة، تحسّنَت معنوياتي. في غضون يومَين سأكون في لندن بجوار بلنكيرون وعلى بُعد مسيرة يومٍ من ماري. صرتُ لا أتخيّل مكانًا إلا وأراها فيه. وجدتُ بيجلزويك ساحرة؛ لأنني رأيتُها هناك. لا أدري إن كان هذا هو الحب، لكنه شعورٌ لم أختبره من قبلُ، شعورٌ تشبّثتُ به بشدة. أضفى هذا الشعورُ بهجةً على كل شيء، وأضاف معنًى للحياة حتى إني صِرتُ متشبثًا بما تبقّى من أيامي.

ما إن أنهيتُ وجبةَ العَشاء حتى انضَم لي ضيفٌ آخر. بدا الرجل في ضوء المصباحِ الخافتِ ضئيلَ الجسم نبيهًا، له شاربٌ أسودُ كث، وشعرٌ أسودُ صفّفه على جانبَي رأسه. كان قد تناول طعامه بالفعل، وتراءى لي أنه يشتهي الرفقة.

سرعان ما أخبرني الرجل عن قدومه من مدينة بورتري وأنه في طريقه إلى منطقة لِيث. بعد ذلك أخرج بطاقةً مُدوّنًا فيها اسم «جيه جيه لينكليتر»، واسم «هاثرويك

بروس» في الزاوية. كشفَت لهجتُه أنه من الغرب.

قال: «لقد كنتُ أزور مصانعَ تقطيرِ الكحول. لكنها صناعةٌ غيرُ مجدية هذه الأيام بسبب هجوم مقاطعي الخمر عليها ووصفَها بأنها عارٌ قومي وأنها تضُر بجهودها الحربية. أنا رجلٌ معتدل، لكن أرى أنه لا يصح إفسادُ تجارة رجال الأعمال المُحترَمين. لو أرادت الدولة منع استهلاك الخمر، فلا بد لها أن تعوِّض مصانع التقطير عن خسارتها. لقد سمحَت لنا باستثمار أموالٍ طائلةٍ في هذه التجارة، فلا بد أن تضمن لنا استرداد ما استثمرناه. سيؤدي عكس ذلك إلى الإضرار بالاستقرار المالي للدولة. هذا هو رأيي. هَبْ أن حكومة حزب العمال ارتأت أن الصابون يضُر بالمواطنين، ماذا ستفعل حينها؟ هل ستُغلِق بلدة بورت سانلايت الصناعية؟ أم مصانع الملابس الفاخرة؟ أم مصانع القُبعات الرسمية؟ لا يمكن تخيُّل نهاية هذه الحماقة، إن اتخذَت الدولة هذا المسار. أرى أن التجارة القانونية لا تتغيَّر حقيقتُها، وإن وضعها تحت رحمةِ حفنةٍ من المُتعصِّبين لهو مخالفةٌ للسياسة العامة. ألا تتفق معي أيها السيد؟ بالمناسبة، ما هو اسمك؟»

أخبرتُه باسمي، فواصل ثرثرته.

«نحن صانعو خمور ونُنتج أصنافًا فاخرة، نُصدِّر أغلبها إلى خارج البلاد. أضرَّت الحربُ بتجارتنا الخارجية لكن ليس بقَدْر ما أضرَّت بصناعاتٍ أخرى. في أي مجالٍ تعمل يا سيد مكاسكي؟»

أثارت إجابتي اهتمامه بشدة.

قال: «حقًّا؟ أنت تعمل في شركة «تود»! عملتُ في تجارة الكتب في الماضي قبل أن أتركها وأتّجه إلى تجارة أخرى أكثر ربحًا. عملتُ مندوبًا لدار «أندرو ماثيسون» لثلاث سنوات. تقع في شارع «باترنستر رو» لكن لا أذكُر رقم المبنى تحديدًا. كنتُ أطمحُ في السابق إلى فتحِ متجرِ كتُب، وأن أجعل لينكليتر من بيزلي اسمًا كبيرًا في هذا المجال. لكن حصلَتُ على عرض العمل ذلك من هيثرويك، وكنتُ أرغب في الزواج، فرجّحتُ كفّة المال على كفّة الطموح. لا أشعُر بالندم على هذا الخيار. لولا هذه الحرب، لكوّنتُ ثروةً طائلةً من راتبي والعمولات ... انطفأ غَليوني. ألديك عود ثقاب يا سيد مكاسكي؟»

كان الرجل مرحًا، وظل يُثرثر حتى أعلنتُ عن رغبتي في الذهاب إلى الفِراش. لو كان هذا الرجل التاجر الذي تحدّث عنه آيموس، ورآه في صحبة جريسون، فقد اختبرتُ كيف يُخطئ الرجال الحاذقون في أحكامهم في بعض الأحيان. ربما يكون الرجل انضم

إلى جريسون في أثناء قدومِه بعبّارة سكاي، وأرهَق ذلك العَبوس بثرثرته ليس إلا.

استيقظتُ مبكرًا، وتناولتُ فطورًا مكوّنًا من عصيدة الشوفان وسمك الحدوق الطازج، ثم سرتُ إلى محطة القطار التي كانت على بُعد مسافةٍ قريبةٍ من الفندق. كان الصباح دفيئًا رطبًا، خاليًا من أشعة الشمس، تكاد لا تتبيّن فيه تلال سكاي من كثرة الضباب. كانت مقصوراتُ القطار الثلاث مُمتلئةً تقريبًا عندما اشتريتُ تذكرة القطار، واخترتُ عربةً من الدرجة الثالثة، تسمح بالتدخين، على متنها أربعةُ جنودٍ عائدين من عطلتهم.

بدأ القطار يتحرك من مكانه عندما ركض مسافرٌ مُتأخرٌ على المحطة وقفز إلى العربة بجواري. قال بصوتٍ مبتهج: «صباح الخير يا سيد مكاسكي»، فعلمتُ أنه الرجل الذي تعرّفتُ إليه في الفندق.

تَرجْرَجَ القطار مُبتعدًا عن الساحل وسالكًا واديًا عريضًا خرج منه إلى أرضٍ مُستنقعيّةٍ شاسعة، تلُوح في شمالها تلالٌ مرتفعة. كان الطقس في ذلك اليوم يبعث على الاسترخاء، ومع اهتزاز القطار والازدحام البشري داخله، شعرتُ أن جفنَيّ ينسدلان. حظيتُ بقيلولة، استيقظتُ منها لأجد أن السيد لينكلاتر قد غيّرَ مقعده وصار يجلس بجواري.

قال: «لن نستطيع الحصول على صحيفة «سكوتسمان» قبل أن نصل إلى محطة مويرتاون. ما رأيك أن تعطيني أحد الكُتيبات التي تحملُها لقراءتها؟»

كنتُ قد نسيتُ أمر عينات الكتب. فتحتُ الحقيبة ووجدتُ أغرب مجموعة من الكُتيبات، جميعها لها أغلفةٌ زاهية. بعضُها كانت دينيةً مثل «ندى جبل حرمون» و«عين سلوان النضاحة»؛ والأخرى قصص أطفالٍ بريئة مثل «كيف ادخر تومي بنساته» و«المُبشّر الصغير في الصين» و«الصغيرة سوزي وعمها». كما وجدتُ «حياة ديفيد ليفينجستون» وكتابًا للأطفال عن المحار ونسخةً مذهبةً فاخرةً لقصائد جيمس مونتجمري. عرضتُ هذه المجموعة على السيد لينكليتر، فابتسم واختار «المُبشّر الصغير في الصين». قال: «ليس هذا نوع الكُتب الذي أقرؤه في العادة، أنا أفضّل الكتبَ التي تتناول موضوعاتٍ جريئةً كأعمال هول كين وجاك لندن. بالمناسبة كيف توفّق بين التعامل مع المكتبات والبيع المباشر؟ عندما كنتُ أعمل مع دار ماثيسون واجهتُ متاعبَ عند التعامل مع الزبائن مباشرة مثلما تفعل الآن.»

بدأ اللعينُ يتحدث عن تفاصيل تجارة الكتب التي أجهلها. أراد أن يعرف المعايير التي نتبعُها في بيع «كتب النشء»، ونسبة الخصم التي نمنحُها لبائعي الجملة، ونوعية الكتب

التي نطرحُها في قسم «الخصومات». لم أفهم أيًا من مفردات المهنة التي استخدَمها، ولا بد أنني كشفتُ عن جهلي، لأنه سألني عن شركاتٍ لم أسمع اسمها من قبلُ ولم أستطع التهرُّب من الإجابة. حدّثتُ نفسي أن هذا الغبي لا ضرَر منه، وأن رأيه بشأني عديم الأهمية، لكن في أول فرصةٍ سنحَت لي تظاهرتُ بانشغالي بقراءة رواية «سياحة المسيحي»؛ إذ كانت تتوافر نسخةٌ منها فاقعةُ الألوان وسط الكتيبات. انفتحَت الرواية على الفصل الذي يروي دخول المسيحي والراجي الأرض المسحورة، وفي تلك العربة الخانقة سرعان ما حذوتُ حذو شخصيتَي «المتهامل» و«المتجاسر» في «سياحة المسيحي» وغططتُ في النوم. أيقظَتْني قرقعة القطار عند تقاطعٍ صغيرٍ في المرج. جلستُ بعينَين مغلقَتَين، في راحةِ بالٍ مُمتعة، واختلستُ النظر إلى رفيقي. وجدتُه ترك كتيب «المُبشر الصغير»، وانهمك في قراءة كتابٍ ذي غلافٍ بنيٍّ ضارب إلى الرمادي، وراح يضع إشاراتٍ على الفقرات بقلم رصاص. بدا مُستغرقًا في مهمته على نحوٍ غيرِ معهود؛ إذ اختفت تلك النظرة المرحة الفارغة لذلك البائع المتجول الثرثار وحلّت محلها فطنةٌ وعزمٌ ووقار. ظللتُ مُنحنيَ الرأس كأنني لا أزال نائمًا، وحاولتُ تخمين موضوع الكتاب. لكن عجزَت عيناي، رغم حدّتهما، عن فهم أي شيءٍ من النص أو العنوان، باستثناء أنْ رجّحتُ أن لغة الكتاب ليست الإنجليزية.

استيقظتُ بغتةً وانحنيتُ نحو الرجل. فوضع القلم الرصاص في جيبه بسرعة البرق، ونظر إليّ بابتسامةٍ بلهاء.

قال: «ما رأيك في هذا يا سيد مكاسكي؟ اشتريتُه في مزاد مع خمسين كتابًا أخرى. ودفعتُ خمسةَ شلناتٍ ثمنًا لها. يبدو الكتابُ مكتوبًا بالألمانية، لكن لم أتعلم اللغات الأجنبية في الطفولة.»

تناولتُ الكُتَيب وقلّبتُ صفحاته، وحاولتُ المحافظة على دلائل عدم الفهم على وجهي. كانت لغة الكُتيب الألمانية، وهو عبارة عن دليلٍ إرشاديٍّ عن الجغرافيا المائية، ليس مدوّنًا عليه اسم دار النشر. كان شبيهًا بالكُتب التي تُوزّعها الحكومة على موظّفيها.

أعدتُ الكُتَيب لصاحبه. قلتُ: «إنها الألمانية أو الهولندية. لستُ خبيرًا، غير أنني تعلمتُ شيئًا من الفرنسية واللاتينية في مدرسة هريوت ... هذا قطارٌ في غاية البطء يا سيد لينكليتر.»

كان الجنود يلعبون ببطاقاتِ اللعبِ واقترح البائعُ المتجولُ أن ننضَم لهم. تذكّرتُ في الوقت المناسب أنني شيخٌ في كنيسة نيثرجيت الحرة المتحدة، فرفضتُ المشاركةَ بشيءٍ من الانفعال. بعد ذلك، أغمضتُ عيني مجددًا؛ إذ أردتُ تحليلَ هذه المعطياتِ

الجديدة.

كان لينكليتر يعرف الألمانية بلا شك. ورُؤي في صحبةِ جريسون. لا أعتقد أنه يشُك بي، لكني أشُك به بشدة. كانت مهمّتي هي الالتزام بالدور الذي أؤديه وألا أثير شكوكه. كان من الواضح أنه يؤدي أمامي دور الشخصية التي يتنكّر بها، ولا بُد لي أن أسايره. على الفور فتحتُ عيني وأشركتُه في نقاشاتٍ مثيرةٍ للجدل عن أخلاقية بيع المشروبات الكحولية القوية. وتحدّث هو بطلاقةٍ مدافعًا عن الكحوليات دفاعًا عقلانيًا شديدًا. أثار النقاشُ اهتمام الجنود، فأخرج أحدُهم قنينةً من الخمر وقدّمها للينكليتر دلالةً على تأييده لموقفه. ختمتُ بتعقيبٍ حزينٍ أن البائع المتجول كان أكثر صلاحًا حينما كان يبيع الكتب لصالح دار ألكسندر ماثيسون، فوضع هذا حدًا لنقاشنا.

حطّم القطار الرقم القياسي في بطئه. توقّف في كل محطة، وبعد الظهيرة أنهكه السير فقبع وسط أرضٍ مُستنقعيةٍ مدةَ ساعةٍ يستريح. كنتُ أخرج رأسي من النافذة من حينٍ لآخر، فأشم رائحةَ المُستنقعات الطينية، وعندما توقّفنا فوق جسر، تأمّلتُ سمك التروتة السابح في بِرك النهر البُني. بعد ذلك، تناوبتُ بين النوم والتدخين، وبدأ الجوع ينهش أحشائي.

ذات مرةٍ استيقظتُ لأجد الجنود يتناقشون في الحرب. كان هناك جدلٌ بين جندي أول في فوج المشاة الاسكتلندي وجندي ألغام حول حادثةٍ تافهةٍ في معركة السوم.

قال الجندي الأول: «أؤكّد لك أني كنتُ هناك. تسلمنا زمام الأمور من الكتيبة الثالثة من الفوج الملكي الاسكتلندي، فيما انهمَك الألمان في قصف الطريق، ولم نصل إلى الجبهة حتى الواحدة صباحًا. وكانت المسافة بين قرية فريكورت وأقصى جنوب منطقة هاي وود لا تقل عن خمسةِ أميال.»

قال جندي الألغام بنبرةٍ قاطعة: «بل لا تزيد عن ثلاثة أميال.»

قال الجندي الأول: «لقد سِرتُ هذه المسافة بنفسي.»

قال جندي الألغام: «وأنا أيضًا. كنت مسئولًا عن إزالة الأسلاك الشائكة كلّ ليلةٍ لمدة أسبوع.»

نظر الجندي الأول إلى رفقته بتجهُّم. قال: «أتمنّى لو أن معنا شخصًا آخر يعرف المكان جيدًا. حينها سيؤكّد ما أقوله. هؤلاء الجنود لا يعرفون؛ إذ لم ينضَموا للحرب إلا في وقتٍ لاحق. أؤكّد لكم أن المسافة تبلغ خمسة أميال.»

قال جندي الألغام: «بل ثلاثة.»

احتدّ النقاشُ بين الجنديّين المتنازعَين؛ إذ شعَر كلٌّ منهما أن رفيقَه يُشكّك في مصداقيته. كان الجو حارًا إلى حدٍّ يجعل المرء لا يُطيقُ حدوث شجار، وكنتُ أشعُر بالنّعاس الشديد فتخلّيتُ عن حذَري.

قلتُ: «اصمُتا أيها الأحمقان. المسافة بين الميدان والغابة ستة أميال؛ لذا كلاكما مخطئان.»

كانت نبرة صوتي مألوفةً للغاية للجنديّين، فتوقّفا عن النزاع، لكنها كانت بعيدةً كل البُعد عن نبرةِ مندوبِ دار نشر. أرهفَ السيد لينكليتر السمع.

سأل بلا اكتراث: «كم تبلُغ تلك المسافةُ بالأميال سيد مكاسكي؟»

قلتُ: «اضرب المسافة في خمسة ثم اقسم على ثمانية وستحصل عليها بالميل.»

عُدتُ إلى حذري، وحكيتُ قصةً طويلةً عن ابن أخي الذي قُتل في معركة السوم، وعن مراسلاتي مع مكتب الحرب بخصوصه. قلتُ: «بالإضافة إلى ذلك أنا مطلعٌ جيدٌ على الصحف، وقرأتُ كل الكتب التي تُناقِش مسألة الحرب. هذا وقتٌ عصيبٌ على الأمة، واتباع سير العمليات العسكرية يُساعِد في تجاوُز هذه المحنة. أعني بذلك دراسةَ المواقعِ على الخريطة وقراءةَ تقاريرِ المشير الميداني هيج.»

أجاب بخشونة: «هذا صحيح»، ورأيتُ نظرةً غريبةً في عينَيه.

ثم طرأَت لي فكرة. هذا الرجل كان يرافق جريسون، كما أنه يفهم الألمانية، ولا يُمكِن أن يكون بائعًا متجولًا كما يدّعي. ماذا لو أنه يعمل في جهاز المخابرات البريطاني؟ لقد ظهرتُ من العدَم في كايل، ولم أفلح في التظاهُر بأنني بائعٌ متجول؛ إذ كشفتُ عن جهلي بهذه التجارة. وأعرف معلوماتٍ محظورةً على المواطنين العاديين؛ لذا فإنه لديه من الأسباب ما يكفيه لمراقبة تحركاتي. هو يعزم على الذهاب إلى الجنوب، وأنا مثله؛ لا بد إذن أن نفترقَ بطريقةٍ ما.

سألت: «هل سنُغيِّر القطارَ في محطة مويرتاون؟ متى سيُغادر القطار المتجه إلى الجنوب؟»

تفقّد الرجل كُتيبًا صغيرًا يحتوي على مواعيد القطارات. قال: «سيغادر القطار في ١٠:٣٣ مساءً. وقت الانتظار في العادة أربع ساعات؛ إذ من المقرّر أن يصل قطارنا في ٦:١٥. لكن سنكون محظوظين إن وصل هذا القطارُ القديمُ إلى المحطة في ٩:٠٠.»

صحّت توقعاته. فقد شَق القطار طريقَه عَبْر التلال إلى السهول الفيضية وأشرفَ على بحرِ الشمالِ لفترةٍ وجيزة. ثم توقّف إلى أن عَبَر قطارٌ بضائعَ طويلٌ على القضبان. كان الليل قد حلّ تقريبًا عندما زحف إلى محطة مويرتاون أخيرًا، ولَفظَ حمولتَه من الجنود الذين يشعُرون بالحر والإنهاك.

ودّعتُ لينكليتر بحفاوةٍ مبالغة. قلتُ: «سعدتُ جدًا بلقائك. أراك لاحقًا في القطار المتجه إلى إدنبرة. سأتمشى قليلًا لأحرّك ساقيّ وأتناول العشاء.» كنتُ قد اتخذتُ قراري بأن أفوّتِ قطار ١٠:٣٠ المتجه للجنوب.

كانت خطتي هي أن أعثُر على فندقٍ معزولٍ لأبيت فيه الليل وأتناوَل العشاء، ثم أسير إلى المحطة في صباح اليوم التالي وأستكمل رحلتي إلى الجنوب في قطارٍ بطيءٍ آخر. اختفى لينكليتر في اتجاهِ مقصورةِ الحراس؛ إذ ذهب يبحث عن حقيبة سفره، فيما جلس الجنود على حقائبهم يبدو عليهم أنهم تائهون ومُهمَلون إلى أقصى حدٍّ كعادة المحاربين البريطانيين في أثناء عطلاتهم. سلّمتُ تذكرتي، ولأنني نازل من قطارٍ قادم من الشمال، دخلتُ شوارع المدينة بدون معوِّقات.

كانت ليلة السوق، فاكتظّت الشوارع بالباعة والمشترين. ورأيتُ أفرادًا من البحرية البريطانية يتجوّلون ببزّاتهم الزرقاء، وأبناءً من البلدة يتسوّقون، وعسكريين من مختلف الكتائب والرتب يحتشدون على الأرصفة. وضجّت الشوارع بنداءاتِ باعةِ السمك على سلعهم، وبموسيقى تستقبحها الآذان لعازف ناي رث الثياب في الزاوية. اتخذتُ طريقًا ملتويًا طويلًا حتى وقع اختياري في النهاية على فندقٍ متواضعٍ في شارعٍ جانبي. وعندما دخلتُ لأسأل عن غرفةٍ شاغرةٍ للمبيت، لم أجد أحدًا في مكتب الاستقبال، لكن فتاة رثة المظهر أخبرَتْني بوجود غرفةٍ واحدة، وأنه يُمكنني تناوُل لحم عجة اللحم في الحانة. وبعد أن صدمتُ رأسي بشدةٍ بعارضةٍ خشبيةٍ نزلتُ الدرَج بخطواتٍ متعثرةٍ ودلفتُ إلى غرفةٍ صغيرةٍ خانقةٍ تفوح منها رائحة بيرةٍ مسكوبة وتبغٍ عطن.

تبيّن أنه من المستحيل تناوُل عجة اللحم التي وعدَت بها الفتاة، بسبب عدم توفُّر البيض في مويرتاون تلك الليلة، وحصلتُ بدلًا منها على لحم ضأنٍ بارد وكوبٍ من جعةٍ رديئة. كانت الحانةُ فارغةً باستثناء مزارعَين يحتسيان ويسكي ساخنًا وماء ويتناقشان بجدية بشأن ارتفاع أسعار علَف الماشية. تناولتُ عشائي، وتهيأتُ للبحث عن غرفتي، عندما دخل اثنا عشر جنديًا إلى الحانة من الباب الرئيسي.

في غضون لحظةٍ تَحوّل الهدوء إلى الفوضى. كان الجنود في حالةِ صحوٍ تامة، لكنهم كانوا في مزاجٍ رائقٍ يستدعي احتساءَ مشروبٍ مُسكِرٍ من نوعٍ ما. عرض أحدُهم

أن يدفع ثمن المشروبات؛ كان قائد هذه المجموعة، وقد أراد تسليةَ أصدقائه احتفالًا بانتهاء عطلته. لم أستطع رؤية وجهه من مكاني، لكن هيمَن صوتُه على الأجواء. قال: «ما الذي تريد تناوُله يا رجل؟ أترغب في الجعة يا أندرو؟ سأحصل على كوبٍ من البيرة وجرعةٍ من الويسكي. مذاقُه أفضل من النبيذ الأبيض والأحمر يا ديفيد. عندما أجلس في مثل هذه المنشآت كما يُسمُّونها، يأخذني الحنين للحانات الاسكتلندية ذات الجودة.»

بدا صوتُه مألوفًا. حركّتُ مقعدي لأسترقَ النظرَ إلى وجهه، وسرعان ما تراجعتُ للخلف. كان الجندي الاسكتلندي الذي لكمتُه في فكِّه دفاعًا عن جريسون بعد لقاء جلاسكو.

لكن الحظ التعيس مكّنه من رؤيتي.

هتف: «من ذا الجالس في الزاوية؟» وترك المنضدة ليتفحصني بعينَيه. هذا غريب، لكنك إذا تعاركتَ مع رجل مرة، ولو لبضع لحظات، فلن تنسى وجهه، ولأن ذلك العِراك في جلاسكو تحت مصباحِ الشارع. لقد تعرّف عليّ الاسكتلندي جيدًا.

هتف: «يا إلهي! كم أنا محظوظ! هذا هو الرجل الذي تشاجرتُ معه في جلاسكو يا رفاق. لقد أخبرتُكُم عنه إن كنتم تذكُرون. لقد طرحَني أرضًا، وأتى دوري لآخُذ بثأري. كان بداخلي شعور أن هذه الليلة ستكون مُثيرة. لا أحد يضرب جوردي هاملتون ويُفلتُ بفعلتِه. انهض يا رجل لأُخلّص حقي.»

نهضتُ من مقعدي استجابةً لأمره، ونظرتُ إلى وجهه مباشرةً بعدما بذلتُ وسعي للمحافظة على رباطة جأشي.

قلتُ: «أنتَ مخطئ يا صديقي. لم أرَكَ من قبلُ، ولم أذهب إلى جلاسكو أبدًا.»

قال الجندي الاسكتلندي: «يا لكَ من كذابٍ أشر. أنتَ الرجل المقصود، وحتى إن لم تكن هو، فأنت تُشبهه إلى حدٍّ يجعلك بحاجة لأن تلوذ بالفِرار!»

قلتُ: «كُف عن الهُراء! لم أتشاجر معك، كما أني مُنشغل بأمورٍ أهم من الشجار مع شخصٍ لا أعرفه في حانة.»

قال: «حقًّا؟ حسنًا، سأُلقنك درسًا. سأضربك ثم افعل ما تشاء. أمسِك سترتي، يا توماس، وتأكد ألا ينسكبَ مشروبي.»

أثار الموقف استيائي؛ إذ إن أي شجارٍ سيجذب أفراد الشرطة وسيفتضح أمري. فكّرت

في معاركته، لأنني كنتُ واثقًا من قدرتي على هزيمته مرةً أخرى، لكن الأسوأ في الأمر أنني لا أعلم ما ستئول إليه الأمور في النهاية. قد أضطَر إلى قتال المجموعة بأكملها، وسيُحدث هذا ضجةً كبيرة. بذلتُ غايةَ ما في وسعي لإثناء الجندي الاسكتلندي عن عزمه. قلتُ له إننا أصدقاء وعرضتُ شراء مشروباتٍ للجميع. لكنه كان أبعدَ ما يكون عن المنطق، ومتلهفًا للقتال، يُشجّعه في ذلك رفاقُه أيّما تشجيع. نزعَ سُترتَه العسكرية، وراح يطرُق الأرض مكوِّرًا قبضتَيه.

فعلتُ أفضل شيءٍ هداني إليه تفكيري في هذا الموقف. كان مقعدي قريبًا من الدرَج الذي يؤدي إلى الجزء الآخر من النُّزُل. فانتشلتُ قُبعتي، وصَعِدتُ الدرَج بأقصى سرعة، وقبل أن يستوعب الجنود ما حدث أوصدتُ الباب خلفي بالمزلاج. فسمعتُ هرْجًا ومرْجًا في الحانة.

تسلّلتُ عَبْر ممرٍّ مظلمٍ إلى ممرٍّ آخرَ يتقاطع معه، بدا أنه يربط بين المدخل الرئيسي للنُّزُل والجزء الخلفي من المبنى. سمعتُ أصواتًا في الردهة الصغيرة فتوقّفتُ في مكاني بغتة.

ميّزتُ من بين هذه الأصواتِ صوتَ لينكليتر، لكنه لم يكن يستخدمُ طريقتَه المعهودةَ في الكلام. سمعتُه يتحدث بلغةٍ إنجليزيةٍ جيدة. وتحدّث الثاني بلهجةٍ اسكتلنديةٍ — خمّنتُ أنه صاحبُ الفندق — والثالث بلهجةٍ متعاليةٍ بدت أنها لضابطٍ شرطيٍّ بسببٍ شدّة التأهُّب والرسمية. سمعتُ أيضًا لينكليتر يقول: «يُسمِّي نفسه مكاسكي.» بعد ذلك توقّفَت الأصوات؛ إذ انتقل صخَبُ الجنود من الحانة إلى الباب الأمامي. إذ جاء الجنديُّ الاسكتلنديُّ ورفاقُه يبحثون عن مكاني عَبْر المدخل الآخر.

تشتّت انتباه الرجال الثلاثة في الردهة، فمنحَني ذلك فرصةَ الهرب. لم أرَ مخرجًا من هذا المأزِق سوى الباب الخلفي. تسلّلتُ من خلاله إلى الفِناء، وكدتُ أتعثّر في حوضِ ماء. وضعتُ الحوضَ عند الباب لعرقلة القادمين من هذا الاتجاه. قادني بابٌ إلى إسطبلٍ فارغ، ومنه خرجتُ إلى زقاق. كان الأمرُ في غاية السهولة، لكن ما إن خطوتُ إلى الزقاق حتى سمعتُ ضجةً عاليةً وأصواتًا غاضبة. سقط أحد المطارَدين في الحوضِ ورجوتُ أن يكون لينكليتر. في تلك اللحظةِ شعَرتُ بالتقدير تجاه ذلك الجندي الاسكتلندي.

كان القمر هلالًا، لكن الزقاق الذي كنتُ فيه كان شديدَ الظلمة. ركضتُ ناحية اليسار؛ إذ بدا أن الاتجاه الآخر يؤدي إلى نهايةٍ مسدودة. وجدتُ نفسي في طريقٍ هادئٍ تصطَف فيه أكواخٌ من طابقَين وينتهي أحد طرفَيه بشارعٍ جيدِ الإضاءة. لذا سلكتُ

الطرف الآخر؛ لأنني لا أريد أن يُلاحقَني جميع سكان مويرتاون. وصلتُ إلى طريقٍ ضيق، والتقيتُ بجماعة المطارِدين، التي لا بُد أنها سلكَت طريقًا مختصرًا. فور أن رآني الرجالُ أطلقوا الصيحات، لكن كانت لديّ فرصةٌ صغيرة، فركضتُ في ذلك الطريق على اعتقاد أنه يؤدي إلى منطقةٍ مفتوحةٍ من الريف.

كنتُ مخطئًا في اعتقادي. قادني الطريقُ إلى الجانب الآخر من البلدة، وفي الوقت الذي بدأتُ أفكّر فيه أني قد نجحتُ بالإفلات من المطارِدين، رأيتُ أمامي أضواءَ برج تحويل خطوط السكة ومصابيح المحطة على بُعد مسافةٍ غيرِ بعيدة ناحية اليسار. في غضونِ نصفِ ساعةٍ سيغادر قطار إدنبرة، لكن أن أصعد على متنه لهو ضربٌ من ضروب المستحيلات. كنتُ أسمع خلفي أصواتَ المطاردين التي صارت عاليةً جداً بعد أن جذبوا إليهم بعض السكارى. وقفتُ حائرًا لا أدري أين أذهب عندما لاحظتُ امتداد خَطٍّ طويلٍ من الأضواء الضبابية خارج المحطة التي لا يمكن أن تعني إلا قطاراً مُسدَلةً ستائر مقصوراته. كانت عربة المحرك مُلحقةً بالقطار في انتظار إضافة بعض العربات ليبدأ رحلته. كانت مجازفةً كبيرة، لكن لم أجد مخرجًا آخر. اندفعتُ عَبْر الخلاء، وتسلقتُ حاجزًا صناعيًا، لأجد نفسي على خط السكة الحديدي. احتميتُ بالوصلات الرابطة بين العربات وسِرتُ تحتها حتى وصلتُ إلى الطرف الأقصى من القطار بعيدًا عن العدو.

ثم حدث أمران متزامنان. سمعتُ صيحات المطارِدين على بُعْد اثنتَي عشرة ياردة، وفي اللحظة نفسها تحرك القطار. ألقيتُ بنفسي على درَج إحدى المقصورات ونظرتُ إلى الداخل من خلال نافذةٍ مفتوحة. كانت المقصورة مكتظةً بالجنود؛ حيث يجلس ستة على الجانبَين واثنان على الأرض، ومُغلقة الباب. سارعتُ بإلقاء نفسي عَبْر النافذة فسقطتُ على عنق جنديٍّ منهكٍ غطّ لتوّه في النوم.

سقطتُ على رأس الجندي، وأنا أفكّر فيما سأقوله. قرّرتُ التظاهر بالسُّكْر؛ إذ أعرف شفقةَ الجنود البريطانيين غير المحدودة بمن يتغلّب عليهم السُّكر. ساعدوني على النهوض، فيما حكّ الجندي الذي سقطتُ فوقه جُمجُمته وطلب توضيحًا بغضبٍ.

قلتُ فيما أتظاهر بالإفاقة: «أستميحكم عذرًا يا سادة. تأخّرتُ على هذا القطار اللعين ولا بد من حضوري غدًا في إدنبرة وإلا فسأتعرض للطرد من عملي. لو آذيتُ رأس صديقي، فسأقبّلها لتبرأ.»

انفجر الحاضرون ضاحكين. قال أحدهم: «ينبغي أن تُوافق يا بيت. فلم يعرض أحدٌ من قبلُ تقبيلَ رأسِك القبيح.»

سألني ثانٍ مَن أكون، فتظاهرتُ بالبحث عن حافظة البطاقات.

تأفّفتُ: أضعتُها، أضعتُ الحافظة وحقيبتي الصغيرة، وأفسدتُ قُبعتي المُتواضعة. مظهري لا يسُرٌ الناظرين أيها السادة، بل أنا عبرةٌ لمنْ يتأخّر على قطاره. اسمي جون جونستون، وأعمل كاتبًا أول في شركة «ميسرز ووترز براون آند إلفاستون الكائنة في ٩٢٣ شارع تشارلوت، إدنبرة. جئتُ إلى الشمال لزيارة أمي.»

قال ثالث: «ينبغي أن تكون في فرنسا.»

أجبتُ: «ليتَني أستطيع لكنهم لم يسمحوا لي بالذهاب. قالوا: «لستَ في حالةٍ لائقةٍ يا سيد جونستون. فأنت تعاني تورُّمًا في الأوردة ولديك قلبٌ سقيم.» فأجبتُ: «إلى اللقاء يا سادة. لا يلومني أحدٌ إن خربتُ الدولة.» ولم أزد على ذلك.»

كنتُ قد شغلتُ المساحة المتبقية على أرضية المقصورة. تقبّل الجنود وجودي بفلسفتهم العملية وعادوا إلى محادثتهم. زاد القطار من سرعته، وخمّنتُ أنه من نوعٍ خاص؛ لذا توقعتُ ألا يتوقف في محطاتٍ كثيرة. لم تكن مقصورةً ذات ممَر، بل كانت من الطراز القديم؛ لذا شعَرتُ أنه لن يتعرّض لي قاطع التذاكر لفترة من الوقت. مدَدتُ ساقيّ تحت المقعد، وأسندتُ رأسي إلى ركبة جندي مدفعية مفتول العضلات، محاولًا الاسترخاء قَدْر المستطاع.

ازدحم عقلي بالأفكار الكئيبة. لقد تعقّدَت ظروفي، وانتابني ذلك الشعورُ بالانفضاح الذي ينتاب المرء في حُلم يرى فيه أنه يخرج على خشبةٍ بملابس النوم. استخدمتُ ثلاثة أسماءٍ مستعارةٍ في ثلاثة أيام، وانتحلتُ ثلاث شخصيات. شعَرتُ أنني بلا منزل أو مأوى، بل مجرد كلبٍ شريدٍ يتخطّفه الأعداء من جميع الجهات. كان شعوراً بغيضًا لم يصرفه أيٌ هلع أو إدراك أنني وقعتُ في مأزقٍ لا مخرج منه. كنتُ أعلم أنه يمكنني الذهاب إلى إدنبرة بكل سهولة، وإذا أحدثَت الشرطة مشكلة، وهذا غيرُ مُستبعَد، فسأرسل برقيةً إلى شرطة سكوتلاند يارد، وستتولى معالجة الأمر خلال ساعتَين. لم يكن هناك حتى أي تهديد على سلامتي يحفظ لي ماء وجهي. بل أسوأ ما يمكن أن يحدُث هو أن يكتشف أفري علاقتي بالسلطات، وسينتهي بذلك الدور الذي أؤدّيه. وسيكتشفها حتمًا. فجهاز الاستخبارات الخاص به جدير بكل الاحترام.

كان هذا سيئًا بما يكفي. حتى الآن أدّيتُ عملًا ممتازًا. نجحتُ في تشتيت انتباه جريسون. ووجدتُ المعلومة التي يبحث عنها بوليفانت، وما عليّ سوى الرجوع إلى لندن دون أن أجذب الانتباه لأفوز في اللعبة. حدّثتُ نفسي بكل هذه الأمور، لكنها لم تفلح في

التسرية عني. شعَرتُ أنني وضيعٌ مطارد ترتعد فرائصه.

لكني كنتُ عنيداً لا أرضى الاستسلام حتى النفَس الأخير. كانت الظروف كلها ضدي. فالشرطة الاسكتلندية تبحث عني في كل مكان، وتنتظرني لتُرحّب بي في نهاية الرحلة. وفسدَت قبعتي وتَلفَت ملابسي، بحسب وصف آيموس. كنتُ قد حلقت لحيتي التي لم أهذّبها لأربعة أيام في الليلة السابقة، لكني جرحتُ وجهي في أثناء ذلك، ومع وجهي الذي لوّحَته الشمس وشعري الملبّد، بدوتُ مثل غجريٍّ لا مندوبٍ محترم. شعَرتُ بالحنين لحقيبة سفري في فندق بنتلاند، والحلة الصوفية الأنيقة الزرقاء، والملابس الكتّان النظيفة. لم أعد أستطيع اللعب في الخفاء، إذ انكشفَت جميع أوراقي. لكني لا أزال عازماً على المقاومة حتى آخر لحظة. لو توقّف القطار في أي مكان، فسأغادره، وأترك البقية لِسعة حيلتي، وحظ الجيش البريطاني الذي لا ينضب.

أتت الفرصة المواتية بعد الفجر مباشرةً عندما توقف القطار في محطة يلتقي عندها خطّا سكة حديد. نهضتُ من مكاني، متثائباً، وحاولتُ فتح الباب، قبل أن أتذكّر أنه مغلق. أخرجتُ ساقي من النافذة بدلًا من ذلك، في الجانب غير المقابل للرصيف، عندما أمسَك بي جندي من كتيبة سيفورث لا يزال به أثَر النوم ظنّاً منه أنني أفكر في الانتحار.

قلتُ: «دعني أذهب. سأعود في لمح البصر.»

قال اسكتلندي آخر: «دعه يذهب. أنت تعرف كيف يكون حال المرء عندما يُفرِط في الشرب. سيساعده الهواء البارد على الصحو.»

أطلق الجندي سراحي، وقفزتُ هابطاً على خط السكة الحديدية، ثم شققتُ طريقي حول مؤخرة القطار. وصعدتُ الرصيف، في الوقت الذي بدأ القطار فيه يتحرك، ورأيتُ وجهاً ينبثق من إحدى المقصورات الخلفية. كان ذلك لينكليتر وتعرّف عليّ. حاول الخروج، لكن سرعان ما أغلق الباب حمّالٌ غاضب. سمعتُ احتجاجاته، وظلّ ينظر خارج النافذة حتى توارى القطار عن الأنظار. أفسَد هذا فرصتي في النجاح تماماً. لا بد أنه سيُرسل برقية إلى الشرطة من المحطة التالية.

في ذلك المكان النظيف، المُقفِر، البارد، وجدتُ مسافراً واحداً. كان رجلًا نحيفاً يحمل حقيبة ظهر وحقيبةً أخرى بداخلها بندقية. بدا في غاية الأناقة، بقُبعته المستديرة الخضراء، ومعطفه الطويل الصوفي الفاخر الذي كان لونُه يُشبه لونَ القبعة، وحذائه اللامع مثل كستناء الحصان. اختلستُ النظر إلى جانب وجهه وهو يُسلِّم تذكرته ولدهشتي تعرّفتُ عليه.

تفحّصَني ناظر المحطة بملابسي غير المرتّبة وشعري الأشعَث في ارتياب. حاولتُ أن أستخدم نبرةً سلطويةً في الحديث.

سألتُ: «مَن هو الرجل الذي خرج للتو؟»

سأل: «أين تذكرتُك؟»

قلتُ: «لم يكن لديّ مُتسع من الوقت لشراء واحدة في محطة مويرتاون، وتركتُ حقيبتي خلفي كما ترى. خذ جنيهًا، واخصِم منه ثمن التذكرة، وسأعود لآخُذ الباقي. أريد التأكد أن هذا هو السير آرشيبالد رويلانس.»

نظر الناظر بارتياب إلى العُملة الورقية. قال: «أظنُّ أن هذا هو اسمه. وهو مدرِّبٌ في الأكاديمية الجوية. ما الذي تريده منه؟»

عَبرتُ من مكتب التذاكر بسرعة، ووجدتُ رِجلي على وشك دخول سيارةٍ رماديةٍ كبيرة.

هتفتُ، وأنا أضربه على كتفَيه ممازحًا: «آرشي!»

استدار بحدة. سأل: «بحق الجحيم ...! مَن أنت؟» ثم بدأَت دلائل الاستيعاب تسري إلى وجهه تدريجيًّا، فأطلق صيحةً مبتهجة. ثم قال: «مرحى! إنه اللواء متنكرًا في هيئة تشارلي تشابلن! أتريد أن أوصلَك يا سيدي؟»

الفصل التاسع

على جناح السرعة

قلتُ: «أوصِلني إلى أي مكانٍ يا آرشي لأتناول الإفطار، فأنا أتضور جوعًا.»

دلفنا إلى صندوق الشاحنة، وأخرجنا السائق من المحطة بسرعة، قبل أن نصعد منحدرًا طويلًا. كان السير آرشي ملازمًا أول في كتيبتي القديمة، هايلاندرز لينوكس، ثم انفصل عنها قبل معركة السوم لينضم إلى الفيلق الجوي. سمعتُ أنه صار طيّارًا بارعًا وأبلى بلاءً حسنًا قبل معركة أراس، وهو الآن يُدرّب الطيارين في بريطانيا. أذكُره شابًا مرحًا تحمّل قدرًا كبيرًا من التقريع من جانبي على أخطائه وهفواته. لكن هذا الشاب العَفْوي هو ما أحتاج إليه الآن.

رأيتُه يختلس النظر إلى ملابسي في استمتاع.

سأل باحترام: «هل مررتَ بظروفٍ صعبةٍ يا سيدي؟»

أجبتُ: «الشرطة تطاردني.»

قال: «الأوغاد القذرون! لكن لا تقلق يا سيدي؛ سأساعدك في الهرب. فقد واجهتُ المأزق نفسه من قبلُ. يمكنك الاختفاء بكوخي الخشبي، وسيحفظ جيبينز العجوز سِرّك. أو يمكنك الاختباءُ عند خالتي التي تقطن بالجوار، وهي امرأةٌ ذات روحٍ رياضيةٍ مغامرة. ستدعك تختبئ في قصرها الريفي المُحصّن حتى يملّ رجال الشرطة من البحث عنك.»

كان تقبُّل آرشي الهادئ لموقفي وكأنه أمرٌ طبيعيٌّ ومتوقعٌ هو ما أعاد إليّ رباطة جأشي. منعَتْه أخلاقه الرفيعة من سؤالي عن الجريمة التي ارتكبتُها، ولم أنوِ شرح الموقف له. لكن فيما كنّا نتأرجح صاعدَين المرج، أخبرتُه أنني أخدم الحكومة، لكن من الضروري أن أتظاهَر بالعكس؛ لذا لا بد أن أتجنّب الشرطة. فأطلق صفيرًا تعبيرًا عن إعجابه.

قال: «يا لها من استراتيجيةٍ عبقرية! هل هذا تمويه؟ انطلاقًا من تجربتي، قد تنطوي

المبالغة في مثل هذه الحيَل على بعض المخاطرة. عندما كنتُ في «ميسيو»، بدأ الفرنسيون يُخفون المقطورات التي يحتفظون فيها بالحمام، وقد نجحوا في ذلك نجاحًا ساحقًا، حتى إن الكائنات المسكينة عجزَت عن العثور عليها، وباتت بالخارج.»

عبَرنا بواباتٍ بيضاءَ لمهبطِ طائراتٍ كبير، ومرَرْنا بمجموعةٍ من الخيم والأكواخ، ثم توقفنا عند كوخٍ في آخرِ المكان. كانت الساعة الرابعة والنصف صباحًا؛ فلم يكن أحدٌ قد استيقظ بعد. أومأ آرشي تجاه حظيرة طائرات، ورأيتُ ذيل طائرة من فتحته.

علّق آرشي: «سأُحلِّق غدًا إلى قرية فارنتون. هذا هو الموديل الأخير من طائرات «شارك جلاداس». لها مقدمةٌ ضخمةٌ ناتئةٌ مثل ظُلّة الشجرة.

عندها خطرَت لي فكرة.

قلتُ: «ستذهب اليوم.»

هتف: «كيف عرفتَ ذلك؟ كان صيد الطيهوج في كيثنس مغريًا للغاية، فاحتلْتُ للحصول على إجازة ليومٍ آخر. لا يمكن أن يتوقّعوا مني الذهاب إلى جنوب إنجلترا بعدما عُدتُ من رحلةٍ شاقة.»

قلتُ: «مع ذلك ستكون رجلًا ذا بأسٍ وستنطلق في غضون ساعتَين. وستأخذني معك.»

حملَق آرشي في الفراغ، ثم انفجر ضاحكًا. وقال: «أنتَ خيرُ رفيقٍ يصحبه المرء في مغامراته. لكن ماذا عن قائدي؟ إنه رجلٌ صالح، لكنه مُتحفِّظ بعض الشيء. لن يتفهَّم الموقف.»

قلتُ: «ليس بحاجةٍ إلى أن يعرف بالأمر. بل يجب ألا يعرفه. هذه مسألةٌ بيني وبينك إلى حين انتهائها. أؤكِّد لك أنني لن أستغل الفيلق الجوي. انقلني إلى فارنتون قبل حلول المساء، وستكون قد أديتَ خدمةً جليلةً للوطن.»

قال: «حسنًا! لنغتسل أولًا ونتناول طعام الفطور، وسأكون طوعَ أمرك بعد ذلك. سأُصدر أوامري بتجهيز الطائرة.»

اغتسلتُ في غرفة نوم آرشي، وحلقتُ شعري، واستعرتُ قبعةً خضراءَ من التويد، ومعطفًا واقيًا من المطر جديدًا. غطى المعطف ملابسي الممزّقة، وبعدما استوليتُ على قفّازَين، شعَرتُ أن مظهري صار لائقًا نوعًا ما. طهى جيبينز المُتعدّد المواهب لحم الخنزير المقدّد والبيض، وراح آرشي يروي لي قصصًا فيما يتناول طعام الفطور. عندما

كان آرشي في الكتيبة، دارت نقاشاتُه حول سباقات الخيل ومسرّات حياة المدينة المتروكة، لكنه الآن لم يعُد يتحدث عن هذه الموضوعات، وراح يسترسل بحماسة عن «الصنعة» مثل جميع الطيّارين البارعين الذين أعرفهم. أكن احترامًا كبيرًا لفيلقنا الجوي، لكنه يميل إلى تغيير مُصطلحاته الفنية كل شهر، ما يجعل من الصعب على غير المتخصّصين فهمَ النقاشاتِ الدائرة حوله. كان آرشي في غاية الحماسة بشأن الحرب التي رآها كليةً من منظورِ طيّارٍ. من منظوره كانت معركة أراس قد انتهت حتى من قبلِ عبورِ قواتِ المشاة الجبهة، وكانت ذروة معركة السوم في شهر أكتوبر لا سبتمبر. في تقديره، لم يَحِن موعد المعركة الجوية الكبرى بعدُ، وكل ما يأمله أن يُسمَح له بالخروج من فرنسا للمشاركة فيها. وجدتُه متواضعًا جدًا بشأن قدراته مثل الطيارين الأكفاء. قال: «مارستُ سباقات الحواجز والصيد من قبلُ، كما أنني أحسِن السيطرة على الخيل؛ لذا يمكنني السيطرة على الطائرات بكل سهولة. مناط الأمر هو الأيدي الماهرة. لا يُواجِه الطيار بالأعلى نصف الخطر الذي يواجهه جنديٌّ المشاة بالأسفل، بالإضافة إلى أن الطيران أمتعُ ملايينَ المراتِ من القتال على الأرض. أنا في غاية السرور أنني انتقلتُ إلى الفيلق الجوي يا سيدي.»

تحدّثنا عن بيتر الذي كان آرشي يراه أفضل الطيارين. رأى أن الطيّار الألماني الوحيد الذي يمكنه منافسته هو فوس؛ لأنه لم يحسم رأيه بعدُ في لينش. أما الطيّار الفرنسي جوينيمير فهو يراه كفؤًا لكن في جوانبَ مختلفة. أتذكّر أنه لم يكِنّ أي احترام لريشتهوفن ولا سربه العسكري الشهير.

في تمام الساعة السادسة صباحًا كنّا على استعداد للانطلاق. أخرج اثنان من ميكانيكيي الطائرات الطائرة من مخبئها، وارتدى آرشي معطفه وقفازه، وركب في مقعد الطيّار، فيما حشرتُ نفسي في الخلف في مقعد المراقب. بدأ أفراد المطار يستيقظون، لكن لم أرَ ضباطًا في الأنحاء. وما إن جلسنا في مقاعدنا حتى جذب جيبينز انتباهَنا إلى سيارة في الطريق، وسرعان ما سمعنا صيحةً عاليةً ورأينا رجالًا يلوِّحون في اتجاهنا.

قلتُ: «يُستحسَن أن تُقلِع يا ولدي. يبدو أن هؤلاء أصدقائي من الشرطة.»

بدأ محرك الطائرة يعمل وابتعد الميكانيكيان. وفيما تحرّكَت الطائرة فوق العشب، نظرتُ خلفي فرأيتُ عدة رجالٍ يركضون في اتجاهنا. لكن سرعان ما ارتفعَتِ الطائرة عن الأرض غير المستوية وحلّقَت بسلاسة في الهواء.

سبق أن حلّقتُ بالطائرة عدّة مرات، لكن فوق خطوط العدو في الأغلب، لاستكشاف تضاريس الأرض بنفسي. في تلك المرات كنّا نُحلق على ارتفاعٍ منخفض، وتعترضُنا

مضادّات الطائرات الألمانية بقوة، ناهيك عن استهدافنا من حينٍ لآخر بمدافع الرشاشات. لكني لم أختبر من قبلُ مُتعة الطيران في مسارٍ مستقيمٍ في طائرةٍ سريعةٍ وفي طقسٍ مُواتٍ. لم يُهدِر آرشي الوقت. وسرعان ما انكمشَت مخابئ الطائرات في الخلفية إلى أن صارت في حجم لعب الأطفال، وفرّ العالم من تحت أقدامنا حتى بدا كوعاءٍ ذهبيٍّ عظيمٍ يفيض بالأشعة المتلألئة. كان الجو بارداً، فسرى الخدَر إلى يديّ، لكن لم ألحظ ذلك على الإطلاق. ترجرجنا واندفعنا إلى الجنوب، نرتطم بالمطبّات الهوائية تارةً، ونسبح بانسيابيةٍ في الهواء الساكن تاراتٍ أخرى، فتساقطَت عني همومي وكأني عُدتُ صبياً. نسيتُ كل ما يتعلق بمتاعب مِهنتي فلم أرَ إلا جانبها المرِح المسلّي. أحسستُ أنه لا شيء على الأرض سيُصيبني بالقلق مرةً أخرى. في أقصى اليسار رأيتُ رقعةً فضيةً على هيئة مثلث وبجوارها مجموعة من المنازل الصغيرة. لا بد أنها إدنبرة حيث ترقدُ حقيبة سفري وتبحثُ عني أكفأ قوات الشرطة. عندما خطرَت لي تلك الفكرة ضحكتُ بصوتٍ عالٍ حتى إن آرشي سمعَني من مقعده. استدار، ورأى ابتسامةً عريضةً على وجهي، فابتسم بدوره. ثم أشار إليّ كي أضع حزام الأمان. أطعتُه، فشرع في تأدية بعض «الحركات البهلوانية»، مثل الالتفاف الحاد والهبوط العمودي الدوّار وغيرها من الحركات التي أجهل أسماءَها. كان الأمر في غاية المتعة، وداعب آرشي الطائرة، مثلما يداعب فارسٌ متمرسٌ فرسه المضطربة قبل أن يقفز من فوق حاجزٍ مرتفع. كان آرشي يتمتع بتلك المَلَكة الفطرية التي تجعله طيّاراً بارعًا.

في غضون فترةٍ وجيزة، استحالَت رقعة الشطرنج ذات اللونَين الأخضر والبني بالأسفل إلى لونٍ أرجوانيٍّ داكنٍ تزينه خيوطٌ فضيةٌ رفيعةٌ مثل العروق في الصخور. كنا نعبُر التلال الحدودية التي قطعتُها سيراً على الأقدام في رحلةٍ مرهقةٍ دامت عدة أيام عندما تورطتُ في مسألة «بلاك ستون». إن الهواء لهُو عنصرٌ مذهل، يرفع المرء عالياً، فيسمو فوق متاعب الإنسانية! لقد وُفّق آرشي عندما قرّر تغييرَ تخصُّصه. لقد أظهر بيتر حكمةً واسعةً عندما صار طيّاراً. أحسستُ بشفقةٍ عارمةٍ تجاه صديقي العزيز الذي يعرُج على ساقٍ واحدةٍ الآن في فناء أحد السجون الألمانية بعدما كان يُحلّق مثل الصقر. شعَرتُ أن كل ما مضى من حياتي راح هدراً. ثم تذكّرتُ أن كل هذه العظمة لها هدفٌ واحدٌ في الحرب وهو مساعدة ضابط المشاة البريطاني الوحل في إسقاط خصمه الألماني. في النهاية، ضابط المشاة هو من يحدِّد مصير المعركة، وهذا ما جعلني أشعر بالراحة.

ولأن العادة جرت أن الأفراح تتلوها الأتراح، كانت مُصيبتي هي الهبوط الاضطراري. اقتربنا من منتصف الظهيرة وتوغلنا في أعماق إنجلترا — حسبما قدّرتُ من الأنهار التي

حلقنا فوقها — في مكانٍ ما من شمال يوركشاير، وفجأةً بدأَت أصواتٌ غريبةٌ تصدُر من المحرك، واهتزّت الطائرة بصورةٍ مفاجئةٍ في الجو الهادئ تمامًا. هبَطنا وصعدنا لكن لم تسكُن ثورة المحرّك اللعين. ناولني آرشي في الخلف ملاحظةً كتب فيها: «تعطل المحرك. سأهبط في قرية مِيكلجيل. آسف جدًّا.» وهكذا، حلّقنا على ارتفاعٍ منخفض؛ حيث استطعنا رؤية المنازل والطرق والمنحدرات الطويلة أسفلنا بوضوح. لم أستطع تبيُّن وجهتي مهما حاولت، لكن عين آرشي المتمرسة كانت على درايةٍ بالمعالم كلها. أصبحنا نحلِّق ببطءٍ شديد، وسرعان ما رأيتُ حظائر طائرات داخل مهبطٍ كبير.

هبطنا في ميكلجيل، لكن بشِق الأنفس. كنا نُحلِّق على ارتفاعٍ منخفضٍ جدًّا، حتى إن مداخن مدينة برادفيلد الداكنة التي تبعُد عنا سبعة أميال باتجاه الشرق كانت تحجُبها جزئيًّا عنا رابيةٌ مغطّاة بالحشائش. هبط آرشي بنجاح وسط رقعةٍ طويلةٍ من أشجار التنوب، وخرج من الطائرة وهو يسبُّ ويلعنُ محرك «جلاداس». قال: «سأتجه إلى المعسكر، للإبلاغ عما حدث، وسأرسل مهندسي الطائرات لإصلاح هذا المحرك المُزعج اللعين. يُستحسَن أن تتجول في الأنحاء يا سيدي. فأنا لا أريد أن يسألني أحدٌ عنك حتى نستعد للانطلاق مرةً أخرى. أظن أن هذا الأمر سيستغرق ساعةً من الزمن.»

كانت البهجة التي اكتسبتُها في المجال الجوي لا تزال تملأ صدري. جلستُ في خندق، كفتًى خالٍ من الهموم، وأشعلتُ غَليونًا. تملّكتني روحٌ طفوليةٌ مغامرة، وانتظرتُ ما سيجلبه الحظ في الفترة القادمة في بهجةٍ مثيرة.

لم أنتظر لفترةٍ طويلة. وسرعان ما ظهر آرشي متهدج الأنفاس.

قال: «انتبه يا سيدي، الوضع خطير بالأعلى. بلّغ «أصدقاؤك» عنك في جميع أنحاء البلد، ويعلمون أنك كنتَ في صحبتي. لقد أرسلوا في طلب الشرطة، وستقبض عليك في غضونِ خمسِ دقائق، إن لم تلُذ بالفرار في الحال. حاولتُ أن أكذب بصورةٍ مقنعة، فأخبرتُهم أنني لم أقابلك من قبلُ، لكنهم سيأتون للتأكد بأنفسهم. اهرب بحق السماء ... يُستحسَن أن تتوارى في ذلك الغور، وتلتفّ من خلف هذه الأشجار. سأبقى هُنا وأحاول الإنكار أنكَ كنتَ معي بوقاحةٍ وإصرار. سيكون للموقف عواقبُ وخيمةٌ على أي حال ... لكني آمُل أن تنقذني من هذه الورطة يا سيدي.»

قلتُ: «لا تقلق يا ولدي. سأضع الأمور في نصابها عندما أعود للمدينة. سأتجه إلى برادفيلد لأن هذه المنطقة لا توفِّر مكانًا للاختباء. إلى اللقاء يا آرشي. أنت فتًى صالح، سأتأكد ألا تقع في أي مشكلات.»

اندفعتُ باتجاه غور في المرج، أحاول أن أجعل سرعتي تعوِّض غياب الاستراتيجية؛ إذ كان من الصعب معرفة مدى الرؤية الذي تتيحه المرتفعات لمطارديّ. ولا بد أنهم رأَوني لأنني سمعتُ دوي الصفّارات وصيحات الرجال. عثرتُ على طريق، فسلكتُه، واجتزتُ حافةً جبليةً رأيتُ منها قرية برادفيلد على بُعد ستة أميال. ركضتُ وأنا أفكر أن هذه المطاردة لن تدوم طويلًا. سيُقبَض عليّ حتمًا في غضون نصف ساعة إذا لم أُربكهم. لكن هذه المساحة الخضراء العارية لا توفِّر أي غطاء، وبدا أن فُرصتي في النجاة مثل فرصة أرنبٍ بريٍّ يُطارده كلبُ صيدٍ في مرجٍ مكشوف.

فجأةً سمعتُ صوتًا أحفظه قادمًا من أمامي. كان ذلك هدير المدافع الميدانية ومدافع الهاوتزر الصغيرة. تساءلتُ ما إذا كنتُ قد فقدتُ عقلي. واصلتُ التقدُّم دون أن أُخفِف من سرعتي، وفي أثناء ذلك أُضيفت جلجلة الرشاشات إلى تلك الجلبة، ورأيتُ غبار وأبخرة القذائف المنفجرة تتصاعد على الحافة الجبلية. تيقّنتُ أن عقلي لا يزال سليمًا، وأن الألمان يشنُّون هجومًا حتمًا. صعِدتُ المنحدر الأخير زاحفًا على بطني، ناسيًا تمامًا أمر مطارِديّ.

لم أُصدِّق عينيّ عندما نظرتُ بالأسفل ورأيت معركةً حقيقيةً دائرة.

كانت هناك مجموعتان متقابلتان من الخنادق تُحيط بهما الأسلاك الشائكة وغيرها من المعدات اللازمة، إحداهما تمتلئ بالجنود والأخرى فارغة. كانت القذائف تنفجر على المجموعة الفارغة التي لم يكن بها أي أثَر للحياة. بدا أن غالبية أفراد الكتيبتَين في الجبهة المقابلة التي كان أول خندق فيها مُمتلئًا بجنود يحملون بنادق ذات حِراب. أوّل ما خطر لي أن القوات البريطانية فقدَت عقلها؛ لأن مثل هذا العرض عديم القيمة لا يصلُح حتى لأغراض التدريب. ثم لاحظتُ عناصرَ أخرى مثل معدات التصوير ومصورين يقفون على منصاتٍ في الزاوية، وخلفَهم رجالٌ يحملون مكبِّرات صوتٍ على سقّالات. أحد هذه المكبِّرات كان يُدوِّي بصوتٍ عالٍ طيلة الوقت.

فهمتُ مغزًى من تلك التمثيلية في نهاية المطاف. لا بد أن أحد منتجي الأفلام عقد صفقةً مع الحكومة نتج عنها تعبئة الجنود لتصوير فيلم عن الحرب. خطر لي أنني لو شاركتُ في هذه العملية فلربما أحصُل على الغطاء الذي أريده. هبطتُ المنحدر بسرعة واقتربتُ لأوّل مصور في الساحة.

ركضتُ في التوقيت نفسه الذي زحفَت فيه أول موجة من الجنود إلى جبهة العدو. كان أداء الجنود استثنائيًا؛ إذ أحسَنوا تلبُّس روح القتال، ورأيتُهم يتقدّمون بوجوهٍ متجهِّمة وخطواتٍ واسعةٍ ثابتةٍ بطيئة، مثلما كان رفقائي يفعلون في معركة أراس.

كانت قنابل الدخان تنفجر وسطهم، ومن حينٍ لآخر يتدحرج مُمثلٌ بارعٌ على الأرض متظاهرًا بالإصابة. على وجه العموم، كان ذلك أفضل عرض رأيتُه على الإطلاق. كانت آلات التصوير تُطقطِق والمدافع تُدوِّي، وفي الخلفية يصفِّق فتيان الكشافة في استحسان، وتتصاعد سحائب الغبار إلى السماء.

لكن رغم كل ذلك كانت هناك مشكلةٌ ما. أتصور أن ذلك العرض احتاج إلى الكثير من الإعداد من منظور المنتج لأن غرضه يختلف عن الضابط المسئول. مثلما يحدُث مع المصورين الفوتوغرافيين، هم يولون اهتمامًا جمًّا بالتفاصيل، وقد لا تُعجبهم وضعيةُ مَن يصوِّرونه حتى إذا كان هو نفسه راضيًا عنها. من وجهة نظري كان العرض المسرحي رائعًا، من شأنه أن يسلب قلوب المتفرجين، لكن المنتج الواقف على السقّالة بجواري كان له رأي آخر. سمعتُ تذمُّره عَبْر مكبِّر الصوت الذي يحمله يُدوِّي عاليًا مثل نئيج جاموسٍ يُحتضَر. كان يريد تغيير شيءٍ ما ولا يدري كيف يفعل ذلك. رأيته يقفز على ساقٍ واحدة، ثم أبعد مكبر الصوت عن فمه ليطلق السباب؛ بعد ذلك لوّح بالمكبر مثل الراية وهو يتحدّث بصوتٍ حادٍّ غاضبٍ إلى شخصٍ آخرَ في الزاوية المقابلة. في النهاية نفِد صبرُه فنزل السُّلّم قافزًا، فأسقط مكبِّر الصوت، وتجاوز المكان الذي يقف فيه المصوِّرون متقدمًا إلى ساحة القتال.

كانت هذه هي نهايته. اصطدم بالموجة الثانية من الجنود، فابتلعَتْه كورقة شجر في سيلٍ جارف. رأيتُ وجهه المُحتقن وحلّته الزاهية اللون المربعة التصميم هُنيهة ثم لم يعُد له أثَر. لا أدري هل جرفَتْه الموجة إلى التل أم تدحرج إلى خندق العدو، لكنه اختفى من أمامي في كل الأحوال.

أخذتُ مكبِّر الصوت، وصعدتُ المنصة واثبًا. أخيرًا، حصَلتُ على تمويهٍ ممتاز، لا سيما مع معطفٍ آرشي وقُبعته اللذَين منحاني مظهرًا لائقًا، فبدوتُ مثل منتجي الأفلام. كانت الموجة الأولى والثانية قد بلغتا الجبهة بالفعل، وصوّر فريقُ التصوير الذي كان يعمل بجدٍّ ونشاطٍ المشهدَ بأكمله. لكن كان لا يزال هناك عددٌ كبير من الجنود يُمكنني العبث معهم، وعزمت على تعطيل أنشطتهم، فينشغل بهم مطارديّ عني.

منحَتْني قدرتي على القيادة وإصدار الأوامر الأفضلية. فقد لاحظتُ ارتباك نظيري الواقف في الطرف المقابل؛ إذ وقف عاجزًا أمام الخطأ الذي أودى برِجلي إلى السقوط في حفرة قذيفة. بدا أن القوات تقع تحت إمرة ضباط الصف بشكلٍ أساسي (الذين أتخيل أنهم حاولوا التملُّص من هذا الأمر) وضباط الصف يميلون للالتزام بالتعليمات بحذافيرها. وهكذا بدأتُ تغيير نظام المعركة مستعينًا بمكبِّر الصوت.

جُلِبَت موجةٌ ثالثة من الجنود إلى الخنادق الأمامية. في غضونِ ثلاثِ دقائق، لاحظ الجنودُ النبرةَ السلطويةَ التي أستخدمها فاستجابوا لأوامري بدقة. ظن الرجال أن هذا جزءٌ من العرض، وانهمَكَ المصوِّرون المطيعون في تصوير كل ما يحدُث في مجال رؤيتهم. كنتُ أهدفُ إلى نشر القوات على جبهةٍ ضيقةٍ للغاية، حتى يُضطَروا للانتشار في جميع الجهات في أثناء خروجهم، وكان لا بد من تنفيذ ذلك بسرعة؛ لأنني لا أعلم متى سيُستعاد المنتج التعيس الحظ من ساحة القتال ويتنازع معي على السلطة.

إصلاح الأمور وتنظيمها عادةً ما يستغرق وقتًا طويلًا، ولكنه ليس كذلك عند تعقيدها، لا سيما عندما يتعلق الأمر بجهازٍ دقيقٍ مثل الجنود المنضبطين ... في غضون ثماني دقائقَ خُلِقَت حالة من الفوضى. توسَّعَت الجنود على الجانبَين بشكلٍ جنوني، على الرغم من إرشادات الضباط، وأحاطت أطراف التنظيم بالمصوِّرين. انقلبَت الكاميرات بحواملها مثل قناني البولينج. كان من المُحزن رؤية وجوه المصوِّرين المفزوعة الذين باغتَهم ما يحدث وهم يتوسَّلون إلى قوات المشاة التي تزحف بخطواتٍ ثابتة، قبل أن تبتلعَهم فتخبو أصواتهم.

لم يكن هناك مجالٌ للانتظار؛ لذا تخلصتُ من مكبِّر الصوت، واختلطتُ مع الجنود في مؤخرة الموجة الثالثة. جرفَتْني الموجة، ورسوتُ في خنادق الأعداء؛ حيث وجدتُ منتج الأفلام البذيء اللسان الذي حللتُ مكانه يجلس مُتهدج الأنفاس مثلما توقَّعت. لم يكن لديَّ ما أقوله؛ لذا سِرتُ في الخندق إلى حيث انتهى عند مُنحدَر التل.

في تلك الزاوية، قبعَت زمرةٌ من فتيان الكشافة، في غاية الحماسة والإثارة. كانت مهمتي هي بلوغ برادفيلد بأقصى سرعة متواريًا عن الأنظار قَدْر الإمكان. لسوء الحظ صِرتُ مَحطَّ اهتمام هذه المجموعة من الأبطال اليافعين. فكل فتًى من فتيان الكشافة عبارةٌ عن مُحققٍ هاوٍ متعطِّش للمعرفة. اتبعَني العديد من الفتيان، وراحوا يُمطرونني بوابل من الأسئلة، إلى أن أخبرتُهم أنني مُتجه لبرادفيلد لاستعجال جزءٍ من طاقم الفيلم. بدت كذبتي واهيةً إذ كان طاقم الفيلم ميئوسًا منه.

وصلنا إلى الطريق الرئيسي، وكانت هناك عدَّة دراجاتٍ متراصة على حائطٍ حجري. اخترتُ واحدةً وتهيَّأتُ لركوبها.

قال فتًى بنبرةٍ حادة: «إنها عجلة السيد إيموت. وقد طلب منِّي مُراقبتها.»

قلتُ: «يجب أن أستعيرَها يا ولدي. السيد إيموت صديقي العزيز ولن يُعارِض ذلك.»

وقفتُ في مكان يشرف على الجزء الخلفي من ميدان المعركة، ورأيتُ الضباط مجتمعِين قلقِين. كان قد انضَم إليهم آخرون لم تُعجِبني هيئتُهم. لاحظتُ أن هؤلاء لم يكونوا موجودين عندما استخدمتُ مكبّر الصوت. لا بد أنهم هبطوا من المطار، بل هم على الأرجح المطاردون الذين حاولتُ الفرار منهم. بدأَت تخفتُ تلك النشوة التي تذوّقتُها في المجال الجوي وحملَتني على حماقة نصف الساعة الماضية. طاردَني ذلك الشعور القديم من جديد، وانتقلتُ من مرحلة الشباب إلى منتصف العمر، وصِرتُ حذرًا من بعد طيشٍ. تأمّلتُ إنجازات اليوم، فوجدتُها في غاية السوء بدايةً من إيقاع آرشي في ورطةٍ كبيرة وتعطيل عرضٍ سينمائيٍّ رسمي، ولا تنسجم مع مهام لواء في الجيش. والأهم من ذلك أنني لا أزال مضطرًا للذهاب إلى لندن.

لم أُمضِ مسافة مائتَي ياردة عندما قاد فتًى من فتيان الكشافة درّاجتَه بقوة حتى سار بمحاذاتي.

قال بأنفاسٍ لاهثة: «يأمر العقيد إيدجوورث بعودتك في الحال.»

قلتُ: «أخبِره أنني لا يمكنني الانتظار الآن. سأزوره في غضون ساعة.»

قال الرسولُ الأمين: «إنه يُصِر على قدومك في الحال. وهو غاضبٌ منك أشدّ الغضب، وفي صحبته رجالُ شرطة.»

زدتُ من سرعتي، فتجاوزتُ الفتى. قدّرتُ أنني أسبق مطارديّ بمسافة مِيلَين تقريبًا، وأن بوسعي التغلّب على الجميع باستثناء السيارات. لكن أعدائي من المُحتمَل جدًّا أن يكون لديهم سيارات؛ لذا يُستحسَن أن أبتعد عن الطريق الرئيسي في أسرع وقتٍ ممكن. قدتُ الدراجة نازلًا تلًّا طويلًا، حتى وصلتُ إلى جسر يُغطي جدولًا صغيرًا مُتغيرَ اللون يصبُّ في وادٍ صغيرٍ مُشجّر. لم يكن هناك أحدٌ في اللحظة الراهنة على التل خلفي؛ لذا تسللتُ إلى المخبأ، ودفعتُ بالدراجة تحت الجسر، وأخفيتُ معطفَ آرشي وسط مجموعةٍ كثيفةٍ من أشجار العليق الأسود. انكشفَت حلّتي المُمزقة من قماش التويد، وكنتُ آمُلُ بخلعي ذلك المعطف اللافت إرباكَ مطارديّ إذا ما لحقوا بي.

لكن عقدتُ نيتي ألا يلحق بي أعدائي. قطعتُ الجدول بسرعةٍ بالغة، وخرجتُ إلى طريقٍ ضيقٍ يربط بين التلال المُنخفضة والبساتين التجارية المحيطة بالمدينة. حمدتُ الرب أنني تخلصتُ من المعطف؛ إذ كانت الأجواء دفيئة في فترة الظهيرة من شهر أغسطس، وكنتُ أسيرُ بسرعة. وكلما بلغتُ أرضًا معزولةً أخذتُ في الركض، وكلما لاح شخصٌ في الأفق استعضتُ عن الركض بالهرولة.

تابعتُ السير وأنا أفكّر في أن برادفيلد ستشهد نهاية مغامراتي. فالشرطة تعلم أني سأقصدها؛ لذا ستُراقِب محطات القطار وستقبضُ عليّ في الحال إذا نزلتُ في القرية. لا أعرف أحدًا هناك ولا أملَ في الحصول على تنكُّرٍ جيد. سرعان ما بدأتُ أفكر في خطورة بلوغِ شوارعِ القريةِ نفسها. في اللحظة الراهنة، عندما أقلّني سمّاكٌ في عربته واستترتُ بقماشها الخفّاق، مرّ شخصان على دراجتَين تبيّن أن أحدَهما هو فتَى الكشافة الفضولي. ربما تُمشِّط دورياتُ الشرطة الآن الطريقَ الرئيسيّ المؤدِّي إلى مهبط الطيارات. يبدو أنه سيُقبَض عليّ بصورةٍ مُهينةٍ في ضاحيةٍ من الضواحي.

عَبرَت عربة السمّاك، بعد أن حثّتُ سائقها بنصف كراون، أمام البيوت الصغيرة النائية على مشارف القرية، وبين صفوفٍ طويلةٍ من بيوت العمال، إلى أن انتهت إلى حاراتٍ ضيقةٍ مرصوفة بالحجارة وضواحٍ تضُم مصانعَ كبيرة. فور أن رأيتُ الشوارعَ مزدحمةً بالمارة، خرجتُ من العربة، وترجّلْت. ولا بد أنني بدوتُ كوكيلِ مراهناتٍ متواضعٍ أو تاجرِ خيولٍ رثّ الهيئة بسبب ملابسي القديمة. أثمنُ شيءٍ كنتُ أحمله معي هو ساعتي الذهبية. تفقّدتُها ووجدتُها تشير إلى الخامسة والنصف مساءً.

شعَرتُ بالجوع وبدأتُ أبحث عن مطعمٍ متواضع، عندما سمعتُ هدير دراجةٍ نارية، ورأيتُ في الناحية المقابلة من الطريق فتى الكشافة الذكي. رآني هو أيضًا، فضغَط على المكابح بقوة، ما أدى إلى انزلاقه وكاد أن ينتهي به المطافُ تحت عجلات عربةٍ تحمل صوفًا. منحَني ذلك وقتًا للهرب، فاندفعتُ كالسهم في شارعٍ جانبي. راودَني شعورٌ بغيضٌ أنني على وشك أن أُحاصَر؛ لأنني في مكانٍ أجهله تمامًا؛ لذا لا يسعني استغلالُ مهاراتي.

أتذكّر أنني عصرتُ عقلي في محاولة للعثور على مخرج، ولا بد أن انشغالي بالتفكير أفقدَني حذَري. كنتُ قد بلغتُ حيًّا فقيرًا بحق، وعندما وضعتُ يدي في جيب صدريتي، وجدتُ ساعتي قد اختفت. كانت تلك الضربة القاضية لمعنوياتي. تركَتْني أحداثُ فترة الظهيرة المحمومة العاصفة فزعًا. ها قد سقطتُ في غياهب العالم السفلي مرةً أخرى دون أملٍ في أن يأتي شخصٌ مثل آرشي رويلانس لينتشلني منه. لكني أذكُر رائحةَ المصانعِ الكريهة وشبورةَ الدخان المنبعثة منها إلى هواء المساء. منذ ذلك الحين أشعُر بالكآبة كلما شممتُ تلك الرائحة.

بعد فترةٍ يسيرةٍ خرجتُ إلى سوقٍ. سمعتُ دوي الصفّارات ورأيتُ تدافُع العمال في أثناء خروجهم من المصانع المجاورة. كان السوقُ شديدَ الازدحام، فمنحَني ذلك شعورًا لحظيًّا بالأمان، وكنتُ على وشك السؤال عن الطريق المؤدي إلى محطة القطار عندما

أمسكَني شخصٌ من ذراعي بقوة.

وجدتُ بجواري رجلًا رثّ الهيئة في زيٍ ميكانيكي.

همس: «يا صاح، لديّ شيءٌ يخصُّك.» دهشتُ عندما رأيتُه يدُس ساعتي في يدي.

قال: «لقد أُخذَت منك بسبيل الخطأ. نحن أصدقاؤك. يُستحسَن أن تفعل ما أخبرك به. انظر، هناك شرطيٌّ يراقبك. اتبعني وسأبعدُك عن أنظاره.»

كانت ملامح الرجل لا تبعث على الارتياح، لكن لم يكن لديّ خيارٌ آخر، كما أنه أعاد إليّ ساعتي على أي حال. انسلّ الرجل إلى زقاقٍ تحفُّه منازلُ طويلةٌ فاتبعتُه. ثم أخذ في الركض، وقادني في مسارٍ متعرجٍ عَبْر أزقةٍ كريهةِ الرائحة إلى مدبغة، قبل أن يدخل في حارةٍ ضيقةٍ تُفضي إلى الباحة الخلفية لأحد المصانع. في مرتَين عُدنا أدراجنا، وتسلّقنا جدارًا في أحد الممرات، ومشَينا بمحاذاة ضفةِ نهرٍ أسودَ أزرقَ تعلوه رغوةٌ قذرة. بعد ذلك، عرّجنا إلى منطقةٍ متضعضعةٍ في المدينة، ودخلنا حديقةً متسخة، تتناثر فيها العلب الصفيح وأصائص الزهور المكسورة. تسلّلنا إلى أحد الأكواخ من بابٍ خلفي قبل أن يُوصِده مُرشدي خلفي بحذَر.

أضاء الرجلُ مصباحَ الكيروسين، وأغلَق الستائرَ في ردهةٍ صغيرة المساحة، وتفحّصَني بنظرةٍ متسائلة. ثم تحدّث بلهجة المُتعلمين.

قال: «لن أسألكَ أيّ سؤال، لكن من واجبي أن أقدّم لك المساعدة. أنت تحملُ جواز السفر.»

حملقتُ في وجهه، فأخرج ساعتَه، وكشف عن صليبٍ لونه أبيضُ أرجوانيٌّ ملصقٌ داخل غطائها.

قال بابتسامةٍ عريضة: «لا أدّعي أن جميع من نوظّفهم أفاضل. فالوطنيةُ لا تعني بالضرورة حُسنَ الخلق. سلَب أحدُ عملائنا ساعتَك، وعندما رأى ما بداخلها أبلغَني بالأمر. وسرعان ما اقتفَينا أثرك ولاحظنا أنك في ورطةٍ كبيرة. لن أوجّه لك أي أسئلةٍ كما ذكَرت. كيف يمكنني مساعدتُك؟»

قلتُ: «أريد الذهاب إلى لندن دون أيّ معوّقات. تعرفُ الشرطة أوصافَ ملابسي؛ لذا يتعيّن عليّ تغييرها.»

قال: «هذا أمرٌ في غاية السهولة. استرِح قليلًا وسأُزوّدك بثيابٍ أخرى. يتحرّك قطار المساء في ١١:٣٠ ... ستجد سجائر في خزانة الصحون، وعددَ الأسبوع من جريدة

«كريتيك» على الطاولة هناك. يتضمّن هذا العدَد مقالةً شيقةً عن كونراد إن كنتَ مهتمًا بمثل هذه الأمور.»

أخذتُ سيجارًا وقضيتُ نصفَ ساعةٍ في قراءةٍ مفيدةٍ عن مفاسد الحكومة البريطانية. ثم عاد مُضيفي وطلب مني الصعودَ إلى غرفة نومه. قال: «أنتَ الجندي هنري تومكنز من كتيبة جلوستر الثانية عشرة، وستجد ملابسك جاهزة. إن أعطيتَني عنوانك، فسأُرسِل لك ملابسك الحالية.»

استجبتُ لأوامره، وسرعان ما خرجتُ من الغرفة في كامل زيّ جنديٍّ بريطاني وحذائه القبيح ولفافة ساقه المُنتفخة. أخذَني صديقي من يدي ووضَع اللمسات الأخيرة. فشذّب شعري بالمقص ثم صفّف خصلةً فوق جبهتي، تتجعّد عند دهنها جيدًا بالزيت. كانت يداي قويتَين خشنتَين لذا أضفى عليهما القليل من الوسخ وقلّم أظافري بما يتوافق مع معاييرِ فحصِ المُجنّدين. كنتُ نموذجًا حيًّا لجنديٍّ بريطانيٍّ عائدٍ من عطلته، بالقبعة المائلة على رأسي، والحقيبة على ظهري، والبندقية العسكرية بين يدَيّ، والصحف المصوّرة الرخيصة تملأ جيوبي. تزوّدتُ من أجل رحلتي بعُلبة سجائر من ماركة «وودباين»، وقطعةٍ كبيرةٍ من الخبز بالجبن. وحصَلتُ على ترخيصٍ باسمي يسمَح لي بركوب القطار الذاهب إلى لندن.

بعد ذلك قدّم لي صديقي وجبةَ عَشاء، مكونةً من الخبز واللحم البارد وزجاجةٍ من نبيذ «باس»، التهمتُها بشراهةٍ إذ لم أتناول شيئًا منذ وجبة الإفطار. كان شخصًا غيرَ عادي، كتومًا كالقبر، يتحدّث بحماسةٍ عن موضوعاتٍ عامة، دون أن يقترب من المسألة الحسّاسة التي تربط بيني وبينَه، بل تربط بينه وبينَ كثيرين اللهُ أعلمُ بهم من خلال الصليبِ الأبيضِ الأرجوانيِّ في غطاء الساعة. أتذكّر أننا تحدّثنا عن موضوعاتٍ كانت محلّ اهتمامِ الناسِ في بيجلزويك، وهي القضايا السياسية العظيمة ذات الأسماء الرنانة. كان صديقي يشارك آيموس في رأيه بشأن عقلانية العامل البريطاني لكنه قال شيئًا أثار اهتمامي. كان يعتقد بوجود شبكةٍ جاسوسيةٍ ضخمةٍ تعمل لصالح الألمان معظمُها من العملاء الأبرياء. قال: «لا يميل المواطن البريطاني العادي للخيانة، لكنه يفتقر إلى الفطنة. الذكيُّ في هذه المهنة يستطيع استغلال الحمقى أكثر من الخائنين.»

قدّم صديقي لي نصيحةً وهو يودّعني. قال: «انتزِع هذه الملابسَ فور أن تبلُغ لندن. سيُخرجك تنكّر الجندي تومكنز من برادفيلد بكل سهولة، لكنه قد يعرّضُك للخطر في العاصمة.»

في الحاديةَ عشرةَ والنصف، كنتُ أجلسُ في القطار في أمان، أستخدمُ مفرداتِ الجنود

العائدين للتوِّ من عطلتهم في الحديث مع أقراني البالغ عدَدُهم ستةً في مقصورةٍ من الدرجة الثالثة مُمتلئةٍ بدخان السجائر. كنتُ محظوظًا في محاولتي للهرب؛ إذ رأيتُ العديدَ من الرجال الذين يتضح جليًا من هيئتهم أنهم أفرادُ شرطةٍ بملابسَ مدنيةٍ في مدخل محطة القطار وعلى الرصيف. وأظن أنني لمحتُ في وسط الحشد البائعَ المتجوِّلَ الذي يُسمِّي نفسه لينكليتر أو قد يكون ما رأيتُه من محض الخيال.

الفصل العاشر

مزايا الغارات الجوية

تأخّر القطار عن موعد وصوله كثيرًا. كان من المقرر وصوله في ٧:٢٨ لكنه بلغ محطة سانت بانكراس في العاشرة تقريبًا. قرّرتُ الذهاب إلى غرفتي في وستمنستر مباشرة، وفي طريقي إلى هناك اشتريتُ قبعةً ومعطفًا واقيًا من المطر لإخفاء زيّي تحسبًا للقاء أي شخصٍ بالقرب من باب غرفتي عند وصولي. بعد ذلك سأتصل ببلنكيرون وأقصّ عليه جميع مغامراتي. تناولتُ الفطور في مقهًى مُتنقل، وتركتُ حقيبةَ ظهري ومُسدسي في غرفة المعاطف بالفندق، ثم خرجتُ في الصباح المُشمِس الصافي.

غمرَني شعورٌ بالرضا. تأملتُ رحلتي المجنونة، فوجدتُ أنني كنتُ محظوظًا إلى حدٍّ كبير، غير أنني لا أبخسُ نفسي حقّها. حدّثتُ نفسي أن المثابرة تأتي دائمًا بثمارها المرجوة، وأن الهزيمة لا تكون إلا بالموت. لقد نفّذتُ جميعَ تعليمات بلنكيرون بحذافيرها. وجدتُ صندوقَ البريد الذي يستعمله أفري. ووجدتُ قناةً للتواصل سرًا مع العدو، دون أن أترك أيَّ خيوطٍ خلفي على حسب علمي. كان أفري وجريسون يَحسبانني غبيًّا حسنَ النية. صحيحٌ أنني أثَرتُ الشكوك في صدور الشرطة الاسكتلندية. لكن لا خطَر من ذلك؛ لأن المُشتبه به كورنيليس براند سيختفي في الحال، وليست هناك تُهمٌ موجّهة ضد الجندي الصاعد، اللواء ريتشارد هاناي، الذي سينطلق إلى فرنسا في أقرب وقت ممكن. على أي حال تبيّن أن المهمة لم تكن بغيضةً بقَدْر ما تخيلّتُ. ضحكتُ عندما تذكّرتُ مخاوفي الكئيبة في جلوسترشير. لقد حذّرَني بوليفانت من خطورة المهمة على المدى البعيد، لكني وصلتُ إلى النهاية، ولم أواجه أي خطرٍ يُذكَر عدا أن جعلتُ من نفسي أضحوكة.

أتذكّر، أنني فيما كنتُ أشُق طريقي عَبْر بلومزبري لم أنشغل بالتفكير في التقرير المنتصر الذي سأرفعه إلى بلنكيرون، بل في عودتي السريعة إلى الجبهة. سأكون في القريب العاجل مع لوائي الحبيب. لم أحضُر معركة ميسينز، والجزء الأول من معركة إيبر الثالثة، لكنها لم تنتهِ بعدُ، ولا تزال أمامي فرصةٌ للمشاركة فيها. قد تُوكَل إليّ

قيادةُ فرقة؛ إذ سمعتُ عن هذا الأمر قبل مغادرتي. لم يكن خافيًا أن قائد الجيش مُمتنٌ من أدائي. لكني في العموم كنتُ آمُل في البقاء مع لوائي. على أي حال، ما أنا إلا مجرد جنديٍّ هاوٍ، ولستُ واثقًا من قُدراتي على التعامل مع وحدةٍ عسكريةٍ أكبر من تلك التي أقودها حاليًّا.

في شارع تشارينغ كروس، سيطرت ماري على أفكاري، فتبدّد على الفور الإغراء الذي تحمله فكرة العودة إلى اللواء. كنتُ آمُل ألا تدومَ الحرب طويلًا، إلا أنه لا يتراءى لي أنها ستنتهي قريبًا مع تدهوُر الوضع في روسيا. عزمتُ على رؤية ماري قبل رحيلي، ولديّ مسوغٌ قويٌّ في ذلك؛ إذ إنها مَن حملَت إليّ أوامر المهمة. بعثَت هذه الفكرة السرورَ في نفسي واستغرقتُ في حُلمٍ سعيد، حتى ارتطمتُ بقوة بمواطنٍ مذعور.

ثم أدركتُ أن ثمّة شيئًا غريبًا يحدث.

كان هناك صوتٌ مكتومٌ يُشبِه فرقعةَ نزعِ سدادة زجاجةِ ماء صودا. وسمعتُ صوتَ هديرٍ قادمٍ من نقطةٍ بعيدةٍ في السماء. كان المارّة يُحملقون في السماء أو يركُضون بجنون بحثًا عن ملجأ يختبئون فيه. رأيتُ أمامي حافلةً تُفرِغ حمولتَها من الركّاب في سرعة البرق، وتوقّفَت سيارةُ أجرة محدثةً صوتَ صريرٍ حادٍّ قبل أن يندفع السائق والراكب داخل متجرٍ للكتب المُستعملَة. استغرقتُ بضعَ ثوانٍ في استيعاب ما يحدث، وحصلتُ عقب ذلك مباشرةً على برهانٍ عملي. فقد سقطَت قنبلةٌ عند نقطة تقاطع، على بعد مائة ياردة، أحالت جميعَ زجاج النوافذ إلى شظايا في نطاقٍ واسع، وبعثَرَت قِطع الحجارة بالقُرب من رأسي. فعلتُ ما كنت أفعلُه مرارًا وتكرارًا على الجبهة، وانبطحتُ أرضًا على بطني.

مَن يقول إنه لا يهابُ القنابلَ أو القصفَ إما كذابٌ أو مجنون. كانت هذه الغارة الجوية على لندن مريعةً على نحوٍ لم أعهده من قبلُ. ربما يعود ذلك إلى أنه من الصادم رؤيةُ مظاهرِ الحياة المتحضرة الراقية والشوارع المنظمة لما يُعَد أمرًا طبيعيًّا جدًّا وسط أكوام الأنقاض في معركة إيبر أو أراس. أتذكّر أنني كنتُ في مأوًى للجند في قرية في الإقليم الفلامندي؛ حيث نزلتُ بمنزل العمدة، وجلستُ في غرفة أثاثها مُنجّد بالحرير المُطرّز بالحفر، ورفٌّ المستوقد تعلوه زهورُ الشمع الأبيض، وجدرانها مُزينةٌ بالجداريات الزيتية التي تعود إلى ثلاثة أجيالٍ ماضية. قرّر الألمان قصف المنزل بلا سابق إنذارٍ بسلاحٍ بحريٍّ بعيد المدى، فأثار ذلك حنَقي. كان من المروّع رؤية الغبار والشظايا تجتاح الغرفة الدافئة المريحة، بخلاف ما لو كنتُ في بناءٍ متهالكٍ خَرِب؛ إذ ما كنتُ سأعبأ بالقصف. من المنطلق نفسه، تبدو عمليات القصف

في وسط لندن أمرًا مخزيًا مُفزعًا. كرهتُ رؤية المواطنين المكتنزين الذاهلين ومربيات الأطفال مع الأطفال المذعورين والنساء البائسات يركضون مثل الأرانب في المأربة.

ارتفع هديرُ الطائرات أكثر فأكثر، وعندما نظرتُ للأعلى رأيتُ الطائرات تُحلّق بتأنٍّ شديد، في تشكيلٍ مُحكَم، فوق لندن التي كانت بأكملها تقعُ تحت رحمتها. سقطَت قنبلةٌ أخرى ناحيةَ اليمين، وسرعان ما تناثَرَت بعضُ شظايا مدينتنا حولي في جلبةٍ عالية. علمتُ أنه حان الوقت للبحث عن مأوًى، وركضتُ دون خجل إلى أفضل مخبأ وقعَت عليه عيني، وهي إحدى محطاتِ قطارِ أنفاق. منذ خمس دقائق كان الشارع مكتظًّا بالمارة، لكنه الآن صار خاويًا إلا من حافلة وثلاثِ سيارات أجرة فارغة تناثَرَت به.

كان مدخل المحطة مليئًا بالمواطنين المذعورين. كانت هناك سيدةٌ بدينةٌ فاقدة الوعي، وممرضةٌ تملّكَتها نَوبةٌ من الفزع، لكن في المُجمل كان الناس يُحسِنون التصرُّف. ومن المثير للاستغراب أنهم بدَوا غير راغبين في هبوط الدرَج إلى حيث الأمان الكامل الذي تمنحه الأنفاق، بل فضّلوا الاحتشاد في نقطةٍ يمكنهم من خلالها رؤية ما يجري في العالم العلوي، كأنما يتنازع في أنفسهم خوفُهم على حياتهم ورغبتُهم في مشاهدة ما يحدث. جعلني هذا الحشدُ أنظر بعين الاحترام إلى أبناء وطني. لكن هذا الموقف زعزَع العديد منهم، حتى إنني رأيتُ رجلًا، على مسافةٍ غيرِ بعيدة وظهرُه ناحيتي، تنتفض كتفاه بلا توقُّف كأنما يعاني من تقلصاتٍ معوية.

راقبتُ الرجل بفضول، وعندما تحرّك الحشد، لمحتُ وجهه من الجانب. شهقتُ من الذهول؛ إذ تبيّن أنه أفري.

لكنه لم يبدُ كعهدي به. رأيتُ ملامحه المألوفة غير المميزة، وشكلَه العادي وجسدَه الممتلئ، لكن كل ذلك كان يتداعى إن جاز التعبير. كان الفزع قد تملّك منه. بدت ملامحه تذوب أمام عيني. رأيتُ ملامحه الحقيقية تتّضح أكثر وخُيّل لي أنه أصغر سنًّا، كان فاقدَ السيطرةِ على نفسه، بدا مثل كائنٍ عديمِ الشكل في طور التحوُّل. كان كأنما تجرّد من كل شيءٍ عدا مادته الأساسية. تحت سطوة الهلع تحوّل إلى رجلٍ آخر.

ما أثار دهشَتي هو أنني كنتُ أعرف الرجلَ الجديدَ أفضل من القديم.

ترك الزحام يديَّ مضغوطتَين قريبًا من جانبيَّ، وكنتُ أدير رأسي بصعوبةٍ شديدة، ولم تكن المناسبة تسمح لمن بجواري بملاحظةِ تعبيرات وجهي. لو أنها كانت تسمح، لحملقوا فيَّ. فقد حلقَت أفكاري بعيدًا عن الغارات الجوية، وعادت إلى صيف عام ١٩١٤

الحار. مرّ أمام عيني صفٌّ من المنازل الصغيرة القابعة على جرفٍ بحري. وفي حديقة أحد هذه المنازل، وقف رجلان يلعبان التنس فيما كنتُ أراقبهما من وراء شجيرةٍ مجاورة. كان أحدهما شابًا مكتنز الجسم، يضع وشاحًا ملونًا حول خصره، ويُثرثِر عن متوسطات لاعبي الجولف ... ورأيتُه مرةً أخرى في غرفة الطعام في المنزل، يرتدي بدلة السهرة، ويلثغ في كلامه قليلًا ... جلستُ قبالتَه إلى طاولة البريدج، وكان هو مطوقًا برجال ماكجليفراي، عندما هُرِع رفيقُه صوب درجات السلم التسع والثلاثين المُفضية إلى البحر ... كما تذكّرتُ غرفة جلوس شقتي القديمة في بورتلاند بالاس، وسمعتُ صوت سكادر يتحدّث بكلمات قلقةٍ سريعةٍ عن أكثر ثلاثة رجال يهابُهم على وجه البسيطة، وكان من بينهم شابٌّ يلثغ في كلامه. حينها ظننتُ أن هؤلاء الثلاثة قتلوا ...

لم يكن أفري ينظر نحوي، فانتهزتُ الفرصة لأتفحص وجهه آمنًا ألا يراني. تبدّدَت جميع الشكوك من عقلي. لطالما صنّفتُه أمهرَ مُمثل على وجه الأرض، إذ ألم يكن هو من أدى رئيس أركان البحرية ونجح في إقناع حتى زملاء رئيس الأركان المُقربين؟ لكن قدراته لا تُشبه قدرات أي ممثل عادي، فهو يتقمّص أي شخصية جديدة ببراعة، بما تنطوي عليه من هيئة جديدة، ويتلبسها تمامًا كأنه مولود بها ... شعرت أن ذهني مشوش لا أستطيع الوصول إلا إلى استنتاجات عشوائية غير حاسمة ... كيف فرّ من مصير جاسوسٍ قاتل؟ فآخِر عهدي به أنه بين يدَي القضاء ... بالطبع، تعرف عليّ منذ يومي الأول في بيجلزويك ... آنذاك فكّرتُ أني من أخدعه، لكنه كان هو من يخدعُني بدهاءٍ وخبثٍ فريدَين من نوعهما. سرت قُشَعْرِيرةٌ مريرة في جسدي، وأنا أقف في النفق المكتظ باللاجئين، من شعوري بالخيبة.

ثم رأيتُ وجهَه يستدير ناحيتي، وأدركتُ أنه تعرّف عليّ. علمتُ أنه يدرك تعرّفي على شخصيته الأخرى لا شخصية أفري. سرَت في عينَيه نظرةٌ فضوليةٌ تعكسُ استيعابه للوضع طغت لوهلةٍ على هلعه.

لم يكن من الصعب إدراكُ أن هذا سيضع حدًا للأمر. لا يزال بوسعي فعلُ شيءٍ ما دام يعتقد أنني لم أكتشِفْه بعدُ، لكنه فور أن يعلم أنني عرفتُ الحقيقة، فسيُفلِت من شباكنا ويتلاشى مثل الضباب.

أوّل ما خطر ببالي هو أن أسير إليه، وآخُذ بتلابيبه، ثم أطلُب مساعدة الحاضرين بعدما أفضح حقيقته. لكن أدركتُ أن تنفيذ هذه الخطة أمرٌ مستحيلٌ. فأنا مجنّد يرتدي زيًا مُستعارًا؛ لذا باستطاعته أن يقلب الحقائق ضدي بكل سهولة. لا بد أن أستخدمَ خطةً

أكثر إحكامًا. يجب أن أذهب إلى بوليفانت وماكجليفراي وأضعهما في إثْره. والأهم من ذلك لا بد أن أقابل بلنكيرون.

بدأتُ أشُق طريقي عَبْر هذا الحشد المتدافع؛ فقد بدت لي الغاراتُ الجويةُ مسألةً حقيرةً لا تستحق الاهتمام. كما أن القصف توقّف، لكن لم يتفرّق الحشد، بما يكشف عن الطبيعة البشرية الشبيهة بطبيعة الخِراف، واستغرقتُ ما يقرُب من خمسَ عشرةَ دقيقةً لأشُق طريقي عَبْر الحشد إلى الهواء الطلق. وجدتُ الغارات الجوية انتهت، وعادت الحركة في الشارع إلى طبيعتها. رأيتُ الحافلات والسيارات تعود إلى العمل وتجمُّعات من المارّة الثرثارين يتشاركون تجاربهم. انطلقتُ صوبَ مكتبة بلنكيرون؛ لأنها أقربُ ملاذٍ آمنٍ في الأنحاء.

لكن في ميدان بيكاديلي أوقفَني أحد رجال الشرطة العسكرية. وسألَني عن اسمي واسم كتيبتي، فأجبتُه، فيما فحصَت عيناه المُرتابتان جسدي. لم أكن أحمل حقيبةَ ظهرٍ أو بندقيةً كما أن التدافُع في محطة قطار الأنفاق لم يجعل مظهري مقنعًا بدرجةٍ كافية. شرحتُ له أنني عائدٌ إلى فرنسا هذا المساء، فأمرني بإبراز مذكّرة حضوري. أظن أن تشوُّش ذهني جعلَني أتوتّر فكذبتُ بصورةٍ مفضوحة. أخبرتُ الضابط أنني تركتُ أوراقي في منزل أختي المتزوّجة، مع حقيبة ظهري، لكنني تلعثمتُ وأنا أُملي عليه عُنوان المنزل. ولاحظتُ أنه لم يُصدِّق كلمةً واحدةً من كلامي.

رأيتُ مساعدَ قائد الشرطة العسكرية يسير نحونا. بدا منافقًا مغرورًا، يتباهى بأوسمته الحمراء، يشعُر بالثقة في نفسه بعد أن عايش القصف. على أي حالٍ بدا عازمًا على تأديتِه واجباتِه بصرامة.

قال: «تومكنز! تومكنز! في سجلاتنا جنديٌّ بهذا الاسم. أحضره يا ويلسون.»

قلتُ: «لكن، سيدي، يجب — يجب أن أقابل أحد أصدقائي. الأمر في غاية الأهمية، وأؤكّد لك أنه ليس هناك ما يقلق بشأني. إن كنتَ لا تصدقني، فسأوقف سيارة أجرة، ونذهب إلى سكوتلاند يارد مباشرة، وسألتزم بما سيقولونه لك عني.»

قطّبَ حاجبَيه في غضب. وقال: «ما هذا الهُراء؟ سكوتلاند يارد! ما علاقةُ سكوتلاند يارد بهذا الأمر؟ أنتَ محتال. أرى ذلك في وجهك. سآمُر بالاتصال بكتيبتك، وسيُلقى بك في السجن في غضون ساعتَين. أعرف الفارّين من التجنيد من وجوهم. أحضِره يا ويلسون. تعرف ما يجبُ عليك فعلُه إن حاول الهرب.»

لوهلةٍ خطرت لي فكرة الفرار، لكن الاحتمالات كلها لا تقف في صفي. فاتبعتُ

مساعد قائد الشرطة بنفاد صبر إلى مكتبه القابع في الطابق الأول من شارعٍ جانبي. رأيتُ اللحظاتِ الثمينة تمُر، ولا بد أن أفري أخذ حِذْره وأنه يلوذُ بالفِرار الآن، أما أنا، الحافظ الوحيد لهذا السر الخطير، فأسير في هذا الموكب العبثي بخطواتٍ ثقيلة.

أصدر المساعد أوامره. أعطى تعليماته بالاتصال بكتيبتي، وأمر ويلسون بنقلي إلى ما وصفَها بغرفة الحرّاس. ثم جلس على مكتبه، وانشغَل بكومة من الملفّات لونُها أصفرُ باهت.

كرّرتُ طلبي في يأس. قلتُ: «بالله عليك اتصل بالسيد ماكجليفري في سكوتلاند يارد. إنها مسألة حياةٍ أو موتٍ يا سيدي. ستتعرّض للمساءلة الشديدة إن لم تفعل ذلك.»

في محاولتي اليائسة للخروج من هذا الموقف جرحتُ كبرياءه الهشة. فقال: «إن لم تكُفّ عن غطرستك فسأكبّلك. سأنغّص عليك وأنظر في أمرك في القريب العاجل. والآن اخرج من الغرفة، وانتظِر حتى أبعثَ في طلبك.»

أدركتُ، وأنا أنظر إلى وجهِه الأحمقِ الغضوب، أنني في مأزقٍ كبير. وما لم ألجأ إلى الاعتداء على الحاضرين بالضرب، فلا خيار أمامي سوى الإذعان. حيّيتُ المساعد باحترام، واقتادني ويلسون للخارج.

شكّلَت الساعات التي قضيتُها في حجرة الانتظار الفارغة كابوسًا في ذكرياتي. كان هناك رقيبٌ يجلس إلى مكتبٍ منشغلًا بالمزيد من الملفّات الصفراء الباهتة، فيما انتظر جنديٌ خدمةٍ فوق مقعد بجوار الهاتف. نظرتُ إلى ساعتي، فوجدتُ أنها الواحدة ظهرًا. وسرعان ما سمعتُ باب غرفة المساعد يُغلَق بقوة إعلانًا عن ذهابه لاستراحة الغداء. حاولتُ أن أفتح محادثةً مع الرقيب البدين، لكنه أسكَتَني في الحال. وهكذا جلستُ مُنحنيَ الظهر على الدكة الخشبية أبتلع غيظي.

تذكّرتُ بمرارةٍ ذاك الشعورَ بالرضا الذي غمرني هذا الصباح. فقد أوهمتُ نفسي أنني شخصٌ استثنائي، وأنا في الحقيقة لم أكن سوى محتال. بدت لي مغامراتُ الأيام الماضية مجرد أفعالٍ صبيانيةٍ لا أكثر. كنتُ أنشُر الأكاذيب وأقوم بالحماقات، فيما أجوبُ بريطانيا طولًا وعرضًا، على اعتقاد أنني أؤدي دوري بمهارة، وأنا لم أفعل سوى التصرُّف مثل الصبي. في مثل هذه الظروف، يندُر أن يُقدِّرَ المرءُ نفسَه حقّ قَدْرها، وحقّرتُ نفسي بشدة كانت ستُشمِت بي ألد أعدائي. ولم ترفع معنوياتي حقيقةُ أن هذا الإخفاق ليس ذنبي. كنتُ أبحث عن الأعذار. لكن الحقائق كانت تُدينني صراحة؛ إذ

تقول إني أحمقُ فاشل.

بالتأكيد، تلاعَب بي أفري؛ تلاعب بي منذ يومي الأول في بيجلزويك. أشاد بخطاباتي، وأغدقني بالمدح، ونصحني بالذهاب إلى كلايد، فيما كان يضحك من وراء ظهري طيلةَ هذا الوقت. وشاركَه جريسون في ذلك. الآن أدركُ ما حدث. لقد حاول إغراقي بين جزيرتَي كولونساي ومول. وهو مَن أطلق الشرطةَ خلفي في مورفيرن. والبائع المتجول، لينكليتر، أحد رجاله. عزائي الضئيل الوحيد هو أن تلك العصابة رأت أني خطيرٌ بما يكفي لأن تُحاول قتلي، وأنها ليس لديها أيٌّ علم بأنشطتي في جزيرة سكاي. أنا واثقٌ من هذا. لقد كانت تُراقبني طَوال الوقت، لكنها أضاعت أثَري لعدة أيام.

تأملتُ الأحداث الماضية، وتساءلتُ إذا كان لا يزال ثمّة بصيصٌ من الأمل. فقد فشلتُ في خداع أفري، لكني عثرتُ على مكتب البريد الخاص به، ولو صدّق أنني لم أربط بينه وبين المجرم اللئيم عضو جماعة «بلاك ستون»، فسيُواصِل اللعب بأساليبه القديمة، وسيقع في شباك بلنكيرون. أجل، لكني رأيتُه عاريًا من كل الأقنعة، إن جاز التعبير، وقد لاحظ أنني كشفتُه. الحل الوحيد الآن هو القبضُ عليه قبل فراره من البلاد؛ إذ صار معنا ما يكفي من الأدلة لإدانته. لا بد أن تطالَه ذراعُ القانون هو وجريسون واليهودي البرتغالي، وأن يُحاكَموا في محكمةٍ عسكرية، ويُعدَموا.

لكنه أُنذر منذ ما يزيد عن الساعة، فيما أنا عالقٌ مع صاحب الأوسمة الحمراء في مكتبه اللعين. أصابتني هذه الفكرة بالجنون، فنهضتُ من مكاني، ورحتُ أذرع المكان جيئةً وذهابًا. رأيتُ علامات الخوف على وجه الجندي الذي كان متأهبًا للضغط على الجرس، ولاحظتُ أن الرقيب البدين قد ذهب لتناول الغداء.

قلتُ: «ألا تريدُ مساعدةَ رجلٍ مسكينٍ يا صديقي؟ أدرك أنني في ورطةٍ كبيرة، وسأتحمل العواقب مثل الحمَل. لكني أريد إجراء مكالمةٍ هاتفيةٍ لأمر في غاية الضرورة.»

أجاب: «ممنوع. سيُوبخني المدير.»

قلتُ بنبرةٍ تشجيعية: «لكنه غير موجود. لا أريدك أن تفعل شيئًا خاطئًا، يا رفيقي، وسأتركك تتحدث إلى الطرف الآخر شرط أن تنقل رسالتي إليه. لديّ أموالٌ كثيرة، وسأعطيك جنيهًا إسترلينيًا مقابل هذه الخدمة.»

كان رجلًا ضئيلًا نحيلًا ذا ذقَنٍ ضعيف، ولاحظتُ التذبذبَ على وجهه.

سأل: «مَن تريد الاتصال به؟»

قلتُ: «سكوتلاند يارد، مركز الشرطة الرئيسي. لا يمكن أن يكون هناك ضررٌ من ذلك. ما عليك سوى الاتصال بسكوتلاند يارد — سأعطيك الرقم — وإيصال رسالة للسيد ماكجليفري. إنه رئيس الشرطة.»

قال: «أرى أنه لا بأس بهذا. لن يعود المدير قبل نصف ساعة ولا الرقيب. لكن أرني المال أولًا.»

وضعتُ الجنيه على المقعد بجواره. وقلتُ له: «هو لك يا صديقي إذا اتصلتَ بسكوتلاند يارد وأبلغتَهم الرسالة التي سأعطيك إياها.»

سار إلى الهاتف. وسأل: «ماذا تريد قولَه للرجل صاحب الاسم الطويل؟»

أجبتُ: «قل له إن ريتشارد هاناي محتجزٌ في مكتب مساعد قائد الشرطة العسكرية في شارع كلاكستون. أخبِره أنني أحمل له أخباراً مهمة — بل أخباراً عاجلة وسرية — واطلُب منه أن يحلّ الأمر في الحال.»

قال: «لكن ذلك ليس الاسم الذي أخبرتَنا به.»

قلتُ: «أجل، ليباركك الرب. أسمعتَ من قبلُ عن الاسم المستعار؟ على أي حال، هذا هو الاسم الذي أريدكَ أن تقوله في الهاتف.»

قال: «لكن لو قَدِم هذا الرجل، ماك، إلى هُنا، سيعلمون أن هناك من اتصل به، ولن يستحسن المدير ما فعلتُه.»

استغرق الأمر عشر دقائق وجنيهًا آخر كي يتغلّب على تردُّده. في نهاية المطاف، استجمع شجاعته، واتصل بالرقم الذي أعطيتُه له. أنصتُّ في توتُّر، وهو يملي رسالتي على المتحدِّث على الجانب الآخر — إذ اضطُر إلى تكرارها مرتَين — وانتظرتُ الإجابة في لهفة.

سمعته يقول: «لا يا سيدي. لا يريدك أن تأتي إلى هُنا. إنه يفكِّر في ... ما قصدته هو أنه يريد ...»

تقدّمتُ نحوه بثبات وانتزعتُ سمّاعة الهاتف من يده.

قلتُ: «ماكجليفري، أهذا أنتَ؟ معكَ ريتشارد هاناي! بالله عليك، تعالَ إلى هُنا في الحال، وأنقِذني من براثن مساعد قائد الشرطة العسكرية الأحمق. لديّ أخبار في غاية

الأهمية. الوقتُ ليس في صالحنا. تعالَ بسرعة بحق السماء!» ثم أضفتُ: «اؤمر رجالك بالإمساك بأفري على الفور. أنتَ تعلم مخبأه.»

وضعتُ السمّاعة وواجهتُ الجنديّ الذي امتزج الشحوب بالغضب على وجهه. قلتُ: «لا تقلق. أعِدُك أنكَ لن تتعرضَ لأي نوعٍ من المتاعب بسببي. تفضّل جنيهَين نظير خدماتك.»

فُتح باب الغرفة المجاورة ثم أُغلِق مرةً أخرى. لا بد أن مساعد القائد قد عاد من استراحة الغداء ...

مرّت عشرُ دقائق، ثم فُتح الباب مرةً أخرى. سمعتُ صوت ماكجليفري يتحدث بنبرةٍ حازمة. كان يواجه موظفًا بيروقراطيًّا أدنى رتبةً، وها هو يُحاوِل استغلال الفرصة.

استعدتُ حريتي مرةً أخرى، فتركتُ جنديّ الخدمة. وجدتُ المساعد في غاية الاضطراب يحاول إنقاذ ما تبقّى من كرامته، فيما حاول ماكجليفري ذو الهيبة أن يُلقّنه درسًا في الأخلاق.

قال: «أنا سعيدٌ برؤيتك يا ديك. أقدّم لك الجنرال هاناي يا سيدي. ربما تجد العزاء في معرفة أن الحماقة التي ارتكبتَها قد تصنع الفارق بين انتصار دولتك وهزيمتها. سأناقش هذه المسألة مع رؤسائك.»

وجدتُ تهديدَه غير منصفٍ بعض الشيء. فاضطُرِرتُ لتزكية العجوز الذي بدت أوسمتُه الحمراء كأنها بلِيَت واهترأَت فجأة.

قلتُ: «الذنب ذنبي لأنني ارتديتُ هذه الحلة. لنَعتَبِرْ ما حدث سوءَ تفاهم ونُنهِ المسألة عند هذا الحد. لكن أحبُّ أن أنوِّه إلى أنه حتى مُجند مسكين متهرب من الخدمة يستحق معاملةً مهذبة.»

فور أن دخلتُ سيارة ماكجليفري، قصصتُ عليه قصتي. هتفتُ: «أخبِرني أن ما حدث مجرد كابوس. أخبرني أن ثلاثة الرجال الذين أمسكنا بهم على الجرف البحري الذي يُسمّى ذا روف أُعدِموا منذ وقتٍ طويل.»

أجاب: «الرجلَين. فقد هرب الثالث. الله وحده يعلم كيف أفلَح في الفرار، لكنه اختفى تمامًا كأن الأرض انشقّت وابتلَعَته.»

سألتُ: «أتقصدُ البدين الذي كان يلثغ في كلامه؟»

أومأ ماكجليفري برأسه علامة الإيجاب.

قلتُ: «حسنًا، وقعنا في ورطةٍ كبيرةٍ هذه المرة. هل أصدرتَ أوامركَ بملاحقته؟»

أجاب: «أجل. لو حالَفَنا الحظ فسنضع أيدِينا عليه في غضون ساعة. لقد نشرنا رجالَنا في كل الأماكن التي يتردَّد عليها.»

قلتُ: «لكننا تأخَّرنا ساعتَين! سيُقلِّل هذا من فُرصنا في النجاح؛ لأننا نتعامل مع داهية!»

قال: «مع ذلك أظن أن بإمكاننا الإيقاع به. أين تنوي الذهاب الآن؟»

أخبرتُه أنني أريد التوجُّه إلى غرفتي في وستمنستر ثم إلى شقتي القديمة في شارع بارك لين. قلتُ: «انتهى عهد التنكُّر. في غضون نصف ساعة سأصبح ريتشارد هاناي. يا لها من راحةٍ أن أعود إلى بزَّتي العسكرية. بعد ذلك سأبحث عن بلنكيرون.»

ابتسم ابتسامةً عريضة. وقال: «يبدو أنكَ مررتَ بفترةٍ عصيبة. وردَنا من الشمال سيلٌ من الرسائل القلقة عن شخصٍ يُدعى السيد براند. لم أستطع إثناء رجالنا عن مطاردتك؛ لأنني خشيتُ أن أعيق مخططاتك. سمعتُ أنهم في الليلة الماضية فقدوا أثَركَ في برادفيلد؛ لذا غلب على ظني أنني سأراك هُنا اليوم. لا بد من الاعتراف أن الشرطة الاسكتلندية تتسم بالكفاءة.»

عقَّبتُ: «لا سيما عندما يتلقَّون المساعدة من عدة هواةٍ مُتحمسين.»

قال: «وماذا في ذلك؟ أجل، بالطبع. هم يتلقَّون المساعدة. لكني آمُل أن أهنئك قريبًا على نجاح مهمتك.»

قلتُ: «أراهنك على ٢٥ جنيهًا إسترلينيًّا أنك لن تفعل.»

قال: «لا أراهن أبدًا في أمور المهنة. ولِمَ هذا التشاؤم؟»

قلتُ: «كل ما في الأمر أنني أعرفُ رجلَنا أفضل منك. لقد واجهتُه مرتَين. إنه شرير من النوع الذي لن يتوقف عن إثارة المتاعب حتى موته. وحتى بعد موته لن أطمئن حتى أرى جُثته تُحرَق، ثم آخُذ رماده إلى وسط المحيط، وأنثره. أشعر أنه أصعبُ خَصمٍ سنواجهُه أنا أو أنت في حياتنا.»

الفصل الحادي عشر

وادي الاتضاع

جمعتُ بعضًا من أمتعتي وكومةً من الرسائل المُرسلة حديثًا من غرفتي في وستمنستر، قبل أن أستقل سيارةَ أجرة إلى شقتي في بارك لين. عادةً كنتُ أتنفّس الصُّعَداء عندما أعود إلى شقتي القديمة، مثل تلميذ فرح بالرجوع من مدرسته، فراح يتجوّل في غرفته في المنزل متفقدًا كنوزَه. كنتُ أستمتع برؤية غنائم الصيد تُزيّن الجدار، وأحب الاسترخاء في مقاعدي المريحة. لكن الآن فقدَت هذه الأشياءُ بهجتَها في عيني. اغتسلتُ، واستبدلت ملابسَ ببزّتي العسكرية، فشعَرتُ أنني استعدتُ روح القتال. لكن أثقلَت كاهلي قناعتي بالفشل التام، ولم أشارك ماكجليفري في تفاؤله. تجدّدَت تلك الرهبةُ التي بثّتْها عصابة «بلاك ستون» في قلبي منذ ثلاثِ سنواتٍ أضعافًا مضاعفة. كانت كبريائي المجروحة أهون مشكلاتي. فما يُضجِع مضجعي هو شعوري أني في مواجهة خَصمٍ تفوق قوّتُه وحنكتُه وقدراتُه العادة. شعَرتُ أنني على استعداد للاعتراف بالهزيمة وترك اللعبة.

من بين الخطابات غير المقروءة كان هناك خطابٌ من بيتر، فتحتُه لأجده خطابًا طويلًا جدًّا؛ لذا جلستُ لقراءته في تُؤَدة. شعَرتُ بالفضول؛ إذ كان هذا أطول خطابٍ أرسَله بيتر، وأدركتُ مدى شعوره بالوحدة من طوله. علمتُ أنه لا يزال في معسكر الاعتقال الألماني، وينتظر ذهابه إلى سويسرا كلّ يوم. قال إنه يمكنه العودة إلى إنجلترا أو جنوب أفريقيا، متى شاء؛ لأنهم على يقينٍ من عدم قُدرته على القتال مرةً أخرى؛ لكنه يفضّل الإقامة في سويسرا، لأنه لن يكون سعيدًا في إنجلترا وهو يرى جميعَ أصدقائه يقاتلون بينما هو عاجز. لم يشتكِ كما هي عادتُه، وبدا في غاية الرضا من الرحمات الصغيرة التي تنزلُ به. كان هناك طبيبٌ يُعاملِه بلُطف، كما وجد بعض الرفاق الصالحين بين السجناء.

لكن تمحوَر خطاب بيتر حول تأمُّلاته بشكلٍ رئيسي. لطالما كان ينزع إلى الحكمة، والآن في عزلته أصبح ينغمِس في التفكير العميق، ويُفرغُ استنتاجاتِه على صفحاتٍ من الورق الرقيق، بخطِّه الرديء كي أقرأها. استشفَفتُ من خطابه أنه يخوض صراعًا عنيفًا

مع نفسه. كان يحاول ألا يتخلى عن شجاعته أمام أقسى ابتلاءٍ يمكن للمرء مواجهته؛ وهَن الشيخوخة. لطالما كان واسعَ الاطلاع على الكتاب المقدّس الذي شَكّل مع رواية «سياحة المسيحي» خيرَ مُعينٍ له في تأملاته. كان يُصدِّق ما جاء فيهما حرفيًا كأنهما تقاريرُ صحفية عن أحداثٍ جديدةٍ حقيقية.

ذكر أنه بعد تفكيرٍ طويلٍ خلصَ إلى أن أعظمَ ثلاثةِ رجالٍ سمع عنهم أو قابلهم هم شخصية «القوي للحق» من رواية «سياحة المسيحي»، والقديس بولس الرسول، ورجلٌ يُدعى بيلي سترينج رافقَه في منطقة ماشونالاند عام ١٨٩٢. كنتُ أعرف كل شيءٍ عن بيلي؛ كان بيتر يعتبره بَطَله، كما كان قائدَه حتى التهمه أسدٌ في بلوبرج. كان بيتر يُفضِّل «القوي للحق» على شخصية «كريم النفس»، أظن بسبب صرامته البالغة، ولأن بيتر رقيقُ النفس فقد جذبَتْه تلك الشخصية الجريئة التي لا تخشى في الحق لومةَ لائم. وبعد ذلك انخرط في وصلةٍ من التأمُّل في ذاته. شعَر بالندم لأنه لا يرقى إلى أيٍّ من أولئك الثلاثة. فكّر أنه ربما يُشبه شخصيةَ «الثابت»، مع بعض الحظ؛ لأنه لا يواجه مشكلةً كبيرةً في البقاء يقظًا، كما أنه «فقيرٌ مُعدم» على حدِّ تعبيره، ولا يعبأ بالنساء. كان جلُّ ما يأملُه هو أن يحظى بخاتمةٍ حسنةٍ مثله.

تلا ذلك بعض تعليقات بيتر عن الشجاعة، شعَرتُ وأنا أقرؤها في غرفتي في لندن كأني أسمعها بصوته. لم أعرف شخصًا يتمتع بمثل شجاعته الفطرية، أو شخصًا يكره كراهيةً عمياءَ أن ينعتَه أحد بهذه الصفة بقَدْره. كان سماعه أحدًا يمدحُه بذلك الوصف هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُثير غضبه. ظل بيتر يتحدى الموتَ طيلةَ حياته، وكانت المخاطرة بالنسبة إليه أمرًا طبيعيًا مثل الاستيقاظ من النوم في الصباح وتناول وجبة الفطور. لكنه بدأ يتأمل في تلك الصفة التي كان فيما مضى يعتبرها من المسلّمات، وها هو مقتطفٌ من استنتاجاته. سأعيد صياغةَ عباراته لأن فيها الكثيرَ من الأخطاء النحوية.

«من السهل كثيرًا أن يتحلى الإنسان بالشجاعة إن كان معافى الجسد ملآن البطن. كما أنها ليست صعبة على الجوعان المُنهك؛ إذ يجد ذلك في نفسه ميلًا للمجازفة. أعني بالشجاعة أن تلتزم بقواعد اللعبة دون أن تخشى احتمالية الهزيمة، وإن كان واردًا جدًا. ذلك أذكى طريقٍ للنجاة. فلن يُجديَ التفكيرُ في الموت وأنت تُواجه أسدًا هائجًا أو تُحاول خداعَ جماعةٍ من الرعاع. إن فكّرتَ في الموت فسيأتيك؛ وإن لم تفكّر فيه فستنجو منه على الأرجح. ينبُع هذا النوعُ من الشجاعة من هدوء الأعصاب وتراكُم الخبرة ... في الحقيقة الشجاعة هي نتاجُ الخبراتِ السابقة. فأكثر الناس يخافون

الأشياء التي لم يختبروها ...

أنتَ بحاجة لأن يقوى قلبك لمواجهة الأخطار التي تخرج للبحث عنها، أخطارٌ لن تواجهها في أي مهنةٍ عادية. وهذا أيضًا يتأتى بالطريقة نفسها؛ برباطة الجأش وقوة البدن ونزوعٍ فطريٍّ للمواجهة. كما ترى يا ديك، لُعبتُنا تلك فيها الكثير من المُتعة. فالمرء يشعر بالإثارة والاستمتاع عندما يوظّف فيها ذكاءه ومهارته، كما أنه يُدرك أن العقبات التي يواجهها فيها ستنقضي لا محالة. عندما أرسلني أركول إلى زريبة ماكابان، لم ترُقْني المهمة على الإطلاق، لكني استمتعتُ بثُلثها على أقل تقدير، واجتاحتني حماسة عارمة، حتى إنني لم أفكّر في المخاطر حتى نهايتها ...

لكن الشجاعة الحقيقية تتّسم بالثبات، فلا تتزعزع بفقدان الشغف أو الضعف، أو تتذبذب إذا لم تجنِ أي نوع من المرح أو الربح من ورائها، أو تهتز بمعرفتك أن هذه الظروف العصيبة لن تنقضي خلال ساعة أو ساعتَين، بل ستدوم شهورًا وسنين. سمعتُ أحد الرجال هُنا يتحدّث عن هذا النوع وأسماه «الجلَد». أعتقد أن الجلَد هو أشرفُ صفةٍ يمكن أن يتحلى بها المرء؛ أن يُواصِل المقاومة عندما لا يتبقى فيه أي ذرة من الشجاعة أو الإرادة. اتّسَم بيلي بهذه الصفة إذ مشى مسافةً طويلةً على قدمَيه من جرانجوز إلى ليمبوبو، وهو مصابٌ بالحُمى وذراعه مكسورة، ليُظهِر للبرتغاليين أنهم لن يهزموه تحت أي ظرف. لكن زعيم أهل هذه الصفة هو بولس الرسول ...»

كان بيتر يكتب لمواساة نفسه، لأن «الجلَد» هو كل ما تبقّى له الآن. لكن كلماته بلغَت من نفسي مبلغها، فقرأتُها مرارًا وتكرارًا؛ لأنني كنت بحاجة لاستيعاب العظة التي تضمّنَتها. ها أنا ذا خائر الهمة فقط لأنني أخفقتُ في الجولة الأولى وتعرّضَت كبريائي لضربةٍ كبيرة. خجلتُ من نفسي كثيرًا، وأصابني ذلك بسعادةٍ عارمة. ليس هناك مجال لترك المهمة مهما كانت تحدياتها. راودَني اعتقادٌ غريب أن قدَري متشابك مع قدَر أفري، ولا سبيل لافتراقهما مهما أردتُ. لقد واجهتُه قبل الحرب وفُزت، وواجهتُه مرةً أخرى وخسِرتُ، وفي المرة الثالثة أو العشرين سنحسم ذلك النضال للأبد. بدت المسألة كلها إلى هذا الحين غيرَ حقيقية بطريقةٍ ما، أو على الأقل هكذا بدت لي علاقتي بها. كنتُ أتبع الأوامر الواردة لي بإذعان، لكن نفسي الحقيقية ظلّت واقفةً على الحياد تُراقِب أفعالي دون تدخُّل. لكن تلك الساعة في محطة قطار الأنفاق دفعَتْني للنزول إلى أرض الملعب، ولم أعُد أرى المسألة تخُص بوليفانت أو حتى بلنكيرون، بل صارت تخصُّني شخصيًا. في السابق كنتُ أتلهف للعودة إلى الجبهة، أما الآن فأتوق لاقتفاءِ أثر أفري، وإن اضطُرِرتُ إلى دخول الجحيم. كان بيتر محقًا؛ على المرء أن

يتحلى بالجلَد إذا أراد النجاة بروحه.

انقضَت الساعاتُ دون أن تحمل أي أنباءٍ من ماكجليفراي كما توقّعتُ. طلبتُ إحضارَ وجبةِ عَشاءٍ في السابعة، وعندما اقتربَت الساعة من الثامنة بدأتُ أفكر في البحث عن بلنكيرون. في تلك اللحظة وردَني اتصالٌ هاتفي يأمُرني بالتوجُّه مباشرة إلى منزل السير والتر بوليفانت في شارع كوين آنز جيت.

في غضون عشرِ دقائقَ كنتُ أدقُّ جرسَ منزلِ السير والتر، وفتح لي الباب رئيس الخدم الخالي من المشاعر نفسه، الذي أدخلني إلى المنزل في تلك الليلة الحافلة منذ ثلاث سنوات. لم يتغيّر شيءٌ في البهو المُبهِج المكسُوّة جدرانُه بالألواح الخشبية الخضراء، وكانت الكوّة، التي راقبتُ من خلالها رحيل الرجل الذي يُسمّي نفسه الآن «أفري»، على حالها، كما كان دليلُ الهاتف قابعًا في المكان نفسه الذي انتشلتُه منه للاتصال برئيس الأركان البحرية. وفي الغرفة الخلفية، حيث اجتمع خمسةُ مسئولين قلقين في تلك الليلة، وجدتُ السير والتر جالسًا مع السيد بلنكيرون.

ارتسَم القلق على وجه الاثنَين، وكان الأمريكي في غاية الاضطراب. فقد كان يذرع سجادة الموقد جيئةً وذهابًا، فيما يمصُّ سيجارًا أسود غير مشتعِل.

قال: «اسمع يا ديك، نحن في موقف حرج. هذا ليس خطأك. لقد أبليتَ بلاءً حسنًا. ومن رفع راية الاستسلام هو أنا والسير والتر والسيد ماكجليفراي.»

سألتُ: «هل هناك أيٌّ أخبار؟»

ردّ سير والتر: «حتى الآن لم ترِدْنا أي معلومات من مُراقبينا. من سوء الحظ أن صديقنا رآك اليوم. هل أنت واثقٌ أنه أدرك تعرُّفك عليه؟»

قلتُ: «مائة بالمائة. لقد تكرّر ما حدث منذ ثلاث سنواتٍ عندما لاحظ أنني تعرفتُ عليه في بهو منزلك فيما كان يمشي مختالًا منتحلًا شخصية اللورد ألوا.»

قال بلنكيرون في بؤس: «لا، ذلك الإحساس اللحظي الذي ينتابك عندما تتعرّف على شخصٍ ما هو الشيء الوحيد الذي لا يحتمل الخطأ. تبًّا! ليت السيد ماكجليفراي هنا.»

دقّ الجرس، وفُتح الباب، لكن القادم لم يكن السيد ماكجليفراي. كانت شابةً صغيرةً ترتدي فستانَ سهرة أبيضَ مزدانًا بعنقودٍ من أزهار القنطريون العنبري عند منطقة الصدر. عندما رآها السير والتر هبّ واقفًا من مقعده فقلب فنجان القهوة الخاص به.

قال: «كيف وصلتِ مُبكرًا يا عزيزتي ماري؟ لم أتوقّع قدومَكِ إلا في قطارٍ متأخر.»

أجابت: «كنتُ في لندن، كما تعلم، عندما أبلغوني بما جاء في برقيتك عَبْر الهاتف. أمكُث مع عمتي دوريا، وقرّرتُ أن أتغيّب عن حفلتها المسرحية. إنها تظن أنني في حفلة شاندويك الراقصة؛ لذا لن أحتاج إلى العودة حتى الصباح ... عِمتَ مساءً يا جنرال هاناي. أراك تجاوزتَ «جبل الصعوبة».»

قلتُ: «والمرحلة الثانية هي «وادي الاتضاع».»

قالت بجدية: «يبدو كذلك»، وجلسَت على حافة مقعد السير والتر بهدوءٍ شديد، ووضعَت يدها الهادئة الصغيرة على يده.

كثيرًا ما تخيّلتُها فتاةً صغيرةً مشرقة، راقصة، رائعة. لكني الآن راجعتُ تلك الصورة. هي وإن كانت لا تزال تمتلك نضارةَ الشباب النقية، إلا أنها تشعُّ نضجًا، وقد لاحظتُ ذلك الآن. كانت رقّتُها الخالصة وقوة شخصيتها ما جذبني إليها. حتى إنني لم أفكر في جمالها، مثلما لا يفكّر الرجل في حُسن ملامح صديقه العزيز.

انتظرنا دون أن ينطق أيّنا بكلمة تقريبًا حتى حضر ماكجليفراي. كانت النظرة الأولى لوجهه كافيةً لمعرفة ما جاء به من أخبار.

سأل بلنكيرون بحدة: «هرب؟» بدا أن هدوءَ الرجل اللامبالي قد تخلّى عنه تمامًا.

كرّر الوافد الجديد: «هرب. كنا قد حدّدنا موقعه للتو. لكنه أفلَح في الفرار ببراعة. لم نُلاحِظ أي حركةٍ غير عادية في أيٍّ من مَخابئه. طلَب عَشاءَه في بيجلزويك، ودُعي العديد من الأشخاص إلى الإقامة معه في عطلة نهاية الأسبوع، أحدهم مسئولٌ حكومي. كما نُظم لقاءان كي يُلقي خطابًا فيهما الأسبوع القادم. وفي وقتٍ مبكر بعد الظهيرة، حلّق إلى فرنسا على متن إحدى الطائرات الجديدة. لقد كوّن صِلاتٍ مع مسئولي هيئة الطيران منذ عدة شهور — بالطبع بصفته رجلًا آخَر بوجهٍ آخر. اكتشفَت الآنسة لامنتون هذا الأمر بعد فواتِ الأوان. خرجَت الطائرة عن مسارِها وهبطَت في نورماندي. آنذاك كان رجلُنا في باريس أو خارجها.»

خلَع السير والتر نظارته الكبيرة المرقّشة كدرع السلحفاة ووضَعها على الطاولة بحرص.

قال: «اطوِ خريطة أوروبا. نحن بصدَد معركةٍ حاسمة. أشعُر، يا عزيزتي ماري،

أنني عجوزٌ طاعنٌ في السن.»

بدا وجه ماكجليفراي مكفهراً من شدّة شعوره بالخيبة. واحمَرّ وجه بلنكيرون كثيراً، وكان واضحاً أنه يتلفّظ بكلماتٍ نابيةٍ بصوتٍ خافت. كانت عينا ماري هادئتَين وجادّتَين. وواصلتُ التربيت على يد السير والتر. خيّم عليّ شعور بأن ثمّة كارثةً وشيكة، وفي محاولةٍ لدفعه عني استفسرتُ عن التفاصيل.

سألتُ: «أخبِرني عن مدى الضرر الحاصل. لقد فشلَت خطّتنا المُتقنة لخداع الألمان. وهذا سيئ. كما هرب جاسوسٌ خطير من بين أيدينا. وهذا أسوأ. أخبِرني، هل وقع ما هو أسوأ من هذَين الأمرَين؟ ما حدُّ الضرر الذي يمكن أن يُوقعه؟»

نهض السير والتر من مقعده وانضمّ إلى بلنكيرون على سجادة الموقد. كان حاجباه معقودَين وشفتاه مزمومتَين كأنه يشعُر بالألم.

قال: «لا يُوجَد حدٌّ للضرر الذي يمكن أن يوقعه. إلا أن تشملنا رحمة الرب. لقد عرّفتُ الرجل بشخصية أفري، كما عرّفتُه بشخصية الرجل الآخر الذي كنتَ تعتقد أنه قُتل ذات صباحٍ صيفي ودُفن تحت التراب. وقد هبتَ الرجل الثاني، وإن لم تهَبْه، فأنا أهابه بشدة على أقل تقدير. وقد أدركتَ إلى أي مدًى نخشى أفري، وعرفتَ عنه ما يكفي لأن ترى براعتَه الوحشية بنفسك. وها قد اجتمعا الآن في رجلٍ واحد. أفري هو أدهى خَصمٍ جابهتُه أنا وماكجليفراي، وأمكرُهم وأبعدُهم نظراً وأصبرُهم على تحقيق مراده. فما بالك إذا كان هو نفسه الرجل الآخر، ذلك الحرباء المُتلوِّنة، الذي يستطيع التماهي مع أي بيئة، وتقمُّص أي شخصيةٍ على وجه البسيطة. هل اتضحَت لك صورة الخَصْم الذي نحاربه؟

قلتُ: «أُقر بأننا إزاء خَصمٍ خطير. لكن في النهاية ما مقدارُ الضرر الذي يمكن أن يُحدِثه؟ ثمّة حدودٌ للتأثير لا يمكن أن يتجاوزَها حتى أمكر الجواسيس.»

قال: «أتفق. لكن هذا الرجل ليس جاسوساً يشتري بالمال بضعةَ أتباعٍ حُقراءَ ويسرقُ بضعَ رسائلَ خاصة. بل هو داهية، ظل يعيش بيننا كواحدٍ منا. ولا يُوجَد شيءٌ في حياتنا إلا واطّلع عليه. لقد كوّن صداقاتٍ وطيدةً مع سياسيين شتّى. هذا أمرٌ نعرفه يقيناً. وقد فعل ذلك بصفته أفري. وقد نجح في استمالتهم إليه؛ إذ كان ذكياً يُغدِق عليهم بالثناء والمدح، فكانوا يُسرُّون إليه ببعض الأمور. لكن الله وحده يعلم مقدار ما اطّلع عليه وحصدَه من معلوماتٍ مُتنكراً في شخصياتٍ أخرى. فلا أستبعد أن يكون قد تناولَ إفطاره في مكتب رئيس الوزراء حاملاً خطابَ تعريفٍ من الرئيس ويسلون، أو زار الأسطول

البريطاني بصفته سياسيًا مُحايدًا مرموقًا. ثم لا تنسَ النساء وثرثرتَهم. مجتمعنا هو الأكثر إفشاءً للأسرار على وجه الأرض فيما بين أفراده، ونحن نحمي أنفسَنا بعدم السماح للأشخاص الخطرين بالولوج إليه. نحن نحتمي بدِفاعاتنا الخارجية. لكن لو نجح شخصٌ في التسلل من خلالها فستُتاح له فرَصٌ لا حصر لها. ولا تنسَ أن رجُلنا هذا من طرازٍ فريد، رجل لا يغفُلُ عقلُه لحظة، ولا تفوتُه شاردة، ولديه القدرةُ على ترتيب معلوماتٍ متفرقةٍ سمعها في جلساتٍ نميمةٍ ليكوّن منها الصورةَ الكاملة للمشهد. الأمر يُشبه ... يُشبه أنْ ينشَق رئيس مخابراتنا ويأخذ صف العدو ... الجاسوس العادي يعرف بضعَ حقائقَ غير مترابطة. أما هذا الرجل فيعرف أسلوب حياتنا وطريقة تفكيرنا وكل شيءٍ عنا.»

قلتُ: «صحيح، لكن أطروحةً عن أسلوب حياة الإنجليز في وقت الحرب لن تفيد الألمان كثيرًا.»

هزّ السير والتر رأسه. وقال: «ألا ترى ما على المحك من معلوماتٍ خطيرة؟ أفري يعرف ما يكفي لأن يجعل ألمانيا تخدعنا بأن تدعُوَنا للسلام ثم تضربنا في مقتل؛ تُوجِّه لنا ضربةً لا تُشبه محاولاتها البائسة التي تقوم بها حتى الآن، بل تستهدف نقاط ضعفنا بدقة. هو يعرف ما يكفي من المعلومات لإفشال تحركاتنا العسكرية. والأدهى أننا لا نعرف مقدارَ ما يملك من معلوماتٍ ولا الغاية التي يسعى إليها. هذه حربُ مفاجئات. كلا الجانبَين يسعى لأن يتفوّق على خصمه ولو قيدَ أنملة، يسعى لأن يكتسب ولو ذرةً من المعرفة تمنحه الأفضلية في معركةٍ يتساوى طرفاها.»

قلت بحماس: «إذن علينا أن ننهضَ ونُطاردَه.»

سأل ماكجليفراي: «وماذا ستفعل؟ إذا كنا نُحاوِل هزيمةَ منظمةٍ فذلك سهل، فالمنظمة كيانٌ ملموس. لكننا نُحاوِل هزيمة ذلك الرجل بعينه، وهو مراوغ كالذئبق. كيف ستعثُر عليه؟ الأمر يُشبه محاولةَ إيجادِ إبرةٍ في كَومة قش، وليتَها إبرةٌ عادية! بل هي إبرةٌ قادرةٌ على أن تتخذ شكل قشّةٍ أو مسمارٍ إذا شاءت.»

قلتُ متذكرًا درسَ بيتر العجوز عن الجَلَد وإن لم يستشعره قلبي: «ولو، علينا أن نجده.»

تهالكَ السير والتر في مقعدٍ ذي مسندَين. وقال: «ليتني أرى أملًا في هذا الموقف، لكن يبدو أن علينا الإقرار بهزيمتنا. أعمل في هذه المهنة منذ عشرين سنة، وتعرّضتُ لهزائمَ في كثيرٍ من الأحيان، إلا أنني دائمًا ما كنتُ أُمسِك ببعض الأوراق الرابحة.

لكن ليس هذه المرة. أظن أننا وصلنا إلى طريقٍ مسدودٍ يا هاناي. لا جدوى من خداع أنفسنا. نحن ناضجون بما يكفي لمواجهة الحقائق والاعتراف بها. لا أرى أي بارقةِ أمل في هذه المهمة. أخطأنا هدفَنا بمقدار شعرة، ولا فارقَ بين هذا وبين إخطائه بمقدار أميال؛ إذ إن النتيجة واحدة.»

أتذكّر أنه نظر إلى ماري كأنه يتطلع إلى تأييدها لكلامه، لكنها لم تبتسِم إليه أو تومئ برأسها علامة الموافقة. بدا وجهها في غاية الجدية، وعيناها شديدتا الثبات، وهما تنظران إليه. ثم تحركت عيناها والتقت بعينيّ، وتراءى لي أنهما تُعطياني أوامر بالتحرك.

قلتُ: «منذ ثلاث سنوات، يا سير والتر، جلستُ أنا وأنتَ في هذه الغرفة بعينها. كنا نرى أن أمرنا انتهى كما هو حالنا الآن. في ذلك الحين كان لدينا خيطٌ ضئيلٌ بائسٌ لنتشبّث به، وهو بضع كلماتٍ كتبها رجلٌ ميت في دفتره بخطٍّ سيئ. ظننتُني مجنونًا عندما طلبتُ منك دفتر سكادر، لكننا بذلنا غاية وسعنا، وفي غضون أربع وعشرين ساعةً نجحنا في مهمّتنا. هلّا تتذكر عندما كنا في سباقٍ مع الزمن. أما الآن فلدينا متسع من الوقت. حينها لم يكن لدينا إلا جملةٌ غير مفهومة. أما الآن فإننا نملك قدْراً كبيراً من المعلومات فقد كان بلنكيرون يتتبع تحركاته عن كثَب. لدينا أساسٌ قوي نستند إليه. أتريد أن تُخبرني أنك تريد الاستسلام وأنت تُدرك خطورةَ ما هو على المحك؟»

رفع ماكجليفراي رأسه. وقال: «نعلم الكثير عن أفري، لكن أفري ميت الآن. ولا ندري شيئًا عن الرجل الذي عاد إلى الحياة منتصراً هذا المساء في نورماندي.»

قلتُ: «بل نعرف الكثير من المعلومات عنه. لهذا الرجل وجوهٌ كثيرة، لكن لدَيه عقلٌ واحد، وأنتَ تعلم الكثير عن هذا العقل.»

قال سير والتر: «كيف للمرء أن يعرف عقلًا لا يُميزه سوى أنه فائقٌ مطلق القدرة؟ معرفتنا بقدراته العقلية لن تمنحنا أي دليل. إنما نريد أن نعرف خصائصَ الشخصية التي تستتِر خلف هذه الوجوه. والأهم من ذلك نحن بحاجةٍ إلى معرفة نقاط ضعفها. لو أننا نعرف أي معلومةٍ ولو ضئيلةً عن نقاط ضعفه، لربما استطعْنا وضع خطة.»

كلّما طال ذلك الجدال كان حماسي يزداد، فهتفتُ: «حسنًا، لنُسجِّل كل ما نعرفه عن أفري». وأخبرتُهم ببعض الإسهاب عن تلك الليلة في تلال كويلن، وعما سمعتُه من محادثة الرجلَين.

هناك اسمان كيليوس وبوميرتس. ذكرَهما الرجل في جملةٍ واحدة مع كلمة

ألفينباين التي تعني العاج بالألمانية؛ لذا لا بد أن لهما صلةً بعصابة أفري. يجب أن تُكلف جهاز مخابرات الحلفاء بمحاولة التوصُّل إلى معنى هذَين الاسمَين. ستصل إلى شيءٍ ما بالتأكيد! تذكَّر أنهما لا يتعلقان بشخصية أفري في حدِّ ذاتها، بل باللعبة الكبيرة التي تُدار من خلف كل هذه الأقنعة ... كما سمعتُ ذلك الحديث عن الطيور البرية وطيور الأقفاص. ليست لديَّ أدنى فكرة عن معنى هاتَين العبارتَين. لكنهما تُشيران إلى عصابةٍ لعينةٍ ما، ولا بد أنك ستجد بين أكوام السجلات الخاصة بك خيطًا يُجلِّي ذلك الغموض. أوكِل هذه المهمة لمُخابراتِ دول الحلفاء. لديك الموارد اللازمة، وأؤكد لك من خبرتي أنه لو عزَم رجلٌ وحيد على حلِّ معضلةٍ ما، فسيصل إلى نتيجةٍ ما حتمًا.»

بدأَت حماستي تُوقِد عزيمة ماكجليفراي. ظهرَت علاماتُ الاستغراق في التفكير على وجهه بعدما كان يغشاه اليأس.

قال: «ثمَّة احتمالٌ أن تُوصلَنا هذه المعلومات إلى شيءٍ ما، لكنه احتمالٌ ضئيل.»

قلتُ: «بالطبع هو احتمالٌ ضئيل، وهذا أقصى ما نتوقَّع من أفري. لكننا استغلَلْنا فرصةً ضئيلةً من قبل فأدّت بنا إلى الفوز ... كما أنه لديك كل ما تعرفه عن أفري. فتِّش ملفّه بدقة، وأراهنك أنك ستجد خيطًا يمكنك اتباعه. أنتَ يا بلنكيرون رجلٌ راجح العقل. اعترِف أن لدينا فرصةً معقولةً في الفوز.»

قال: «بالتأكيد يا ديك. لقد عقّد الأمور؛ لذا سنقابل عقباتٍ في طريقنا، لكننا سنزيلها بطريقةٍ ما. أما أنا فليس لي سوى هدفٍ واحدٍ في هذا العالم، وهو اقتفاءُ أثَر ذلك الجبانِ ومحوُه من على وجه الأرض. لقد أهانني مراتٍ عديدةً وأنا أريد أن أثأر لنفسي منه. كنتُ هدفًا سهلًا وقد استغل ذلك. أنا معك يا ديك.»

هتفتُ: «اتفقَنا إذن. حسنًا، أيها السادة، سأترك لكم ترتيب المرحلة الأولى. أمامكم كثيرٌ من العمل المكتبي كي تتوصّلوا إلى أثَرِ أفري.»

سأل سير والتر: «وماذا عنك؟»

أجبتُ: «سأعود إلى لوائي. أريد أن أنال قسطًا من الراحة وأُغيِّر الأجواء قليلًا. كما أن المرحلة الأولى عبارةٌ عن أعمالٍ مكتبيةٍ وأنا لا أُجيدها. لكني سأكون في انتظار استدعائي وسأعود بسرعة البرق ما إن تستدعونني. لديَّ حدْسٌ بشأن تلك المهمة. أعلم أن لها نهايةً وأنني سأتورّط فيها، كما أشعُر أنها ستكون دمويةً وبائسة.»

وجدتُ عينَي ماري مثبتتَين عليّ، وقرأتُ فيهما الشيء نفسه. لم تنطق كلمةً واحدة، لكنها كانت قد جلَست على حافة المقعد، تؤرجِح إحدى قدميها بذهنٍ شارد، فيما عبثَت يدُها بمروحةٍ مصنوعةٍ من العاج. لقد أعطَتني أوامري القديمة وتطلّعَت إليّ تؤيدني في خطتي الجديدة.

سألتُ: «أنتِ الأكثر حنكةً بيننا يا آنسة ماري. ما رأيك في هذا الكلام؟»

ابتسمَت ابتسامتها الودودة الخجولة التي ظلِلتُ أرسمُها في خيالي عَبْر رحلاتي طيلة الشهر الماضي.

قالت: «أراك مُحقًّا فيما تقوله. أمامنا طريقٌ طويل؛ لأن «وادي الاتضاع» يقع في منتصف طريق «سياحة المسيحي» تقريبًا. المرحلة التالية هي «سوق الأباطيل». قد أكون ذا نفعٍ في تلك المرحلة، ألا توافِقني الرأي؟»

أتذكّر الطريقةَ التي ضحكَت بها وألقت برأسها للخلف مثل فتًى مرح.

قالت: «الخطأ الذي قد ارتكبناه جميعًا هو افتقار طرائقنا للإبداع. نحن نُجابِه شاعرًا، لكنه ليس شاعرًا عاديًّا بل شاعرًا عظيمًا، ولا بد من أن نُوسّع حدود خيالنا كي نقدر على مُسايرته. تكمُن قوة عدوِّنا في قُدرته على الإتيان بما هو غير متوقّع كما تعلمون؛ لذا لن نغلبه بالطرق المألوفة. أرى أن أكثر مسارٍ يبتعِد عن المنطق هو أنجحُ مسارٍ لأنه في الغالب سيتقاطع مع ... مَن يتسم بالشاعرية بيننا؟»

قلتُ: «بيتر. لكنه لا يستطيع الحركة بسبب عرجٍ في ساقِه في ألمانيا. مع ذلك علينا إشراكه معنا.»

آنذاك كنّا نشعر بالبهجة جميعًا؛ فقد لاحت لنا إمكانيةُ فعل شيء، ولذلك تأثيرٌ تحفيزيٌّ عظيم. أحضَر رئيس الخدم الشاي؛ إذ كانت عادة بوليفانت شربَ الشاي بعد تناوُل العشاء. بالنسبة إليّ بدا المشهد خياليًّا؛ مشهد الفتاة الضئيلة وهي تصُب الشاي لموظفَين أشيبَين مرموقَين من موظفي الدولة وجنديٍّ مُنهَك — مثل عائلةٍ مهذبةٍ ينشرح لها القلب — لا سيما عند تخيُّل أن هؤلاء الأربعة منخرطون في مهمةٍ شديدة الأهمية تتضاءل أمامها حيواتُ الرجال.

بعد ذلك، ذهبنا إلى الطابق العلوي، إلى غرفةِ جلوسٍ فاخرةٍ على الطراز الجورجي، حيث عزفَت لنا ماري على البيانو. لا أعبأ على الإطلاق بالموسيقى الصادرة عن الآلات الموسيقية، إلا لو كانت مزاميرَ القربة أو الفرق العسكرية، لكني مولَع بالصوت

البشري. لكنها لم تكن ستغني؛ لأن الغناء بالنسبة إليها، حسبما أتخيل، أمرٌ لا يحدثُ بمحض إرادتها، بل ينساب من فمها مثلما تنساب الزقزقة العذبة من العصافير عندما تشعُر بالطرب. أنا أيضًا لم أرغب في أن تُغَني. قنعتُ بأن تكون «كرز لذيذ» الأغنية الوحيدة التي ترتبط بها في ذاكرتي.

كان ماكجليفراي مَن أعادنا إلى موضوعنا.

قال «أتمنى لو أن هناك نمط تفكير معينًا يُمكننا إسناده إليه دون سواه.» (في تلك اللحظة كان الضمير في «إليه» يحمل معنًى واحدًا بالنسبة لنا جميعًا.)

تحدّث بلنكيرون ببطء: «لا يمكنك مجابهة عقله. فلا يمكنك أن تفك رُبُط الجبار، كما يقول الكتاب المقدس، أو أن تصطاد اللوياثان بشص. خيّل إليّ أنني أستطيع، ودرستُ أساليبه عن قرب. لكن اللعين لم يثبُت في مكانه. اعتقدتُ أنني حاصرتُه بحيلةٍ مزدوجة، لكنه خدعَني بحيلةٍ ثلاثية. لن تنجح تلك الاستراتيجية معه.»

عاودَتْني ذكرى من ذكريات بيتر.

سألتُ: «ماذا عن استراتيجية البقعة العمياء؟» وأخبرتُهم بنظرية بيتر المُفضّلة. قلتُ: «كل مخلوق لدَيه نقطةُ ضعفٍ ما أو عيبٌ في الشخصية يترك رقعةً عمياءَ في عقله. يجبُ أن نعثر على ذلك العيب، وأرى أنني اتخذتُ الخطوة الأولى في هذا الصدد.»

سألني ماكجليفراي عن مقصدي بنبرةٍ حادة.

قلتُ: «إنه يخاف ... يخاف من شيءٍ ما. لا أقصد أنه جبان. فرجلٌ في مثل مهنته يحتاج إلى شجاعة أسدٍ. هو يتفوّق علينا جميعًا في شجاعته. ما أقصدُه هو أنه ليس مطلَق الشجاعة. هناك خوفٌ ما بداخله ... لقد فكّرتُ كثيرًا في مسألة الشجاعة هذه؛ لأنني نفسي لا أتحلى بقَدْرٍ كبيرٍ منها. أعني أنني لستُ شجاعًا بقَدْر بيتر. لديّ الكثير من مواطن الضعف. فأنا أخاف الموت غرقًا، أو أن أخسر عينيّ بطلقةٍ نارية. بالنسبة إلى أفري، فإنه يخاف أن يتعرّض للقصف بالقنابل في مدينةٍ كبيرة. ذات مرةٍ قرأتُ كتابًا يتحدّث عما يُسمى بالأجروفوبيا أو رُهاب الأماكن المكشوفة. ربما هذه هي نقطة ضعفه ... إذا أدركنا نقطة الضعف هذه، فستُساعدنا في بحثنا. فهناك بعض الأماكن التي لن يذهب إليها، كما أن هناك بعض الأشياء التي لا يستطيع القيام بها؛ أو لا يُحسنها على أية حال. أظن أن هذه المعلومات ستفيدنا.»

قال ماكجليفراي: «أجل، ربما لن تكون واضحةً وضوح الشمس.»

تابعتُ: «يُوجَد صدعٌ آخر في درعِه. فهناك شخصٌ واحد في العالم لا يُمكنه التنكُّر أمامه، هذا الشخص هو أنا. سأكشفه دائمًا، ولو تنكّر في شخصية السير دوجلاس هيج. لا أدري السبب، لكني أعرفُه بحَدْسي. لم أتعرّف عليه من قبلُ؛ لأنني خلتُه ميتًا، وذلك الحَدْس الداخلي الذي كان من المُفترَض أن يُنبِّهَني إليه كان مُتعطلًا. لكني في كامل اليقظة الآن، وصار حَدْسي يعمل بكامل قوّته. أينما وحيثما وكيفما تقابلنا من جديدٍ على سطح البسيطة، فسأتعرّف عليه على الفور.»

قال ماكجليفراي: «هذا أفضل. لو حالفنا الحظ يا هاناي، فلن نستغرق وقتًا طويلًا قبل أن نستدعِيَك من قُوات جلالته.»

نهضَت ماري من مقعدها أمام البيانو، وجثمَت على مسند مقعد السير والتر مثلما فعلَت من قبلُ.

قالت: «هناك منطقةٌ عمياءُ أخرى لم تتعرّض إلى ذكرها.» كان المساءُ مُعتدلَ البرودة، لكني لاحظتُ حُمرةً دبّت في خدّيها فجأة.

قالت: «لقد عرض السيد أفري عليّ الزواج الأسبوع الماضي.»

الجزء الثاني

الفصل الثاني عشر

أعود محاربًا

عُدتُ إلى فرنسا في الثالث عشر من شهر سبتمبر، وتقلّدتُ مقاليد الأمور في كتيبتي في التاسع عشر من الشهر نفسه. أُرسِلنا إلى غابة بوليجون في السادس والعشرين، وبعد أربعة أيام، حَمِي الوطيس وأصيب من بيننا الكثيرون فصَدَرَت الأوامر بانسحابنا لإعادة تنظيم الصفوف. في السابع من شهر أكتوبر، فُوجئتُ بمَنحِي قيادةَ فرقةٍ كاملة، وكنتُ على أعتابِ معركة إيبر في الأيام الأولى من شهر نوفمبر. من تلك الجبهة، دُفعنا في عُجالة إلى مدينة كامبريه لتقديم الدعم، لكننا ما وصلنا إلا في أثناء التداعيات الأخيرة لتلك المعركة الفريدة. سيطرنا على جزءٍ صغيرٍ من قطاع سانت كونتين حتى قبل عيد الميلاد المجيد، حيث حصَلْنا على فترةِ راحةٍ مؤقتةٍ في سكن الجند، استمرّت بالنسبة إليّ حتى بداية شهر يناير، عندما أُرسِلتُ في مهمةٍ سأقصُّ تفاصيلها في الحال.

هذا موجزٌ قصير لإنجازاتي العسكرية في الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٧. لن أُسهِب في الحديث عن القتال. ففيما عدا معركة غابة بوليجون، كان القتال غيرَ حامي الوطيس أو استثنائي، وتفاصيلُه مذكورة في كتب التاريخ. ما ينبغي أن أتعرض إليه هُنا هو مهمّتي السرية؛ لأنني طيلة هذا الوقت عشتُ مُشتّت الذهن. سواء أكنتُ أجُر قدميّ في مُستنقعات بلدة هانيبيك، أو أمكُث في خطوط الدعم الوحلة في بلدة زونبيك، أو أجتاز الهضاب المُتعرِّجة حول فليسكيير، وغيرها الكثير من الأماكن الغريبة، لم أتوقّف عن القلق بشأن معضلتي السرية. هذه المعضلة سلبَتْني النوم في الليل من فَرْط التفكير بها، وأفقدَتْني توازُني فسقطتُ في حُفر القذائف، وجعلَت قدمي تزلُّ من فوق ألواح اجتياز الوحل، في كثيرٍ من الأحيان؛ إذ كانت عيناي تريان منظرًا آخر. في تلك الشهور الكئيبة التي قضيتُها في منطقتَي فلاندرز وبيكاردي كنتُ أحاوِل باستماتهٍ تجميعَ أطرافِ خيوطٍ واهية.

كان بداخلي شعورٌ أن الوضع جدٌّ خطير، بل هو أخطرُ بكثيرٍ من المعركة التي أشهدُها. تدهورَت أوضاعُ روسيا بسرعةٍ كبيرة، وتلقّت إيطاليا ضربةً مباشرةً قويةً لم تُفِق من أثَرها بعدُ، وتضاءلَت فرصنُا نحن في النصر. ازداد الألمان ثقةً بأنفسهم، وكان

لهم كلُّ الحق في ذلك، وتوقّعتُ أن نمُر بوقتٍ عصيبٍ حتى تنضَم أمريكا لصفوفنا في ساحة القتال. كانت فرصةً ذهبيةً بالنسبة إلى «الطيور البرية»، وكنتُ أستيقظ وأنا أتصبّب عرقًا وأنا أحاوِل تخيُّل أي مكيدةٍ شريرةٍ يُدبِّرها لنا أفري. أظنُّ أنني أدّيتُ وظيفتي الأساسية على أكملِ وجهه، لكنني صببتُ جُل تفكيري في مهمّتي الأخرى. أتذكّر أنني كنتُ أراجع أحداث كل لحظةٍ مرّت عليّ منذ تلك الليلة من شهر يونيو في كوتسوولدز وحتى لقائي الأخير ببوليفانت في لندن، أحاوِل العثور على معنًى جديد. ولولا أنني مُضطَر إلى قضاء أغلب أيامي ولياليّ في معركةٍ ضاريةٍ مع الألمان الشديدي اليقظة، لأُصِبتُ بحُمى دماغية على الأغلب. حافَظ القتالُ على سلامة قُواي العقلية، بل أذهب إلى الاعتراف أنه شحذَها؛ لأنني في أثناء تلك الشهور كنتُ محظوظًا بالعثور على خيطٍ ما كان سيتوصّل إليه بوليفانت وماكجليفراي وبلنكيرون مع تسخير كل نفوذهم في مكاتبهم في لندن.

سأسردُ الأحداثَ العديدةَ المرتبطةَ بمهمّتي الخاصة حسب ترتيبها الزمني. الحادثة الأولى هي لقائي بجوردي هاميلتون. حدث ذلك بعد عودتي إلى اللواء مباشرة؛ حيث ذهبتُ لتفقُّد كتيبة البنادق الاسكتلندية. كان لواؤنا العتيق قد مرّ بتجربةٍ قاسيةٍ في ٣١ يوليو، واضطُر للحصول على كثيرٍ من التعزيزات كي يظلّ متماسكًا. كان أغلبُ أفراد كتيبة البنادق الاسكتلندية جُدُدًا؛ فقد تكوّنَت من انضمام ما تبقّى من أفراد كتيبتنا لما تبقّى من كتيبةٍ في تشكيلٍ آخر، بالإضافة إلى ما يقرُب من اثنَي عشر ضابطًا جُلِبوا من وحدة التدريب في أرض الوطن.

تفحّصتُ الجنودَ ووقعَت عيناي على وجهٍ مألوف. سألتُ عن اسمه، فحصل عليه العقيدُ من الرقيب الأول. عرفتُ أنه الجندي الأول جورج هاميلتون.

كنتُ بحاجةٍ إلى تعيين جنديٍّ مرسالٍ جديد، فقرّرتُ توظيف عدُوّي القديم في الحال. ذاك المساء جاءني ليتسلّم وظيفتَه في مقَر اللواء. وفيما كنتُ أنظر إليه بجسده المتين ذي الساقَين المُتقوستَين، وهو يقف في وضعية الانتباه مثل لافتةِ متجرِ تبغ، ووجهه القبيح المنحوت من خشب السنديان البُني، وفمه المُتجهم الصادق، وعينَيه المُحدِّقتَين في الفراغ، أدركتُ أنني عثَرتُ على رَجُلي المنشود.

قلتُ: «لقد تقابلنا من قبلُ يا هاميلتون.»

أجاب بنبرةٍ مُتحيرة: «سيدي؟»

قلتُ: «انظر إليّ يا رجل وأخبِرني إن كنتَ لا تعرفني.»

حرّك عينَيه حركةً خفيفة، وتفقّدني باحترام.

قال: «لا أعرفك يا سيدي.»

قلتُ: «حسنًا، سأُنعش ذاكرتك. أتذكُر تلك القاعة في شارع نيوميلنز واللقاء الذي أُجري هناك؟ خُضتَ شجارًا مع رجلٍ خارجها، وخرَرتَ صريعًا على الأرض.»

لم يُجب، لكن تغيّر لونُ وجهه.

أكملتُ: «وبعد تلك الحادثة بأسبوعَين، التقيت الرجل نفسه في حانة في مويرتاون، وطاردته مطاردةً عنيفة.»

لاحظتُه يُطبِق شفتَيه بشدة؛ إذ لا بد أن العقوبات التي فرضَتها اللوائح الملكية على جريمة التعرُّض لضابط بالضرب لاحت أمام وجهه. لكنه لم يتزَحزَح من مكانه.

قلتُ: «انظر إلى عينيّ مباشرةً يا رجل. هل تذكُرني الآن؟»

فعَل ما أمرتُه به.

أجاب: «أذكُركَ يا سيدي.»

سألتُ: «ألديك ما تضيفه؟»

ابتلع ريقَه. وقال: «لم أعلم أنني أضربُ ضابطًا يا سيدي.»

قلتُ: «لم تعرف بالطبع. لم تخطئ في تصرُّفك، ولو وضعَت الحرب أوزارها، وصرنا رجالًا أحرارًا، لتركتُكَ تأخُذ بثأرك على الفور. لكن لا مفَر من تأجيل ذلك لوقتٍ لاحق. عندما رأيتَني آخر مرة، كنتُ أخدمُ دولتي، لكنك لم تعلم ذلك. والآن سنخدمُ الدولة معًا، ولا بد أن تأخذ بثأرك من الألمان. سأجعلُك خادمي؛ إذ بيننا رابطةٌ قوية. ما رأيك؟»

نظر إلى عينيّ مباشرةً هذه المرة. وقيّمَتْني عيناه المضطربتان، فنلتُ استحسانه. قال: «أنا فخورٌ بخدمتك يا سيدي. ثم انبعثَت قهقهةٌ مكبوتةٌ من صدرِه ناسيًا قواعد الانضباط. واصَل: «يا لك من شابٍّ عظيم!» ثم استعاد رصانتَه على الفور، وأدّى التحية العسكرية، وانصرف بخطواتٍ ثابتة.

وقعَت الحادثةُ الثانيةُ في أثناء استراحتنا القصيرة بعد معركة غابة بوليجون، عندما سافرتُ بمحاذاة خط الجبهة على ظهر خيلٍ، لأزورَ أحد أصدقائي في كتيبة المدفعية الثقيلة. وبينما كنتُ عائدًا مساءً تحت الأمطار الخفيفة، تُصلصِل حوافرُ خيلي في

الطريق المعبّد بين أشجار الحور الحزينة، التقيتُ برفقةٍ من العمال يُعالجون التخريبَ الذي أحدثَتْه قنابل الألمان ذلك الصباح. لم أكن متأكدًا من الطريق، فسألتُ أحد العمال. اعتدَل في وقفته، وحيّاني، ورأيتُ من تحت القُبعة البالية ملامحَ الرجل الذي كان معي في ذلك التجويف في تلال كويلن.

تبادلتُ بضع كلماتٍ مع الرقيب المسئول، الذي أذن له بالمغادرة، فسار معي لمسافةٍ قصيرة.

سألتُ: «ويك، أيها الاسكتلندي العظيم، ما الذي أحضَركَ إلى هُنا بحق السماء؟»

أجاب: «الشيء نفسه الذي أحضَرك. هذه الحربُ الكريهة.»

كنتُ قد نزلتُ عن حصاني وبدأتُ السير بجواره، ولاحظتُ أن وجهَه النحيل قد ذهب عنه شحوبُه وعينَيه أقلُّ حُمرةً مما كانتا عليه في السابق.

حِرتُ فيما أقولُه، فعلّقت: «يبدو أن الحرب جعلَتك أحسن حالًا.» غشيَتني موجةٌ من الخجل على حين غرة. كنت أعلم أن ويك قد خاضَ صراعاتٍ نفسيةً عنيفة بلا شك قبل أن يتخذ هذا القرار. أدرك ويك ما كان يدور بخلَدي، فضحك بطريقته الساخرة اللاذعة.

قال: «لا تغتَر بنفسك لأنك أقنعتَني بتغيير موقفي. لا تزال أفكاري كما هي. لكني توصّلتُ في النهاية أنه إذا كان القدَر قد جعلني موظفًا حكوميًا، فلا مانع من تأدية واجبي في مكانٍ أقل راحةً من مقعد في وزارة الداخلية ... كلا، لم تكن مسألةَ تغيير مبادئ. فالأعمال كلها على القَدْر نفسه من القيمة، كما أنني ماهرٌ في الأعمال الإدارية أكثر من أعمال الحفر. كان الأمر معي عبارةً عن انغماسٍ في الملذّات؛ أردتُ أن أستنشِق هواءً منعشًا وأمارس نشاطًا بدنيًا.»

نظرتُ إليه وإذا هو مُغطّى بالوحل إلى خصره، ويداه مليئتان بالقُرَح والجروح نتيجة العمل اليدوي الذي لا تألفانه. أدركتُ قَدْر زملائه عنده، وكيف سيتفهّم تعنيفَ ضباطِ الصف له.

قلتُ: «يا لك من أحمقَ فاشل. لماذا لم تذهب إلى هيئة تدريب الضباط وخرجتَ برُتبة ضابطٍ مُكلّف؟ من السهل جدًا الحصول على هذه الرتبة.»

قال بمرارة: «أنتَ أخطأتَ في فهم موقفي. أنا لم أقتنع بعدالة الحرب فجأة. لا أزال أقف في المكان نفسه الذي وقفتُ فيه دائمًا. لستُ جنديًا، وأردتُ تغيير العمل المدني ...

لا ، لم تُرسلني محكمةٌ غبية إلى هُنا. أتيت بإرادتي الحرة، وأستمتع بوقتي غاية الاستمتاع.»

قلتُ: «هذه مهنةٌ قاسيةٌ لرجل مثلك.»

قال: «ليست في قسوة ما يتعرّض له الزملاء في الخنادق. شاهدتُ كتيبةً عائدةً من الخنادق اليوم، وبدا الجُند مثل أشباحٍ قضت سنواتٍ من أعمارها في قبورٍ موحِلة. كانت وجوهُهم شاحبة، وأعينُهم زائغة، وأقدامُهم ثقيلة في حركتها. مهنتي يسيرة. ويزداد حُبي لها عندما يسوء الجو. إنها تبعث فيّ شعورًا كاذبًا أنني أؤدي واجبي.»

أشرتُ برأسي إلى حفرةِ قذيفةٍ حديثة. وسألتُ: «هل يحدُث هذا كثيرًا؟»

أجاب: «من وقتٍ لآخر. تعرّضنا لقصفٍ شديدٍ هذا الصباح. لا يُمكنني القول إنني استمتعتُ به وقتَ حدوثه، لكني أحب أن أتأمّل فيه بعد انقضائه. أرى في ذلك مُسكّنًا أخلاقيًا من نوعٍ ما.»

سألتُ: «أتساءل كيف يراك بقية زملائك؟»

أجاب: «ليس لديهم انطباعٌ بعينه. لا أُحب الاختلاط بالآخرين. إنهم يرَونَني مزعجًا، وهذه هي حقيقتي. فأنا لا يروقني الحديثُ عن الخمر والنساء، أو الاستماع إلى الجراموفون، أو التذمُّر بشأن وجبتي الأخيرة. لكني في غاية الرضا. في بعض الأحيان، أجد بقعةً هادئةً في خيمة جمعية الشبان المسيحيين، فأجلس ومعي بضعةُ كتب. ابتلائي الرئيسي هو قسيس الكتيبة. كان يدرُس في جامعة كيبل عندما كنتُ أدرُس هناك، وكما يصف أحد زملائي، فإنه يريد أن يكون «ذا فائدةٍ كبيرة» ... ماذا تفعل يا هاناي؟ أرى أنك جنرالٌ نوعًا ما. يُوجَد الكثير من الجنرالات في هذه الأنحاء.»

قلتُ: «أنا جنرالٌ من نوعٍ ما. إن حياة المرابطين على الثغور ليست بالهيّنة، لكن لا أعتقدُ أنها شاقةٌ بقَدْر ما هي الحياة التي تحياها الآن بالنسبة لك. أتدري، يا ويك، ليتك كنتَ في لوائي. أنتَ جنديٌّ مقدامٌ جريء سواء تلقّيتَ التدريباتِ اللازمةَ أم لا.»

كانت ضحكتُه أقلّ حدةً من ضحكته المألوفة. قال: «كدتَ تقنعني أن أصير جنديًا محاربًا. لا، شكرًا لك. لا أتحلى بالشجاعة المطلوبة، بالإضافة إلى أن مبادئي الراسخة تتعارض مع ذلك. على أي حال، أُحب أن أكون قريبًا منك. أنتَ رجلٌ صالح، وتشرّفتُ بالمساعدة في تثقيفك ... يجب أن أعود وإلا ظنّ الرقيب أنني فررَتُ من الخدمة.»

تصافحنا، وكان آخر ما رأيتُه منه وهو يُلقي التحية برصانة، في الغسَق المُمطر.

كانت الحادثة الثالثة تافهةً جداً، لكن كانت نتائجُها في غاية الأهمية. قبل أن أتولى زمام أمور الفرقة الجديدة أصبتُ بالملاريا لفترةٍ قصيرة. كنّا نُقدّم الدعم على الثغر، في خنادقَ غير مريحةٍ تماماً خلف قرية ويلتشا، وقضيتُ ثلاثة أيام مُستلقياً على ظهري في أحد المخابئ. في الخارج، هبّت عاصفةٌ مُمطرة، وكانت المياه تسيل من وقتٍ لآخر من فوق الدرَج عَبْر ستار الغاز لتستقرّ في صورة برك صغيرةٍ عند قاعدة الفراش. لم يكن أفضلَ مكانٍ لأستردّ فيه عافيتي، لكني قاومتُ بشدة، وبحلول اليوم الثالث استعدتُ القدرة على الجلوس وبدأتُ أشعر بالسأم.

قرأتُ جميعَ الصحفِ الإنجليزية التي كانت بحوزتي مرتَين، بالإضافة إلى كَومةٍ كبيرةٍ من الجرائد الألمانية التي كنتُ أتلقّاها من صديقٍ يعمل في جهاز مخابرات القيادة العامة؛ إذ كان على علمٍ بمحبتي لمتابعة الأخبار الألمانية. فيما أنا أتناوَب بين النوم والصحو، كعادة من يتعافى من الحُمّى، جذب انتباهي إعلانٌ كبيرٌ في الصحافة البريطانية. كان إعلانًا لما أُطلق عليه «نظام جوسيتير للتنفُّس العميق»، وهو بحسب زعم صاحب الإعلان علاجٌ لجميع الأمراض العقلية والأخلاقية والجسدية التي يمكن أن تُصيب المرء. أدلى السياسيون والجنرالات والأدميرالات والموسيقيون بشهاداتهم عن الحياة الجديدة التي منحَها لهم. أتذكّر أنني تساءلتُ عما حصَل عليه هؤلاء الذين يتمتعون بالروح المرحة لقاء شهادتهم، وفكّرتُ في أن أكتب بنفسي رسالةً ساخرةً للعجوز جوسيتير.

بعد ذلك التقطتُ الصحف الألمانية، ووقعَت عيناي فجأةً على إعلانٍ من النوع نفسه في صحيفة «فرنكفورتر». لم يكن اسم صاحبه جوسيتير هذه المرة، بل وايزمان، لكن كانت لُعبتُه متطابقة، وهي «التنفُّس العميق». كانت الصياغة الألمانية تختلف عن البريطانية؛ إذ كانت تدور حول إلهة الصحة، وحوريات الجبال، واحتوَت اقتباسَين عن الشاعر والمؤلف الألماني شيلر. لكن كان المبدأ نفسه لم يختلف.

دفعَني ذلك إلى التأمُّل في الأمر، وتصفّحتُ مجموعة الصحف كلها بحرص. وجدتُ الإعلان في جريدة «فرنكفورتر» وفي جريدتَين أخريَين مغمورتَين، وهما «فولكسشتيما» و«فولكستسايتونج». كما عثَرتُ عليه في «دير جروس كريج»، وهي الصحيفة المصوَّرة الرسمية الدعائية في ألمانيا. تشابَه الإعلانُ في جميعها عدا صحيفة واحدة، كان الاختلاف فيه صريحاً؛ إذ احتوى على أربعِ جُمَلٍ مُستخدمةٍ في الإعلان الإنجليزي.

بدا لي ذلك مريباً، فشرعتُ في كتابة خطاب إلى ماكجليفراي، مشيراً إلى ذلك

الأمر الذي بدا لي تداولًا لمعلومات مع العدو، ونصحتُه بتتبُّع مصادر أموال السيد جوسيتير. فكّرتُ أنه قد يجد أنه مموَّلٌ من نقابةٍ ألمانيةٍ ما. ثم ما لبث أن خطرَت لي فكرةٌ أخرى جعلَتْني أعيد كتابة خطابي.

تصفّحتُ الجرائد مرةً أخرى. كانت الصحف البريطانية التي احتوت على الإعلان أبواقًا داعمة للحرب، راسخةً في موقفها، لا تشوبُها شائبة؛ إنها من النوع الذي لن تعترض أيٌّ جهةٍ رقابيةٍ على تصديره خارج البلاد. كانت أمامي حزمةٌ صغيرةٌ من الصحف المناصرة للسلام، ولم تشتمل أيٌّ منها على الإعلان. قد يكون ذلك بسبب ضعف مبيعاتها وقد يكون لا. أما الصحف الألمانية فقد كانت راديكاليةً أو اشتراكية، على عكس الصحف البريطانية، باستثناء «دير جروس كريج». نحن الآن لدَينا صحافةٌ حرة، أما الصحافة الألمانية، بدقيق العبارة، فلا تتمتّع بأي حرية. وكل الحماقات التي تنشرُها صحافتُها مُراقَبة بعناية. لذا فإن الألمان لا يعترضون على وصول جرائدهم المُبتذَلة إلى دول الأعداء. بل إنهم يريدون ذلك. إنهم يُحبون أن تُقتبس جرائدهم في الأعمدة البريطانية، تحت عنوان من قبيل «من منظور الألمان»، وكانوا يجعلون نصوصَ مقالاتهم تُظهِرهم في صورة الديمقراطيين الصالِحين.

انشغلتُ بالتفكير بهذا الموضوع حتى بدأَت تتشكل في عقلي استنتاجاتٌ محددة. بدا أن الجمل الأربع المتطابقة تُلمِّح إلى أن «التنفُّس العميق» شيءٌ له صلة بالألمان. نحن إزاء فرصة للتواصُل مع العدو بطريقةٍ تتحدى السادة اليقظين الذين يفحصون بريد الصحف. فما الذي قد يمنع السيد «س» في بريطانيا من كتابة إعلان يتضمّن رسالةً مكتوبةً بشفرةٍ مُحكَمة، ومن وصول الجريدة التي تحتوي تلك الرسالة إلى ألمانيا، من خلال هولندا في غضون ثلاثة أيام؟ بعد ذلك يردُّ عليها السيد «ص» في جريدة «فرنكفورتر»، وبعد بضعة أيام، يقرأ رسالتَه المحرِّرون المحنّكون وضباط المخابرات الثاقبو النظر والسيد «س» في لندن، لكن وحده السيد «س» من يفهَم مغزاها الحقيقي.

بدت فكرةً عبقرية، بل لن تَلفتَ انتباه الأذكياء من شدة بساطتها، ولن تَرِد على خاطر الألمان في الأغلب. لو لم أكن في وسط معركة، لرغبتُ في محاولة فك الشفرة بنفسي. كتبتُ رسالةً طويلةً إلى ماكجليفراي، طرحتُ فيها ما توصّلتُ إليه، ثم خلَدتُ إلى النوم. عندما استيقظت أحسستُ أن حُجتي واهية، ورغبتُ في التراجُع عن إرسال الخطاب، لكنه كان قد أُرسِل بالفعل مع مجموعة المؤن في الصباح الباكر.

بعد ذلك بدأَت الأحداث تتوالى بوتيرةٍ بطيئةٍ جداً. كانت الحادثة الأولى عندما ذهب

هاميلتون إلى مدينة بولوني لجلب بعض المؤن الغذائية وعاد بأخبارٍ مثيرةٍ للدهشة، وهي رؤيته لجريسون. لم يكن قد سمع باسمه من قبلُ، لكنه وصفه وصفًا دقيقًا بأنه «ذلك الشيطان ذو الرأس الصغير الأحمر، يا سيدي، الذي ركَل إيكي بروكي في ركبته يوم تلك الواقعة في جلاسكو.» فتعرّفتُ عليه من أوصافه.

خرج جريسون في نزهة بالعربة. كانت في رفقته مجموعةٌ من ممثلي حزب العمال، والتقَوا جميعًا بضابطَين أقلّاهم في عربتهما الطويلة. أبلغَني هاميلتون بعدما استفسَر من أصدقائه أن أولئك الزوّار يأتون أسبوعيًّا. رأيتُ ذلك إجراءً منطقيًّا جدًّا من جانب الحكومة، لكني شعَرتُ بالفضول حول كيفية اختيار جريسون. كنتُ قد تمنّيتُ لو أن ماكجليفراي استخدم نفوذَه وقبض عليه في الأسابيع الماضية. ربما لم يمتلكوا أدلةً كافيةً لشنقه، لكن أصابع الاتهام تُشير إليه بقوة؛ لذا كان من الأحرى اعتقاله.

بعد مرور أسبوع، اضطُررتُ إلى الذهاب إلى مقَر القيادة العامة، في شأنٍ يرتبط بفرقتي الجديدة. أذِن لي أصدقائي في جهاز المخابرات باستخدام خط الاتصال المباشر بلندن واتصلتُ بماكجليفراي. ولمدة عشرِ دقائقَ خُضنا محادثةً شائقة؛ إذ لم تصلني أيُّ أخبارٍ من تلك المجموعة منذ رحيلي عن إنجلترا. سمعتُ أن اليهودي البرتغالي تمكّن من الإفلات من قبضتهم؛ فعندما ذهبوا لإلقاء القبض عليه في مسقط رأسه كان قد اختفى. توصّلوا إلى هويته الحقيقية، وتبيّن أنه أستاذٌ جامعيٌّ ألمانيٌّ مُتخصص في اللغات الغيلية، وكان يتقلد كرسيًّا في جامعةٍ ويلزية؛ وأنه شخصٌ خطير؛ إذ كان مُتعصبًا عنيفًا، شديدَ التمسُّك بمبادئه. لم تكن لديهم أيُّ أدلةٍ تدين جريسون، لكنهم قرّروا وضعَه تحت المراقبة المُشدّدة. عندما استفسرتُ عن زيارته إلى فرنسا، أجاب ماكجليفراي أن هذا جزءٌ من خطّتهم. سألتُه إذا كانت زيارتُه منحَتْهم أيّ خيوط، لكن لم أتلقّ جوابًا؛ إذ كان من الضروري قطعُ الاتصال على الفور للاتصال بوزارة الدفاع.

فتّشتُ عن المسئول عن زيارات مُمثلي حزب العمال وصادقتُه. أخبرَني أن جريسون هو أكثر ضيفٍ شكور، خلوق، رزين. لقد ذرف الدموع عند حافة فيمي ريدج، وألقى خطابًا — مُعارضًا الأوامر بصورةٍ صريحة — أمام مجموعةٍ من الجنود التقى بهم في الطريق إلى آراس، أكّد فيه على دعاء حزب العمال البريطاني للجيش وكدحهم لصناعة الأسلحة. لكنه في اليوم الأخير، نزل به مكروه؛ إذ اعتلّت صحتُه بشدة في الطريق — فقد عانى من مرضٍ في الكُلى جعلَه لا يتحمّل ارتجاج العربة — واضطُرت جماعته إلى تركه في قريةٍ ثم حمله معها في طريق عودتها. وجدوا أن صحتَه قد تحسّنَت كثيرًا لكن كان لا يزال واهنًا. استجوبتُ الضابط المسئول عن تلك الواقعة، وعلمتُ أن

جريسون تُرك وحدَه في كوخ لأحد الفلاحين؛ إذ قال إنه بحاجةٍ إلى الاستلقاء فحسب. كان ذلك في قرية «أوكور سانت آن».

ظلّ ذلك الاسم ملتصقًا بذاكرتي عدة أسابيع. كان له وقعٌ لطيف جذّاب على الأذن، وتساءلتُ عما فعله جريسون في تلك الساعات. بحثتُ عن تلك البقعة في الخريطة، ووعدتُ نفسي بزيارتها في الاستراحة القادمة. ثم نسيتُ الاسم حتى ذُكر أمامي مرةً أخرى.

في الثالث والعشرين من شهر أكتوبر تعثّر حظي، في أثناء تفقّد خنادق خط الجبهة، وأُصبتُ بشظيةٍ صغيرةٍ من قذيفة في رأسي. كان الجو خانقًا ضبابيًّا، وكنتُ قد نزعتُ خُوذتي الفولاذية لأمسح جبيني، عندما حدث ذلك. خلّفَت الشظية جرحًا طويلًا سطحيًّا في فروة الرأس، ليست به خطورة، لكنه تسبّب في نزيفٍ شديد، ولأننا لم نكن نستعد لأي تحركٍ كبير، أرسلني المسئول الطبي إلى محطة الإخلاء لتلقّي العناية اللازمة. قضيتُ ثلاثة أيام في ذلك المكان في صحةٍ وافرة، وحظيتُ بفرصة تفقّد الأرجاء من حولي والتفكّر فيما يحدث؛ لذا أتذكّر ذلك الوقت بأنه استراحةٌ هادئةٌ غريبةٌ وسط جلبة الحرب اللعينة. لكنني أتذكّر كيف هبّت رياحٌ شديدة، في ليلتي الأخيرة، رجّت المصابيح وهزّتها، وأحالت جدران الخيم الخضراء المائلة للرمادي إلى كومةٍ من الظلال المُتبقّعة. أما الأرضيات المكسُوّة بالقماش فكانت موحلةً من خُطى العاملين، فيما يُدخلون المُصابين القادمين في تقاطرٍ مُستمرّ من الجبهة. لم تكن هناك إصاباتٌ حرجةٌ في خيمتي حينئذٍ، باستثناء فتًى فقد نصف كتفه بقذيفةٍ صغيرةِ العيار، وكان يستلقي تحت تأثير المُخدّر في زاويةٍ بعيدة. كانت أغلب الحالات مصابةً بالإنفلونزا، والالتهاب الشُّعَبي الحاد، وحُمّى الخنادق في انتظار نقلها إلى القاعدة أو هي تتماثل للشفاء وعلى وشك العودة إلى وحداتها العسكرية.

تناولَت مجموعتُنا الصغيرةُ طعام العَشاء المكوّن من الفراخ المعلّبة والفواكه المطهية على البخار والجبن التمويني، حول موقدٍ ينبعث منه الدخان، فيما شكّل حاجزان مصنوعان من صناديق التعبئة بعضَ الحماية من تياراتٍ هوائية اجتاحت الخيمة مثل الزوابع القوية. كان هناك رجلٌ واحدٌ يقرأ كتابًا بعنوان «قصص مُرعبة يَرويها جامعُ تُحَف»، وتحوّل الحديث إلى المواقف غير القابلة للتفسير التي يُقابلها المرء في حياته مرةً أو مرتَين. أسهمتُ بقصة عن رجالٍ ذهبوا للبحث عن كنز كروجر في بوشفيلد (السافانا المُشجّرة في جنوب أفريقيا) وأرعَبهم ظبيٌ أفريقيٌّ أخضرُ اللون. إنها حكايةٌ مُثيرةٌ سأكتُب عنها في يومٍ من الأيام. وحكى رجلٌ طويلٌ من سكان المرتفعات

الاسكتلندية — يلبس نعلَين في قدمَيه ويضعهما فوق الموقد، وتتكوّن ملابسُه من تنورةٍ اسكتلنديةٍ ورداء الأطباء البريطانيين الرمادي الدفئ وأربعة جوارب — قصةً عن فوج المشاة الاسكتلندي في معركة إيبر الأولى، وعن ضابطٍ من المُنخفضات لا يعرف اللغة الغيلية لكنه فجأةً وجد نفسه يُشجِّع رجاله بالحكايات القديمة الساذجة لسكّان المرتفعات. كان الرجل المسكين يُعاني من سُعالٍ شُعبيٍّ شديد، مما يُشير إلى أن دولتَه قد تستخدمُه في ميادين قتالٍ أكثر دفئًا من مقاطعة فلاندرز. بدا دارسًا من نوعٍ ما؛ إذ شرح مسألة فوج المشاة الاسكتلندي مُستخدمًا الكثير من المصطلحات الطويلة.

أتذكّر كيف تشعّبَت الأحاديثُ كما هو معهود في حالة الفراغ والتفكير بشأن المستقبل. لم أُعِرْهُم الكثير من الاهتمام؛ لأنني كنتُ أفكِّر طويلًا في تعديلٍ نَويتُ إجراءه على قيادات الكتائب تحت إمرتي، عندما قطع الحديثَ صوتٌ جديد. كان هذا صوتَ نقيبٍ كندي من مدينة وينيبيج، كان رجلًا كثير الصمت يُدخِّن تبغًا من نوعٍ قوي.

قال: «هناك الكثير من الأشباح في هذا البلد اللعين.»

وبدأ يحكي ما حلّ به عندما نزلَت فرقتُه للاستراحة في سكن الجُند في المرة الأخيرة. كان قد عُيِّن ضابطَ ركنٍ للفرقة، واضطُر للإقامة مع قادتها في قلعةٍ فرنسيةٍ قديمة. أقاموا في جزءٍ صغيرٍ من القلعة، فيما كانت بقية الأجزاء مُغلقة، لكن كان من الصعب أن يجد المرء طريقه في الممرات، حتى إنه كان كثيراً ما يتوه فيجد نفسه في تلك الأجزاء المُغلَقة من القصر. وفي ليلة من الليالي — وفقًا لحكايته — استيقظ من النوم من شدة العطش، ولأنه لا يريد الإصابة بالكوليرا من شُرب ماء الصنبور في غرفة نومه، اتجه صوب الغرفة التي تناولوا فيها الطعام سابقًا، على أمل أن يجد بعض الويسكي أو الصودا. لكنه لم يجد الغرفة على الرغم من معرفته الطريقَ المؤديَ إليها عن ظهر قلب. أقرّ باحتمالية اتخاذه المنعطف الخطأ، لكنه كان يراها احتماليةً بعيدة. على أي حال، دخل ممرًا لم يرَه من قبلُ، ولأنه لم يكن معه شمعة، حاول العودة من حيثُ أتى. ومرةً أخرى أخطأ في الطريق، وتلمّس طريقه حتى رأى شعاعَ ضوءٍ خفيفًا، ففكّر أنه منبعث من غرفة رئيس الأركان، وهو شخصٌ صالح، تجمعه به صداقةٌ وطيدة. لذا دخل الغرفة، فوجد صالةً كبيرةً معتمة — فيها شخصان بينهما شمعةٌ مشتعلة — تفوح في جنباتها رائحةٌ كريهةٌ غريبة. تقدّم خطوةً للأمام، فرأى أن هذَين الشخصَين لا وجه لهما. فارتعدَت أوصاله، وانطلقَت من حنجرته صرخةٌ مُدوية. ركض أحدهما ناحيته، وانطفأ المصباح، واختنق حلقُه بتلك الرائحة البغيضة فجأة. ولا يعرف ما حدث بعد

ذلك حتى استيقظ في فراشه في صباح اليوم التالي بصُداعٍ حاد. قال إنه حصل على إذنٍ من الجنرال وتفقّد جميع الأجزاء المغلقة من القلعة، لكنه لم يعثُر على الغرفة. كان الغبار الكثيف يُغَطِّي كل شيء، ولم يجد أي آثارٍ بشريةٍ حديثة.

هذه هي القصة كما حكاها بنبرته البطيئة. قال: «أرى أن ما حدث قصةٌ حقيقيةٌ عن الأشباح. لا تُصدّقونني وتظنون أنني كنتُ ثملًا، أليس كذلك؟ لم أكن ثملًا. لم يُصنع بعدُ شرابٌ كحوليٌّ يُفقِدني الوعي لهذه الدرجة. لقد عثرتُ على شَقٍّ في الستار بيننا وبين العالم الآخر واسترقتُ النظر خلاله. ربما يحدُث هذا لكم يا شباب في يومٍ من الأيام.»

بدأ جنديٌّ المُرتفعات يتجادل معه، ولم أعُد مهتمًا بالمحادثة. لكنّ عبارةً واحدةً بعينها جذبَت انتباهي. قال: «سأُخبرك باسم المكان اللعين، وعندما تذهبُ إلى هناك في المرة القادمة، تحقّق من ذلك بنفسك. هذا المكان يُسمّى قلعة أوكور سانت آن، وهي على بُعد حوالي سبعةِ كيلومتراتٍ من دوفركورت. لو كنتُ سأشتري عقارًا في تلك الدولة، أظن أنني سأتجنّب هذا الموقع تمامًا.»

بعد ذلك، مررتُ بشهرٍ عصيبٍ بسبب ختام معركة إيبر الثالثة والتحرك السريع ناحية مدينة كامبريه. بحلول منتصف شهر ديسمبر، استقرّت أوضاع فرقتنا نسبيًا، لكن الجبهة التي نزلنا بها لم تكن من اختيارنا، وكان لازمًا علينا مراقبةُ تحركات الألمان بحرص. كانت مهمةً مرهقة، ولم يكن لديّ مُتسع من الوقت للتفكير في أي شيءٍ ما عدا المعلومات الاستخباراتية ذات الشأن العسكري مثل جمع معلومات عن الوحدات العسكرية الألمانية من استجواب الأسرى، وتنظيم غاراتٍ صغيرة النطاق، وإشغال الفيلق الجوي الملكي. كنتُ مولَعًا بالأمر الأخير، وقمتُ بالعديد من الرحلات فوق خطوط العدو بصحبة آرشي رويلانس الذي تحقّق له ما أراد، وحملَه حظُّه السعيد إلى السِّرب العسكري المُتمركز خلف فرقتي. لا أتحدّث كثيرًا في هذا الشأن؛ لأن القيادة العامة لم تكن تُشجّع جنرالاتِ الفرق على ممارسة مثل هذه الطرائق، على الرغم من أن قائدًا عسكريًا ذائع الصيت اتخذَها هوايةً له. في إحدى هذه الرحلات، وقعَت حادثةٌ أنهت فترة الانتظار، وأعادتني إلى المهمة الكبرى.

ذات يومٍ مملٍّ في شهر ديسمبر، بعد الغَداء، انطلقتُ وآرشي في رحلةٍ استطلاعية. تعرفون كيف أن الضباب في بيكاردي ينبعث فجأةً من الأرض ويلفُّ المنحدرات كالوشاح. كان هذا ما حدث تلك المرة. كنا قد عبَرنا الجبهة، وحلّقنا على ارتفاعٍ عالٍ، وتلقّينا التحيةَ المعهودةَ من مضادات الطائرات الألمانية. بعد مِيلٍ أو مِيلَين، بدا

كأن الأرض تصعد إلينا دون أن ننزل إليها، وسرعان ما وجدنا أنفسنا وسط ضبابٍ بارد. غُصنا في الضباب اللعين لآلاف الأقدام، لكنه ما برح يزداد كثافة، حتى لم نستطع رؤية مَعْلم من أي نوع حولنا. فكّرتُ لو أننا واصلنا على هذه النحو، فسنرتطم بشجرة أو برج كنيسةٍ ونصير هدفًا سهلًا للعدو.

لا بد أن الفكرة نفسَها خطرت لآرشي؛ لأنه ارتفع بالطائرة مرةً أخرى. دخلنا في منطقةٍ شديدة البرودة، لكن لم يصفُ الجوُّ من الضباب على الإطلاق. وعليه، قرّر آرشي العودة، وطلب مني أن أُحدد المسار على الخريطة وفقًا للبوصلة. لم تكن مهمةً سهلةً كما بدت، لكن كانت لديّ فكرةٌ تقريبيةٌ حول السرعة التي حلّقَت بها الطائرة منذ عبورنا الجبهة، كما كنتُ أعلم المسار الأصلي، فبذلتُ أفضلَ ما بوسعي بهذه المعلومات. واصلنا التحليق قليلًا، ثم بدأ الشك يتسلل داخلي. وشاركَني آرشي الشعور نفسه. حلقنا على ارتفاعٍ منخفض، لكننا لم نسمع تلك الجلبة التي دائمًا ما تُسمَع على بُعد ميل على جانبَي الجبهة. كانت الأجواء غريبةً وهادئةً تمامًا إلى درجة أنني وآرشي كنا نستطيع التحدُّث عَبْر أنبوب التخاطب.

صاح: «فقدنا مسار هذه المعركة اللعينة.»

قلتُ: «أظن أن بوصلتك القديمة التالفة ضلّلَتْنا.»

قررنا أنه لا فائدة من تغيير اتجاهنا، لذا واصلنا التقدم في مسارنا. شعَرتُ بتوتُّرٍ بالغٍ، على الأرجح بسبب الهدوء السائد. فهذا ليس مألوفًا بالمرة وسط ميدان القتال ... تفقّدتُ البوصلة بحرص ورأيتُ أنها معطّلة حقًّا. لا بد أن آرشي أتلفَها في رحلةٍ سابقةٍ ونسي تغييرها.

أشرتُ إلى هذه الحقيقة، فارتسمَت ملامحُ الرعب على وجهه.

قال بصوتٍ مبحوحٍ من البرد الشديد: «يا إلهي! إما أننا في أطراف مدينة كاليه أو بالقُرب من باريس أو أوغلنا خلف خطوط العدو. ماذا نفعل بحقّ الجحيم؟»

لزيادة الطين بِلّة، عطِبَ محرّك الطائرة. تكرَّرَت حادثة مروج يوركشاير نفسها، وكأن تلك من سمات طائرات «شارك جلاداس». لكن أتت النهايةُ بسرعةٍ هذه المرة. هوَينا بسرعةٍ بالغة، ولاحظتُ من تشبُّث آرشي بمقبض التحكُّم أنه سيُواجه مشقةً كبيرةً لإنقاذ رُوحَينا. وقد فعل، لكننا كنا قابَ قوسَين أو أدنى من الموت؛ إذ هوَينا إلى حافة حقلٍ محروثٍ بعدما ارتطمنا عدة مراتٍ ما أدى إلى اصطكاك أسناني بقوة في فكّي. كان الضباب لا يزال كثيفًا محملًا بالرذاذ، فزحَفنا خارج الطائرة القديمة، وركَضْنا باحثَين

عن مخبأ مثل أرنبَين مذعورَين.

احتمَيْنا بمنطقةٍ شجريةٍ صغيرةٍ محجوبةٍ عن الرياح.

قال آرشي بجدية: «أرى أننا في أطراف بلدة كاتو الفرنسية. تُرك تيم ويلبراهام هُنا في أثناء الانسحاب، واستغرق تسعة شهور للوصول إلى الجبهة الألمانية. وهذا احتمالٌ مريعٌ يا سيدي.»

خرجتُ من مخبئي لاستطلاع المكان. وجدتُ طريقًا سريعًا في الجانب الآخر من الغابة، وكان الضباب يحجُب كل الأصوات، ما جعل من المُستحيل الانتباه لوجود المارة حتى رؤية وجوهم ... وكان أول مَن رأيتُه جعلَني أنبطح أرضًا في المخبأ ... لأنه كان جنديًا ألمانيًا، يرتدي زيًا عسكريًا رماديًا، وطاقية، وشريطةً حمراءَ وغيرها من علامات الزي الألماني، كما يحمل معِولًا صغيرًا على كتفه.

بعد أن فكّرتُ في الأمر مرةً ثانية، أدركتُ أن ما رأيتُه ليس دليلًا قاطعًا. فقد يكون الرجل أحد أسرانا. لكن ليس هناك مجالٌ للمخاطرة. عُدت إلى آرشي، ثم عبَرْنا معًا الحقلَ المحروث، وبلغنا الطريقَ القابع خلفه. هناك رأينا عربةَ مزارع تركبها امرأةٌ وطفل. بدَوَا فرنسيَّين، لكن كان على وجههما مَسْحةُ الحزن المعهودة في سكان المناطق الريفية الواقعة تحت احتلال العدو.

ثم وصلنا إلى سورِ حديقةِ منزلٍ كبير، ورأينا كوخًا غيرَ واضح المعالم. هُنا، عاجلًا أو آجلًا، سنعلَم موقعنا على وجه اليقين؛ لذا تكوّمنا وارتجفنا بين أشجار الحور المحاذية للطريق. لا يبدو أن أحدًا خارج بيته في فترة ما بعد الظهيرة ذلك اليوم. ظلّت المنطقة ساكنةً كالقبر لمدة رُبع ساعة. ثم سمعنا صوتَ صفيرٍ وخطواتٍ مكتومة.

قال آرشي مبتهجًا: «هذا رجلٌ إنجليزي. لا يُحدِث ألمانيٌّ مثل هذه الضوضاء القبيحة.»

كان مُحقًا في كلامه. فقد انبثق من وسط الضباب جنديٌّ من فيلق خدمة الجيش الملكي، كانت على مؤخرة رأسه قبعةٌ مائلة، وكان يمشي مشية رجلٍ حُر واضعًا يدَيه في جيبَيه. ما رأيتُ من قبلُ منظرًا يسُر العين أكثر من منظر تاجر المُربّى ذاك.

وقفنا وألقينا التحية على الرجل. صحتُ سائلًا: «ما هذا المكان؟»

رفع يدًا متسخةً إلى ناصيته.

قال: «أوكور سانت آن يا سيدي. عذراً، يا سيدي، لكن هل أنت مصاب؟»

بعد عشرِ دقائق، كنتُ أتناول الشاي في غرفة طعام ورشةٍ لصيانة المركبات الآلية تعُمها الفوضى، فيما ذهب آرشي إلى مركز الاتصالات لطلب سيارة وإعطاء تعليماته بشأن طائرته الحبيبة. كان الظلام قد حلّ على المكان تقريباً، لكني تجرّعتُ الشاي بسرعة، وخرجتُ مسرعًا إلى الغسَق الضبابي. إذ أردتُ تفقّد القلعة.

وجدتُ مدخلًا كبيراً مُزيناً بأعمدةٍ حجريةٍ شاهقة الارتفاع، لكن كانت البوابات الحديدية مغلقة، وبدت كأنها لم تُفتح منذ أمدٍ بعيد. ولأنني على درايةٍ بمثل هذه الأماكن، بحثتُ عن ممَرٍّ جانبي، وعثَرتُ على طريقٍ موحلٍ يُفضي إلى الجزء الخلفي للقلعة. كان من الواضح أن المدخل الأمامي يؤدي إلى ما يُشبه الحديقة، وأما الجزء الخلفي فاستقرّت فيه مجموعةٌ من المباني الفرعية، وخندقٌ مائي، بدا شديدَ العُمق والسواد في غسَق تلك الليلة الشتوية. كما كان هناك جسرٌ حجريٌّ يعبُر الخندق المائي وينتهي عند بابٍ.

كان واضحاً أن القلعة غيرُ مُستخدَمة في إيواء الجند. فلم تكن هناك أي علامةٍ على وجود جنودٍ بريطانيين؛ أو وجود بشرٍ على الإطلاق. تسلّلتُ عَبْر الضباب بهدوءٍ شديدٍ كأنني أسير على قماشٍ مخملي، حتى إنني لم أسمع وَقْع خطواتي على الأرض. تذكّرتُ قصة الأشباح التي حكاها الكندي وتوصّلتُ إلى أنني سأتخيل مثل هذه الأشياء لو عشتُ في هذه القلعة.

كان الباب موصداً بمزلاجٍ وقفلٍ. فالتففتُ حول الخندق المائي، على أمَل أن أصل إلى مقدمة القلعة، التي على الأرجح لها تصميمٌ عصري ومدخلٌ حضاري. لا بد أن شخصاً موجودٌ في القصر بداخلها؛ إذ انبعث دخانٌ من إحدى مداخنه. وسرعان ما انحسر الخندق، ليفسح المجال لطريقٍ مُعبّدٍ حجَري، لكن سد طريقي جدارٌ يتقاطع مع القصر بزاويةٍ قائمة. خطر لي لوهلةٍ أن أعود أدراجي وأطرُق الباب، لكن عدلتُ عن ذلك لأن جنرالات الفرق لا يزورون القلاع المهجورة بلا حُجةٍ معقولة. سأبدو أحمقَ بلا شك في نظر البوّاب العجوز. كان ضوء النهار قد خبا تقريباً، ولم أرغب في أن أتلمّس طريقي في أرجاء القصر على ضوء شمعة.

لكني تلهفتُ لرؤية ما خلف الجدار؛ تملّكَتني إحدى تلك النزوات التي تتغلب على الرجال المتّصفين برجاحة العقل. دحرجتُ برميلَ ماء بالٍ إلى أسفل الجدار، وحاولتُ الوقوف على أضلاعه المتعفّنة في توازنٍ حَذِر. مكّنَني ذلك من التشبُّث بقمة الجدار المستوية القرميدية، فرفعتُ جسدي للأعلى.

نظرتُ إلى فناءٍ صغيرٍ له جدارٌ آخرُ يحجُب الحديقة تمامًا. على يمين الفِناء قبَع القصر، وعلى يساره المزيد من الأبنية الخارجية؛ لم تَزِد مساحةُ المكان عن عشرين ياردةً في كلا الجانبَين. كنتُ أوشك أن أعود من حيث أتيت — إذ كان الجو باردًا على نحوٍ غيرِ معهودٍ في مكمني المرتفع على الرغم من معطف الفِراء الذي كنتُ أرتديه — عندما سمعتُ صوت دورانِ مفتاحٍ في قفل باب جدار القلعة، أسفلي مباشرة.

سطع ضوءٌ باهتٌ لمصباحٍ وسط الظلام الضبابي. لاحظتُ أن حامل المصباح امرأةٌ عجوزٌ حدباءُ الظهر مثل غالبية فلاحي فرنسا. كانت المرأة تُمسك حقيبةً جلديةً في يدها، وتتحرك بهدوءٍ شديد، فرجّحتُ أنها ترتدي حذاءً مطاطيًّا. كان المصباح على ارتفاع رأسها نفسه، فأضاء صفحةَ وجهها. هالَني وجهُها من شدة قبحه؛ إذ كانت هناك ندبةٌ كبيرةٌ شوّهَت الجبهة وشدّت الحاجبَين إلى الأعلى، فبدا مثل قناع صيني شيطاني.

قطعَت المرأة الفِناء بخطواتٍ خفيفةٍ بطيئة، تحمل الحقيبة بحذَرٍ شديدٍ كأنها تحمل رضيعَها. في النهاية وقفَت عند باب أحد الأبنية الخارجية، وأنزلَت المصباح وحمولتَها الثقيلةَ على الأرض. ومن وِزرتها أخرجَت ما يُشبه قناع غاز، ووضعَتْه على رأسها. كما ارتدَت قفازَين واقيَين. بعد ذلك فتحت الباب، وتناولت المصباح، واختفَت بالداخل. سمعتُ المفتاح يدور في القفل خلفها.

سرت قُشَعريرة في جسدي وأنا رابضٌ على ذلك السور. فمنذ لحظةٍ رأيتُ لمحةً للشبح الذي تحدث عنه الكابتن الكندي. منظر هذه العجوز الشمطاء، التي تُشبه بغطاء رأسِها أفعى سامة، أصابني بالغثيان. فقفزتُ من فوق الجدار، وركضتُ — أجل، ركضتُ حتى بلغت الطريق السريع، ورأيتُ المصابيح الأمامية المبهجة لعربة نقل، وسمعتُ حديثَ الجندي البريطاني. أعادني ذلك إلى رشدي، وبعث فيّ شعورًا بالحماقة.

في أثناء عودتي إلى الجبهة مع آرشي، شعَرتُ بالخزي من الجبن الذي انتابني. حدّثتُ نفسي أنني ما رأيتُ إلا امرأةً قرويةً عجوزًا في طريقها إلى إطعام فراخها. أقنعتُ عقلي، لكن ما أفلحتُ في إقناع حَدْسي. ظل رُعبي اللامعقول من ذلك المكان يُلازمني، ولا سبيل لاستعادة احترامي لذاتي إلا بالعزم على العودة وتفتيش كل زاويةٍ من زواياه.

الفصل الثالث عشر

مغامرة قلعة بيكاردي

بحثتُ عن أوكور سانت آن على الخريطة، وكلما دقّقتُ في موقعها، أثارت قلقي أكثر. كانت ملتقى الطرق الرئيسية المُفضية إلى جبهتنا في منطقة بيكاردي. لو نجح الألمان في اختراق دفاعاتنا، فستكون هي الهدف الأول للمشير هيندنبرج العجوز. فقواتُنا وقطاراتُ الشحن تمرٌ من تلك القرية الصغيرة العديمة الأهمية طيلةَ الوقت. ويتردّد الجنرالات الرفيعو الشأن وضباط أركانهم على محيط القلعة بصفةٍ يومية. فهو محطةٌ مناسبةٌ للكتائب العائدة من أجل الراحة. وفي اعتقادي لو أراد أعداؤنا نقطةً محوريةً يوجِّهون فيها ضربةً لمعنويات الجيش البريطاني أو انضباطه أو سلامته، ما وجدوا ما هو أفضل من أوكور سانت آن. إنها المركز المثالي لممارسةِ أنشطةِ الجاسوسية. لكن عندما عبّرتُ عن مخاوفي لأصدقائي في المخابرات بحذَر، لمَ يبدُوا قلقين بشأن هذه المنطقة.

منحَني أصدقائي تصريحًا بمخاطبة السلطات الفرنسية المحلية، وما إن خرجَت فرقتي من الجبهة، في نهاية شهر ديسمبر، حتى اتجهتُ لبلدة دوفركورت الريفية مباشرة. لحسن الحظ نزلَت الفرقة في مساكنَ عسكريةٍ بالجوار تقريبًا. أجريتُ لقاءً مع ضابط رفيع الشأن — ذي زيٍّ أسودَ وقفازَين أسْوَدَين من جلد الماعز — تلقّاني ببشاشة ثم وضع محفوظاته وسجلاته في خدمتي. صرتُ أتحدث الفرنسية بطلاقةٍ نظرًا لمهارتي اللغوية الفطرية، لكني لم أفهم نصفَ كلامِ نائب حاكم المقاطعة الذي كان يتحدّث بسرعة. في نهاية المطاف تركَني مع الأوراق وموظف، وشرعتُ في التنقيب في تاريخ القصر.

تعودُ القلعة إلى عائلة دي أوكور النبيلة منذ قبل معركة أجينكور بسنواتٍ طويلة، وتمثّل العائلة الآن زوجةُ ماركيز، عجوزٌ تعيش في بلدة بياريتز. لم تسكن هذه المرأة في القلعة التي ظلّت خاويةً على عُروشها حتى استأجرها رجلٌ أمريكيٌّ غنيٌّ ورمّمها جزئيًا منذ اثنتَي عشْرةَ سنة. لكنه سرعان ما ضجر منها — إذ تزوّجَت ابنته بضابطٍ وغد من سلاح الفرسان الفرنسي، بينهما خلاف حسبما قال الموظف — ومنذ ذلك

الوقت توالى العديد من المُستأجِرين على القلعة. تعجّبتُ أن مثل هذه القلعة غير الجذابة عليها مثلُ هذا الإقبال من المستأجرين، لكن الموظّف شرح لي أن السبب هو صيدُ طيور الحجل. فهي أفضلُ مكانٍ لصيد الحجل في فرنسا، وفي عام ١٩١٢ حُطِّمَت الأرقام القياسية في عدد الطيور المُصطادة.

كانت أمامي قائمةٌ بأسماء المستأجرين. وجدتُ أن أمريكيًا آخر استأجر القلعة، ورجلًا إنجليزيًا اسمه هالفورد، ومصرفيًا يهوديًا باريسيًا، وأميرًا مصريًا. لكن كانت خانة اسم المستأجر لعام ١٩١٣ خاوية، فسألتُ الموظف. أخبَرني أن صاحبَ مصنعِ صوفٍ من مدينة لِيل استأجرها في تلك الفترة، لكنه لم يصطَد طيور الحجل أبدًا، إنما كان يبيت في القلعة من حين لآخر. وقد استأجر القلعة لمدة خمس سنوات، ولا يزال يدفع إيجارها لزوجة الماركيز. استفسرتُ عن اسمه، لكنه كان قد نسيه. قال: «ستجده مُدرجًا في القائمة.»

قلتُ: «كلّا، ليس مُدرجًا. لا بد أن شخصًا أسقَط اسمَه من القائمة. لا يُوجَد أي اسمٍ مسجّل بعد سنة ١٩١٢.»

تفحّص الموظف الصفحة في دهشة. قال: «لقد أسقطَه أحدهم سهوًا بلا ريب. لا بد أنه لويس الذي يخدم الآن في سلاح المدفعية في مقاطعة شامبانيا. لكنك ستجد اسم ذلك المستأجر في قائمة مسئول المؤن. إنه اسمٌ بدا لي فلمنكيًا حسبما أذكر.»

خرج الموظف بخطًى متثاقلة، وعاد بعد خمس دقائق.

قال: «بوميرتس؛ اسمه جاك بوميرتس. كان شابًا غير متزوج، لكنه ثري، ثريٌّ أيما ثراء.»

أعطيت الموظف ٢٥ فرنكًا استحقّها عن جدارة. بعد ذلك عدتُ إلى الفرقة في ذهول. لقد ساقني قدَرٌ مدهش، بطرقٍ عجيبةٍ إلى تلك الزاوية المعزولة من العالم. كانت الحادثة الأولى هي رؤية هاميلتون لجريسون، والحادثة الثانية الليلة التي قضيتُها في محطة الإخلاء، والحادثة الثالثة ضياع طائرة آرشي في الطريق وسط الضباب. كما كانت لديّ ثلاثة أسبابٍ تدعوني للشك؛ مرض جريسون المفاجئ، والشبَح الذي رآه الكندي، والعجوز البغيضة التي رأيتُها في الظلام. والآن صار لديّ تلك الحقيقة التي لا ريب فيها. استأجر القلعة رجلٌ يُدعى بوميرتس، وهو أحد الاسمَين اللذَين همس بهما الغريب القادم من البحر في ذلك الفلق المنعزل في كويلن.

أي رجلٍ عاقلٍ كان سيتّجه إلى مسئولي مكافحة التجسُّس مباشرة ويُخبرهم بما

توصّل إليه. لكن لم أستطع فعل ذلك؛ شعَرتُ أن هذا اكتشافي الخاص، وعزمتُ على التحقيق فيه بنفسي. كنتُ أنفق كل دقيقةٍ من وقت فراغي في التفكير في هذه المسألة. وذات صباحٍ قارسِ البرودة، حُمتُ حول القلعة على ظهر فرس، وتفقّدتُ جميع مداخلها. كان المدخل الرئيسي هو الساحة الضخمة وراء البوابات المقفَلة. كان ذلك المدخل يؤدي إلى واجهة مبنى القصر مباشرةً حيث تمتد شرفتُه، أو بالأحرى إلى جانبه الخلفي إذ كان الباب الرئيسي للقصر في الجانب الآخر. على أي حال كان الممر يُفضي إلى حافة الساحة ثم يتفرع إلى فرعَين؛ أحدهما يؤدي إلى الإسطبلات ماراً بالمباني الخارجية حيث رأيتُ العجوز، والآخر يلتفُّ حول القصر في محاذاة للخندق المائي ثم يلتحم مع الطريق الخلفي قبل الجسر. لو أنني اتجهتُ يميناً لا يساراً، أول مساءٍ قدمتُ فيه بصحبة آرشي، لاستطعت الدورانَ حول القصر دون أي عوائق.

بدا القصر في ضوء الصباح الصافي عادياً. كان بعضه قديماً قِدَم نوحٍ، وكان أغلبه حديثاً ضعيفَ البنية، تنقُصه الأبهة المعمارية، عبارة عن قصرٍ فرنسيةٍ سطحيةٍ تُولي اهتماماً بالغاً للواجهة دون أي عنايةٍ بالتصميم الداخلي، تمُرُّ خلاله التياراتُ الهوائية ويمتلئ بالمداخن المُسودّة من الدخان. كان بوسعي التسلل إلى الداخل ونهبه، لكني كنتُ أعلم أنني لن أجد شيئاً فيه. شعَرتُ أنه لن يُصبح مثيراً للاهتمام إلا عندما يحلُّ المساء، وأني لا بد من أن أزوره في الليل مثل نيقوديموس. كما أن لديّ حساباً شخصياً مع ضميري أريد تسويته. لقد ارتعبتُ من المكان في الغسَق المتلحف بالضباب، وضميري لن يدع تلك المسألة تمُر مرور الكرام. فشجاعة المرء مثل حصانٍ يأبى اجتياز حاجز؛ لا بدّ أن يُمسك صاحبه بزمامه ويقوده إلى الحاجز مرةً أخرى. وإن لم يفعل، فسيهاب الحواجز أكثر في المرة القادمة. لم تكن لديّ شجاعةٌ كافية لمجابهة خوفي، ورغم خوفي من أشياءَ كثيرةٍ إلا أنني ما خشيتُ شيئاً كخشيتي الجبن.

لم أحظَ بتلك الفرصة حتى عشية عيد الميلاد. في اليوم السابق تساقط الجليد لوقتٍ قصير، لكن ذلك اليوم حلّت موجة الصقيع، واصطبغ الأفق بلونٍ أخضر وقتَ المغيب، فيما غطّت الأرضَ طبقةٌ رقيقةٌ متشققة مثل جلد سمك القرش. تناولتُ الغَداء في وقتٍ مبكر، واصطحبتُ جوردي هاميلتون، الذي أضاف إلى مهاراته الكثيرة قيادة السيارات. كان هو الرجل الوحيد في قوات الحملة البريطانية الذي لدَيه أدنى فكرة عن المهمة التي أتعهّدها وكنتُ أعلم أنه كتومٌ مثل القبر. ارتديتُ أقدَمَ قبعاتي الواقية، وسروالًا مريحًا، وحذاءً طويلًا قويّ النعل عادةً ما أنتعله في المساء. استقرّ في جيبي مشعلٌ كهربائيٌّ مفيد، له لمبةٌ صغيرةٌ تُضاء بمفتاح تشغيل، ويمكن تعليقه في حزامي. منح ذلك ذراعيّ حرية التصرُّف في حالة الطوارئ. كما ثبتُّ مسدّسي في الحزام.

في تلك الليلة كانت حركة السيارات قليلةً في قرية أوكور سانت آن. كانت هناك سياراتٌ قليلةٌ في الطريق، وبدا أن وحدة المركبات الآلية منشغلةٌ في مهمةٍ خاصة بها من الضجة الصادرة عنها. كانت الساعة حوالي التاسعة عندما انعطفنا في طريقٍ جانبي، ورأيتُ في مدخله رجلًا قويّ البنية في بدلةٍ عسكريةٍ يحرس دراجتَين هوائيتَين. شيءٌ ما في إيماءة الرجل وهو يُلقي التحية العسكرية بدا مألوفًا، لكن لم يكن لديّ متسعٌ من الوقت للتنقيب في الذكريات العابرة. أوقفتُ السيارة على مسافةٍ ليست ببعيدةٍ عن الجسر، وسلكتُ الطريق المؤدي إلى الساحة في مقدمة القصر.

ما إن التففتُ حول زاوية القصر ورأيتُ واجهتَه المرتفعةَ الشاحبةَ في ضوء القمر الأبيض، حتى اهتزّت ثقتي. راعَني الغموض الذي يكتنف المكان. ففي تلك الأجواء الساكنة التي يكسوها الجليد، بدت القلعة شامخةً وغامضة، بصفوفِ نوافذها المُحطمة، تُحيط كل واحدةٍ منها تلك الهالةُ المألوفةُ للمنازلِ الفارغة، التي توحي أنها تُخفي في جعبتها قصةً مثيرة. تمنّيتُ لو أن معي بيتر؛ إذ إنه الرفيق المناسب لمثل هذه المغامرات. سمعتُ أنه نُقل إلى سويسرا، وتخيّلتُه يسكن في قريةٍ جبليةٍ تغطي أراضيَها طبقاتٌ سميكةٌ من الثلج. كنتُ على استعدادٍ لدفع أي شيءٍ مقابل أن أحظى بصحبة بيتر وهو سليم الساق.

وطئتُ الشرفة وأرهفتُ السمع. لم يكن هناك أدنى صوت، ولا حتى قرقعة عجلات العربات المارّة البعيدة. أطلّت القلعة بمهابة مثل الضريح، وأدركتُ أن السطو على منزلٍ فارغٍ يتطلب شجاعةً كبيرة. أن تقتحم مسكنًا عامرًا بسكّانه وتسرق أدواتِ المائدة في أثناء تناولهم الغداء لهو تحدٍّ مُثير، لكن السطو على مكان يسكُنه الفراغ يعني أن يُواجِه المرء مخاوفَ روحه. والأسوأ من ذلك في حالتي هو أنه لا تُوجد غنائمُ أتطلّع إليها. إنما ما أردتُ الدخول إلا لتهدئة ضميري فحسب.

لم أشُكّ كثيرًا في أني سأجد منفذًا إلى الداخل؛ فثلاثُ سنواتٍ من الحرب وكثرةُ ترداد قيادة أركان الجيش المُهملين على منازل بيكاردي فكّكَت مفصلاتِ أغلبها. فلن تعدم نافذةً لا تُقفل بمزلاج أو بابًا لا يُوصَد جيدًا. لكني جرّبتُ فتحَ نوافذِ الشرفةِ واحدةً تلو الأخرى دون جدوى. كانت جميعُها مغلقة بمصارعَ سميكةٍ خضراء تمنع من دخول أشعة الشمس، وعندما كسرتُ مفصلاتِ أحدها، وجدتُ لوحًا طويلًا يُثبّته في مكانه في الطرف الآخر. كنتُ قد بدأتُ أُفكّر في تسلُّق أنابيبِ الأمطار ومحاولةِ اختراق الطابق الثاني، عندما انفتحَ فجأة مصراعٌ كنتُ أُمسكه بيدي. كان هذا المصراع قد تُرك غيرَ مغلَق بمزلاج، فدخلتُ الغرفة بعدما نفضتُ حذائي من الجليد العالِق به.

تبِعَني شعاعٌ خافتٌ من ضوء القمر إلى الداخل، ووجدتُ نفسي في غرفةِ استقبالٍ ضخمة، أرضيّتُها خشبيةٌ مصقولة، وجنباتُها مفروشةٌ بأثاثٍ داكنٍ ملفوفٍ بشراشف. شغّلتُ المصباح المعلّق في حزامي، فكشفَت دائرةُ ضوئه الصغيرةُ عن مكانٍ مهجورٍ منذ سنوات. في أقصى الغُرفة لاحظتُ وجودَ بابٍ آخر، فسِرتُ إليه على أطرافِ قدمي، لكنّ شيئًا ما على الأرضية الخشبية جذَب انتباهي. تبيّن أنها كتلةٌ حديثةٌ من الجليد تبدو كأنما كانت عالقةً في كعبِ حذاء. لستُ أنا من جلَبَها إلى هذا المكان. لا بد أن زائرًا آخر مرّ من هذا الطريق قبل وصولي بفترةٍ وجيزة.

فتحتُ باب الغرفة بهدوءٍ شديد، وانسلَلتُ للداخل. وجدتُ أمامي كومةً من الأثاث شكّلَت ما يُشبه حاجزًا، فوقفتُ خلفها واسترقتُ السمع. كان يُوجَد شخصٌ آخرُ في الغرفة. سمعتُ صوتَ أنفاسِه وحركاته الهادئة؛ ذلك الرجل، أيًّا من كان، يقف في الطرف المقابلِ البعيد، لكن لم أستطع رؤيةَ ما يفعلُه على الرغم من ضوء القمر الخافت المتسرِّب من مصراعٍ مكسور. حينئذٍ بدأتُ أشعُر بالاستمتاع. فأنا أُدرِك وجودَه، في حين أنه غافلٌ عن وجودي، وتلك هي متعة المطاردة.

أدّت حركةٌ غيرُ حذرةٍ من يدي إلى انبعاثِ صريرٍ من الحاجز. على الفور، تجمّد الرجلُ في مكانه، وأطبقَ الصمتُ المُطلَق على المكان. حبستُ أنفاسي، ومرّت بضعُ ثوانٍ قبل أن أسمع الأصواتَ الخافتةَ من جديد. نبّأني حَدْسي، وإن عجزَت عيناي عن تأكيده، أن الرجلَ الواقفَ أمامي منهمكٌ في فعلِ شيءٍ ما، وأنه يستخدِم مشعلًا مظلّلًا صغيرًا جدًّا. فقد رأيتُ وميضًا متحركًا شديدَ الخفوت على الجدار في الخلف، وإن كان من الوارد أن يكون مصدره ضوء القمر المتسلّل من الشق.

كان يبدو أنه استعاد اطمئنانه؛ إذ ازدادت حركاتُه وضوحًا. سمعتُ صوتَ صريرٍ كأن طاولة حُرّكَت من مكانها. ثم حلّ الصمتُ مرةً أخرى، ولم يَخترِقه سوى صوتِ أنفاسِ الرجل. أمتاز بحاسةِ سمعٍ ممتازة، وتبيّن مما سمعتُه أن الرجل يشعُر بالارتباك. فقد كانت أنفاسُه متسارعةً متوترة.

فجأةً تغيّرَت النغمة واستحالت إلى ما يُشبه صفيرًا؛ ذلك الصوت الذي يُحدِثه المرء بشفتَيه وأسنانه دون إصدارِ نغمةِ صفيرٍ حادة. جميعُنا يُحدِث هذا الصوت أثناء انهماكنا بعملٍ ما مثل الحلاقة أو كتابة الخطابات أو قراءة الجرائد. لكن لا أظن أن الرجل المنشود كان منشغلًا بعملٍ بعينِه. كان يُصفِّر لتهدئةِ نفسِه المضطربة.

ثم ميّزتُ النغمة. إنها نغمةُ أغنية «كرز لذيذ».

في غضون لحظة، صِرتُ أشعر بالتوتُّر بعدما كنتُ في غاية الاطمئنان. كنتُ ألعبُ لعبةَ الاختباء مع المجهول، وانقلب السحرُ على الساحر. دقَّ قلبي بين أضلُعي مثل المطرقة. جرَرتُ قدمي من التوتُّر، فحلَّ الصمت على المكان من جديد.

قلتُ: «ماري» وانفجَرَت الكلمةُ وسط السكون مثل القنبلة. كرَّرتُ: «ماري! إنه أنا، ديك هاناي.»

لم أتلقَّ أيَّ إجابةٍ عدا صوت بكاءٍ وخطوة حذرة.

خطوتُ أربعَ خطواتٍ واسعةٍ في الظلام، ثم احتَضنتُ بين ذراعَي الفتاة المرتجِفة ...

في تلك الشهور الأخيرة، كثيراً ما كنتُ أتصوَّر ذلك المشهد الذي سيُمثِّل ذروةَ حياتي. تخيَّلتُ أنه عندما ينتهي عملنا، وتُصبِح الحرب في طي النسيان، في مكانٍ ما — ربما في أحد مروج كوتسوولد أو إحدى غرف قصرٍ ريفيٍّ قديم — سأتجاذب أطراف الحديث مع ماري. بحلول ذلك الوقت ستكونُ توطَّدَت علاقتُنا وذهب عني الخجل. سأحاول أن أحدِّثها عن حُبي لها، لكني كلما فكَّرتُ فيما يجبُ أن أقوله يعتريني الخوف، لأنني أعرفُ أنني سأجعلُ من نفسي أضحوكة. فليس بوُسع مَن عاش مثلما عشتُ — في صحبةِ الرجالِ فحسب لمدة أربعين سنة — أن يتودَّد للنساء. أعلم أنني سأتلعثم وأتفوَّه بالحماقات، فكنتُ من يأسي أختلقُ مواقفَ مستحيلة، أصرِّح فيها بحُبي من خلال تضحياتٍ ميلودراميةٍ تُغنيني عن استخدام الكلمات.

لكن الأقدار الطيبة جنَّبَتني هذا العَناء. فَهِم أحدنا الآخر تماماً، دون التلفُّظ بمقطعٍ لفظيٍّ واحد فيما عدا اسمَينا، نُطقا في تلعثم وسط الظلام المخيف. لا بد أن الجنيَّات أدَّت عملَها في الخفاء، وبدأَت مشاعرَ كلٍّ منَّا تتحرك ناحيةَ الآخر، حتى نبت حبُّنا مثل بذرة في الظلام. مرَّرتُ يدي على شعرها، وهي بين ذراعيَّ، ثم همستُ بكلمات، بدت كأنها انبثقَت من ذكرى متوارثة. ليس هناك أدنى شك في أن لساني لم يتلفظ بها من قبلُ، كما لم تخطر ببالي ... على الفور وضعَت ذراعَيها حول عنقي، والتصقَت بي بقوة، وانبعث منها ما يُشبه البكاء. كانت لا تزال ترتجف من الخوف.

قالت: «ديك»، وخرج اسمي من بين شفتَيها لحناً عذباً لم أسمع مثلَه على الإطلاق. أضافت: «أهذا أنتَ يا ديك؟ لستُ أحلُم، أليس كذلك؟»

أجبتُ: «إنه أنا، بالتأكيد، عزيزتي ماري. بعد أن وجدتُك، لن أُفلتَكِ أبداً. لكن يا فتاتي العزيزة، كيف جئتِ إلى هنا بحق السماء؟»

تراجعَت للوراء وسلّطَت مشعلَها الكهربائي لتفحص ملابسي الرثة.

قالت: «تبدو محارباً مُخيفاً يا ديك. لم أرَكَ بمثل هذه الملابس من قبلُ. كنتُ في «قلعة الشك» أخاف بشدة أن ينال مني «جبار اليأس» حتى أتيتَ.»

قلتُ: «بل أُفضّل أن أسميها «بيت المُفسّر».»

واصلَت: «إنه بيتُ شخصٍ نعرفه. يُسمّي نفسه «بوميرتس» في هذه الأنحاء. وهو أحد الاسمَين اللذَين ذكرتُهما لنا آخِر مرة تَقابَلنا كما تذكُر. رأيتُه منذ ذلك الحين في باريس. إنها قصةٌ طويلة، سأقصها عليكَ عما قريب. علمتُ بتردُّده على هذا المكان من وقتٍ لآخر، فاتبعتُه إلى هُنا. مارستُ التمريض في الأسبوعَين الآخرَين في مشفى مدينة دوفركورت، وهي على بُعد أربعة أميالٍ فحسب من القلعة.»

سألتُ: «لكن ما الذي أتى بكِ وحدكِ في الليل؟»

ردّت: «الجنونُ على ما أظن. والغرورُ أيضاً. جمعتُ قدْراً كبيراً من المعلومات، كما ترى، وأردتُ أن أكتشف معلومةً مهمةً حيّرَت السيد بلنكيرون. حاولتُ أن أثنيَ نفسي عن هذا التصرُّف الأحمق لكن فشلتُ. ثم خذلَتْني شجاعتي، وقبل أن تأتي كان صوتُ فأرٍ كفيلًا لأن أصرخَ بأعلى حنجرتي. ولولا الصفير لأجهشتُ في البكاء.»

سألتُ: «لكن لمَ قدمتِ وحدَك، وفي هذه الساعة؟»

أجابت: «لم أستطع المجيء في النهار. ومن الأسلم أن آتي بمفردي. فهو مُغرمٌ بي، كما تعلم، وعندما عرف بقدومي إلى دوفركورت، نَسِي حذره، وعرض أن يلتقي بي هُنا. أخبرَني أنه سيذهب في رحلةٍ طويلة، ويريد أن يُودّعني. لو وجدَني وحدي فسيودِّعني. ولو كان وجد شخصاً آخر بصحبتي، فسينتابه الشك، ويجب ألا أُثير شكوكه. قال السيد بلنكيرون إن ذلك سيُصيب خطّتَه في مقتل. هو يعتقد أنني أتبع آراء خالتيّ، وأراه رسول السلام الذي يعمل بطرائقه الخاصة لمكافحة غباء الحكومات وشرورها. إنه يتحدث بالسوء عن ألمانيا أكثر من بريطانيا. أخبرَني من قبلُ عن اضطراره إلى إخفاء هُويتِه وانتحال الكثير من الشخصيات في مهمته، وبالطبع صفّقتُ له. آه، لقد كان موسم الخريف عصيباً.»

هتفتُ: «أخبريني أنكِ تكرهينه يا ماري.»

قالت بهدوء: «كلّا. أنا لا أكرهه. سأفعل ذلك لاحقاً. أما الآن فإنني أهابُه بشدة. عندما نقضي عليه تماماً، سأكرهُه، وسأُزيل كل ذرة إعجابٍ له من ذاكرتي مثل الوسخ.

لكن حتى ذلك الحين، لن أُهدِر طاقتي في الكُره. نريد أن نحشد كل ذرة من طاقتنا لهزيمته.»

كانت قد استعادت هدوءها، وشغّلتُ مشعلي لأتأمّل ملامحها. رأيتُها ترتدي زيّ الممرضات الخارجي، وبدت عيناها مرهقتَين. أنستني هذه المنحة الثمينة التي نزلَت بي فجأة كل ما يتعلق بمهمتي الشخصية. فلم أرَ أفري إلا كحبيبِ ماري المُستقبلي، ونسيتُ أمر صاحب المصنع القادم من مدينة ليل الذي استأجر ذلك البيت لصيد طيور الحجل. سألَت: «وأنتَ، يا ديك، هل من مهام الجنرالات زيارة المنازل الفارغة في الليل؟»

قلتُ: «أتيتُ لأبحث عن أي أثَر لبوميرتس. أنا أيضًا اقتفيتُ أثَره لكن من زاويةٍ أخرى، سأقصُّ عليك هذه الحكاية لاحقًا.»

سألَت: «هل لاحظتَ مجيئَه إلى هُنا اليوم؟»

أشارت إلى رمادِ سيجارةٍ متناثرٍ على حافة الطاولة، وإلى بقعةٍ خاليةٍ من الغُبار على سطحها. وقالت: «في مثلِ هذا المكان، سيحلُّ الغبار في غضونِ ساعاتٍ قليلة، وهذه البقعة في غاية النظافة. أرى أنه كان هنا بعد الغَداء.»

هتفتُ: «يا إلهي! أفلَت بأعجوبة! أشعر في هذه اللحظة بالرغبة في قتله بمجرد رؤيته. تقولين إنكِ التقيتِ به في باريس وتعرفين مَخبأه. لا بد أنكِ تملكين دليلًا كافيًا للقبض عليه.»

هزّت رأسَها نافية. قالت: «السيد بلنكيرون أيضًا في باريس، وقد رفض هذه الفكرة. يقول إنه لم يصل إلى حلِّ اللغز بعدُ. توصّلنا إلى بوميرتس، لكننا لا نعرف شيئًا عن كيليوس.»

قلتُ: «آه، كيليوس! أجل، أفهمك. يجبُ أن نعثر على كل الأجوبة قبل توجيه ضربتنا. هل حالف العجوزَ بلنكيرون الحظُّ بأي حال؟»

أجابت: «كان تخمينُك بشأن إعلان «التنفّس العميق» في غاية البراعة يا ديك. تبيّن صحتُه، وربما يقودنا إلى كيليوس. سأترك التفاصيل ليُخبرك بها السيد بلنكيرون. لكن المشكلة كالتالي. نعلم شيئًا عن أنشطة شخصٍ قد يكون كيليوس، لكننا لا نستطيعُ الربطَ بينَه وبين أفري. نعلم أن أفري وبوميرتس شخصٌ واحد، ونأمل في أن نعثُر على رابط بين بوميرتس وكيليوس. لهذا السبب أتيتُ إلى هُنا. كنتُ أحاول السطو على هذا

المكتبِ الصغيرِ بطريقةِ الهُواة. إنه تقليدٌ سيئ الجودة للطراز الإمبراطوري، ويستحق التحطيم.»

أدركتُ أن ماري متحمسةٌ لإعادة تركيزي إلى مهمّتنا، وتمكّنتُ بشيءٍ من الصعوبة من الهبوط من المرتفعات المُثيرة التي أخذَتني إليها مشاعري. لم أكن قد أفقتُ بعدُ من ثمالة الموقف؛ تلك الليلة الشتوية، ودائرة الضوء في الغرفة الكئيبة، واجتماع روحَين جاءا من أقاصي الأرض دون ميعاد، وتحقيق آمالي الجامحة، والمستقبل الواعد البرّاق. لكن ماري دائمًا ما كانت الأكثر حكمةً بيننا، بالإضافة إلى أننا وسط مهمةٍ لا تحتمِل الاستغراقَ في أحلام اليقظة. وهكذا، أوليتُ المكتب اهتمامي.

كان المكتبُ عبارةً عن منضدةِ كتابةٍ مُسطّحةٍ ذاتِ أدراج، وتشكّل الجزء الخلفي منه على هيئةِ نصفِ دائرةٍ من الأدراجِ في وسطها خزانة. أمَلتُه فانزلقَت غالبيةُ الأدراج إلى الخارج، ووجدتُها فارغةً إلا من الغبار. فتحتُ درجَين عَنوةً بسكيني، فما كشفا عن شيءٍ سوى عُلبِ سجائرَ فارغة. لم تتبقّ أمامنا إلا الخزانة، وكانت مقفلة. أخرجتُ مفتاحًا من جيبي ووضعتُه في الثقب، لكن القفل لم يتزحزح من مكانه.

قلتُ: «لا جدوى من فتحها. لن يترك أي شيءٍ ذا قيمةٍ في مكانٍ كهذا. ذلك الرجل لا يغامر. إذا أراد إخفاء شيء هنا فثمّة مئاتُ الشقوق في ذلك القصر يستعصي على أنبه المحقّقين إيجادها.»

سألتُ: «ألا يمكنكِ فتحُها؟ أشعر أننا سنجدُ داخلها شيئًا. كان الرجل يجلس إلى هذه المنضدة في فترة الظهيرة، وقد يعود إلى هُنا.»

حللتُ المشكلة بإمالة المكتب وكسر باب الخزانة بركبتي. وتدحرجَت منها حقيبةُ يدٍ جلديةٌ خضراءُ داكنة.

سألَت ماري: «يزداد الأمر جدية. هل الحقيبة مغلقة؟»

كانت مغلقة، لكني تناولتُ السكين وانتزعتُ قفلها، ثم سكبتُ محتوياتها على المنضدة. كانت هناك بعض الأوراق، وجريدةٌ أو اثنتان، وكيسٌ صغيرٌ مربوطٌ بشريطٍ أسود. فتحتُ الأخير، فيما راقبَتْني ماري من فوق كتفي. وجدتُ في الكيس مسحوقًا ناعمًا لونه مائل للصفرة.

قلتُ بخشونة: «ابتعدي. ابتعدي واحبسي أنفاسَكِ بحق الرب.»

أعدتُ ربط الكيس، ولفَفتُه بجريدة، ثم حشرتُه في جيبي بأصابعَ مرتجفة. تذكّرتُ

ذلك اليوم بالقرب من مدينة بيرون عندما حلّقَت طائرةٌ ألمانية في السماء وألقَت بأكياسٍ مثل هذا الكيس. لحُسن الحظ جُمعَت هذه الأكياسُ كلها، وكان الرجال الذين جمَعوها على قدْرٍ من الفطنة، فأخذوها إلى أقربِ مختبَر. وتبيّن أنها مليئةٌ بميكروبٍ مسبِّب لمرض الجمرة الخبيثة ...

تذكّرتُ أن أوكور سانت آن هي ملتقى اثنَي عشر شارعًا، ويمُر بها الجند طيلة الوقت في أثناء ذهابهم وإيابهم من الجبهة. من هذا الموقع المثالي يستطيع العدو تدمير صحة جيشٍ كامل ...

تذكّرتُ المرأة التي رأيتُها في فناء القلعة في وقت الغسَق الملبّد بالغيوم، وأدركتُ سببَ ارتدائها لقناع الغاز.

أحدث هذا الاكتشاف هزةً عنيفةً داخلي. وأنزلني من السماوات التي كنتُ أُحلّق فيها بمشاعري الجياشة إلى واقعٍ شيطانيٍّ دنيءٍ بضربةٍ قوية. كنتُ قد ألفتُ قذارة الألمان جيدًا، لكن بدا هذا عملًا في غاية التدني الأخلاقي. وددتُ لو أطبقُ على عنق أفري، وأحشُر هذه المادة في فمه، وأشاهدُه يواجه ببطء هذا المصيرَ الشنيع الذي دبّره للرجال النزهاء.

قلتُ: «لنخرُج من هذا المكان الشيطاني.»

لكن ماري لم تكُن تُنصِت إليّ. كانت قد تناولَت إحدى الجريدتَين وتتفحّصها بإمعان. نظرتُ فإذا هي تتأمّل إعلانَ وايزمان عن نظام «التنفّس العميق».

هتفَت لاهثة: «يا إلهي، انظر يا ديك.»

لاحظتُ أن كلماتٍ بعينِها في نَص الإعلان موضوعةٌ تحتها نقاطٌ صغيرةٌ حمراء.

همسَت: «إنها هي. إنها الشفرة — أكاد أجزم أنها الشفرة!»

قلتُ: «حسنًا، لو أن هناك مَن يعرفها فسيكون هو على الأرجح.»

قالت: «لكن ألا ترى أنها الشفرة التي يستخدِمها كيليوس؛ ذلك الرجل في سويسرا؟ لا يمكنني الشرح الآن؛ لأنها قصةٌ طويلة، لكن أظن ... أظن أنني عثَرتُ على ما كنا نبحث عنه. كيليوس ...»

سألتُ: «ششش! أسمعتِ؟»

كان هناك صوتٌ غريبُ قادمٌ من الخارج كأنّ رياحًا مفاجئةً اخترقَت سكونَ الليل.

قالت ماري: «إنها ليست إلا سيارةً تمُر في الطريق الرئيسي.»

سألتُ: «كيف دخلتِ إلى هُنا؟»

«من النافذة المكسورة في الغرفة المجاورة. قدِمتُ إلى هُنا بالدراجة في الصباح، وتجوّلتُ في المكان، حتى عثَرتُ على المزلاج المكسور.»

قلتُ: «ربما تُركَت مفتوحةً عن عمدٍ. قد تكون هذه هي الطريقة التي يزور بها بوميرتس منزله الريفي ... لنُغادر، يا ماري، فهذا المكان ملعون. إنه يستحق أن ينزلَ عليه غضبُ الرب.»

دسَستُ محتويات الحقيبةِ في جيوبي بسرعة. وقلتُ: «سأوصلكِ إلى المكان الذي تريدينه. لديّ سيارةٌ بالخارج.»

قالت: «إذن يجب أن تأخذ معنا درّاجتي وخادمي أيضًا. إنه أحدُ أصدقائك القدامى، أندرو آيموس.»

هتفتُ: «كيف وصل أندرو إلى هُنا بحق السماء؟»

قالت ماري ضاحكةً إذ رأت علاماتِ الدهشةِ على وجهي: «هو واحدٌ منّا. إنه عضوٌ فعّالٌ في جماعتنا، وفي هذه الأيام ينتحِل شخصيةَ ممرضٍ في مشفى «ليدي مانرووتر» في دوفركورت. إنه يتعلم الفرنسية و...»

همستُ: «هشش! هناك شخصٌ ما في الغرفةِ المجاورة.»

سحبتُها وخبّأتُها خلف كَومةٍ من قطَع الأثاث، فيما التصقَت عيناي بشعاعِ الضوءِ المتسرّب من أسفل الباب. أُديرَ مقبضُ الباب وتسابقَت الظلالُ أمام مصباحٍ كهربائيٍّ كبيرٍ من النوع المستخدم في الإسطبلات. لم أستطع رؤيةَ حامل المصباح، لكن خمّنتُ أنها العجوزُ الشمطاء.

كان هناك رجلٌ خلفها. سمعتُ وقع خطواته السريعة على الأرضية الخشبية قبل أن يتخطى المرأة. رأيتُه يرتدي زيَّ الضباط الفرنسيين الأزرقَ السماوي، كان يبدو أنيقًا بحذائه الفرنسي ذي الرقبة الطويلة الذي يُبرِز رشاقةَ ساقَيه، ومعطفه المبطّن بالفرو. للوهلة الأولى يظن المرءُ أنه شابٌّ لا يتجاوز الخامسة والثلاثين. كان وجهه داكنًا حليقًا، وعيناه لامعتَين ذكيتَين ... لكنه لم يقدر على خداعي. لم أُبالغ عندما تفاخرتُ أمام سير والتر أن هناك رجلًا واحدًا على قيد الحياة سأعرفه أيًا كان تنكُّره.

كانت يدي مستقرةً على مسدّسي، فيما أشرتُ إلى ماري أن تتراجعَ إلى البقعةِ المظلمة. خطر لي للحظةٍ أن أسحب الزناد. كان هدفي في مرمى البصر وأستطيع وضع طلقة في رأسه بدقةٍ تامة. أظن أنني لو كنتُ وحدي لربما أطلقتُ النار. وربما لا. على أي حال، لا أستطيعُ فعلَ ذلكَ الآن. فذلك بمثابة قنصِ أرنبٍ مشلول. رغم أنه ألدُّ أعدائي، كان يتحتم عليّ منحُه فرصةً عادلة، وإن كان عقلي يرى ذلك حماقة.

دخلتُ في دائرة الضوء.

قلتُ: «مرحبًا يا سيد أفري. يا له من مكانٍ غريبٍ للقاء مرةً أخرى!»

تراجَع أفري خطوةً من المفاجأة، فيما تفرّسَت عيناه ملامحي. ليس هناك أدنى شكٍّ في أنه عرفَني. رأيتُ في وجهه شيئًا رأيتُه من قبلُ، وهو الخوف. فجأةً انطفأ المصباح، ووثَبَ ناحيةَ الباب.

أطلقتُ النار في الظلام، لكن لا بد أن الرصاصة أخطأَته ومرّت من فوقه. ففي اللحظة نفسها سمعتُ انزلاقَه على الأرض الخشبية الناعمة وصوتَ ارتجاج الزجاج الناتج عن فتحه النافذة المكسورة المزلاج. فكّرتُ بسرعة أنه ترك سيارتَه حتمًا عند جانب الشرفة المشرف على الخندق، وكي يصل إليها لا بد من مروره أمام هذه الغرفة تحديدًا. أمسكتُ المكتبَ التالفَ واستخدمتُه، وضربتُ به أقربَ نافذة. انخلعَت الألواح والمصارع بضربةٍ مدوية؛ إذ انخلعَت النافذةُ من إطارها المتهالك. في اللحظة التالية كنتُ أقف على طبقات الثلج تحت ضوء القمر.

أطلقتُ النار عليه وهو يتجه ناحيةَ الشرفة، وأخطأتُ الهدف مرةً أخرى. لم أبرع في استخدام المسدس أبدًا. مع ذلك ظننتُ أنني تمكّنتُ منه؛ لأن السيارة التي تنتظره عند نهاية الشرفة لا بد أن تمُر من أمام الخندق في طريق عودتها لبلوغ الطريق الرئيسي. لكنني نسيتُ كل ما يتعلق ببوابات الحديقة الضخمة المُغلَقة. فقد فُتحَت حتمًا بطريقةٍ أو أخرى؛ إذ فور أن أدارت السيارةُ محركها اتجهَت مباشرةً نحو الساحة الضخمة. أطلقتُ طلقتَين بعيدتَي المدى في أعقابها، لا بد أن إحداهما أصابت إما أفري أو سائقه؛ إذ سمعتُ صرخةَ ألم.

استدرتُ في مرارة لأجد ماري واقفة بجواري. كانت مستغرقةً في نوبة من الضحك.

سألَت: «هل مثّلتَ في السينما من قبلُ يا ديك؟ قدّمتَ أداءً ممتازًا في الدقيقتَين الأخيرتَين. «مع ماري لامنتون». أليس ذلك هو التعبير المستخدم؟»

قلتُ في أسف: «كان يمكن أن أقتلَه فور دخوله.»

قالت بنبرةٍ جادة: «أعلم. إلا أنكَ لم تتمكن من ذلك بالطبع ... إلى جانب أن السيد بلنكيرون لا يريد قتلَه ... حتى الآن.»

وضعَت يدَها على ذراعي. وقالت: «لا تقلق. ليس مقدرًا لك أن تتخلّص منه بتلك الطريقة. إذ لكان ذلك سهلًا للغاية. لا تزال أمامنا رحلةٌ طويلةٌ قبل أن نقُص أجنحةَ الطيورِ البرية.»

هتفتُ: «انظري، إنه غضب السماء!»

ارتفعَت ألسنة النيران من المباني الخارجية في الطرف البعيد؛ حيث رأيتُ المرأة العجوز للمرة الأولى. لا بد أن خطةً مُتفقًا عليها مُسبقًا نُفذَت، وأن أفري يُدمر كل الأدلة التي تُشير إلى المسحوق الأصفر المُخزي. في هذه اللحظة، لا بد أن العجوز المسئولة عن حراسة القلعة تتسلل خارجة، باتجاه مخبأ في القرية، تحمل معها ممتلكاتها المتنوِّعة.

في الليلة الساكنة الجافة، احتدمَت النيران؛ إذ لا بد أن المكان هُيئ كي يحترقَ بسرعة. وفيما كنتُ أدفع ماري حول الخندق، أدركتُ أن ذلك الجزء من المبنى الرئيسي قد نشبَت فيه النيران. أيقظ الحريقُ سكانَ القرية، وقبل انعطافنا إلى الطريق السريع، كان الجنود البريطانيون الناعسون يندفعون ناحيةَ الموقع، ورئيسُ البلدة يحشدُ فرقة الإطفاء. أعلم أن أفري وضع خُططه بصورةٍ محكمة، ولن يستطيع أحدٌ السيطرةَ على النيران — إذ قبل الفجر بفترةٍ طويلةٍ ستصير قلعة أوكور سانت آن كومةً من الرماد، وفي غضون يومٍ أو اثنَين سيتنازع محامو زوجة الماركيز العجوز القاطنة في بياريتز مع شركة التأمين.

في الزاوية، وقف آيموس بجوار الدراجتَين، جامدًا مثل صنمٍ منحوت. وحيّاني بابتسامةٍ عريضةٍ كاشفة عن أسنانه المفقودة.

قال: «إنها ليلةٌ باردة، أيها الجنرال، لكن النيران لا تزال مُستعرة. لم أرَ مثل هذه النيرانِ المُمتعةِ منذ ذلك الحريق في مصنع ديكسون في جاولي.»

حزمنا الأمتعة، الدرّاجات وما شابه، في سيارتي؛ حيث انحشر آيموس في المقعد الضيق بجوار هاميلتون. بعد أن أدرك آيموس أن هاميلتون من أبناء جلدته، عبّر عن شكره للجنرال، باللهجة الدورية، لنقله في سيارته. قال: «لأنني لستُ متمرسًا في

ركوب الدرجات الهوائية، كما أن قدميّ تخدّرتا من الوقوف وسط الثلج.»

انطوت الأميالُ المؤديةُ إلى دوفركورت بسرعة مثل لحظةٍ سعيدة. لفَفتُ ماري بوشاحٍ من الفرو، وبعد ذلك لم نتبادل كلمةً واحدة. لقد وقع في حوزتي فجأة كنزٌ ثمينٌ وكنتُ في غاية السرور به.

الفصل الرابع عشر

أحاديث السيد بلنكيرون عن الحُب والحرب

بعد مرور ثلاثة أيام، تلقّيتُ أوامرَ بالذهاب إلى باريس في مهمةٍ خاصة. كان التوقيت مناسبًا؛ إذ كلما ازداد التأخير زاد استيائي. كان كل تفكيري منصبًا على اللعبة التي نلعبُها ضد أفري. فهو عدوُّنا الأكبر، والجنود الألمان في الخنادق مقارنةً به أبرياءُ وديعون. فقدتُ كُل شغَفي تقريبًا في الفرقة التي أقودُها؛ لأنني كنتُ أعلم أن جبهتي الحقيقية ليست في بيكاردي، ومهمّتي ليست بسهولة الدفاعَ عن موقعٍ بعينه ضد العدو. كما أنني كنتُ متلهفًا للعمل مع ماري في المهمة نفسها.

أتذكّر أنني استيقظتُ في مساكن الجند، في صباح اليوم التالي لحادثة القلعة، يغمُرني شعورٌ بالغنَى. كما تولّد بداخلي شعورٌ بالتواضُع والعَطف تجاهَ العالَم بأسْره بما فيه الألمان، وإن كنتُ لا أستطيع القول إنني شعَرتُ يومًا بالكراهية الشديدة تجاهَهم. فالكراهيةُ موجودةٌ بين الصحفيين والسياسيين في الوطن أكثر مما تُوجَد بين الرجال المتحاربين. أردتُ الجلوسَ بمفردي في هدوءٍ للتفكير، ولمّا كان هذا مستحيلًا، فقد باشرتُ عملي مُرحّبًا بما يوفّره لي من تشتيتٍ للذهن. حاولتُ عدمَ التفكيرِ في المستقبل، والتركيزَ في الحاضر فحسب، أذكّر نفسي أن الحربَ مستمرّة، وأن مهمةً خطيرةً عاجلةً في انتظاري، وأن آمالي معلّقة على خيطٍ رفيع. لكن كنتُ أُطلق العِنانَ لخيالاتي، في بعض الأحيان، وأُحلّق بعيدًا مع أحلامي السعيدة.

لكنّ فكرةً وحيدةً كانت كفيلةً بإعادتي إلى الأرض الصلبة، وهي أفري. لا أعتقد أنني أكره في العالَم سواه. كانت علاقتُه بماري هي سبب مرارتي. بلَغ الرجلُ من الوقاحة أن مارسَ الحبّ مع تلك الفتاة الطاهرة المُفعمة بالحياة رغم قُبح ماضيه. رأيتُه عدُوي اللدود، وسرّني هذا التوصيف؛ لأنه ساعدَني في أن أكرهه كراهةً خالصةً في أثناء السعي خلفه. كما أنني سأفوز. لقد أخفقتُ مرتَين، وسأصيب في المرة الثالثة حتمًا. كنتُ كمن يُحاوِل إصابة الهدف في لعبة الرماية — جاءت طلقتي الأولى أدنى من الهدف والثانيةُ أعلى منه — وأقسمتُ أن تُصيبَ الثالثةُ هدفَها بدقّة.

استُدعيتُ إلى مقر القيادة العامة، حيث قضيتُ نصفَ ساعةٍ أتحدّث مع أعظمِ قائدٍ

بريطاني. لا أزال أذكُر وجهَه الحليمَ العَطوف، وعينَيه الهادئتَين اللتَين لا تؤثّر فيهما تقلُّبات الدهر. كانت رؤيتُه واسعة؛ لأنه رجلٌ سياسيٌّ بالإضافة إلى أنه جندي، ويعلم أن العالَم عبارةٌ عن ساحةِ قتالٍ واحدة، وأن كل فرد في الشعوب المتناحرة، رجلًا كان أم امرأة، هو محاربٌ بطريقةٍ ما. رأيتُ كم هي معقّدة النفس البشرية؛ ففي لحظتها تمنّيتُ ألا أبرحَ مكاني. أردتُ أن أواصل القتالَ على أرضِ المعركة تحت قيادة هذا الرجل. أدركتُ فجأةً مدى محبّتي لعملي، وعندما عدتُ إلى ثكنتي العسكرية ورأيتُ الجنود يعودون في نشاطٍ من مسيرةٍ عسكرية، كنتُ سأصرُخ من فَرْطِ الحزن على فراقهم. لا أقول ذلك تفاخرًا، لكن فرقتي هي الأفضلُ في الجيش كله.

بعد مرور أيامٍ قليلة، اصطحبتُ ماري من مدينة أميان، ذاتَ صباح. لطالما أحببتُ هذه المدينة؛ إذ بعد قذارة معركة السوم، تنفّستُ الصُّعَداء وأنا أتوجّه إليها للاغتسال وتناوُل وجبةِ طعامٍ مُشبِعة، بالإضافة إلى أنها تتضمّن أجملَ كنيسةٍ بنَتها الأيادي البشرية لعبادة الرب. كانت السماءُ صافيةً عندما بدأنا التحرك من جادةٍ بجوار محطة السكك الحديدية، وحمَل الهواءُ رائحةَ الشوارعِ النظيفة والقهوةِ الطازجة، فيما اتجهَت النساءُ إلى السوق، ومرّت الحافلاتُ الكهربائيةُ الصغيرةُ مجلجلة، مثلما يحدُث في أي مدينةٍ بعيدةٍ عن دَوِي البنادق. لم أرَ رجلًا يرتدي زيًّا عسكريًّا بريطانيًّا أو فرنسيًّا في الأنحاء إلا فيما ندَر، وأتذكّر آنذاكَ تعجُّبي من إفلاتِ مدينة أميان من حيِّز الحرب تمامًا. لكن بعد شهرَين اختلفَت القصة.

حتى نهايةِ عمري، سأظل أعتبرُ هذا اليوم أسعدَ أيامي على الإطلاق. كان الهواء يفوحُ برائحة الربيع وإن كانت الأشجار والحقول لا تزال بصبغتها الشتوية. انبعثَت آلافُ الروائحِ المُنعِشة العَطِرة من الأرض فيما انهمكَت طيورُ القُبّرة بالغناء فوق الأراضي المحروثة حديثًا. أتذكّر أننا ركضنا في وادٍ صغير؛ حيث شكّل النهرُ أحواضًا صغيرةً من النُّهر بين أشجار الصفصاف، كما غطّت أعشابُ الدبقِ الأشجارَ المحاذيةَ للطريق. سطعَت الشمسُ على السهل المرتفع خلفَ وادي السوم كأننا في شهر أبريل. في مدينة بوفيه تناولنا غداءً سيئًا في نُزُل، لكنني أعني الطعامَ فحسب؛ فقد كان هناك نبيذٌ برجنديٌّ ممتاز بسعر فرنكَين للزجاجة الواحدة. مررْنا بمجموعة من القرى المتواضعة في طريقنا إلى نهر السين، وفي ساعة متأخرة من فترة الظهيرة اجتزنا غابة سان جيرمان. أطلقَت هذه المساحاتُ الخضراءُ الشاسعةُ بين الأشجار العنانَ لخيالي فرُحتُ أتصورّ المنطقةَ الريفيةَ الإنجليزيةَ البديعةَ التي سنسكن فيها أنا وماري ذاتَ يوم. كانت ماري سعيدةً طيلة الرحلة، لكن عندما تحدّثتُ عن تلال كوتسوولدز عبَس وجهها.

قالت: «هلّا تجنّبنا الحديث عنها يا ديك. هي ذكرى في غاية البهجة وأخشى إذا تحدّثنا عنها أن تتلاشى. لا أدَعُ نفسي أفكّر في السلام والوطن، إذ يجتاحُني الحنينُ إلى الوطن ... أظن أننا سنعودُ إليها في يوم من الأيام، أنتَ وأنا ... لكن رحلتنا إلى «الجبال المبهجة» لا تزال طويلة، ولا بد أن يموت «الأمين» أولًا كما تعلم ... هناك ثمنٌ يجبُ دفعه.»

أيقظَتْني كلماتها.

سألتُ: «ومن يكون أمينُنا؟»

أجابت: «لا أعرف بعدُ. لكن الأمين كان أفضل السائحين.»

انفرجَت أساريرها فجأة، كأنما انقشعَت عنها غمامة، وعندما تجوّلنا في ضواحي باريس وتهادَينا في شارع الشانزليزيه أصبحَت في غاية البهجة. تلألأَت المصابيح في الغسَق الأزرق لشهر يناير، وهبّت الأنفاسُ الدافئةُ للمدينة لتحيّتنا. لا أعرفُ الكثير عن باريس؛ إذ شاهدتُها مرةً واحدةً في إجازة لأربعة أيامٍ قضيتُها هناك، لكنها بدَت لي آنذاك أصلحَ المدن للسُّكنى، والآن بدا قدومي إليها من ميدان المعركة وماري بجواري مثل نهايةِ حُلمٍ سعيدة.

تركتُ ماري في منزل أحد أقربائها في شارع سانت أونوريه، وأودعتُ نفسي في فندق «لويس كوينز» وفقًا للتعليمات. تنعّمتُ بحمّامٍ ساخن ثم ارتديتُ ملابسَ مدنيةً أُرسلَت إليّ من لندن. جعلَتني تلك الملابسُ أشعُر أنني ودّعتُ الفرقة للأبد هذه المرة. كان لبلنكيرون غرفةٌ خاصة، وكان يُفترَض أن نتناول العشاء فيها؛ لم أرَ في مثل الفوضى الهائلة التي سادت غرفتَه من الكُتب وعُلَب السجائر المتناثرة؛ فالرجلُ ليس لدَيه أي فكرةٍ عن التنظيم. سمعتُه يتذمّر من مرحاضه في غرفة النوم المجاورة، ولاحظتُ أن طاولتَه جُهِّزَت من أجلِ ثلاثةِ أشخاص. نزلتُ للطابق السفلي، وفي طريقي إلى هناك صادفتُ ويك لانسلوت.

لم يعُد جنديًا في كتيبة العمال. ظهرَت حُلّته المسائية من أسفل معطفه الطويل. سألتُ: «هل أنتَ شريكٌ في هذه المهمة أيضًا؟»

قال بأسلوبٍ غيرِ ودّي: «أعتقد ذلك. على أي حالٍ تلقّيتُ تعليماتٍ بالمجيء إلى هُنا. ووظيفتي هي طاعة الأوامر.»

سألت: «هل أتيتَ لتناوُل العَشاء؟»

أجاب: «لا. سأتناول العَشاء مع بعض الأصدقاء في فندق «كريلون».»

بعد ذلك نظر إلى وجهي مباشرةً بعينَين حمراوَين كما رأيتُهما لأول مرة. وقال: «عرفتُ أنه يجبُ تهنئتُك يا هاناي»، وصافحَني بفتور.

ما شَعرتُ بمثلِ هذا العَداء في إنسانٍ من قبلُ.

سألتُ لأنني فهمتُ مغزاه: «ألا يسُرُّك هذا؟»

هتف بغضب: «وكيف يسُرُّني بحق السماء؟ يا للهَول، ستقتل رُوحَها يا رجل. أنتَ شخصٌ ناجحٌ غبيٌّ عادي، أما هي فإنها ... إنها أغلى فتاة خلقها الرب على الإطلاق. لن تفهم قيمتها أدنى فهم، لكنك ستقُص جناحَيها تمامًا. لن تستطيع الطيران أبدًا ...»

نفّس ويك عن تُرّهاته بصورةٍ هستيريةٍ أسفل الدرج، على مسمعِ أرملةٍ فرنسيةٍ عجوزٍ بصحبة كلب بودل. لم يُثِر كلامُه غضبي؛ لأنني كنتُ في غاية السعادة.

قلتُ: «توقف يا ويك. يجمعنا رابطٌ وثيق ولا يليقُ بنا أن نتشاجر. أعرف أني لستُ جديرًا حتى بتلميع حذائها. لا يمكنك الحطُّ من قَدْري أو رفع قَدْرها أكثر مما أفعل أنا. فلديّ من العقل ما يجعلني أُدرِك الفارق بيننا. لا يُمكِن أن تطلُبَ منّي أن أشعُر بالوضاعة أكثر مما أنا عليه الآن.»

هزّ كتفَيه وهو يخرج إلى الشارع. وقال: «شهامتُك اللعينة تلك كفيلةٌ بإفقاد المرء صوابه.»

صَعدتُ للطابق العلوي لأجد بلنكيرون، بعد أن اغتسَل وحلَق وجهه، يتأمل حذاءً شديدَ اللمعان في إعجاب.

قال: «اشتقتُ لرؤيتك كثيرًا يا ديك. خشيتُ أن يُصيبك مكروه؛ إذ قرأتُ في الجرائد أخبارًا مريعةً عن المعارك التي خُضتها. مراسلو الحرب يُثيرون قلقي إلى حدٍّ يجعلني أُعرِض عن الإفطار.»

صنع خليطًا من المشروبات الروحية ثم ضرب كأسَه بكأسي. قال: «في صحة الآنسة. حاولتُ أن أكتب لها قصيدةً جميلة لكنني لم أستطع تقفية الأبيات. أودُّ أن أخبركما بالكثير من الأمور بعدما ننتهي من تناول العَشاء.»

دلفَت ماري إلى الغرفة، متورّدة الخدين بسبب برودة الجو بالخارج، وسرعان ما حلّ الخجلُ على ملامح بلنكيرون. لكنها فعلَت شيئًا أزال عنه خجلَه؛ إذ عندما شرع في

تهنئتها، لفّت ذراعَيها حول عنقه وقبّلَته. وللغرابة أذهب تصرفُها توتّره تماماً.

شعرتُ بالجذل وأنا أتناول الطعام على مائدة بشرشفٍ وفي أطباقٍ خزفية، فيما أتأمّل وجهَ بلنكيرون الرءوف والشراهةَ التي يتناول بها طعامه، لكن ما غمرني بالفرحة هو الجلوس مع ماري على مائدةٍ واحدة. آنذاك شعرتُ أنها ملكي حقّاً، وليست جنيةً ستختفي على الفَور. تصرّفَتْ ماري مع بلنكيرون مثل ابنةٍ حنونةٍ وشقيةٍ في الوقت نفسه، فذاب تكلُّفه المعهود في حضرة النساء وتصرّف على سجيته. استأثرا بأغلب الحديث، وأتذكّر أنه أخرج من مخبأٍ غامضٍ صندوقَ شكولاتة كبيراً لا يمكنك شراؤه من باريس في الوقت الحالي، وانهمكا في تناوُله مثل طفلَين مُدلّلَين. لم أرغب في الحديث؛ فمجرد مشاهدتهما منحني سعادةً خالصة. أحببتُ أن أراقب ماري، بعدما انصرَف الخدم، وهي تستند بمرفقَيها على الطاولة مثل تلميذة، بشَعرها الذهبي النضرِ ذي التجعيداتِ البسيطة، وتُكسّر الجوز بحماسة مثل طفل مُنح الإذن بمغادرة غرفته والانضمام إلى البالغين لتناول الحلوى وينوي أن يستمتع بالأمر لأقصى حد.

مع أول سيجار دخّنه بلنكيرون، تطرّق إلى العمل.

قال: «أنت حتماً تريد معرفة نتائج العمل الإداري الذي شغلَنا الفترة الماضية في أرض الوطن. حسناً، لقد وجدنا ضالتَنا بفضلك يا ديك. لم نُحرز تقدماً كبيراً حتى صرتَ مولعاً بتصفُّح الجرائد وأنتَ في فراش المرض وأعطيتَنا طرف ذلك الخيط المتعلق بإعلانات «التنفس العميق».»

سألتُ: «إذن فقد أوصلكم إلى شيء.»

أجاب: «أوصلَنا إلى اكتشافٍ مريع. وجدنا أن جوسيتير ليس شخصاً بل جماعةٌ صغيرةٌ بارعةٌ من المُحتالين يترأسهم العجوز جريسون. في البداية كرّستُ جهدي لفهم الرسالة المشفّرة. استغرق ذلك بعضَ البحث لكننا نجحنا؛ فلا تُوجَد شفرة لا يمكن فكُّها إذا علمت أنها شفرة، وساعدَتْنا في ذلك رسائل الردود على الإعلان التي نُشرَت في الصحف الألمانية. حين فككناها وجدنا أنها تتضمّن معلوماتٍ حرجة، وهذا يفسّر التسريباتِ اللعينةَ للأنباء المهمة التي عانَينا منها. في البدايةٍ خطّطتُ لاستمرار هذه العملية مع تحويل جوسيتير إلى منظمة يترأسها جون إس بلنكيرون. لكن لم تُفلِح هذه الخطة؛ إذ مع أول محاولة للعبث في اتصالاتهم شَكّ أفراد المجموعة وأرسلوا رسائلَ استغاثة. وهكذا عكَفْنا على تصفيتهم واحداً تلو الآخر بسريةٍ تامة.»

سألتُ: «ومعهم جريسون؟»

أومأ برأسه علامة الإيجاب. قال: «أعتقد أن رفيقك في الرحلة البحرية يرقُد تحت التراب الآن. لقد جمعنا من الأدلة التي تُدينه ما يكفي لإعدامه عشرات المرات ... لكن ذلك ليس أبرز ما حدث. فقد أمدّتنا شفرتُك تلك بطرفِ خيطٍ يؤدي إلى أفري.»

طلبتُ مزيدًا من الإيضاح، فأخبرَني بلنكيرون بالقصة. كانت لديه دلائلُ كثيرةٌ تشير إلى أن مقر المنظمة الداعمة لعملية «التنفس العميق» في سويسرا. وذهبَت شكوكه إلى أفري في أول الأمر، لكنه عجز عن إيجاد أي أثرٍ له؛ لذا وجه أنظاره إلى الطرف الآخر للخيط، وبدلًا من أن يُحاوِل التوصل إلى المنظمة السويسرية بتتبُّع أفري، تتبّع المنظمة كي يصل إلى أفري. ذهب إلى برن، وتعمّد أن يجعل من نفسه أضحوكةً على الملأ لعدة أسابيع. ادّعى أنه يُروِّج لوجهة النظر الأمريكية، واشترى مساحاتٍ إعلانيةً في الصحافة، أعرب من خلالها عن رسالته تلك بتصريحاتٍ فجة، فهدّدَت الحكومة السويسرية بطرده إذا ما عبث بموقفها الحيادي من الحرب إلى هذا الحد. كما كتب في جرائدِ جنيف كثيراً من الترّهات التهكّمية التي دفع المال لنشرها، معربًا عن موقفه المناصر للسلام ونيته في إقناع ألمانيا بالسلام عَبْر «إعلاناتٍ مُلهمةٍ عن أهدافِ الحربِ النبيلة.» كل ذلك كان يتماشى مع سُمعته في إنجلترا، وأراد به أن يجعل نفسه طُعمًا لأفري.

لكن أفري لم يبتلع الطعم، وعلى الرغم من الاثنَي عشرَ عميلًا الذين يعملون لحسابه في السر، إلا أنه لم يسمع أبدًا عن كيليوس. قدّر أنه اسمٌ يحظى بخصوصيةٍ شديدة وسريةٍ بالغة بين جماعة «الطيور البرية». على الرغم من ذلك تمكّن من جمع الكثير من المعلومات عن الطرف السويسري في عملية «التنفّس العميق». استلزم ذلك بعضَ الجهدِ وكلّفه الكثيرَ من الأموال. وكان من أفضل عملائه فتاةٌ تعمل تحت غطاءِ عارضةٍ في متجرِ قُبعاتٍ نسائيةٍ في مدينة ليون، وحاملُ أمتعة في فندقٍ كبيرٍ في بلديةِ سانت موريتز. وأهم ما توصّل إليه هو أن هناك شفرةً أخرى في الرسائل المُرسَلة من سويسرا تختلف عن الشفرة التي تستخدِمها جماعةُ جوسيتير في إنجلترا. استطاع فَكّ هذه الشفرة، وتَرجَم الرسائل، إلا أنه لم يفهم معناها. استنتَج أن تلك الشفرة وسيلةُ تواصُلٍ شديدةُ السرية بين الدائرة الداخلية للطيور الجامحة، وأن أفري خلفها بلا شك ... غير أنه لم يستطيع إيجاد أي معلومةٍ ذاتِ شأن.

بعد ذلك تغيّر الموقفُ بأكمله بسبب تواصُل ماري مع أفري. ولا بد من الاعتراف أنها تصرّفَت مثل فتاةٍ لعوبٍ قليلةِ الحياء، لأنها واصلَت الكتابة إليه مستخدمةً عنوانًا في باريس أعطاه لها ذاتَ مرة، وبلا سابق إنذار حصلت على ردٍّ لرسائلها. كانت ماري نفسُها

في باريس تساعد في إدارة أحد مقاصف السكك الحديدية، وتُقيم مع آل ميزيريه وهم أقرباءُ لها فرنسيون. وذاتَ يومٍ قدم لزيارتها. عكسَت هذه الخطوةُ جرأتَه وبراعتَه؛ إذ كانت الشرطة السرية الفرنسية بأكملها تُلاحِقه، دون أن تُفلِح في أن يكون على مرأًى أو مسمعٍ منها. ومع ذلك قدم ليتناول الشاي مع فتاةٍ إنجليزيةٍ في وضَح النهار. كشَف لي ذلك عن شيءٍ آخرَ جعلني ألعنُه أيّما لعن. رجلٌ بمثل هذا الإصرار والتفاني في عمله لا بد أن يكون غارقًا في الحُب حتى أذنَيه كي يُخاطِر على هذا النحو.

قدم منتحلًا شخصية النقيب بوميرتس، وهو ضابط أركان في القيادة العامة الفرنسية مسئول عن النقل. لم يكن كاذبًا بشأن عمله مع القيادة. قالت ماري إنها عندما سمعَت الاسم كادت أن تسقُط على الأرض من شدة صدمتها. تحدّث معها بوضوحٍ شديد وفعلَتْ هي المثل. فكلاهما مناصرٌ للسلام، على استعداد لانتهاك قوانين أي بلدٍ لتحقيق هذه الغاية. الله وحده يعلم بالموضوعات التي تحدّثا فيها. قالت ماري إنها ستخجل كلما تذكّرَت هذه الأمور حتى يوم وفاتها، واستنتجتُ أنها أظهرَت أمامه مزيجًا من تحذلقِ لانسلوت ويك وسذاجةِ فتاة صغيرة.

أتى لزيارتها مرةً أخرى، وكثرت لقاءاتهما، دون علم السيدة ميزيريه المُحافظة. تجوّلا في حديقة غابة بولونيا العامة، وذات مرةٍ ذهبَت في سيارته — وقلبُها يدقٌ بجنون — إلى حي أوتوي لتناوُل الغداء. أخبَرها عن منزله في بيكاردي، وكانت هناك لحظاتٌ — حسبما خمّنت — أفصَح فيها عن حبه وتمنّعَت هي متظاهرةً بالخجل مثل فتاةٍ لعوب. سرعان ما صار إيقاعُ علاقتهما حميميًّا، وبعدَ نقاشاتٍ يائسةٍ مع بوليفانت خلال مكالمةٍ هاتفيةٍ غير محلية، اتجهَت ماري إلى مدينة دوفركورت للعمل في مشفى «ليدي مانرووتر». ذهبَت لهناك للهرب منه، لكن كان هدفها الرئيسي على ما أعتقد هو أن تتفقّد قلعة أوكور سانت آن، رغم ارتعاد فرائصها.

عندما أفكّر في ماري أستحضِر القديسةَ جان دارك. فليس بوسعِ أيّ رجلٍ أن يُقدِم على مثل فعلتها. لا يمكن وصفُها بالطيش. بل نمّت فعلتُها عن شجاعةٍ خالصةٍ محسوبة المخاطر.

تابع بلنكيرون الحكاية. كانت الجريدةُ التي عثَرنا عليها في عشية عيد الميلاد في القلعة البالغة الأهمية؛ إذ ميّز بوميرتس الشفرةَ الداخليةَ لجماعة الطيور البرية بقلمه. وهذا أثبَت أن أفري متورطٌ في عملية سويسرا. لكن اتخذ بلنكيرون إجراءاتٍ إضافيةً للتأكد مما توصّل إليه.

قال: «فكّرتُ أنه حان وقتُ التضحية للحصول على معلوماتٍ قيّمة؛ لذا بعثتُ للعدو

جهازًا في غاية الروعة. إن أوليتَ عنايتكَ للشفرات والمراسَلات غير القانونية يا ديك، فستُدرِك أن المستندات التي لا يمكنكَ التدوين فيها بحبرٍ غيرِ منظورٍ هي الأوراقُ المصقولةُ المستخدمةُ في المجلات الأسبوعية التي يطبعون عليها صُوَر الممثلات الشهيرات وقصور إنجلترا التاريخية. فعندما يلامس الورق أي مادةٍ رطبة، يتموج سطحه قليلًا، وسرعان ما يكشف المجهر وجودَ يدٍ عابثة. لكن لحُسْن حظنا وجدنا طريقةً للتغلُّب على هذه العقبةِ البسيطة؛ ابتكرنا طريقةً للكتابة على الورقِ المصقولِ بقلم ريشة دون أن تكتشفَها أعينُ أنبغِ المحلّلين، وكذلك وجدنا طريقةً لاكتشافِ الكتابةِ المكتوبةِ بهذه الطريقة. قرّرتُ التضحيةَ بهذا الاختراعِ والمجازفةَ في انتظارِ العائدِ الكبيرِ الذي سأُحقّقه من ورائه ... ودبّرتُ عمليةَ بيعِه للعدو. تطلّبَت هذه المهمةُ الكثيرَ من الحذَر، لكن الرجل العاشر في السلسلة — وهو يهوديٌّ نمساوي — أبرم الصفقة، وظَفِر بما يُساوِي ٥٠ ألفَ دولارٍ ثمنًا لبيعه. بعد ذلك تواريتُ عن الأنظارِ مترصدًا صديقي الذي سيستخدم هذه الأداة، ولم أنتظر طويلًا.»

أخرج من جيبه صفحةً مطويةً من صحيفة «لا لوستغاسيو». وعلى صورةٍ محفورةٍ ضوئيًا كانت هناك بضعُ كلماتٍ ذات حروفٍ متباعدةٍ طويلةٍ كأنها مرسومةٌ بريشة.

قال: «عندما حصلَتُ على هذه الصفحة، بالأمس، كانت مجرد صورةٍ عادية للجنرال بيتان في حفل تقديم الأوسمة العسكرية. لم يكن هناك أي خدوشٍ أو تموُّجات على سطحها. لكني انكبَبتُ على فحصها، وانظر ماذا وجَدت!»

أشار إلى اسمَين. كانت الكتابةُ عبارةً عن مجموعةٍ من الكلمات المفتاحية التي نجهل مغزاها غير أنه برَز من بينها اسمان أعرفُهما تمام المعرفة. والاسمان هما «بوميرتس» و«كيليوس».

هتفتُ: «يا إلهي! مدهش. هذا إن دلّ على شيء فهو أنك عندما تمضغ كثيرًا ...»

قالت ماري: «لا تذكُر هذا التشبيه مرةً أخرى يا ديك. أقل ما يُقال عنه إنه تشبيهٌ قبيحٌ إلى جانب أنه صار مبتذلًا من كثرة ما كرّرْتَه.»

سألتُ: «مَن هو أفري على أي حال؟ ألديكِ معلوماتٌ غير ما عرفناه عنه في الصيف؟ من الشخصية التي انتحلها بوميرتس يا ماري؟»

أجابت ماري بلا اكتراث، كأنه أمرٌ عاديٌّ أن يقع جاسوسٌ في غَرامها، ما خفّف انزعاجي: «تظاهَر أنه رجلٌ إنجليزي. عندما عرَض عليّ الزواج، اقترحَ أن أعيشَ معَه في منزلٍ ريفيٍّ في مقاطعة ديفونشير. وأظن أن لديه منزلًا آخرَ في اسكتلندا. لكنه بالطبع

ألمانيٌ الجنسية.»

قال بلنكيرون ببطء: «أجل. لقد عرفتُ تاريخه، وما وجدتُه لم يكن مُبشرًا بالمرة. استغرقَت عملية البحث بعض الجهد، وتحقّقتُ من كل الروابط التي عثرتُ عليها ... هو ألمانيٌ نبيلٌ ذو مكانةٍ رفيعةٍ بين أبناء جلدته. هل سمعتَ من قبلُ عن الكُونت فون شبابينج؟»

هزَزتُ رأسي علامةَ النفي.

قالت ماري وهي تُقطِّب حاجبَيها: «أظن أنني سمعتُ العم تشارلي يذكُره ذات مرة. كان يخرج للصيد مع جماعة بيتشلي.»

قال: «هذا هو. لكنه لم يُشارك في أنشطة هذه الجماعة منذ ثماني سنوات. في ذلك الوقت كان مثالًا للوجاهة في البلاط الألماني؛ إذ كان ضابطًا في الحرس، سليلَ أسرةٍ عريقة، غنيًّا، شديدَ الدّهاء، وما شابه ذلك من صفات الجاه. أحبّه قيصرُ ألمانيا لأسباب يسهُل معرفتها. أعتقد أن رجلًا بهذه الشخصية الثرية مثل «الكونت» تطيبُ صُحبتُه في الأمسيات. سيعلو شأنه، لا سيما بين الألمان، الذين لا يتميّزون بحسٍّ فكاهيٍّ في ظني. على أي حال، كان ذا حظوةٍ عند القيصر، وبذلَت كلُّ الأمهات غايةَ جهدها لتزويج بناتها بأوتو شبابينج. ونال شهرةً مماثلةً في لندن ونيويورك وباريس. اسأل سير والتر عنه يا ديك. يقول إنه أكثر دهاءً من كولهمان ولباقةً من النمساوي الذي ما فتئ يذكُر محاسنه ... على أي حال، ذاتَ يومٍ حدثَت فضيحةٌ كبيرةٌ في البلاط الألماني، فسقط الكونت في هاوية بلا قرار. خرجَت واقعةٌ شديدةُ الوحشية إلى الملأ، ولا أظن أن شبابينج كان متورطًا فيها مثل الآخرين. المشكلة هي أن أولئك الآخرين كان يجبُ حمايتُهم مهما كلّف الأمر، فكان شبابينج هو كبش الفداء. وخرج اسمُه إلى الجرائد واضطُر إلى ترك منصبه.»

سألتُ: «ماذا كان اسم القضية؟»

ذكَر بلنكيرون اسمًا، وأدركتُ لِمَ بدا اسم شبابينج مألوفًا. فقد قرأتُ القصة منذ أمدٍ بعيدٍ في روديسيا.

تابَع بلنكيرون: «قضت عليه تلك الفضيحة. فقد عُزل من منصبه، وطُرد من داوئره الاجتماعية، ونُفي من الدولة ... كيف ستشعُر يا ديك لو أنك مكانَه؟ ماذا ستشعُر لو تدمّرت حياتُك ومهنتُك وسعادتُك من أجل حمايةِ أميرٍ صغيرٍ دنيء؟ سينتابك غضبٌ عارم، أليس كذلك؟ ألن تشتهيَ فرصةً للانتقام ممن أطاحوا بك؟ ألن تفعل كل ما

يلزم حتى تُجبِر القيصر على أن يأتيك راكعًا باكيًا طالبًا الصفح وإن كنتَ لا تنوي إجابتَه لمطلبه؟ هذا ما ستشعُر به أنت، لكن هذه ليست طريقة الكونت، بل ليست طريقة الألمان. ذهب إلى المنفى، يشعُر بالكراهية تجاه البشر أجمعين ويحمل قلبًا يُضمِر الحقد والشر، لكنه كان يتوق للعودة إلى وطنه. وسأخبرك بالسبب. ليس للألمانِ أمثاله على سطح البسيطة وطنٌ آخرُ سوى وطنهم. أعلم أن الكثير من أحفاد التوتونيين القدامى الصالحين يأتون إلى دولتنا الصغيرة ويستقرُّون فيها بشكلٍ غيرِ قانوني ثم يصيرون أمريكيين متحضرين. إذا أمسكتَ بهم في الصغر ولقنتَهم إعلانَ الاستقلال وجعلتَهم يدرُسون جرائد الأحد فستنجحُ في تمدينهم بدرجةٍ كبيرة. وإلا، فلن تستطيع إنكار وجود غرابةٍ متأصلةٍ في طبيعة الألمان في المطلق. هم شعبٌ غريبُ الأطوار، بل في قمة الغرابة، وإلا ما نظّموا كلّ عمليات الغزو الوضيعة والفاحشة في أنحاء العالم. لكن هذه الغرابة البادية ظاهريًا بين الطبقة العاملة متأصلةٌ في نبلائهم. فالأرستقراطيون الألمان لا يستطيعون الانسجامَ مع الطبقات الراقيةِ في أي مجتمع. يتجوّلون حول العالم في خُيلاءَ وتحذلُقٍ رغم معرفتهم تمامَ المعرفةِ بسخريةِ العالم منهم. يشبهون في ذلك رجلًا من أصلٍ متواضعٍ اغتنى فاشترى حلّة وحضَر أمسيةً راقيةً بلا دعوة. هم لا يعرفون آداب السلوك ... ويجدُ النبيلُ الإنجليزي الأصيل نفسَه مدفوعًا لتنبيه نفسه مرةً تلو الأخرى لمعاملتهم أندادًا له بدلًا من إرسالهم إلى غرفة الخدم. بهرجتهم المفرطة تكشف عن ابتذالهم الأبدي. لن يكونوا نبلاء أبدًا لأنهم يفتقرون إلى الثقة بالنفس. يهزأ العالم بهم، على مسمع منهم، ما أصابهم بالغضب الشديد ... لذا عندما طُرِد الكونت من أرض أجداده، وجد نفسه مضطرًا للتسلّل إليها من جديد، وإلا قضى ما تبقى من عمره مُشرّدًا كاليهود.

أشعل بلنكيرون سيجارًا آخر ثم فحصَني بعينَين متأملتَين ثابتتَين.

وقال: «لمدة ثمانِي سنواتٍ سخّر هذا الرجل جسدَه ورُوحَه لأولئك الذين حطّوا من شأنه. لقد استعاد منصبه عن جدارة وأستطيع الجزم أنه قد ضمنه. لو أن المرء يُكافأ على مهاراته لتغطّى جسدُه بالأوسمة والنياشين ... فهو يمتلكُ مجموعةً كبيرةً من المهارات الفطرية. كما أنه يعرف الدول الأخرى وبارع في استخدام اللغات الأجنبية. بجانب براعته الفائقة في انتحال الشخصيّات. هذه عبقريةٌ حقيقية، يا ديك، وإن وضعت الكثيرَ من العراقيل في طريقنا. وفوق ذلك كله، فإنه يتسم بالذكاء الشديد. فلم أرَ من هو أذكى منه قَط على الرغم أني قابلتُ بعضَ الأذكياء في حياتي ... وسيفوز إن لم نبذُل أقصى وسعنا.»

كان هناك طَرقٌ على الباب ثم ظهرَت بِنْية أندرو آيموس القوية.

قال: «حان وقتُ عودتكِ للمنزل يا آنسة ماري. لقد تجاوزَت الساعة الحادية عشرة والنصف، فيما صَعِدتُ الدرَج. يبدو أن السماء ستمطر؛ لذا أحضرتُ معي مظلة.»

قلتُ: «سؤالٌ أخير. كم هو عمره؟»

أجاب بلنكيرون: «بلغ السادسة والثلاثين منذ قريب.»

استدرتُ إلى ماري التي أومأَت برأسها. قالت بنبرةٍ عابثةٍ وهي ترتدي معطفَها الواسعَ من ماركة «ياجر»: «يصغرك سنًّا يا ديك.»

قلتُ: «سأوصلكِ للمنزل.»

قالت: «مرفوض. قضَينا ما يكفي من الوقت معًا. سيصحبني أندرو هذا المساء.»

تَبِعها بلنكيرون بعينَيه والباب ينغلقُ خلفها.

قال: «أرى أنك حظِيتَ بأفضلِ فتاةٍ في العالم.»

كان بُغضي للرجل الذي ضاجَع ماري يخنقُني، فقلتُ في عبوس: «هذا ما يعتقدُه أفري أيضًا.»

قال بلنكيرون: «يمكُنكَ معرفة السبب. خرج هذا المُنحَلُّ من طبقته الفاسدة مدللًا منعّمًا متخمًا بمتع الحياة السهلة. ولم يرَ من النساء في دولته سوى أسوئهن وأكنزهن لحمًا. أكره التحدُّث بالسوء عن النساء، لكني طالما رأيتُ نساءَ ألمانيا مبتذلات. لقد قضى سنواتٍ عصيبةً وسط المكائد والأخطار، ورافَق الأوغادَ بجميع صنوفهم. لا تنسَ أنه رجلٌ عظيمٌ وشاعرٌ، بذكاءٍ ومخيلةٍ تجعلانه قادرًا على استشفاف حقيقة الناس بسهولة على اختلاف طبقاتهم. وفجأةً يلتقي بامرأةٍ نقيةٍ وجميلةٍ مثل زهرة الربيع، متّقدة الذهن، في غاية البسالة، وفوق ذلك شابّة مَرِحة. إنها تجربةٌ جديدةٌ بالنسبة له أو اكتشافٌ مدهش، وهو عاقل بما يكفي ليُقدرَها حقّ قَدْرِها ... بوسعي يا ديك أن أتفهّم استياءك، لكن أرى ذلك له لا عليه.»

قلتُ: «ستظل نقطةَ ضعفه على أي حال.»

كرّر بلنكيرون بجدية: «نقطة ضعفه، لنَدْعُ الله ألا ننسى ذلك.»

في صباح اليوم التالي المُوحِل الكئيب، صحبَني بلنكيرون في جولةٍ بسيارته حول باريس. صَعِدنا خمسةَ طوابق إلى شقةٍ في حي مونمارتر؛ حيث تحدّثتُ إلى رجلٍ بدينٍ

يرتدي نظارات ويتحدّث ببطء، وعرفتُ معلوماتٍ كثيرةً تُهمّني بشكلٍ كبير. بعد ذلك ذهبتُ إلى غرفة في جادّة سان جيرمان، تُفضي إلى مكتبٍ سري؛ حيث اطلعتُ على جرائدَ وخرائطَ وبعضِ أرقامٍ مُدوّنة على ورقة، فتحت عينيّ. تناولنا الغداء في مقهًى متواضعٍ في زاويةٍ منزويةٍ خلف القصر الملكي، مع رفيقَين ألزاسيّين يُجيدان الألمانية أكثر من الألمان أنفسهم، وكنّا نخاطبهما برقمَيهما لا باسمَيهما. بعد الظهيرة، ذهبتُ إلى بنايةٍ منخفضةٍ بجوار مُجمّع «ليزانفاليد»، وقابلتُ العديدَ من الجنرالات، من بينهم أكثر من واحدٍ مألوف الملامح في نصفَي الكرة الأرضية. أعطيتُهم جميعَ معلوماتي، وفحصوني مثل مجرمٍ مُدان، ثم دوّنوا التفاصيل المتعلقة بمظهري وأسلوبي في الحديث في دفترٍ. فعلتُ ذلك لأُمهّد الطريقَ لنفسي، في حال الضرورة، للانضمام إلى الجيش الضخم الذي يعمل في الخفاء ويُعلم رئيسه دون أن يُعلم زملاءه في المهنة.

توقف المطر قبل حلول المساء، وسرتُ وبلنكيرون إلى الفندق، في غسَقٍ أصفرَ ليموني، تراه في فرنسا في فصل الشتاء. مرَرْنا بمجموعة من الجنود الأمريكيين، فلم يستطع بلنكيرون أن يمنع نفسه من التوقُّف وإطالة النظر بهم. لاحظتُ أنه امتلأ بالزهو وإن لم يُظهِره.

سأل: «ما رأيك في هؤلاء؟»

قلتُ: «جنودٌ من الطراز الأول.»

مطّ في كلامه مُنتقدًا: «الرجالُ لا بأس بهم، لكن بعض الضباط الشباب ليس لديهم القوام المناسب نوعًا ما. يحتاجون إلى خسارة القليل من الوزن.»

قلتُ: «سيحصُل هؤلاء الجنود الشرفاء على القوام المناسب عما قريب. فلا يحتفظ المرء بوزنه كثيراً في هذه الحرب.»

سأل في حياء: «اصدُقني الحديث يا ديك، وأخبرني كيف ترى جنودَنا الأمريكيين؟ لقد رأيتَ الكثيرين؛ لذا سآخُذ حُكمك بعين التقدير.» كانت نبرتُه نبرةَ كاتبٍ خجول يطلب الرأي في كتابه الأول.

قلتُ: «سأُخبرك برأيي. أنتم الآن تشكّلون جيشًا عظيماً من الطبقة المتوسطة، ولا شيء أعتى من هذه الآلة القتالية على وجه الأرض. فهذه الحرب ليست بحاجة إلى محاربٍ برسكيٍّ هائج بقَدْر حاجتها إلى محاربٍ هادئٍ ذي عقلٍ مستنيرٍ وعزيمةٍ صادقة. تمتلئ صفوف الأمريكيين بشتى أصناف الرجال بدايةً من رعاة الأبقار وانتهاءً بالطلاب الجامعيين لكنها تتشكل في أغلبها من الشباب المهذّب ذي المستقبل الواعد الذين

يحاربون لشعورهم بالواجب لا لمحبتهم للحرب. إنه الجيش نفسه الذي ساعدكم على تجاوز محنة الحرب الأهلية الأمريكية. نحن كذلك لدينا فرقةٌ من الطبقة المتوسطة؛ القوة الإقليمية الاسكتلندية وهي مكوّنة في أغلبها من الموظفين والباعة والمهندسين وأبناء الفلاحين. عندما التقيتُ بهم للمرة الأولى الأمر الوحيد الذي لم يُعجِبني هو أن الضباط لا يتفوّقون كثيراً على الجند في الكفاءة. ولا يزال الوضع كذلك، لكن الجند في غاية البراعة وكذلك الضباط بالتبعية. تحظى هذه الفرقة بأعلى العلامات في سجل الألمان لبراعتها القتالية ... وهذا ما سيكون عليه الجيش الأمريكي بمشيئة الرب. تخلص من ذلك التصور القديم عن الوحدات العسكرية المكوّنة من أوغادٍ يقودهم دوقات. كان هذا فعّالًا، ربما، في زمن يُدفع فيه الجند إلى المعارك مُلوّحين بالرايات، لكن لن يُفيدَ ذلك مع المتفجرات، ومليونَي جندي في كل جانب، وجبهةِ قتالٍ تمتدُّ لخمسمائة ميل. البطل في هذه الحرب هو الرجلُ البسيطُ من الطبقة المتوسطة الذي يريد العودة إلى وطنه؛ لذا فإنه سيستغل كل قدراتِه العقلية وجميع ما يملكُ من عزمه ليُنهيَ عملَه في القريب العاجل.»

قال بلنكيرون متأملًا: «هذا صحيحٌ تقريبًا. يُشعِرني هذا بالرضا نوعًا ما، خاصة وأنتَ تعلَم مدى تقديري للجيش البريطاني. ما هي الفرقة التي تعتبرها الأفضل؟»

أجبتُ: «جميعُها. يمتاز الفرنسيون بالحكم السليم وهم يعتبرون الاسكتلنديين والأستراليين الأفضل. أما أنا فأرى أن العمود الفِقري للجيش هو كتائب المقاطعات الإنجليزية التقليدية التي لا تكاد تجذب انتباه الصحف إليها. لو طُلب مني أن أختار فسأختار الجنوب أفريقيين، وإن لم أكن متيقنًا أنهم الأفضل. هناك لواءٌ واحدٌ فقط منهم غير أنهم يُظهِرون بسالةً منقطعةَ النظير في المعارك. لكنك ستقول إنني منحاز لصفهم.»

مطّ بلنكيرون في كلامه: «حسنًا، أنتم أصحابُ إمبراطوريةٍ عظيمةٍ على أي حال. جلتُ فيها طولًا وعرضًا، ولا أتخيل كيف تمكّنَت طبقة النخبة القديمة في تلك الجزيرة الصغيرة من تجميع هذه الإمبراطورية. لكني سأُخبرك بسرٍّ يا ديك. قرأتُ في الصباح في إحدى الجرائد عن وجود تآلفٍ فطري بين الأمريكيين ورجال المستعمرات البريطانية. خذ هذا الأمر مني، لا يوجد تآلف، بالنسبة لي على الأقل. فأنا لا أفهمُهم على الإطلاق. عندما أرى الأستراليين بقامتهم الطويلة، وقوامهم الممشوق، وأعينهم المتلألئة، أشعر كأنني أنظر إلى سكانِ كوكبٍ آخر. وباستثنائك أنتَ وبيتر، لا أفهم الأفريقيين الجنوبيين. يعيش الكنديون بجوارنا، لكن إن خلطتَ بين الكنديين والأمريكيين في

تعليقاتك، فستتلقى لكمةً في عينَيك ... لكن غالبية الأمريكيين يفهمون جيداً أبناءَ بلدك. وستجدُنا في غاية الاحترام للأجزاء الأخرى من إمبراطوريتك، لكننا نقولُ رأْيَنا في إنجلترا بحرية. كما ترى، نحن نعرفها جيداً ونُحبها كثيراً، حتى إننا نتصرّف على سجيّتنا معها.»

عندما بلغنا الفندق، اختتم كلامه قائلًا: «يُشبه الأمر ... يُشبه الأمر مجموعةً من الفتيان ترقّوا في مراتبِ الحياة، فنشأَت بينهم الغَيرة وصارو يتعاملون فيما بينهم بحَيْطة. لكنهم يتخلّون عن حذَرهم مع الرجل العجوز الذي كان يُؤدّبهم بخيزرانةٍ جَوْزية فيما مضى، على الرغم من أنهم كانوا ينعتونَه بالمُتزمّت أثناء طَيشِهم.»

في تلك الليلة، على العَشاء، تحدّثتُ وبلنكيرون وعقيدٌ فرنسيٌّ شابٌّ من القسم الثالث في القيادة العامة العليا — عن العمل بشكلٍ مكثف. وبلنكيرون، حسبما أذكُر، شعَر بالإهانة الشديدة من وصف الفرنسي له بأنه رجلُ أعمالٍ مع أنه قصد بذلك مدحَه لا ذمّه.

قال بلنكيرون: «توقّف. لهذا الوصفِ مدلولٌ سيئٌ عندي. هناك صنفان من البشر، أحدُهما يتّصف بالعقلانية والآخر لا يتصفُ بها. ستجدُ غالبية الأمريكيين يكسبون قوتَ يومِهم من التجارة، لكنّنا لا نرى أن الرجل الذي يُحسِن في التجارة أو الذي لدَيه ثروةٌ ضخمة يُحسِن في كل شيءٍ بطبيعة الحال. وقد انتخبنا أستاذًا جامعيًّا رئيسًا لنا، ونُطيع أوامره مثل الأطفال المهذّبين، على الرغم من أنه لا يَجني أكثر مما يَجنيه مديرو أعمالٍ بعضنا. أنتم، أيها الإنجليز، مهووسون بالتجارة، وتعتقدون أن الرجل الذي جمع أموالًا طائلةً من المضاربة في البورصة لهو قادرٌ على تسيير شئون الحكومة. يُصيبُني ذلك بالغثيان. أنتم أمهر الشعوب في التجارة على مستوى العالم، لكن بالله عليكم لا تبدَءوا التحدُّث في الأمر، وإلا فستخسرون قوّتَكم. ولا تخلطوا بين إدارة الأعمال الحقيقية وجمع الدولارات الذي لا يتطلّب موهبةً خاصة. فأيٌّ رجلٍ عاقلٍ يستطيع جمعَ المال إذا أراد، لكن قد لا يكون ذلك ما يريده. ربما يفضّل المرح الذي تحقّقه له الوظيفة ويترك للآخرين اكتناز المال. أعتقد أن أكبر تجارةٍ تُدار في العالم اليوم هي اللوجستيات التي تُعنى بتوفير الطعام والدعم والنقل لأفراد جيشكم. فهي تتفوّق تماماً على شركة الفولاذ الأمريكية وشركة «ستاندرد أويل» للنفط. لكن المسئول عن كل هذا لا يكسب أكثر من ألف دولار في الشهر ... لقد بدأَت دولتُك تعبُد المال يا ديك. كفى. ما يُفرّق بين البشر أمرٌ واحد، وهو العقلانية من عدمها، وفي الأغلب لن تجد الرجل الذي يكسب مليارات الدولارات من التجارة في السندات أكثر عقلانيةً من أخيه

البسيط الذي يعيش في كوخٍ متواضعٍ ويبيع أكواز الذرة. لا أتحدّث من باب الغَيرة الآثمة؛ ففي الماضي كانوا يعتبرونني ملكَ السكك الحديدية، وتقاعدتُ بثروةٍ تفوقُ ما يجمعه الملوك عادةً عند التقاعد. لكن ليست لديّ حكمة العجوز بيتر، الذي لم يمتلك حسابًا بنكيًّا قط ... والمنطق هو الذي يفوز في هذه الحرب.»

طرح العقيد، الذي كان يتحدّث بإنجليزيةٍ جيدة، سؤالًا عن خطاب ألقاه أحدُ السياسيين.

قال بلنكيرون: «القادة السياسيون يعوزهم شيء من المنطق. هم متحدثون بارعون. لكن هذا لا يهم؛ فأفكارهم تنقصها الحكمة. ما رأيك في الخطاب يا ديك؟»

قلتُ: «أظنه الأسوأ منذ معركة إيبر الأولى. الجميع يتحدث بنبرة المنتصر لأسبابٍ الربُّ وحده يعلَمها.»

كرّر بلنكيرون: «الربُّ وحده يعلمها. هي عمليةٌ حسابيةٌ بسيطة ولا يمكنك إنكارُها لبداهتها. خرجَت روسيا من تلك الحسبة. ولن يحصُل الألمان على الغذاء منها لمدةٍ طويلة، لكن بإمكانهم الحصول على مزيدٍ من الرجال، وقد فعلوا. رغم أن الألمان لم يستغلوا كامل طاقتهم بعدُ، فقد استطاعوا جلبَ القوات والمدافع إلى الجبهة الغربية، وهذا جعلَهم مساوين للحلفاء في القوة نظريًّا. لكنهم فعليًّا أقوى من الحلفاء. فلدَيهم سككٌ حديدية أفضل، وقواتهم متمركزة في مواضعَ قريبةٍ من جبهتهم، وهو ما يمكّنهم من حشدها بسرعة لمهاجمة على أي جزءٍ من جبهتنا. لستُ محاربًا، لكن أليس هذا هو الوضع يا ديك؟»

ابتسم الرجل الفرنسي وهزّ رأسَه. قال: «ومع ذلك لن يخترقوا دفاعاتنا. لقد فشلوا في ذلك عندما كان عددهم ضعفَ عددنا في ١٩١٤، ولن يتغيّر ذلك الآن. إذا عجز الحلفاء عن الانتصار العام الماضي بالرغم من جيشهم الجرار، فكيف يُحقّق الألمان ما عجزوا عنه وهم يتساوَوْن معهم في العَدد؟»

بدت أماراتُ عدم الاقتناع على وجه بلنكيرون. قال: «هذا ما يقوله الجميع. تحدثتُ مع جنرال في الأسبوع الماضي عن الهجوم القادم، وقال إنه يأمُل حدوثَه في القريب العاجل، لأنه يرى أن ذلك الهجوم سيبُثّ الرعب في قلوب الألمان. لعل تلك الروح المعنوية المرتفعة أمرٌ جيد، لكنها لا تتناسَب مع الحقائق فيما أرى. لدَينا جيشان جرّاران من المُقاتلين الأشداء، لكن لكلٍّ منهم قيادة منفصلة؛ لذا فإن تحركاتنا يعوزها الاتساقُ مثل مجموعةٍ من الأجراس تُجلجِل في غير تناغُم. أما الألمان فجيشُهم تحت

قيادةٍ واحدة، كما أنهم يتمتّعون بخبرةٍ عسكريةٍ عمرها أربعون سنة، وفوق ذلك سيخرجون بكامل قوتهم هذه المرة. سيحطّمون جبهتنا قبل أن تنضَم أمريكا إلى صفوفنا أو يهلكون دون ذلك ... برأيك لم خفتَت الأصواتُ الداعيةُ للسلام في ألمانيا أو ما سرُّ حماسة أولئك الأشخاص الذين تحدّثوا عن الديمقراطية في الصيف للقتال حتى النهاية؟ سأجيبُك. هذا بسبب وعد العجوز لودندورف الألمانَ بأن يتحقّق لهم الفوز في الربيع إذا ما أنفقوا المزيد من الرجال، والألمانُ قومٌ بارعون في القمار، وقد خرجوا مُعتزمين الفوز. هذه المرة لن نواجه هجوماً محلياً محدوداً. بل سنُواجه أمةً عظيمةً تعجّلَت الخروج حتى تنتصِر أو تهلك دون ذلك. لو خَسِرنا، فستُضطَر أمريكا إلى خوضِ حملةٍ جديدةٍ وحدَها حينما تتجهز، ما يوفِّر للألمان الوقت الذي يحتاجونه لتصيرَ روسيا مصدراً لغذائهم ولتقويض حصارنا. وهذا يعني أن الحرب قد تمتدُّ لخمس سنواتٍ أو عشر. لكن هل ستتحمّل شعوبُنا الحرة المُستقلة كل هذه السنوات؟ ... أقول لكَ إننا نفكر في ترك الحرب قبل عيد الفصح.»

استدار ناحيتي، فأومأتُ برأسي موافقًا.

قلتُ: «أشاطرك الرأي نوعًا ما. يجب أن نصمُد، لكننا سنبذل في ذلك أقصى جهدنا. سنحاربُ في ستة الأشهر القادمة دون أن يكون لدَينا مجالٌ للخطأ تقريبًا.»

هتف الرجل الفرنسي: «طرحتُم الأمر على نحوٍ متشائم جدًا يا أصدقاء. ربما نخسر ميلًا أو ميلَين من الأرض — أجل. لكن ليس من الوارد أن يُلحِقوا بنا ضرراً حقيقيًا. كانت فرصةُ الألمانِ أفضلَ في معركة فردان وخَسِروا. لِمَ سينجحون الآن؟»

ردّ بلنكيرون: «لأنهم يراهنون بكل ما يملكون. إنه النضالُ المستميتُ الأخير لحيوانٍ جريح، وفي هذه النضالات يقضي الصائدُ نحبَه في بعض الأحيان. ديك مُحِق. لدينا مساحةٌ ضئيلةٌ للخطأ، وإذا زادت أعباؤنا، ولو بمقدار ذرة، فستُحدِث تأثيراً كبيراً. المعركة دائرةٌ في الميدان، وكذلك في كل زاويةٍ من أراضي الحلفاء. لهذا يجب أن نثأر من «الطيور البرية» خلال الشهرَين القادمَين.»

ابتسم العقيدُ الفرنسي — واسمه دو فالبير — عندما سَمِع اللقب، وأجاب بلنكيرون السؤالَ الذي لم أتفوه به.

قال: «سأشبِع بعضَ فضولك يا ديك لأنني جمعتُ قَدْرًا كبيراً من المعلومات عن هذه المجموعة المتنوعة من الجواسيس. لدى ألمانيا جيشٌ عظيمٌ من الجواسيسِ خارجَ حدودها. نقتُل دفعةً منهم، من حينٍ لآخر، لكن يواصل الآخرون العمل بكدٍّ ويُحدِثون

أضراراً جسيمة. يمتاز هؤلاء بالتنظيم الجيد، لكنهم لا يستعينون بعناصرَ بشريةٍ أكفاءٍ مثلنا، وأعتقد أن ما يَجْنونه من منافعَ لا يقرُب في القَدْر مما يتكبّدونه من عناء. لكن ها هم. إنهم ضباطُ المخابرات ومهمتُهم هي إعادةُ توجيه المعلومات. هم الطيور في القفص، أو — بمَ سماهم صديقك؟»

قلتُ بالألمانية: «الطيور المنزلية.»

واصل: «أجل، لكن ليس كل الطيور المنزلية حبيسة. ثمّة جماعةٌ منها طليقة، وهذه لا تجمع المعلومات. إنما مهمّتُها تنفيذُ العمليات. هي تُوكّل بحل أيّ وضعٍ متأزّم، ولدَيها سلطة تُخوّلها أن تتصرف دون انتظار التعليمات من الوطن. تقصّيتُ أثَرها حتى تعب عقلي ولم أعثر إلا على ستة أشخاصٍ يمكنني الجزمُ أنهم أعضاءٌ في تلك الجماعة. من ضمن هؤلاء ذلك اليهوديُّ البرتغاليُّ الذي تعرفه. هناك أيضًا امرأةٌ من مدينة جنوا، وهي أميرةٌ متزوجةٌ بمستثمرٍ يوناني. الشخصُ الثالثُ مُحرِّرٌ في جريدةٍ داخليةٍ داعمةٍ للحُلفاء في الأرجنتين. والرابع قسٌّ مَعمَدَانيٌّ في ولاية كولورادو. والخامسُ جاسوسٌ شرطيٌّ في حكومة الإمبراطور الروسي، ثم صار ثوريًا متحمسًا في القوقاز. أما الشخصُ الأخيرُ والأهم فهو موكسون أفري بالطبع، الذي كان الكونت فون شبابينج في العصورُ الزاهية. لا يعرفُ بوجود هؤلاءِ أكثرُ من مائةِ شخصٍ في العالم كله، وهؤلاء المائة يُسمّونهم «الطيور البرية».»

سألتُ: «هل يعملون معًا؟»

أجاب: «أجل. لكلٍّ منهم مهامُّه الخاصة، لكنهم يتعاونون إذا ما أرادوا تنفيذَ عمليةٍ شيطانيةٍ كبيرة. جاء أربعةٌ منهم إلى فرنسا منذ سنة، قبل معركة أيسن، وكادوا أن يُفكّكوا الجيشَ الفرنسي. أليس كذلك أيها العقيد؟»

أومأ العقيد متجهمًا. قال: «أغرَوا جنودَنا المُنهَكين وقدّموا رشواتٍ لسياسيينَ كُثر. وأوشكوا على تحقيق غايتهم لكنهم عجزوا في النهاية. فقد استعادت الأمة رُشدَها، وهي الآن تُحاكِم المُتواطئين وتقتلُهم دون استعجال. لكننا لم نقبِض على المسئولين الرئيسيين.»

قال بلنكيرون: «أسمعتَ يا ديك؟ هل أنتَ راضٍ الآن أن هذا ليس وليدَ خيالاتِ عجوزٍ أمريكيٍّ مُبالِغ؟ سأخبرك بالمزيد. أنتَ تعرف كيف أدار أفري مسألة الغوّاصة من إنجلترا. الطيورُ البريةُ كذلك تقِف خلف تحطيم روسيا. كان أفري مَن دفع للبلشفيين لإغواء أفراد الجيش، واستغل البلشفيون مالَه لخدمة مصالحهم، ظنًا منهم أنهم

يُخادعونه، وتبيّن أنه كان يضحك مثل إبليسَ طيلةَ هذا الوقتِ لأنهم كانوا يخدمون أجندته. كان أفري أو شخصٌ آخرُ من هذه المجموعة مَن أثّر على الألوية التي سقطَت في معركة كابوريتو. لو بدأتُ أحكي لك تاريخهم، لما استطعتَ الخلودَ إلى فراشك، ولو فعلَت فسيهرُب النوم من عينَيك. هكذا هو الأمر. كل العمليات الشيطانية البارعة السابقة التي نفّذها الألمان بين الحلفاء، منذ أغسطس ١٩١٤، هي من صنيع «الطيور البرية»، ومن تنظيم أفري بشكلٍ أو آخر. هذه المجموعة تُساوِي ستةَ فيالقَ عسكريةٍ بالنسبة للودندورف. إنهم أخطرُ مجرمين رآهم العالم، وهم يتمتّعون برباطةِ جأشٍ بالغة ...»

قاطعتُ: «لا أدري. فلدى أفري نقاطُ ضعف. قد شهدتُها بنفسي في محطة قطار الأنفاق.»

قال: «ربما، لكنه يملك القَدْر الذي يلزمه من الشجاعة. أتخيّله الآن يحشد السرب.»

تفقّد بلنكيرون دفتر ملاحظات. وتابع: «بافيا — الرجل الأرجنتيني — اتجه إلى أوروبا الشهر الماضي. انتقل من باخرةٍ ساحليةٍ في جزر الهند الغربية، وفقَدنا أثَره بصورةٍ مؤقتة، لكنه ترك الأرض التي يُجري فيها عملياته. ماذا يعني هذا في اعتقادك؟»

واصل بلنكيرون بجدية: «هذا يعني أن أفري يعتقد أن اللعبة على وشك الانتهاء. اللعبة الآن تشُق طريقها إلى الذروة ... وتلك الذروة ستكون هلَاكَ الحلفاء إلا إذا أسرعنا بإحباطها.»

قلتُ: «صحيح. هذا سببُ وجودي هُنا. ما الخطوة التالية؟»

قال: «لا بد ألا تعود «الطيور البرية» إلى موطنها، ولا بد من قَتل ذلك الرجل الذي يُسمونه أفري أو بوميرتس أو كيليوس. هذا مُقترحٌ مُتوحّش لكن حياته في كفة والعالم في كفة. وقبل أن يغادر الحياة، لا بد أن نعرف بمُخطّطاته، ما يعني أننا لا يمكِننا أن نقنصَه برصاصة في رأسه فحسب. بل يجب أن نعثر عليه أولًا. نظن أنه في سويسرا، لكن تنوُّع طبيعتها الجغرافية يجعل من السهل أن نفقد أثَره فيها ... مع ذلك أظن أننا سنجده. ستحتاج هذه المهمة لأن نُخطِّط لها بعناية مثلما نُخطط للمعارك. سأعود إلى حيلتي القديمة في مدينة بِرن لإدارة المشهد وإعطاء الأوامر. أنتَ ابنٌ بارٌّ يا ديك؛ فلن أقلقَ من ناحيتك.»

بعد ذلك فعل بلنكيرون شيئًا منذرًا بالسوء. سحَب طاولة صغيرة وبدأ يرُصُّ بطاقاتِ لعبة «سوليتير». منذ أن تعافى من التهاب الاثنَي عشر، كان قد تخلى عن هذه العادة؛

لذا فإنني خمّنتُ من عودته إليها أنه يشعُر بالاضطراب. أتذكّر المشهد كأنه حدث البارحة — العقيد الفرنسي في مقعده الوثير يُدخّن سيجارة في مبسمٍ طويل أصفر، وبلنكيرون على حافة مقعدٍ عثمانيٍّ حريريٍّ أصفر يُوزِّع بطاقات اللعبة وينظر ناحيتي بخجل.

قال: «ستحظى بصحبة بيتر في القريب العاجل. إنه رجلٌ حزين، لكنه يتمتع بقلبٍ كبير، لقد أفادني كثيراً بالفعل. سينقلونه إلى إنجلترا قريبًا. السلطاتُ تخشاه لأنه لا يستطيع ضبط لسانه في العادة؛ إذ أثار اعتلالُ صحتِه حفيظتَه تجاه البريطانيين. لكن الإجراءات البيروقراطية الرتيبة تستغرق وقتًا في أيِ مكان بالعالم، وستتأخّر الأوامرُ بترحيله إلى وطنه.» وغمَز بعينه اليسرى ببطءٍ شديدٍ وبتعمّد.

سألتُ إذا ما كنتُ سأصحب بيتر مبتهجًا أيما ابتهاجٍ من الفكرة.

قال: «أجل. أنتما بيدقان في هذه اللعبة. أما الدور الأساسي فليس من اختصاصكما.»

أحسستُ أنه سيُخبرني بشيء، وسيكون مقلقًا وبغيضًا.

سألتُ: «هل ستؤدّي ماري هذا الدور؟»

أومأ برأسه وبدا أنه يستجمع نفسَه ليشرح لي.

قال: «انظر يا ديك، مهمّتُنا الرئيسية هي جذبُ أفري إلى أرض الحلفاء مرةً أخرى؛ حيث يمكنِنا التعامل معه. وهناك مغناطيسٌ واحدٌ فقط يمكِنه جذبه إليها. هذه حقيقةٌ لا يمكنك إنكارها.»

أحسستُ أن وجهي يُحتقَن بشدة، وبدأَت المطرقة القبيحة تدقُّ في جبهتي. والتقت عيناه الجادّتان الحليمتان بعينَيّ الغاضبتَين.

هتفتُ: «لن أسمح بذلك أبدًا! لديّ الحقٌّ في إبداء رأيي في هذه المسألة. لن أجعل من ماري طُعمًا. فهذا أمرٌ في غاية الانحطاط.»

قال بلنكيرون: «هي ليست خطةً حسنة، لكن هذه طبيعة الحرب، بل طبيعةُ كل ما نفعله. لقد اقترفتُ أمورًا في السنوات الثلاث الأخيرة لو فكّرتُ بها وأنا شابٌّ بريء لتضرّبتُ خجلًا. لكن هل يُوجَد خيارٌ آخرُ يا ديك؟ لستُ فخورًا بهذه الخطة وعلى استعدادٍ لإلغائها إن وجدتُ غيرها ... لليالٍ متتاليةٍ بحثتُ الأمر في عقلي، ولم أجد خطةً أفضل منها ... هيّا، يا ديك، هذا ليس من شيمك»، وارتسمَت ابتسامةٌ عريضةٌ نادمةٌ على مُحيّاه. ثم أضاف: «أنتَ تُثبِت أفضليةَ العزوبيةِ على الارتباط؛ في وقت الحرب على

الأقل. ماذا كان يقول الشاعر ...؟»

«يدان بيضاوان تتشبّثان باللجام،
وقدمان تُنحّيان المهماز جانبًا.»

اجتاحني غضبٌ شديد، لكن شعَرتُ طيلة الوقت أنه لا حقّ لي في ذلك. توقّف بلنكيرون عن لعب «سوليتير»، وقذف بالأوراق على السجّادة، قبل أن يقف مباعدًا بين ساقَيه على سجّادة الموقد.

قال: «لن تنتقيَ التكاليف حسب رغبتك. ما الواجبُ إن لم يكن شاقًا على النفس؟ ما فائدةُ الحديث بلا توقُّف عن الوطن إذا لم تبذل الغاليَ والنفيسَ في سبيله؟ ما نفعُ الفوز في الحرب إن لم تراهن بجميع ما تملكُه حتى آخرِ قرش؟ ستجعلني أشبِّهك بتلك الشخصيات في الروايات الإنجليزية التي ترفع راية الاستسلام وترك الأمر لمشيئة الرب زاعمةً أنها «عرفَت الحقيقة» ... لا، يا ديك، هذا النوع من الواجبِ لا يستحق المباركة. إذا كنتَ ترغب في إنقاذ روحك، فلن تستأثر بأي شيءٍ لنفسك.»

واصَل: «كما أن هذه الفتاةَ لا مثيل لها! إنها شجاعةٌ عفيفة. تجمع بين حماسة الشباب وبراءته، وستظل نقيةً مثلما يقاوم الفولاذ الصدأ.»

كنتُ أعلم أنني مخطئٌ تمامًا، لكن شعرتُ أن كبريائي قد جُرحَت.

قلتُ: «لن أوافق حتى أتحدّث إلى ماري.»

قال بلطف: «لكن ماري وافقَت بالفعل. وقد وضعت الخطة.»

في اليوم التالي، كان الطقس عليلًا كأننا في مايو، وحملتُ ماري بسيارتي إلى بلدية فونتينبلو. تناولنا الغداء في فندق عند الجسر ثم تجولّنا في الغابة. لم أنَم جيدًا الليلة الماضية، قلتُ لنفسي إن ذلك من خوفي على ماري، لكن السببَ الحقيقيّ كان غَيرتي من أفري. لا أمانعُ أن تُخاطرَ بحياتها، فهذا جزءٌ من وظيفتِنا على أي حال، لكنني نفرتُ من فكرة اقترابِ أفري منها مرةً أخرى. حدّثتُ نفسي أن ما أشعُر به هو كبرياء نابعة عن الشرف، لكن في قرارة نفسي علمتُ أنه غَيرةٌ محضة لا أكثر.

سألتُها إن كانت قد وافقَت على خطة بلنكيرون، فنظرَت إليّ بعينَين مشاغبتَين.

قالت: «علمتُ أننا سنتجادل في هذا الشأن يا ديك. وأخبرتُ السيد بلنكيرون بذلك ... بالطبع وافَقْت. ولستُ خائفةً على الإطلاق. أنا فردٌ من أفراد هذا الفريق، ويجب أن

أبذل قصارى جهدي. لا أُحسِن ما يُحسِنه الرجال، وهذا سببٌ أدعى لأن أقومَ بما في وسعي فعله.»

تلعثمتُ: «لكن، ذلك ... ذلك مهينٌ لفتاةٍ مثلك. لا أطيق ... أشتعل غضبًا بمجرّد التفكير في الأمر.»

وأجابتني بأن ضحكَت ضحكةً مرحة.

قالت: «أنت رجلٌ ذو منظورٍ قديمٍ يا ديك. لا تزال محتفظًا بتصوُّراتك التي عفّى عليها الزمنُ عن النساء. بربك، نحن لسنا كائناتٍ هشة كما كان الرجال يرَوْننا. لم نكن قَط كذلك، وقد جاءت الحربُ فزادتنا بأسًا. يا عزيزي لقد صرنا الجنسَ الأقوى الآن. تعيّن علينا أن ننتظِر ونتحمّل، فصقلَنا الصبر وأزال عنا ما بقي من مخاوف.»

وضعَت يدَيها على كتفيّ ونظرَت إلى عيني مباشرة.

قالت: «انظر إليّ يا ديك، انظُر إلى زوجتك المستقبلية العفيفة. سأبلغ التاسعة عشرة في أغسطس القادم. قبل الحرب، على وشك أن أبلغَ مبلغَ النساء. ولولاها كنتُ سأصير امرأةً صغيرةً وجلةً تشُق طريقَها في المجتمع الراقي، يتضرّب وجهُها حين يتحدّث إليها الرجال، يا إلهي! كانت ستتشكّل لديّ تصوراتٌ ساذجةٌ جدًّا عن الحياة ... لكن في السنتَين الأخيرتَين، دنوتُ كثيرًا من الحرب، ومن الموت. واعتنيتُ بالمُحتضَرين. وشهدتُ الأرواحَ لحظاتِ هزيمتِها وانتصارِها. أذنَت لي إنجلترا بخدمتها مثل أبنائها الذكور. لقد صرتُ الآن امرأةً قوية، وأنا طالما رأيتُ النساءَ أشدّ بأسًا من الرجال ... ديك، يا عزيزي، نحن حبيبان ولكننا أيضًا رفيقان؛ وسنظل رفيقَين أبدًا، والرفقاء يثقُ بعضُهم ببعض.»

لم أجد ما أقوله سوى أن أعرب عن ندمي؛ فقد تعلّمتُ الدرس. أخذَتني أفكاري بعيدًا حتى نسيتُ جديةَ مهمّتنا، فجاءت ماري فكّرَتني بما نسيتُه. أذكُر أننا فيما كنا نسيرُ في الغابة، وصلنا إلى مكانٍ لم تمسّه الحرب. في الغابات الأخرى ستجد الرجال مُنهمكين في قَطعِ الأشجار وتثبيتِ المدافع المضادة للطائرات وستمُر عرباتُ النقل من حينٍ لآخر، أما هُنا فلا تجد إلا واديًا معشوشبًا ضحلًا، وعلى مسافةٍ لا ترى إلا سطح مسكنٍ قديمٍ منبثقٍ بين الحدائق مثل شجرة البرقوق وسط سديم المساء.

تشبّثَت ماري بذراعي ونحن ننهَل من سكينة الغابة.

قالت بصوتٍ هادئ: «هذا ما ينتظرنا في نهاية الطريق يا ديك.»

وهي تتأمّل المكان، شعرتُ بجسَدها يرتعشُ بجواري. عادت بذاكرتها إلى الفكرة الغريبة التي شاطرَتها معي منذ ثلاثة أيام في غابة سان جيرمان.

قالت: «في مكانٍ ما، تنتظرنا هذه السكينة، وسنعثُر عليها بالتأكيد ... لكن يجب أن نعبُر من «وادي ظلال الموت» أولًا ... ولا بد من أن تُبَذل تضحية ... من أفضلِ فردٍ بيننا.»

الفصل الخامس عشر

سانت أنتون

بعد ذلك بعشرة أيام خرج الحمّال جوزيف زيمر القادم من أروسا، يرتدي سروالًا مهترئًا قبيحًا كما هي عادةُ طبقته، وسترةَ صيدٍ قديمة من المخمل المقلّد ورثَها عن سيدٍ ألمانيّ سابق، ويتحدث بلغة أهل كانتون جريسون السويسري ذات الأصوات الحنجرية، حاملًا كل مُتعلقاته في حقيبةِ ظهرٍ ضخمة، إلى محطة سانت أنتون الصغيرة وأطرفَ حين لاقت عيناه ضوءَ شمسِ النهار البارد. ثم وجّه نظرَه إلى القرية القديمة الصغيرة المجاورة للبحيرة المُغطّاة بالجليد، لكن كانت وجهته هي القرية الجديدة ذات الفنادق والفيلات التي انبثقَت في السنوات العشر الأخيرة في الجهة الجنوبية من المحطة. بعد سؤال العاملِين في المحطة بتوجّس، أرشدَه سائقُ تاكسي في نهاية المطاف إلى المكان الذي يُريده، وهو كوخُ أرملة سامرماتر؛ حيث كان يعيش بيتر بينار تحت الإقامة الجبرية.

خاض الحمّال جوزيف زيمر رحلةً طويلةً مُتعرجة. فمنذ أسبوعَين فقط كان يرتدي زيّ اللواءِ البريطاني. من ثَم كان ينزل بفندقٍ باهظِ الثمن في باريس إلى أن جاء صباح يوم من الأيام، وركب قطار باريس-البحر المتوسط السريع وهو يرتدي حلةً رماديةً من قماش التويد ويعرُج في سيره، ومعه تذكرةٌ إلى دار نقاهة الضباط في مدينة كان. ومنذ ذلك الحين وهو ينحدِر في السُّلّم الاجتماعي. كان لا يزال رجلًا إنجليزيًا في مدينة ديجون، لكنه في مدينة بونتارليه صار بائعًا متجولًا أمريكيًا سويسريّ الأصل عاد لتسوية ميراث أبيه. وفي مدينة برن زاد عرجُه حدّة؛ أما في مدينة زيورخ السويسرية، في فندقٍ صغير بشارعٍ خلفي، فقد صار قرويًا خالصًا. هناك قابل أحدَ أصدقائه وحصَل منه على ثيابٍ تفوحُ منها تلك الرائحة العطنة الغريبة لكنها أكثر متانةً من أقمشة تويد هاريس التي تُميّز غالبيةَ المُرشدين السويسريين وجميع الحمّالين. وحصَل على اسمٍ جديد وعمة عجوز استقبلَته في وقتٍ لاحقٍ بذراعَين مفتوحتَين وقدّمَته لأصدقائها ابنًا لأخيها، قدم من مدينة أروسا وجُرحت ساقه منذ ثلاثة مواسمَ شتويةٍ في أثناء أعمال تحطيب، وسُرِّح على إثْر ذلك من التجنيد الإجباري.

تشاء الأقدار أن يسمع نبيلٌ سويسريٌّ عطوفٌ بقصة جوزيف الصالح ويأخذ على عاتقه مهمّة البحث عن وظيفة له. كان الرجل المُحب للخير المذكور آنفًا شغوفًا بمساعدة الأسرى الفرنسيين والبريطانيين العائدين من ألمانيا، وتذكّر ضابطًا — أفريقيًّا جنوبيًّا أعرجَ نكِدَ المزاج — يحتاج إلى خادمٍ. ويبدو أن ذلك الجنوب أفريقي عجوزٌ حادُّ الطباع، وكان يقضي إقامتَه الجبرية وحيدًا، وهو يتحدّث الألمانية؛ لذا فكّر في أنه سيَسعَد بصُحبة مواطنٍ سويسريّ الأصل. ساوَم جوزيف بعض الشيء بشأن الأجر، لكنه قبِل الوظيفة بناءً على نصيحة عمّته، وبعد ذلك اتجه إلى سانت أنتون، يحمل مجموعةً كاملةً من الأوراق وفي جَعبته مجموعةٌ من الذكريات الجاهزة (استغرقَ بعض الوقت يدرُس بجدٍّ أسماءَ الجبال والمَمرّات التي اجتازها) بعدما أرسل سلفًا خطابًا مليئًا بالأخطاء الإملائية يُعلِن فيه عن قدومه. كان يقرأ ويكتب بشكلٍ بسيط، لكنه كان جيدًا في استخدام الخرائط، التي كان قد درَسَها بعنايةٍ ولاحَظ بسعادةٍ أن وادي سانت أنتون يمكِن الدخول منه بسهولة إلى إيطاليا.

في رحلته إلى الجنوب، تزاحمَت في ذهنه أفكارٌ لو سمِعها رفقاؤه في المقصورة المكتظة من الدرجة الثالثة لذهلوا منها. كان يفكّر في محادثةٍ خاضَها منذ أيام في مقهًى في مدينة ديجون مع شابٍّ إنجليزيٍّ مُتجه إلى بلدية مودان ...

كنا قد التَقَينا مصادفةً في تلك اللحظة الغريبة، التي يتفرّق فيها الجميعُ ويذهبُ كلٌّ في طريقِه، دون أن يسأل أحدٌ غيره عن شأنه. حيّاني ويك بخجلٍ ودعاني إلى العَشاء.

لستُ جيدًا في تلقّي الأعذار، وأحرجَتْني أعذارُ ويك أكثَر مما أحرجَتْه. قال: «أحيانًا أتصرّف كوغد. أنتَ تعلم أنني أفضلُ من ذلك الشخص الذي رأيتَه في تلك الليلة يا هاناي.»

نهرتُه عن التفوُّه بالترّهات بغمغمة، ذلك الرد التقليدي في تلك المواقف. ما أثار قلقي هو مُعاناته. كان ذلك واضحًا في عينَيه. لكن في ذلك المساء، توطّدَت علاقتُنا أكثر من ذي قبل، وصرنا صديقَين حقيقيّين؛ لأنه فتَح لي قلبه. كانت هذه هي مشكلته، الميل للبوح عما يجولُ في نفسه؛ فالأشخاص العاديُّون الأسوياء لا يُحلّلون مشاعرهم. فعَل ويك ذلك، وأظن أن ذلك بعَث في نفسه الراحة.

قال: «لا تعتقد أني كنتُ منافسًا لك. فلم أرغب في الزواج بماري مثلما لم أرغب في الزواج بإحدى خالتَيها. لقد أظهرَت ثقةً بذاتها لا تتزعزع وإيمانًا تامًا بما تفعله، ما أصابني بالرعب. أنا وأمثالي من الرجال غير مُهيّئين للزواج؛ لأن النساء يُحببن أن

يَخُضن معترك الحياة، أما نحن فنكتفي بالوقوف على هامش الحياة ومُراقبتها. إنه لأمرٌ صعبٌ أن يكون المرء مختلفًا عن الأغلبية.»

قلتُ: «مشكلتُك يا عزيزي أن إرضاءك أمرٌ صعبُ المنال.»

قال: «يمكنك قولُ ذلك. غير أني أودُّ أن أصوغ الأمر بعبارةٍ أشدَّ قسوة. أنا أكرهُ أكثرَ مما أُحِب. دافعُنا الرئيسي — نحن المُهتمين بالشأن الإنساني والسلام —هو الكراهية. أليس هذا غريبًا بالنسبة للمُبشِّرين بالمَحبَّة الأخوية؟ لكنها الحقيقة. نكره كل ما يتعارضُ مع أفكارنا بل كل ما يُزعِج نفوسَنا المُرهفة الحس. أمثالُك من الرجال يركِّزون على قضيتهم؛ فليس لديهم مُتسعٌ من الوقت أو الميل لكراهية ما يحول دون مساعيهم. أما نحن فليس لدينا قضية؛ بل لدينا أشياءُ سلبية، لدينا الكراهيةُ وتعذيبُ الذات ومرارةُ الروح.»

حينها أدركتُ أن عيب ويك ليس الغرور الروحي مثلما شخَّصتُه في بيجلزويك. فقد كان الرجل متواضعًا حدَّ ازدراء النفس.

واصَل: «أرى من التفاصيل ما لا يراه غيري، وتتزاحم المشاعر في داخلي. هذه هي لعنتي. أنتَ رجلٌ سعيدٌ وتحقِّق إنجازات في حياتك لأنك ترى جانبًا واحدًا من الأمور. ماذا تفعل لو كنتَ تشعر أن آلاف الخيوط تسحبُك طيلةَ الوقت، أو كنتَ ترى أن كلَّ الطرُق تنطوي على التضحية بشيءٍ غالٍ ونفيس أو تحطيمِ ما تعلَم أنه لا سبيل إلا استبداله؟ أنا مصنوعٌ من مادة الشعراء نفسها، غير أنني لا أملكُ موهبتهم؛ لذا فإنني أعيش مُتخبطًا، أشعُر بالعجز وقلة الحيلة ... لنأخُذ الحرب على سبيل المثال. القتال في نظري أسوأ من الفرار في نظر الآخرين. وأومن من أعماقِ قلبي أن الحربَ غيرُ ضرورية وأنها ظلمٌ بيِّن. لكن لا، الاعتقادُ لا علاقة له بالفضيلة إلى حدٍّ كبير. لستُ صالحًا مثلك يا هاناي، وأنتَ لم تتأمَّل أي شيءٍ في حياتك. ذلك الوقتُ الذي قضيتُ في كتيبة العمَّال علَّمني شيئًا. وهو أنني مع كلِّ تطلُّعاتي السامية لست رجلًا صادقًا، بل أشبِه أولئك الرجال الذين يُخلِفون وعودَهم ولا يكترثون بتزكيةِ أرواحهم.»

أذكُر أنني نظرتُ إليه بإدراكٍ مفاجئ. قلتُ: «أظن أنني أفهمُك. أنتَ من النوع الذي لن يُحارِب من أجل دولتِه لأنه غيرُ مُتيقِّن من اختيارها للسبيل الصحيح. لكنه على استعدادٍ لبذل نفسه في سبيلها دون النظر إلى أخلاقيةِ موقفها.»

استرخَت ملامحُه في ابتسامةٍ بطيئة. وقال: «غريبٌ أنك تفكِّر بهذه الطريقة. أرى أن ما قلته قريبٌ من الحقيقة. أمثالي لا يهابون الموت لكن ليست لديهم الشجاعة الكافية

للحياة. ينبغي أن يجد الرجال الرضا وهم يخدمون في وظيفةٍ كوظيفتك ويجدون السعادة في إطاعة الأوامر. لكني لا أستطيع الانسجام في أي مؤسسةٍ نظامية. تنقُصُني تلك النزعة للعبودية. لا يمكنُني اتباعُ الأوامر لمجرد أنها أُلقيَت عليّ فحسب. أمثالي يتحدثون دائمًا عن «الخدمة» لكننا غيرُ مَجبولين على الخدمة. أنا على استعدادٍ لبذل جميعِ ما أملكُ لأكونَ مثل الترس في الآلة على أن أكون غريبًا مُتخبطًا يرى عيبًا في الآلة نفسها ... لنأخذ شخصًا صارمًا حازمًا مثلك. بوسعك الانخراط في هذا النظام حتى تصير مجرد اسمٍ ورقم. أما أنا فلا أستطيع فعل ذلك وإن حاولتُ. ولستُ متأكدًا من رغبتي في ذلك أصلًا. أنا أتشبّث بالتفاصيل المُتفرّقة التي تجذبني.»

قلتُ: «ليتك كنتَ في كتيبتي العامَ الماضي.»

قال: «أنتَ لا تتمنّى ذلك. فلو حدث لتسبّبتُ في الإزعاج فحسب. انضمَمتُ للجمعية الفابية منذ أن كنتُ في جامعة أكسفورد، مع ذلك أنت تُجسِّد الاشتراكية على نحوٍ أفضلَ منّي. أنا فرداني فاسد.»

سألتُ: «ألم تُصبح نظرتك للحرب أفضل من ذي قبل؟»

أجاب: «على الإطلاق. لا أزال أتوقُ لسقوط السياسيين الذين دفعوا بالبلاد إلى الحرب ودعموا استمرارها. لكني أُريد مساعدةَ وطني. أعترف يا هاناي بمحبّتي العميقة لهذه الدولة العريقة. وأظن أنني أُحبُّها أكثر مما أُحب نفسي، وهذا يعني الكثير. فيما عدا القتال، الذي أعتبره خطيئةً لا تُغتفَر، سأبذل كل ما في وسعي لأجلِها. لكن لا تنسَ أنني لا أستطيعُ العمل في جماعة. لو تصرّفتُ كلاعبٍ غيور، فوبِّخْني.»

كان يغلبُ على صوته حزنٌ ممزوج بالاشتياق، وشعرتُ بإعجابٍ كبيرٍ تجاهه.

قلتُ: «سيفعل بلنكيرون. سنُعلمك الانضباط يا ويك، وستجد السعادة. ركّز على المهمة التي بين يدَيك ولا تقلَق. هذا هو علاجُ الخوف من تجربة أمورٍ جديدة.»

فكّرتُ كثيرًا في محادثتنا في أثناء سفري إلى سانت أنتون. لقد كان مُحقًّا للغاية في أمر ماري التي ما كانت ستفكّر في الزواج به أبدًا. فرجلٌ بمثل هذه الروح المُعقّدة لا يستطيع الانسجام مع روحٍ أخرى. وفكّرتُ أن ما يُميّز ماري هو يقينُها الهادئ. رأيتُ في عينَيها تلك السعادة التي تذكّرتُ رؤيتها في عينَي إنسانٍ واحدٍ فحسب، وهو بيتر ... لكني تساءلتُ ما إذا كانت عيناه لا تزالان على حالهما.

وجدتُ الكوخ، وهو بيتٌ صغيرٌ خشبيٌّ ظل جاثمًا على الهضبة فيما ارتفعَت الفنادقُ

الشاهقةُ من حوله. في مقدّمة الكوخ كان هناك سياجٌ، لكن الجزء الخلفي أفضى إلى منحدَر الهضبة بلا عوائق. وعند البوابة وقفَت امرأةٌ عجوزٌ بظهرٍ مُنحنٍ ووجهٍ يُشبه تفاحةً صفراء. ولا بد أن تنكُّري كان مُقنعًا؛ إذ دعَتْني إلى الداخل مباشرة قبل أن أعرِف بنفسي.

هتفتُ: «حمدًا لله على سلامتك. كان المُلازم المسكين بحاجةٍ إلى مَن يؤنِسه. هو الآن نائم، كما هي عادتُه بعد الظهيرة، لأن ساقَه تؤلِمه في الليل ... لكنه شجاعٌ مثل الجندي ... هيّا، سأُعطيك جولةً في المنزل؛ لأنكما ستعيشان فيه بمفردكما من الآن فصاعدًا.»

قادَتْني المرأة إلى الداخل بهدوء، وأشارت بأصبعها إلى الغرفة الصغيرة التي ينام فيها بيتر في تحذير. وجدتُ مطبخًا مزودًا بموقدٍ كبير وأرضية خشبية بدائية مفروشة ببعض الجلود الرديئة الدباغة. وبجوار المطبخ كانت هناك حجرةُ مؤَن مزوّدة بفِراشٍ من أجلي. وأرَتْني القدور والمقالي للطهي، والمؤن التي خزّنَتها، ومكان الماء والوقود. قالت: «سأتسوّق يوميًا، وإن احتجتَ إليّ، فمَسْكَني على بُعد نصف ميل، وراء الكنيسة الجديدة. ليرعَك الله، أيها الشاب، واعطِف على الرجل الجريح.»

غادرَت أرملة سامرماتر، وجلستُ في مقعد بيتر، أتأمّل المكان من حولي. كان البيت هادئًا وبسيطًا ودافئًا، ومن النافذة تسلّل بريقُ الجليد الذي غطّى قِممَ التلال الماسية. وعلى الطاولة بجوار الموقد قبعَت ممتلكاتُ بيتر المحبوبة مثل كيسِه المصنوع من جلد الغزال، وغَلْيونه الذي نحتَتْه جاني جروبيلار في سانت هيلينا، وعلبة ثقابٍ عسكرية مصنوعة من الألمونيوم كنتُ قد أعطيتُها له، ونسخة ذات حروفٍ كبيرة من الكتاب المُقدّس يمنحها كاهنُ الجيش للجنود ذوي النزعة الخيرية، ونسخةٌ قديمة مُهترئة من رواية «سياحة المسيحي» مزوّدة بصورٍ مبهرجة. فتحتُ الكتاب على صورة «الأمين» وروحُه تصعد إلى السماء من النار التي أُعدِم بها في «سوق الأباطيل» مثل ديكِ غابٍ مذعور. كان كلٌ شيءٍ في الغرفة مرتّبًا للغاية وكنتُ أعلم أن ذلك من فعل بيتر لا السيدة سامرماتر. وعلى مشجبٍ خلف الباب تدلى معطفه المليء بالرُّقَع، تبرزُ من جَيبه حزمةُ خطابات. وفي إحدى الزوايا، قبَع شيءٌ كنتُ قد نسيتُ أمره، وهو كرسي المُعاقين.

ملأَني منظر مُمتلكات بيتر الصغيرة البسيطة بالإجلال. تساءلتُ ما إذا كانت عيناه ستشبه عينَي ماري الآن، لأنني لا أتصوّر حياتَه مشلولًا. فتحتُ باب غرفة النوم بهدوءٍ شديدٍ وتسلّلتُ إلى الداخل.

وجدتُ بيتر مُستلقيًا على فِراشٍ قابلٍ للطي، وعليه بطانيةٌ سويسريةٌ مُخطّطةٌ ممتدةٌ إلى أذنيه، يغُطُّ في نومٍ عميق. كان هو بيتر العجوز كما عهدتُه بلا أدنى شك. كان يتمتع بمهارة التنفّس المُنتظِم من الأنف التي تُميّز الصيّادين، وبدت الندبةُ البيضاءُ على جبهته البنية الداكنة كما أتذكّرها. الشيء الوحيد الذي اختلف فيه منذ أن رأيتُه آخر مرة هو أنه تركَ لحيتَه تنمو من جديد، وقد استحالت إلى اللون الرمادي.

وأنا أنظر إلى بيتر، تدفّقَت ذكرياتُ جميعِ ما خضناه معًا إلى عقلي، وكدتُ أبكي من الفرح لوجودي بجانبه. وا أسفاه على النساء! لا يمكن أن يفهمنَ العلاقة بين الأخلّاء من الرجال؛ إذ لا يُوجَد ما يُماثِلها في حياتهن؛ فهي تنتمي إلى ذلك العالم الهمَجي الجامح الذي نُقسم على التخلي عنه عند الزواج. حتى ماري لم تفهَم سوى جانبٍ يسيرٍ منها. لقد ظفِرتُ بحبها للتو وهو أفضلُ ما حصلتُ عليه يومًا، لكن لو أنها دخلَت الغرفة في تلك اللحظة، لما التفتُّ إليها. لقد عدتُ إلى حياتي القديمة، ولم أعُد أفكّر في حياتي الجديدة.

فجأة أدركتُ أن بير استيقَظ من نومِه وينظر إليّ.

همس: «ديك، ديك، صديقي القديم.»

طرح عنه البطانية، ومد ذراعيَه النحيفتَين الطويلتَين ناحيتي. أمسكتُ بيدَيه، وظللْنا صامتَين هنيهة. بعد ذلك رأيتُ التغيير الكبير الذي طرأ عليه. فقد انكمشَت رجلُه اليسرى، وأصبحَت من تحت الركبة تُشبه ساق الغليون. وظهرَت في صفحةِ وجهه وهو مُستيقظٌ تجاعيدُ تعكس معاناةً شديدة، وتراءى لي أنه صارَ أقصرَ من ذي قبل بمقدارِ نصف قدم. لكن عيناه لا تزالان تُشبهان عينَي ماري. في الحقيقة بدتا أكثر صبرًا وسكينةً مما كانتا في ذلك الوقتِ عندما جلس بجواري في عربةٍ تجرُّها الخيل وتطلع إلى مروج الصيد.

رفعتُه من على الفراش — إذ كان خفيف الوزن مثل ماري — وحملتُه إلى مقعده بجوار الموقد. بعد ذلك غليتُ الماء وصنعتُ الشاي مثلما كُنا نفعل في كثيرٍ من الأحيان.

قلتُ: «عزيزي بيتر، سننطلِق في رحلةٍ طويلةٍ مرةً أخرى، وهذا الكوخ كاستراحةٍ مريحة. لقد صنَعنا الكثيرَ من الحكايات الجميلة معًا، لكن هذه ستكونُ أفضلَها. أخبِرني أولًا، كيف هي صحتك؟»

أجاب: «أنا بخير، استعدتُ قوّتي من جديد، لكن أتحرّك ببطء مثل السُّلحفاة. كنتُ

أعاني من الوحدة في بعض الأحيان، لكن لنستكمل كلامنا في هذا الأمر لاحقًا. والآن أخبِرني عن المعارك الكبيرة.»

كنتُ متشوقًا لسماع أخباره؛ لذا لم أسمح له بتغيير دفّة الحديث. لم تكن لدَيه أيُّ شكاوى عن العلاج الذي تلقّاه في المشفى باستثناء عدم محبته للأمان. وقد أظهَر الأطباءُ مهارةً فائقة، بحسب قوله، وبذلوا غايةَ وسعهم لعلاجه، لكن كانت الأعصابُ والأوتارُ والعظامُ الصغيرةُ تضرَّرَت بشكلٍ كبيرٍ فعجزوا عن إصلاح ساقه، وكان بيتر يكرَه البتر كراهةً شديدةً شأنه شأن غيره من البويريين. قابل طبيبًا، ذهب إلى دامارالاند فيما مضى، وحكى له عن الأماكنِ المُشمسةِ الشديدة الحرارة، فشعَر بالحنين إلى موطنه. لكن ظلّت كراهته للألمان كما هي. فقد رآهم يسوقون جنودَنا مثل الحيوانات الوحشية، وكان الضابط المسئول عنهم له ملامحُ تُشبِه الجنرال شتوم، وذقَنه بارزًا يُغرِي المرء بلَكمِه. لكنه استثنى من ذلك الطيارَ العظيمَ لينش الذي هزمه.

قال: «إنه رجلٌ أبيض. أتى لزيارتي في المشفى وحكى لي الكثير من الأشياء. أظن أنه أوصَى العاملين بُحسنِ معاملتي. إنه رجلٌ ضخمٌ يا ديك، في ضعف حجمي تقريبًا، ذو وجهٍ مستديرٍ مبتهجٍ وعينَين شاحبتَين مثل فريكي سيليرز الذي يقتنصُ طيور الكرك بدقةٍ بالغةٍ من على بُعد مائتَي ياردة. عبَّر لي عن أسفه لإصابتي بالعرَج؛ إذ تمنّى أن يحظى بالمزيد من المعارك معي. تنبَّأَت له إحدى العرافات بأني سأخطُّ نهايته بيدي، لكنه يظنُّ أن الأمر اختلط عليها. أتمنّى أن ينجُو من هذه الحرب؛ فهو رجلٌ صالح وإن كان ألمانيًا ... لكن أتمنّى الهلاك للآخرين! هم مثل الحمقى الذين يذكُرهم الكتاب المقدّس؛ كثيرو اللحم قبيحون في أوقات النعم، ومغرورون شرسون في أوقات البلاء. إنهم صنفٌ من البشر لا يَسعد الإنسان بصحبتهم.»

أخبرني بيتر أنه كي يُحافظ على روحه المعنوية لعبَ لُعبةً صغيرة مع الألمان للترويح عن نفسه. كان يُبدي أمامهم فخره بالانتماء إلى شعب البوير وينتقِد البريطانيين بقسوة. كما أنه، حسبما فهمتُ، نقل لهم عدةَ معلوماتٍ مُضللة كي يخدعَهم. وعند مُغادرته، كان قد ترك لديهم انطباعًا جيدًا، وعندما قَدِم إلى سويسرا انعزل عن الجرحى البريطانيين، وفقًا لنصيحة بلنكيرون الذي قابلَه بمجرَّد عبوره الحدود. وفهمتُ من ذلك أن بلنكيرون يقف خلف إرسال بيتر إلى سانت أنتون، وخلال وجود بيتر هناك، بصفته بويريًا ساخطًا، خالط الألمان كثيرًا. واستجوبوه بشأن قواتنا المسلحة الجوية، وأخبرهم بالعديد من الأكاذيب الذكية، وفي المقابل عَرفَ أشياءَ مثيرة.

قال: «إنهم يعملون بجدٍّ يا ديك. لا تنسَ ذلك أبدًا. الألماني عدوٌّ عنيد، وكلما تفوّقنا عليهم بنوع من الطائرات، سيعملون بجدٍّ إلى أن يخترعوا نوعًا أفضل. لديهم طيّارون بارعون، لكن أعدادهم ليست بالكثرة، كما هو الوضع عندنا، ولا أعتقد أنهم يستطيعون هزيمتَنا على الإطلاق في المعارك العادية. لكن يجب أن تُراقب لينش لأنني أخشاه. فقد سمعتُ أنه يقود طائرةً جديدةً ذات محركاتٍ قويةٍ وجناحَين عرضهما قصير لكنهما مُتقوّسان، مما يُساعده على الصعود بسرعة في الهواء. ستتفاجأ قواتُنا عندما تُباغتهم هذه الطائرةُ من فوقهم. ستقول إننا سنتغلّب عليها في وقتٍ قريب. وهذا ما سنفعلُه، لكن إن استُخدِمَت هذه الآلة في وقتٍ حرجٍ فستُشكّل الفارقَ البسيطَ الذي يؤدي إلى خسارة المعارك.»

قلتُ: «أتعني أنه إذا جهّزنا لهجومٍ واسعِ النطاق وأبعَدنا طائرات الألمان عن جبهتنا، فقد يتسلّل لينش وجماعتُه من فوق دفاعاتنا ويكشفُ خططَنا؟»

أجاب بجدّية: «أجل، أو إذا تعرّضنا لهجومٍ نجم عنه ثغرةٌ في دفاعاتنا، فسيُرشِد لينش الألمان إلى كيفية اختراقها. لا أظن أننا سنشنّ هجومًا في المُستقبل القريب؛ لكنني مُتيقّن من أن ألمانيا ستُهاجمنا بشتّى الطرق. هكذا سمعتُهم يتحدثون، وذلك ليس مجرد تهديدٍ فارغ.»

في تلك الليلة طبختُ عَشاءنا المتواضع، ثم جلسنا ندخّن غَليونَينا وقد تركنا باب الموقد مفتوحًا، فتغلغلَت رائحةُ الخشبِ المحروق الذكيةُ إلى فتحات أنفَينا. أخبرتُ بيتر بكل ما فعلتُه، وحكيتُ له عن «الطيور البرية» وأفري والمهمة التي نحنُ بصددها. وصّت تعليماتُ بلنكيرون على أن نتوارى عن الأنظار ونُبقيَ أعيُنَنا وآذانَنا مفتوحة؛ لأننا بعيدان عن الشكوك؛ البويري الأعرج المُتبرّم وخادمه الغليظ الطبع الذي جاء من أروسا. ففي مكانٍ ما هنا يقبع مقَر أعدائنا السري الذي يلتقون فيه، وإليه يأتي كيليوس في مهامّه الخبيثة.

أومأ بيتر برأسه بحكمةٍ وقال: «أظن أنني خمّنتُ المكان. كانت ابنةُ العجوز تحملني بالكرسي المُتحرّك إلى القرية أحيانًا، وجلستُ في حانات نُزُلٍ رخيصة، وتحدّثتُ إلى الخدَم. تُوجَد هناك بِركةٌ عذبةٌ يُغطّيها الجليد الآن، وإلى جانبها منزلٌ كبيرٌ يُسمّونه «بينك شاليه». لا أعلم شيئًا عن المكان باستثناء أن ساكنيه أثرياء، لكنّني أعرفُ كلّ المنازلِ الأخرى في القرية، وهي مأمونة. وهناك أيضًا الفنادقُ الكبيرةُ لأنها في غاية البرودة وتُعَد أماكنَ عامةً يُمكن للأجانب عن القرية الاجتماعُ فيها.»

وضعتُ بيتر في الفراش، وغمرَتْني البهجة وأنا أعتني به، وأُعطيه دواءَه المُقوّي،

وأعدٌّ قربةَ ماءٍ ساخنٍ لتخفيفِ آلام الأعصاب. وتصرّف هو مثلَ الطفل الوديع، ولم يبرَحه تفاؤله وبشاشتُه لحظة، رغم أني رأيتُ أن ساقَه تُسبّب له معاناةً شديدة. حاول الأطباءُ معالجةَ ساقه بالتدليك، ثم تخلّوا عن الأمر بعدما أثبتَ فشلَه، فلم يجد أمامه سوى التحمّل حتى يُثبّط جسدُه القويُّ ألَمَ أعصابه طبيعيًّا. نقلتُ فراشي من حجرة المؤن ونمتُ في الغرفة معه، وعندما استيقظتُ في الليل مثلما يفعل المرء في المرة الأولى التي ينام فيها في مكانٍ غريب، خمّنتُ من أنفاسه أنه مُستيقظ ويتألّم.

في اليوم التالي، رأى المارةُ قعيدًا أشيب يجلس في عربة مقعدَين يدفعُها قرويٌّ أعرج، يقصدان سفح الهضبةِ الطويلةِ باتجاه القرية. كانت السماءُ صافيةً والجوُّ شديدَ البرودة إلى الحد الذي يُصيب الوجنتَين بالخدَر، وشعَرتُ بالانتعاش؛ لذا كان من الصعب أن أظلّ متذكرًا ساقيَ العرجاء. كانت تسُد الوادي من ناحية الشرق كتلةٌ كبيرةٌ من الصخور والجليد هي جزءٌ من جبلٍ لا تُرى قمّته. لكن في الجنوب أطلّت على أشجار التنّوب المُغطاة بالثلج مزخرفة كالدانتيل ولها رأسٌ حادٌّ مثل الإبرة. نظرتُ إليها باهتمام؛ إذ يمتدُّ وراءها وادٍ يفضي إلى ممر شتاوب الجبلي، وخلفه تقع دولةُ إيطاليا وماري.

كان لقرية سانت أنتون القديمة شارعٌ ضيقٌ طويلٌ وحيد، ينعطف بزاويةٍ مُستقيمةٍ مُفضيًا إلى جسرٍ فوق النهر المُتدفّق من البحيرة. من تلك النقطة فصاعدًا كان الطريق ينحدر بشدةٍ صعودًا، لكن قبلها كان الشارع يمتدُّ على مستوى حافة البحيرة نفسه، واصطفّت على جانبَيه بيوتُ الضيافة الرخيصة، مُغلقةً ومهجورةً تمامًا، وبضعُ فيلاتٍ ذاتِ حدائق. وفي الطرَف البعيد من الشارع، قبل أن ينحدِر الطريقُ إلى غابة الصنَوبَر مباشرة، كان يُوجَد نتوءٌ صخريٌّ يمتدُّ إلى البحيرة فاصلًا بينها وبين الطريق بمسافةٍ مُمتدة. في ذلك المكانِ امتدّت أراضي منزل أكثر أُبّهةً من سابقيه، زيّنَتها أشجارُ الغارِ المُغطّاة بالثلج وشجيراتُ الورد وشجرةٌ أو شجرتان كبيرتان غيرها، وعلى حافةِ البحيرة قبَع المنزلُ نفسه، المُسمّى «بينك شاليه».

دفعتُ كرسي بيتر مارّين من جانب المدخل على طبقة الجليد المُغطّية للطريق السريع، التي خشخشَت تحت عجلاتِ الكرسيّ المتحرّك. من خلال الفُرَج بين الأشجار، رأينا المنزلَ الذي بدت واجهتُه جديدة، لكن ظهرَت آثارُ الزمن على الجزء الخلفي منه؛ إذ لاحظتُ أن جدرانه العالية التي تخلّلَتها بعض النوافذ، تُشرف على البحيرة. كان المنزل أشبَهَ ببرجِ قلعةٍ منه بالشاليه، لكن أعتقد أنه سُمّي باسمِه نسبةً للشرفة الخشبية فوق الباب الأمامي. كان المنزل كلُّه مَطليًّا بلونٍورديٍّ قبيح. كما اشتمل على مبانٍ

خارجية — المرأب أو الإسطبلات بين الأشجار — وفي المدخل رأيتُ آثارًا حديثةً لسيارة.

في طريق عودتنا، تناولنا بيرةً رديئةً في أحد المقاهي، وتعرّفنا على المرأة التي تُدير المكان. اضطُر بيتر إلى أن يحكي لها قصّته، وتحدّثتُ عن عمّتي في مدينة زيورخ، وفي نهاية المطاف قصّت على أسماعنا شكاواها. هي امرأةٌ سويسريةُ الأصل، تشعُر بالغضب من جميع الأطراف المتحاربة التي أفسدَت عليها رزقَها، وتكره الألمان كراهيةً عمياءَ لكنها تخشاهم بالقَدْر نفسه. كان من الصعبِ الحصولُ على القهوة والشاي والوقود والخبز، بل لم يكن من السهل شراءُ الحليب والجبن، بالإضافة إلى أنهما يُكلِّفان قَدْرًا كبيرًا من المال. ترى المرأةُ أن الدولة ستستغرق سنواتٍ كثيرةً في استرداد عافيتها، ولن يكون هناك المزيد من السياح؛ إذ لم يتبقَّ سوى مقدارٍ قليلٍ من المال في العالم. سألتُ عن منزل «بينك شاليه»، فأخبرَتْني المرأة أن مالكَه رجلٌ يُدعى شفيجلر، وهو أستاذٌ جامعيٌّ عجوزٌ من مدينة برن، يأتي أحيانًا في الصيف لقضاءِ بضعةِ أيامٍ في الشاليه. كان يُؤجِّره أحيانًا كثيرة، لكنه ليس مستأجرًا الآن. سألتُها إن كان هناك مَن يقطُنه، فأجابت أن بعضَ أصدقاء شفيجلر — وهم قومٌ أغنياءُ من مدينة بازل — نزلوا به في الشتاء. قالت بمرارة: «يجيئون ويروحون بالسيارات الفارهة، ويجلبون الطعام من المدن بالخارج. ولا يُنفقون أيَّ مالٍ في هذا المكان الفقير.»

سرعان ما صار لحياتنا أنا وبيتر نمَطٌ مُعيّن، كأننا نعيش معًا منذ وقتٍ طويل. في الصباح، كان بيتر يخرج بكرسيِّه المتحرك، وبعد الظهيرة أُنجز مهامّي بساقي العرجاء. تماهَينا مع بيئتنا وخالَطنا سكان البلدة؛ لذا لم يشُكَّ فينا أحدٌ. وكان يزورنا أسبوعيًّا في عُجالةٍ ضابطٌ سويسريٌّ شاب، مهمّتُه العنايةُ بالجرحى البريطانيين. وكنتُ أتلقى خطاباتٍ من عمّتي في زيورخ، تحمل ختمَ بريدِ أروسا، وتشتمل من آنٍ لآخر على نصائحَ أو تعليماتٍ ذات صياغةٍ غريبة ممنْ تُسمِّيه عمتي «الراعي العطوف». بصفةٍ عامة كان يُطلب منّي أن أتحلى بالصبر. وفي بعض الأحيان تلقّيتُ خطابًا بشأن صحة «بنتِ عمّتي الصغيرة التي تسكُن على الجانبِ الآخرِ من الجبال». وذاتَ مرة، أُخبِرتُ أن أتوقّعَ زيارةً من أحد أصدقاء الراعي، وهو الطبيبُ الحكيمُ الذي تحدّث عنه كثيرًا، وعلى الرغم من أني ظللتُ أراقب «بينك شاليه» لمدة يومَين، فلم يأتِ أحد.

لم تُثمر تحرياتي عن شيء. كنتُ أذهب إلى القرية بعد الظهيرة، لأجلسَ في مقهًى منعزلٍ وأتحدّث مع المزارعين وحمّالي الفنادق بألمانيةٍ بطيئة لكن كانت المعلوماتُ شبهَ منعدمة. كنتُ قد عرفتُ كل ما يمكن معرفتُه منهم عن «بينك شاليه»، ولكنهم

كانوا بالكاد يعلمون أي شيءٍ مفيد. فقد نزَل بالمنزل شابٌّ يُمارس هواية التزلُّج، وأقام به لمدة ثلاثِ ليالٍ، وكان يقضي النهارَ في جبال الألب فوقَ غابةِ أشجار التنوب. وشاع أ ن أربعةَ أفراد، رجلَين وامرأتَين، من تلك العائلة الغنية من بازل قضَوا ليلةً في المنزل. تفحّصتُ المنزل من البحيرة التي كان من المُفترَض أن يُساوَى الجليدُ الذي يُغطِّيها كي تُصبحَ حلباتٍ للتزحلق على الجليد، لكن ظلّت تغطّيها كومةٌ من الجليد المتطاير إليها بسبب غياب الزائرين. كانت الجدرانُ المرتفعةُ للجانبِ الخلفيِّ من المنزل مبنيةً عند حافةِ البحيرةِ مباشرة. أذكُر أنني حاولتُ استخدامَ طريقٍ مختصَر عَبْر الأراضي المُفضية إلى الطريق السريع، فحيّاني خادمٌ ألمانيٌّ مُبتسمٌ بتحية المساء. لاحظتُ بشكلٍ ما أو آخرَ وجودَ خدَم حول المكان، بأعدادٍ كثيرةٍ لا تتناسب مع قلة ورود الضيوف عليه. لكن فيما عدا ذلك، لم أصل إلى أيِّ شيء.

غير أني لم أشعُر بالملل؛ فقد كان معي بيتر يُسلّيني. كانت جنوب أفريقيا كثيراً ما تَرِد على خاطره، وما أحبَّ شيئًا أكثر من مَحبّته لمراجعةِ جميعِ تفاصيلِ مغامرتنا القديمة. فقد كان يستعيدُ هذه الذكرياتِ القديمةَ دون ألم، بخلاف ذكرياته عن الحرب التي كانت طازجةً ومريرةً بالنسبة إليه. كما أحبَّ الخروج في المساء بساقه العرجاء للتطلع إلى أصدقائه القدامى؛ النجوم. أطلَق على النجوم أسماءً كانوا يستخدمونها في المراعي، فكان يُسمّي نجم الصباح الأول «فورلوبر»؛ أي الصبي الصغير الذي يسوقُ الثيران، وهو اسمٌ لم أسمعه منذ عشرين عامًا. وفي الأمسيات الطويلة كنا نَروي الحكاياتِ المثيرة، لكني كنتُ أذهب إلى الفراش دائمًا مفطورَ الفؤاد. كانت عيناه تفيضان بالاشتياق، وهو اشتياق لا للماضي أو البلاد البعيدة، بل إلى العنفوان والقوة اللذَين كانا مصدر اعتزازه فيما مضى.

ذاتَ ليلةٍ حكيتُ له عن ماري.

قال: «ستكونُ زوجةً سعيدة، لكن يجب أن تُعامِلها بمهارةٍ شديدة؛ لأن النساءَ مخلوقاتٌ غامضة، وأنا وأنتَ لا نفهم طرائقهن. سمعتُ أن الإنجليزيات لا يستطعنَ الطهي ولا الحياكة مثل نسائنا؛ لذا، فيمَ ستقضي وقتَ فراغها؟ النساء الفارغاتِ يُشبهن فرسًا كثيرة اللحم.»

لم يكن مُجديًا أن أحكي له عن ماري؛ لأن ذلك العالم غريبٌ عنه تمامًا. لكن لاحظتُ كم ازدادت وحشتُه عندما أخبرتُه بالأمر. لذا حدّثتُه عن المنزل الذي أنوي شراءَه في إنجلترا عندما تنتهي الحرب — سيكون منزلًا قديمًا في مدينةٍ جبليةٍ خضراء، ذات حقولٍ تسَع أربعَ أغنامٍ في المورغن الواحد، وجداول من الماء العذب تتدفّق في التجاعيد

الأرضية، وبساتين برقوقٍ وتفّاح. قلتُ: «وستمكُث معنا طيلةَ الوقت. سنُخصّص غرفةً لك وخادمًا ليعتني بك، وستُساعدني في الزراعة، وسنصطاد السمك معًا، وسنُمسك البط البري القادم من البِرك في المساء. لقد عثرتُ على قريةٍ أفضل من هاوتبوش حيث حلمنا بامتلاك مزرعة. فإنجلترا دولةٌ مباركةٌ سعيدة.»

هزّ رأسَه علامة النفي. وقال: «أنتَ رجلٌ طيب يا ديك، لكن امرأتك الجميلة لن ترغبَ في رؤيةِ عجوزٍ قبيحٍ مثلي يتجوّل في منزلها بساقه العرجاء ... لا أظن أنني سأعود إلى أفريقيا لأن جوّها المُشمِس سيُصيبني بالأسى. سأجد منزلًا صغيرًا في إنجلترا، وسأزورك يا صديقي العزيز في يومٍ من الأيام.»

في تلك الليلة بدا أن رَباطة جأشه خانَتْه للمرة الأولى. كان صامتًا لفترةٍ طويلة، وذهب إلى فراشه مُبكرًا، حيث أعتقد أنه بقي مُستيقظًا. ولا بدّ أنه فكّر كثيرًا في الليل؛ إذ بدا في غاية الهدوء والرضا في الصباح.

راقبتُ هدوءه بذهول. كان يفوقُ قُدرتي على الاستيعاب. فقد كان بيتر في غاية الضعف والفقر، فهو لم يمتلك أي شيءٍ في العالم سوى لياقته البدنية، وها قد خَسِرها الآن. ولا تنسَ أنه فقدَها بعد بضعةِ شهورٍ من فرحتِه العارمة عندما اكتشف في الجو غايةَ وجوده. في بعض الأحيان، كان يتعرّض لسيرة هذه الأيام التي عاشها وسط السحُب ويختلِق معركةً جديدةً فيختنق صوته. كنتُ أرى اشتياقه لعودته إليها. ومع ذلك لم تصدرُ عنه شكوى من أي نوع. هذه هي السنّة التي سنّها لنفسه واستقى منها شرفَه، كان يُواجه مُستقبله بالشجاعة نفسها التي استجمعَها لقتال حيوانٍ بريٍّ أو لينش نفسه. غير أنها كانت تستلزم قدْرًا أكبر من الجلَد.

الأمر الآخر أنه وجد الإيمان. أشك أن هذا هو التعبيرُ الصحيح؛ لأنه كان مُتدينًا طيلةَ حياته. والرجال الذي يعيشون في البرِّية يعلمون أن أمرهم بين يدَي الرب. لكن إيمانه القديم كان باليًا — أشبه بخُرافاتٍ بدائية — وإن أضفى عليه صبغةَ التواضُع. لكنه صار يُحب قراءةَ الكتاب المُقدس وتأمُّل نصوصه في لياليه المُوحشة، وتشكّلَت لدَيه عقيدةٌ خاصة. صحيحٌ أنها قد تكون عقيدةً غيرَ مصقولة؛ فهي قطعًا غير منهجية، لكن إن كان الدليل على الإيمان هو دعمه لصاحبه في أيامه العصيبة، فلا بدّ أن إيمانَ بيتر حقيقي. كان يبحث في الكتاب المقدّس و«سياحة المسيحي» — فكلاهما مُلهمان له بالقَدْر نفسه — ويجد فيهما نصوصًا يُفسّرها بطريقته الخاصة لتتلاءم مع حالته. تعامل بيتر مع جميع النصوص بحَرفيةٍ شديدة. فكان يتعامل مع ما حدث منذ ثلاثة آلاف سنة في فلسطين كأنما يدورُ في البيت المجاور له. كنتُ أُمازِحه وأُخبره أنه يفعل مثل

قيصر ألمانيا الذي يُفسِّر النصوص بما يتناسبُ مع أغراضه، لكنه اكتفى بالابتسام من فَرْط صدقه. أتذكَّر في ليلةٍ من الليالي، فيما كان بيتر يستذكر ماضيه في السماء، وجد فقرةً في إحدى الرسالتَين إلى أهل تسالونيكي تدور حول بعث الموتى للقاء ربهم في السماء، فشعَر بسعادةٍ عارمة. اعتقَد بيتر، كما ترى، أن أيامَه على الأرض معدودة، وأحبَّ أن يفكِّر أنه عندما تتحرَّر روحه من الأرض، فستجد طريقها إلى تلك النشوة القديمة من جديد.

ذات مرَّة، تعرضتُ إلى مسألة جلَده، فقال إنه يحاول التشبه بشخصية «الثابت» في الرواية. لقد اختار أن يحذُوَ حَذْوَ هذه الشخصية بعينها، وإن كانت شخصيةُ «القوي للحق» هي الأكثر شبهًا به، غير أنه كان يرى أنه لا يرقى إليها. كان يتحدَّث عن الثابت، بطريقته الغريبة، كأنه صديقٌ لنا مثل بلنكيرون ... حين أرى صبرَ بيتر وحكمتَه ورقَّتَه أشعُر بتواضُعٍ جَم. حتى الرب نفسه لا يُمكن أن يجعله متعاليًا؛ فهو لم يخطُر قَط له أن يتصدَّر للوعظ. لم يَعظني إلا مرةً واحدة. كانت إرادتي قد بدأَت تتزعزع من طولِ الانتظار؛ إذ لطالما كنتُ أميل للطرُق المختصرة. وذات يوم، صارحتُ بيتر بحقيقة مشاعري، فهبَّ من فوره وقرأ عليَّ نصًّا من «سياحة المسيحي» يقول: «يودُّ البعض لو أن هناك طريقًا أقصرَ إلى بيت الرب، ولا يتكلَّفون عناءَ اجتيازِ التلالِ أو الجبال، لكن هذا هو السبيل الوحيد، وله نهاية.»

غير أن الوضع ظلَّ على ما هو عليه، وعندما حلَّ شهرُ مارس دون أي تطورات، ازداد اضطرابي. أخبرنا بلنكيرون من قبلُ أننا في سباقٍ مع الزمن، وها هي الأسابيع تمضي بلا عمل. كنا نتلقى رسائله التي يُرسلها بصفته عمَّتي من حينٍ لآخر. وعلمتُ من إحدى رسائله أنني سأترك وظيفتي قريبًا؛ إذ اقترب موعدُ ترحيلِ بيتر إلى وطنه، وسيتلقى الأمر بالمُغادرة في أي يوم. وفي رسالةٍ أخرى، حدَّثني بلنكيرون عن بنت عمَّتي في الجهة المقابلة من التلال، وأنها تأمُل في الذهاب إلى قريةٍ صغيرةٍ تُدعى سانتا كيارا في فال سالوزانا في القريب العاجل. أخرجتُ الخريطة في عُجالة، وحسبتُ المسافةَ من هذه النقطة إلى قرية سانت أنتون، وتأمَّلتُ الطريقَين المؤدِّيَين إلى هناك — كان الطريق القصير يمُر من مَعبَر شتاوب الجبلي والطويل من مَعبَر مارمولادا. دفعَتْني هذه الرسائلُ إلى الاعتقاد أننا قريبون من اللحظة الحاسمة، لكن لم تَرِد أي تعليمات. كما لم أعثر على معلوماتٍ جديدةٍ لأنقلَها في رسائلي؛ فلم أجِد شيئًا في «بينك شاليه» سوى خدمٍ عاطلين، بل لم أتيقَّن حتى أن «بينك شاليه» لا ضرر منه، كما لم أقترب قَدْر أنملةٍ من مكانِ كيليوس. ولم تمنعني مُحاولاتي في التحلِّي برباطة الجأش مثل بيتر من الشعور بالارتباك واليأس من وقتٍ لآخر.

لم يكن أمامي سوى المُحافظة على لياقتي البدنية؛ إذ أحسَسْت أني قد أحتاج إليها في القريب العاجل. كنتُ مجبرًا على مواصلة التظاهر بالعرج في النهار؛ لذا كنتُ أتدرّب في ساعات الليل. كنتُ أنام في فترة الظهيرة، فيما يأخذ بيتر قيلولته، وعند اقتراب الساعة من العاشرة مساءً، بعدما أضع بيتر في فراشه، أخرج من الكوخ في هدوء، وأسير لمدة أربعِ أو خمسِ ساعاتٍ للتريُّض. كانت تلك الجولات التي أخرج إليها بعد منتصف الليل ساحرة. كنتُ أشُق طريقي عَبْر أشجار الصنَوبَر المُثقَلة بطبقات الثلج، صاعدًا المنحدَر، إلى أن أبلغ الحواف الجبلية التي شكّل الجليدُ المُتراكم عليها دوائرَ وتعرُّجات، وينتهي بي المطاف إلى قمةٍ حيث أقف متأمِّلًا العالَم المُتجمِّد المنبسط تحت قدمي والسماء المُرصّعة بالنجوم فوق رأسي. وذاتَ ليلةٍ بلغَ فيها البدرُ تمامَه، وصلتُ إلى المَجلَدة القابعة عند رأس الوادي، وتسلّقتُ الركام إلى حيث يبتدئ الجليد، واختلستُ النظر بخشيةٍ إلى الشقوق المُخيفة فيه. في مثل هذه الساعات، استأثرتُ بالأرض لنفسي؛ إذ لم يكن هناك أي صوتٍ باستثناء انزلاقِ الثلوجِ من فوق كاهلِ الأشجار أو تشقّق الجليد أو خشخشته، ما جعلَني أتذكّر أن المجلدة هي نهرٌ جليديٌّ متحرك. في مثل هذه الأجواء بدت الحربُ بعيدةً بُعد السماء والأرض، وشعَرتُ بضآلة معاناتنا البشرية، حتى فكّرتُ في بيتر وهو يتقلب ذات اليمين وذات الشمال ليجد الراحة، في ذلك الكوخ البعيد بالأسفل. وأدركتُ أن روح الإنسان هي أعظم شيءٍ في هذا العالم الفسيح ... سأعودُ في غضونِ ثلاثِ أو أربعِ ساعات، وأغتسِل في الماء الذي سُخِّن في غيابي، ثم أتسلل إلى فراشي، أكاد أشعر بالذنب لأن لديّ ساقَين سليمتَين، فيما حظِيَ رجلٌ أفضل منّي، ذلك الذي ينام على بعد ياردة، بساقٍ واحدة.

الغريب أنه في تلك الساعات، كان يبدو أن الحركة في «بينك شاليه» أكثر مما هي عليه في ساعات النهار. وذات يوم، فيما كنتُ أتنزّه في البحيرة بعدما انتصف الليل بفترةٍ طويلة، رأيتُ أضواءً قادمةً من جانبه المُطِل على البحيرة الذي عادةً ما تكون نوافذُه معتمةً ومقفلَة. عَبَرتُ من أراضيه مراتٍ كثيرةً في الليالي غير المقمرة. وفي إحداها رأيتُ سيارةً كبيرةً تجتاز ممرّ السيارات بسرعةٍ كبيرةٍ دون أن تضيء مصابيحها، وسمعتُ أصواتًا هامسةً عند الباب. في مرةٍ أخرى، مرّ بي رجل، راكضًا بسرعة، ودخل المنزل من بابٍ صغيرٍ في الجانب الشرقي، لم أكن قد لاحظتُه من قبلُ ... وتدريجيًا بدأتُ أوقن أننا أصبْنا بمُراقبتنا هذا المكان، وأن بالداخل تحدُث أشياءٌ يجب أن نكشفَ الغطاءَ عنها. كان من المُمكن أن أقتحم المنزل، لكن لا أدري إن كان ذلك سيُحبِط خطط بلنكيرون أم لا؛ إذ لم تَردني منه أي معلوماتٍ بخصوصِ الاقتحام. ازداد شعوري بالارتباك أكثر من ذي قبل. وكنتُ أستلقي في فراشي مُستيقظًا أخطط للتسلّل

إلى المنزل بشكلٍ ما ... بوسعي أن أتظاهر أنني قرويٌّ من الوادي المجاور قد لُوِيَ كاحله ... أو قد أذهب إلى المنزل بحُجة البحث عن قريبي وسط الخدَم ... أو قد أشعِل حريقًا بالمنزل فتُفتَح الأبواب على مصراعَيها للجيران المُراعين ...

وفجأة تلقّيتُ تعليماتٍ في خطابٍ من بلنكيرون.

أتت التعليمات في خطابٍ داخل طردٍ يحوي جواربَ دافئةً أرسلَته لي عمّتي الطيبة. لكن الخطاب لم يكن مُرسلًا منها. كان الخطاب مكتوبًا بحروفٍ كبيرةٍ عريضة، وبخط بلنكيرون المُميز. أخبَرني أنه أوشك على الانتهاءِ من مهمته. وقد توصّل إلى خيطٍ بخصوص كيليوس، الذي تأكّد أنه الطائر المنشود، الذي سيُحلِّق ناحية الجنوب في المستقبل القريب ويعبُر الجبال للسبب الذي أعرفه.

كتب: «أحرزْنا تقدمًا كبيرًا، وستنشغل كثيرًا الأسبوع القادم، بمشيئة الرب. سار الأمر بصورةٍ أفضلَ مما كنتُ آمل.» لكن لا تزال هناك أمور لا بدّ من إنجازها. لقد عثرَ على قروي — اسمه كلارنس دون، وهو صحفي من مدينة كانساس — جندَه لصالحه. وصف ذلك الرجل بأنه «الاستثنائي» ومدحه عندي أيما مديح. سيأتي ذلك الرجل إلى سانت أنتون؛ لأن هناك شيئًا يجري في «بينك شاليه»، سيُطلعني على تفاصيله. من المُخطَّط أن أقابل الرجل في مساء اليوم التالي، في التاسعة وخمسَ عشرةَ دقيقة، عند الباب الصغير، في الطرف الشرقي من المنزل. ختم الرسالة قائلًا: «لا تتأخر، يا ديك، بحق السماء، ونفّذ أوامره كما لو أنها صادرةٌ مني. إنها مسألةٌ معقّدة، لكنكما شجاعان بما يكفي، لتحقيق الفوز. لا تقلَق بشأن ابنة عمك الصغيرة. إنها بأمان، وقد أنهت دورها.»

تنفّستُ الصُّعَداء فورَ أن قرأتُ الرسالة لا سيما كلماتها الأخيرة. وأخذتُ أقرؤها مرارًا وتكرارًا للتأكد من أنني استوعبتُ مغزاها. ساورَني الشك في أنها قد تكون مزيّفةً هنيهة، ويعود السبب في ذلك بشكلٍ أساسي إلى عدم ذِكر بيتر، الذي لعب دورًا كبيرًا في الرسائل السابقة. لكن لم يُذكر بيتر ما دام أنه ليس طرفًا في المهمة المطلوبة؟ أقنعَني التوقيع أن الرسالة حقيقية. عادةً يوقِّع بلنكيرون باسمه الكامل بخطٍّ مزيّن أنيق لرجال الأعمال. لكن حينما كنتُ على الجبهة، صار يكتب اسم عائلته بخطٍّ تصعُب قراءته متبوعًا بحرفَي الجيم والسين بين قوسَين. كانت هذه هي طريقة توقيع الرسالة، فكانت دليلًا قاطعًا أنها حقيقية وليست مزيفة.

قضيتُ ذلك اليومَ واليومَ الذي يليه في حماسةٍ شديدة. استشفّ بيتر ما كان يحدث، وإن كنتُ لم أُخبِره، خشيةَ أن أُثيرَ غَيْرته. لا بدّ أن أترفّق به بشكلٍ زائد؛ لأنني أرى

شَوقَه للمشاركة في الأمر. في الحقيقة، لقد سألَني بخجلٍ إن كنتُ أستطيعُ إشراكَه معي بشكلٍ أو آخر، واضطُررتُ إلى الكذب قائلًا إنها إحدى جولاتي العشوائية حول «بينك شاليه».

ترجّاني بيتر قائلًا: «حاوِلْ أن تعثُر على وظيفة لي. لا أزال قويًا، رغم ساقي الواحدة، ويُمكِنني أن أستخدِم سلاحًا ناريًا.»

أعلنتُ أنه سيحين دورُه في الوقت المناسب، وأن بلنكيرون وعَدَ بإسناد مهمةٍ إليه، لكن لا أدري على الإطلاق كيف سيحدث ذلك.

في الساعة التاسعة مساءً من تلك الليلة الموعودة، كنتُ على ضفة البحيرة المقابلة للمنزل، على مقربة من الشاطئ، أشُق طريقي إلى مكان اللقاء المُرتقب. كان الظلام حالكًا في تلك الليلة؛ إذ رغم أن السماء كانت صافية، كان الضوء المنبعث من النجوم خافتًا نتيجة الضباب ولم يكن القمر قد ظهر بعدُ. وضعتُ في جيبي بعضًا من قطَع الشكولاتة، خشيةَ أن يطول غيابي ولا أستطيع الوصول إلى الطعام، بالإضافة إلى المُسدّس والمصباح اليدوي. كان البرد قارسًا، لكني قد توقفتُ عن الاهتمام بالطقس، وارتديتُ حُلتي الوحيدة دون معطفٍ طويل.

كان المنزل ساكنًا مثل مقبرة. لم أرَ أي بصيص ضوء، أو أشمّ أيًا من الروائح الدالة على وجود سكان من دخان أو طعام. كانت مهمةً مُخيفة، أن أصعَد الربوةَ الشرقيةَ الشديدةَ الانحدار، حتى أبلغ بدايةَ الحديقةِ المنبسطة، في ظلامٍ حالكٍ أتلمّس طريقي فيه مثل الأعمى.

تحسّستُ جانب المنزل إلى أن وجدتُ بابًا صغيرًا. بعد ذلك، اختبأتُ وسط شُجيرات الغار، في انتظار رفيقي. ووجدتُه أمامي.

سمعتُ همسًا بلهجة وسط غرب الولايات المتحدة مُميزة: «أأنتَ جوزيف زيمر؟ لا أريد أن أناديَ اسمك بصوتٍ عالٍ، لكن أظن أنك الرجل الذي أُمرتُ بلقائه هُنا.»

همستُ سائلًا: «هل أنتَ السيد دون؟»

أجاب مادًا يدَه للمصافحة: «نعم. سعدتُ بلقائك.»

وضعتُ يدي في يدِه المُغطّاة بقفازٍ دون أصابع، وسحبَني إلى الباب الصغير.

الفصل السادس عشر

الاستلقاء على فراشٍ قاسٍ

كان الصحفي القادم من ولاية كانساس رجلًا عمليًا. فلم يُهدر الوقتَ في تعريف نفسه أو الكشف عن خطة حملته. قال: «اتبعني، يا سيدي، وسِرْ على خطاي دون أدنى انحراف. سيأتي الشرح لاحقًا. لا بد أن نعتنيَ بمسألةٍ مهمةٍ في المنزل اليوم.» فتَح الباب الصغير دون إصدار صوت تقريبًا، ونفَض طبقة الثلج عن حذائه الطويل، ثم سبقَني إلى ممرٍّ مظلمٍ كقبو. تأرجَح الباب وانغلق خلفنا بانسيابية، وبدا الهواء عطنًا، كأننا داخل خزانة، بعد أن كُنا في الهواء الطلق القارس.

مدّ الصحفي يده إلى الخلف ليتأكد أنني أتبعه. بدا أننا نسير في ممرٍّ مبلّط، أسفل الطابق الأول مباشرة. كنتُ أنزلق على البلاط، لأنني كنتُ أرتدي حذاءً ذا مسامير، فتشبّثتُ بالجدار الحجري الخشن طلبًا للدعم. أما السيد دون فكان يتحرك بخفةٍ وثقة؛ إذ كان يرتدي حذاءً أنسبَ للمهمة، وظلّ يمدُّ يده المُوجِّهة خلفَ ظهره ليتأكد من موقعي.

أتذكّر أنه انتابني الشعور نفسه الذي انتابني ليلةَ استكشاف ذلك الفلق في كويلن في أمسيةٍ من أمسياتِ شهر أغسطس، شعور أن ثمّة شيئًا سيحدث، ذلك المزيج من الاندفاع والسعادة. مشيتُ بخطواتٍ بطيئةٍ حذرة حتى وصلنا إلى منعطفِ ناحية اليمين. قادنا سُلم ذو درجتَين إلى ممرٍّ آخرَ ثم ارتطمَت يداي المُتحسِّستان بحائطٍ مُصمت. كان الأمريكي سائرًا بجانبي، وكانت شفتاه قريبتَين من أذني.

همس: «يجب أن نزحف الآن. تقدّم أنتَ، يا سيدي، فيما أنزِع معطفي. سنزحف ثمانيَ أقدامٍ ثم ننهضُ واقفَين.»

زحفت عَبْر نفقٍ عريضٍ بما يكفي لاستيعاب ثلاثة رجال جنبًا إلى جنب ومنخفضٍ لا يبلغ ارتفاعُه قدمَين. عند منتصف الطريق شعَرتُ بالاختناق؛ إذ طالما كرهتُ الأنفاق، وغشاني شك لحظي في الغاية من رحلتنا عَبر القبو. لكني سرعان ما استنشقت هواءً طلقًا وصار من الممكن أن أجثو على ركبتي.

جاء همسٌ من الخلف: «هل كل شيء على ما يُرام يا سيدي؟» بدا أن رفيقي كان ينتظر أن أخرج حتى يتبعَني.

أجبتُ: «أجل»، ثم بحذَرٍ شديدٍ وقفتُ على قدمي.

ثم حدث شيءٌ خلفي. أحسستُ بهزةٍ مفاجئةٍ متبوعةٍ بصوتِ ارتطام، كأن سقفَ النفقِ قد انهار. استدرتُ بحدةٍ وتلمّستُ فتحتَه. ومدَدتُ ساقي عَبْرها فوجدتُه مسدودًا.

ناديتُ بصوتٍ مرتفعٍ بقَدْر ما تسمح به الظروف: «هل أصابك مكروهٌ يا دون؟ أين أنتَ؟»

لكن ما من مجيب.

في تلك اللحظة ظننتُ أن ما حدث مجرد حادث. ثمّة خطأٌ حدث، وتُركتُ وحدي في قبو منزلِ عدوٍ، بعيداً عن الرجل الذي يعرفُ الطريقَ ويحتفظ بالخطة في رأسه. لم أكن خائفًا بقَدْر ما كنتُ ساخطًا. ولّيتُ ظهري لفتحة النفَق، وتلمّستُ طريقي للأمام وسط الظلام. لا ضرر من استكشاف ذلك السجن الذي وقعتُ فيه.

خطوتُ ثلاثَ خطواتٍ لا أكثر. ثم انزلقَت قدماي وارتفعَتا أمامي في الهواء. حدَث الأمر فجأة، ووجدتُ نفسي أرقد على ظهري على الأرض كالجثة، وارتطم رأسي بها بقوةٍ شديدةٍ أفقدَتْني الوعيَ لحظات. شعَرتُ بشيءٍ يسقُط عليّ وأحسستُ بثقلٍ شديدٍ يجثُم على صدري. جاهدتُ لالتقاط أنفاسي، ووجدتُ ذراعيّ وساقيّ مُسمّرة في الأرض، وجسدي بأكمله محصوراً فيما يشبه ملزَمَةً خشبية. انتابني دُوارٌ شديد، ولم أستطع فعلَ شيءٍ سوى التقاط أنفاسي بصعوبة والتغلب على شعوري بالغثيان. نزَف الجرحُ في مؤخرة رأسي بغزارة، فساعدَني ذلك على تصفية ذهني، لكن استلقيتُ بضعَ لحظاتٍ لا أقدرُ على التفكير. أغلقتُ عينيّ بإحكام، مثلما يفعل المرء في نضاله لئلا يفقد الوعي.

عندما فتحتُ عينَيّ وجدتُ ضوءًا. من الناحية اليسرى من الغرفة، انبعثَ وهجٌ ساطعٌ من مصباحٍ كهربائيٍّ قوي. نظرتُ إليه ببلاهة، لكنه حثّني على استجماع أفكاري. تذكّرتُ أنني في النفق وأنني كنتُ بصحبة الصحفي الأمريكي. وخلف الضوء رأيتُ وجهًا أعادني إلى رشدي.

رأيتُ المعطف الأيرلندي الطويل والقبعة اللذَين قد ميّزتُ هيئتَهما في الخارج وسط شجيرات الغار المعتمة، وإن كنتُ لم أتبيّن تفاصيلهما. كان المعطف والقُبعة يعودان للصحفي، كلارنس دون، رسول بلنكيرون الأمين. لكني استطعتُ رؤيةَ وجهه الآن، وتبيّن

أنه الوجه الذي تفاخرتُ أمام بوليفانت أنني لن أخطئ صاحبه أبدًا. لم أخطئه هذه المرة، وأتذكّر شعوري بالبهجة في تلك اللحظة، لأنني وفيتُ بكلمتي. كما أني لم أخطئه من قبلُ؛ لأنني لم أحظَ بفرصة النظر إليه إلا في اللحظة الراهنة. رأيتُ بوضوحٍ شديدٍ ذلك القاسمَ المشتركَ بين كل هذه الأقنعة — الشاب الألثغ في الفيلا المطلة على البحر، الرجل السخي القوي من بيجلزويك، المخلوق المذعور الضعيف من محطة مترو الأنفاق، ضابط الأركان الفرنسي الممشوق من قلعة بيكاردي ... بل رأيتُ ما هو أكثر من ذلك؛ إذ رأيتُه عاريًا من كل الأقنعة. وجدتُ نفسي أنظر إلى فون شبابينج المنفي، الذي قدّم لألمانيا ما لم يقدِّمه أي قائدٍ عسكري ... تذكّرتُ كلمات ماري «هو أخطرُ رجلٍ في العالم»، لكنني لم أكن خائفًا أو محبطًا من الفشل أو غاضبًا، ليس بعدُ؛ لأني كنتُ أشعُر بدوارٍ شديدٍ وفي حالة ذهول. نظرتُ إليه كما ينظر المرء إلى كارثةٍ طبيعيةٍ ألحقَت الدمارَ بقارّة.

كان الوجه يبتسم إليّ.

قال: «سعيدٌ باستضافتك في نهاية المطاف.»

استجمعتُ أفكاري وحاولتُ التركيز أكثر على الرجل الواقف أمامي. لم تعُد العارضة ثقيلةً تجثم على صدري بقَدْر ما كانت، فصرتُ أستطيع التنفُّس بصورةٍ أفضل. لكن عندما حاولتُ الحديث، لم تخرج الكلمات من بين شفتَي.

تابع: «نحن صديقان قديمان. عرف أحدنا الآخر عن قربٍ لأربع سنواتٍ تقريبًا، وهي مدةٌ طويلةٌ في عمر الحرب. لقد أثرتَ اهتمامي، لذكائك الفطري، وأجبرتَني أن آخذك على محمل الجد. لو كنتَ أكثر ذكاءً لقدّرتَ هذا المديح. لكنك كنتَ مغفلًا بما يكفي لتظن أن بوسعك هزيمتي؛ لذا لا بد من عقابك. لا تتباهَ؛ فأنتَ ما شكّلت لي تهديدًا على الإطلاق. كنتَ مشاغبًا وقحًا مثل بعوضةٍ يصرفُها المرءُ عن كُمه هكذا.»

كان يستند إلى جانب الباب المغلق الصُّلب. أشعل سيجارًا من عُلبةٍ ذهبيةٍ صغيرةٍ تحتوي على الصوفان وحجر القدح، ونظر إليّ نظرةَ استمتاع.

قال: «ستجد وقتًا كافيًا للاستيعاب؛ لذا أرى أن أُقدِّم لك بعض الشرح. أنتَ تُلاحظ التفاصيل الصغيرة. أليس كذلك؟ هل راقبتَ القطة والفأر؟ يركضُ الفأرُ في الأنحاء ويختبئ، ويناور ويعتقد أن بيده قوانين اللعبة. لكن في أي لحظة، قد تمدُّ القطّة مخلبها، وتفترسه. أنتَ الفأر، أيها الجنرال المسكين، وما أراك إلا واحدًا من الهواة المُضحِكين الذين يُلقِّبهم الإنجليز بالجنرالات. في أي لحظة، في الأشهر التسعة الأخيرة،

كان بإمكاني قتلُكَ بإيماءة من رأسي.»

توقّف الدّوار وفهمتُ ما قاله، رغم أني لم أستعِد بعدُ قدرتي على الرد.

واصل: «سأشرح لك. شاهدتُك باستمتاع وأنتَ تلهو في بيجلزويك. وراقبتُك عندما ذهبت إلى كلايد، وتابعتُ تحركاتك الملتوية البلهاء في اسكتلندا. تركتُك تتصرف بحرية لأنني لم أرَك تشكل خطرًا، ولديّ أمورٌ أهمٌ تطلّبَت انتباهي. تركتُك تتسلى في جبهتك البريطانية بتحقيقاتك الصبيانية وتتظاهر بالحمق في باريس. لاحقتُك خطوةً خطوةً في سويسرا، وساعدت صديقك الأمريكي الغبي في أن ينصب فخًا لي. ظننتَ أنك تُحيطني بشباكك، بينما الحقيقة هي أني كنتُ ألفٌ شباكي حولك. أؤكِد لك أنني وجدتُ في ذلك راحةً ساحرةً من مهامي الخطيرة.»

علمتُ أنه يكذب. كان هناك جزءٌ من الحقيقة في كلامه؛ إذ ليس هناك شك في خداعه لبلنكيرون؛ لكن في الوقت نفسه لا أنسى فِراره السريع من بيجلزويك وأوكور سانت آن عندما انقلبَت الأمور ضده. لقد أوقعَني في قبضته، وهو الآن يستغل الفرصة لإشباع غروره. أنزله هذا السلوك من تلك المكانة الرفيعة التي وضعتُه فيها، وبدّد ذلك الإجلال الذي أثاره في نفسي عندما رأيتُه للمرة الأولى.

قال: «تعلم أنني لا أُضمر الضغينة لأحد. في مهنتنا، يُعَد الغضب ضربًا من الحمق، لأنه إهدار لطاقتك. لكني لا أتسامح مع الإهانة يا عزيزي الجنرال. ومن عادة دولتي أن تنتقم من أعدائها. ربما يُهمك معرفة أن النهاية ليست ببعيدة. لقد واجهَت ألمانيا العالم الغَيور الذي تكاتَف ضدها، وتوشك أن تجني ثمار شجاعتها العظيمة. وفكّكَت تنظيم خصومها المهلهل شيئًا فشيئًا. أين هي روسيا التي كانت تتوعدنا بقوتها الساحقة؟ بل أين رومانيا المغفّلة المسكينة؟ أين ذهبَت قوة إيطاليا التي كانت تفعل الأعاجيب في سبيل ما تُسمّيه بالحرية؟ انهارت هذه الدول كلها. لقد أدّيتُ دوري في هذه المهمة، ولم تعُد هناك حاجةٌ إليّ. وتستعد الآن دولتي للإجهاز على السفلَة المسلّحين في الغرب، ودفعِهم إلى المحيط الأطلسي. وستتعامل بعد ذلك مع فلول الجيش الفرنسي المُنهَكة وتلك الحفنة الصاخبة من الأمريكيين. وبحلول منتصف الصيف ستفرض ألمانيا المنتصرة السلام.»

وجدتُ صوتي أخيرًا: «لن يحدث هذا أبدا!»

قال مبتهجًا: «بل سيحدث! ذلك ما تُسمّونه باليقين الرياضي. ولا شك أنك ستموتُ بشجاعة مثل القبائل المتوحِّشة التي استعمَرت إمبراطوريتُك أرضها. لكننا

أكثر تنظيمًا وأقوى عزيمة وأكثر دهاء. يلقى الغباء جزاءه في النهاية، وأنتم أمةٌ غبية. لا تحسب أن أقرباءك في الناحية الأخرى من المحيط الأطلسي سينقذونك. هم تجار ولا يثقون في قدراتهم البتة. بعدما يتبجّحون قليلًا، سيستعيدون رشدهم وسيحتالون للحفاظ على ماء وجههم. سيُلقي رئيسُهم المضحكُ خطابًا أو اثنين، وسيكتب خطابًا رصينًا، سنرد عليه بتلك اللهجة البليغة الجادة التي يُحبها، ثم سنتصالح ونصير أصدقاء. تعلم في قرارة نفسك أن الأمور ستجري على هذا النحو.»

غمرني شعور عميق بعدم الاكتراث. لم يستفزّني تباهيه، بل لم أعد أرغب في معارضته. توقّف عقلي عن العمل، ربما من أثرِ السقوط. وسمعتُ صوته مثلما يسمع المرء تكتكة عقارب الساعة بلا تركيز.

كان يقول: «سأطلعك على المزيد. نحن الآن في ليلة الثامن عشر من شهر مارس. يتوقع الجنرالات الفرنسيون حدوث هجوم، لكنهم لا يدرون مكانه تحديدًا. يظن البعض أنه سيقع على مقاطعة شامبانيا أو أن، وفريق ثانٍ يظن وقوعه على إيبر، وفريقٌ ثالثٌ يظن وقوعَه على سانت كونتين. حسنًا، أيها الجنرال العزيز، سأفضي إليكَ بالسر. في صباح الحادي والعشرين؛ أي بعد ثلاثة أيام من الآن، سنُهاجم الجناح الأيمن من الجيش البريطاني. في غضون يومَين سنكون في إميان. وفي الثالث والعشرين، سنُحدِث شقًّا في صفوفكم يصل إلى البحر. وفي خلال أسبوع أو أسبوعَين، سنكون قد طوقنا جيشك من اليمين، وسرعان ما سنبلغ بولون وكاليه. بعد ذلك ستسقط فرنسا وسنفرض السلام.»

لم أعلق على كلامه. ذكّرَتني إميان بماري، وحاولتُ أن أستدعيَ ذكرى ذلك اليوم من شهر يناير، عندما اتجهنا بالسيارة جنوبًا من تلك المدينة الجميلة.

تابع: «لمَ أخبرك بهذه الأمور؟ أنت على قَدْر من الذكاء يمكِّنُك من الإجابة على ذلك السؤال. السبب هو أن حياتك قد انتهت. وما تبقى هو الصمت، كما يقول كاتبكم شكسبير ... لا، لن أقتلك. فهذا فعل همجي، وأنا أكره الهمجية. سأذهب في رحلةٍ قصيرة، وعندما أعود في غضون ٢٤ ساعة، ستكون رفيقي. ستزور ألمانيا أيها الجنرال العزيز.»

أعادني ذلك إلى كامل انتباهي، ولاحظ هو ذلك؛ إذ واصل كلامه بحماسة.

قال: «أسمعتَ عن «قطار الأنفاق»؟ لا؟ وتتفاخرون بالمخابرات البريطانية! لكن جهلك هذا تشاركك فيه الأركان العامة بأكملها. هذا تنظيمٌ صغيرٌ تحت إمرتي. من خلاله ننقل الأشخاص الخطيرين بغير إرادتهم إلى جبهتنا، ليتسنّى لنا التعامُل معهم

كما نريد. نقلنا البعض من إنجلترا والكثير من فرنسا. أظن أن أولئك الأشخاص اعتبروا رسمياً في عداد المفقودين، غير أنهم لم يُفقَدوا في ساحة القتال. بل اختطفوا من بيوتهم أو مكاتبهم أو الفنادق التي ينزلون بها أو من وسط الشوارع المكتظة بالمارة. ولا أخفي عليك أن حركة قطار الأنفاق القادم من فرنسا وإنجلترا غيرُ منتظمة كثيراً. لكن حركة القطار القادم من سويسرا منتظمة للغاية. إذ تُوجَد مواقعُ غير مُراقَبة عند الحدود ولا نجد صعوبةً بشأن التصاريح. إنها وسيلةٌ جميلة، وستحظى بميزة مشاهدتها وهي تؤدي عملها عن كثَب ... في ألمانيا، لا أعدُك أنك ستحظى بالراحة، لكن لا أظن أن حياتك ستكون مُملة.»

وما إن تفوه بهذه الكلمات حتى استحالت ابتسامتُه المهذبة إلى أخرى خبيثة شيطانية. وشعَرتُ بحقده، رغم حالة الخدَر التي كنتُ أعاني منها، فاقشعرّ بدني.

اكتسب صوتُه تلك النبرةَ المعسولةَ مرةً أخرى وقال: «عندما أعود، سيكون معي شخصٌ آخر. هناك سيدةٌ جميلة استُخدمَت طُعماً لإغوائي بالذهاب إلى إيطاليا. أليس كذلك؟ حسناً، لقد سقطتُ في الفخ. ورتّبت أن تُقابلَني هذه الليلة في فندقٍ جبليٍّ في الجانب الإيطالي. كما نسّقت أن تأتي إليّ وحدَها. إنها فتاةٌ بريئةٌ ولا أراها أكثر من آلة في أيادي أصدقائك الخرقاء. ستأتي معي إن طلبتُ منها ذلك، وسنكونُ رفقةً سعيدةً في قطار الأنفاق السريع.»

ذهبَت عني اللامبالاة ودبّت الدماء في عروقي بسماع هذه الكلمات.

هتفتُ: «يا وغد! إنها لا تطيق رؤيتك. ولن تريد التعامل معك على الإطلاق.»

نفض غبار سيجاره. وقال: «أنتَ مخطئ في ذلك. أستطيع إقناعها ولا أُحب استخدام الإكراه مع النساء. لكنها ستأتي معي شاءت أم أبت. لقد عملتُ بجد، وأستحق المُتعة، كما أنني عقدتُ العزمَ على الحصول على السيدة الصغيرة.»

حملَت نبرة صوته مزيجاً من الفظاظة والشهوانية والثقة والاحتقار جعل الدم يغلي في عروقي. لقد أثار حفيظتي، وشعَرتُ بالمطرقة تدقّ بجنون في جبيني. كدتُ أبكي من سَورة الغضب فاحتشدَت كل قواي كي أظلّ صامتاً. لكني كنتُ عازماً ألا أعززِ شعورَه بالانتصار.»

نظر إلى ساعته. وقال: «الوقت يمرٌّ. يجب أن أرحل من أجل اللقاء الموعود. سأحمل سلامك إلى السيدة. اعذرني على عدم اتخاذ أي تدابير لأجل راحتك إلى حين عودتي. إن بنية جسمك قوية ولن يضرها صيام يوم. كي أريح عقلك أؤكد لك أن الهرب

من هُنا مستحيل. لقد أثبت هذا النظام فاعليته الكثير من المرات، ولو أفلحتَ في التحرُّر منه، فسيتصرف معك الخدم. لكن يقع على عاتقي تحذيرك. إذا عبثتَ به أو جاهدتَ للتحرُّر منه بقوة فسيكون ردٌّ فعله مثيرًا للاهتمام. تُغطي الأرضية بئرًا يفضي إلى البحيرة بالأسفل. إذا عبثتَ بأي مسمارٍ فستسقط في البحيرة المُغطاة بالثلج بسرعة الصاروخ، وسيتعفَّن جسدُك هناك حتى موسم الربيع ... هذا، بالطبع، مخرجٌ بديلٌ إن كنتَ لا تحب أن تنتظر عودتي.»

أشعل سيجارًا جديدًا ولوَّح بيده، قبل أن يختفي عَبْر مدخل الباب. وتبدَّد صوتُ وقعِ أقدامِه فور انغلاق الباب خلفه. لا بد أن الجدران في سماكة جدران السجون.

كنتُ في تلك الحالة التي يُسمِّيها كُتَّاب الروايات «الذهول». كان الشرح في الدقائق القليلة الماضية صادمًا فعجز عقلي عن استيعابه. أذكُر بوضوحٍ شديدٍ أنني لم أفكِّر في فشل مخطَّطنا الذريع، ولا في المخططات الألمانية التي كُشفَت لي في غطرسة باعتباري في حكم الميت. إنما سيطرَت على ذهني صورةٌ واحدة؛ فندق في وادٍ جليدي (تخيَّلتُه مكانًا صغيرًا في حجم كوخ بيتر)، وفتاةٌ وحيدة، وذلك الشيطان المبتسِم الذي تركني للتو، والرعب المجهول الذي ينتظرنا في قطار الأنفاق. لوهلة خانتني الشجاعة، وبكيتُ من فَرْط شعوري بالوهن والغضب. لم يعُد جبيني ينبض؛ إذ لا يحدث ذلك إلا حين يعتريني الغضَب وأنا أملك التصرُّف في أمري. أما الآن وأنا أرقد عاجزًا عن الحركة، فقد غادرتني شجاعتي، ولو أن أفري ظلَّ عند مدخل الباب لتوسَّلتُ إليه طلبًا للرحمة. كنتُ سأزوِّده بكل المعلومات التي بحوزتي لقاء أن يتعهد أن يترك ماري وشأنها.

لحسن الحظ أنه غادر، فلم يشهد أحدٌ على جُبني. ولحُسنِ الحظ أيضًا أن الجُبن كالشجاعة، يصعُب أن يتملك المرء لفترةٍ طويلة. تذكَّرتُ عبارة بلنكيرون بشأن ماري «إنها شجاعةٌ عفيفة» فعُدتُ إلى رشدي. لا، وبحق السماء، لن تخاف. فأنا أثق في امرأتي أكثر مما أثق في نفسي. كان قلقي عليها لا يزال ينهشني، إلا أنني بدأتُ أستعيد رباطة جأشي. قد يكون قد انتهى أمري لكن لن أترك أفري يذوقُ لذة الانتصار برؤيتي منكسرًا. إما أن أذهب تحت الجليد أو أن أحظى بطلقةٍ في رأسي قبل عبوري الحدود. وإن لم أجد خيارًا آخر فسأُعانق الموت بشجاعة ... في تلك اللحظة، ضحكتُ وأدركتُ أن الجزء الأسوأ قد مرَّ. ما جعلني أضحك هو التفكير في بيتر. منذ ساعة، كنت أشفقُ عليه لامتلاكه ساقًا واحدة، لكنه موجود في الخارج، في عالم الأحياء، يفصل بينه وبين الموت أعوامٌ كثيرة؛ أما أنا، فأستلقي في الأعماق، جثةً هامدة لا تستطيع الحراك، على

شفا الموت.

بدأتُ أتخيل المياه الباردة تحت الجليد، حيث يُمكِنني الذهاب إن شئت. لا أظن أنني سأسلكُ هذا المسلك؛ لأنه لا يزال هناك فسحةٌ من الأمل طالما لم يلفظ المرءُ أنفاسه الأخيرة، لكن كنتُ سعيداً لوجوده باعتباره أحد الخيارات ... ثم نظرتُ إلى الجدار أمامي، ورأيتُ نافذةً مربعةً صغيرةً على ارتفاعٍ شاهق.

كانت النجوم مُحتجبة عندما تسلّلت إلى ذلك المنزل البغيض لكن لا بد أن الضباب انقشع الآن. فقد رأيتُ صديقي القديم الجبار، دليل الصياد، من خلال قضبان النافذة. وفجأة خطرَت لي فكرة.

كنتُ أشاهد وبيتر النجوم في الليل، وأعرف موضع جميع الكوكبات الرئيسية من وادي سانت أنطون. ويُفترَض أنني في إحدى غرف الجانب المشرف على البحيرة من «بينك شاليه»؛ لا بد أن الأمر كذلك لو كان أفري صادقًا. لكن لو صح ذلك لما استطعتُ على الإطلاق رؤية كوكبة الجبار من خلال النافذة ... إذن الاستنتاج الوحيد هو أنني في غرفة في الجانب الشرقي من المنزل، وأن أفري يكذب لا محالة. وأنه كذبَ بالفعل عندما افتخر بكيفيةِ خداعه لي في إنجلترا وعلى الجبهة. وبالمثل قد يكون يكذب بشأن ماري ... لا، طردتُ ذلك الأمل. فقد كانت كلماتُه عنها تتقاطر صدقًا.

تفكّرتُ في كلامه هنيهة، وتوصّلتُ إلى أنه كذب عليّ لإخافتي، وحتى لا أتحرّك من مكاني؛ هذا يعني أن هناك ثغرةً في هذا النظام اللعين على الأرجح. فكّرتُ أيضًا أنني قويٌّ جدًّا، أقوى كثيراً مما يتصور؛ لأنه لم يرَني متخففًا من الملابس. ولأن المكان كان مغلقًا بظلامٍ دامس، لم أستطع تخمين كيفية عمل هذا الشيء، لكن كنتُ أحسُّ بثقل العارضتَين المتقاطعتَين الجاثمتَين على صدري وساقيّ بالإضافة إلى العارضتَين الجانبيتَين اللتين تُثبتان ذراعيّ مُلتصقَين بجانبيّ ... التقطتُ نفسًا عميقًا، وحاولتُ أن أباعد بين مرفقيّ. لم يتحرك شيء، ولم أستطع رفع العارضة التي تجثم على ساقي، ولو قيدَ أنملة.

حاولتُ مرةً تلو الأخرى. بدت العارضة الجانبية التي تُثبّت ذراعِي اليمنى أقل صلابةً من الأخريات. أفلحتُ في رفع يدي اليمنى فوق مستوى فخذي، وبعد محاولةٍ شاقة أمسكتُ العارضتَين المتقاطعتَين بها، فحصلتُ على بعض السيطرة. وبصعوبةٍ بالغةٍ دفعتُ العارضة اليمنى بمرفقي وكتفي. تزحزحَت قليلًا ... فحشدتُ ما لديّ من قوةٍ وحاولتُ مرةً أخرى. سمعتُ صوت تصدُّع ثم انكسار، بعد ذلك تراجعَت العارضة الضخمة، وتحرّرَت ذراعي اليمنى وصارت قادرة على الحركة جانبيًّا، وإن منعَتني العارضتان

المتقاطعتان من رفعها للأعلى.

وصلتُ إلى جيب معطفي، ببعض الصعوبة؛ حيث قبع المصباح الكهربائي والمسدس. وبجهدٍ شاق وآلامٍ مبرحة أخرجتُ المصباح وأشعلتُه من خلال دفع مفتاح تشغيله بالعارضة، بعد ذلك تمكّنتُ من رؤية زنزانتي.

كانت غرفةً مربعةً صغيرة، سقفُها في غاية الارتفاع، وكان بابها الضخم الذي رحل أفري من خلاله على يساري. اتضحَت معالم العارضات المخلعة الشيطانية التي تثبّتني وخمّنتُ كيفية عملها نوعًا ما. لا بد أن نابضًا قد رفع الأرضية بزاويةٍ مائلة، وأسقط الآلة من مكانها في الجدار الأيمن. لاحظتُ أن الآلة مثبّتة بمِشبك في تكوين على الأرضية أمام الباب. إن استطعتُ فك ذلك المشبك، فسيسهل التحرُّر من قيودي؛ لأن هذه العارضات الثقيلة لن يستحيل رفعُها على مَن هو في مثل قوّتي.

عادت إليّ شجاعتي، وركّزتُ على الخطوة الراهنة، محاولًا أن أنحّي جانبًا آمال الهرب. كانت مهمتي الأولى هي تدمير المشبك المسئول عن تثبيت العارضات في مكانها، وقرّرتُ استخدامَ مسدسي لتحقيق هذا الغرض. حشرتُ مصباحي الكهربائي في زاوية العارضتَين المتقاطعتَين حيث أضاء الأرضيةَ المفضيةَ إلى الباب. بعد ذلك واجهتُ صعوبةً شديدةً في إخراج المسدس من جيبي. كانت أصابع يدي ورسغي تتشنّج طيلة الوقت، وارتعدتُ من فكرة أن يسقط المُسدس في مكانٍ لا أستطيع استعادتَه منه.

أجبرتُ نفسي على أن أفكّر بهدوء في أمر المشبك؛ لأن رصاصة المسدس صغيرة، وليس لديّ رفاهية المخاطرة بعدم إصابة الهدف. فسّرتُ الأمر من خبرتي بالميكانيكا، وتوصّلتُ إلى أن مركز ثقل النظام هو بقعة لامعة بعينها من المعدن، يُمكنني رؤيتُها فوق العارضتَين المتقاطعتَين مباشرة. كانت البقعة لامعة للغاية؛ لذا لا بد أنها أُصلحَت حديثًا، وهذا سببٌ آخر يجعلها مهمة. كان السؤال هو كيفية إصابتها؛ إذ لم أستطع وضع المُسدس في مرمى بصري. جرّب أن تجعل شخصًا يُصوب مسدسًا، بذراعٍ ملتفّة حول عارضة، وهو مستلقٍ على ظهره وينظر إلى الهدف من أسفلها، وسيفهم التحديات التي أتحدّث عنها. لديّ ستُّ طلقات في مسدسي، ولا بد من إطلاق طلقتَين أو ثلاثٍ في البداية لتحديد المدى في كل الأحوال. يجب ألا أستنفد كل الطلقات وأريد أن أستبقيَ واحدةً لمعالجة أي خادم يأتي للتطفّل وأخرى لحماية نفسي. لكن لا أظن أن صوت الطلقات سيُدوّي خارج هذه الغرفة؛ فقد كانت جدرانُها سميكةً جدًا.

ثبتُّ رسغي فوق العارضتَين المتقاطعتَين وأطلقتُ النار. استقرّت الرصاصة يمين الجزء المعدني اللامع ببوصة. حرّكت يدي قليلًا وأطلقتُ النار ثانية، فلامسَت رصاصتي

الثانية جانبه الأيسر. ثبتُّ عينَي المُجهدتَين على الهدف، وحاولتُ للمرة الثالثة. رأيتُ شيئًا يطير في الهواء، وشعَرتُ فجأة أن الإطار الذي يقبع فوقي قد تحرّر وصار قابلًا للتحريك ... تصرّفتُ بهدوء فأعدتُ مُسدسي إلى جيبي وأمسكتُ بالكشّاف قبل أن أتحرك ... لقد حالفَني الحظ وتحرّرتُ. انقلبتُ على وجهي وقوّستُ ظهري فاستطعتُ أن أزحف خارجًا من تحت الإطار دون عناء.

لم أسمح لنفسي بالتفكير في لحظة الهروب النهائية؛ إذ لن يجدي ذلك إلا في إصابتي بالتوتُّر، يكفي أن أركّز على كل خطوةٍ على حدة. أتذكر أنني نفضتُ ثيابي ووجدتُ الجرح في رأسي قد توقف عن النزيف. استعدتُ قبعتي التي كانت قد تدحرجَت إلى زاويةٍ عند سقوطي ... ثم ركّزتُ انتباهي على الخطوة التالية.

كان استخدام النفق مستحيلًا، والمخرج الوحيد هو الباب. لو توقفتُ للتفكير لأدركتُ أن فرص الخروج من هذا المنزل واحدٌ في الألف. كتَمَت الجدرانُ السميكةُ صوتَ طلقات المسدس، لكن المكان، كما أعلم، مليء بالخدم، وحتى لو عبَرتُ من الباب القريب، فسيحاصرني الخدم في أحد الممرات. لكني تمالكتُ أعصابي جيدًا واستكشفتُ الباب بهدوء وكأنني أستكشفُ موقعًا محتملًا للتنقيب عن المعادن في رودسيا.

لم يكن للباب مقبضٌ ولا ثقبُ مفتاح حسبما رأيتُ ... لكن لاحظتُ حينما سلّطتُ مصباحي على الأرض، أن القضيبَ النحاسيّ المغروس في الأرضية الذي كان المشبك الذي حطّمتُه مثبتًا به يمتد إلى أحد جانبَي إطار الباب. اتضح أن الباب يعمل بواسطة نابضٍ ومتصل بآلية الأداة.

خطرَت لي فكرةٌ مجنونةٌ فهبَبتُ واقفًا على قدمي. دفعتُ الباب فانفتح ببطء. لقد حرّرَت الرصاصة التي خلّصَتني النابضَ الذي يتحكم بالباب.

لأول مرة، وخلافًا لكل قواعدي عن الحذَر، بدأتُ أشعر بالأمل. خلعتُ قبعتي، وشعَرتُ أن جبهتي تحترق؛ لذا أرحتُها على الجدار البارد هنيهة ... ربما لا يزال الحظ في صفي. تدفقَت في عقلي صور ماري وبلنكيرون وبيتر وكل شيء كافحنا في سبيله بسرعة وعزمتُ عزمًا أكيدًا على الفوز.

لم تكن لديّ أدنى فكرة عن التصميم الداخلي للمنزل أو عن مكان الباب الرئيسي المفضي إلى العالم الخارجي. كشف لي ضوء المصباح عن ممرٍّ طويلٍ في نهايته ما يُشبه الباب، لكني أطفأته بعد ذلك إذ لم أجرؤ على استخدامه في الظروف الحالية. كان الصمت يُخيِّم على المكان. أصغيتُ بحذَر، وبدا أنني سمعتُ بابًا يُفتح في مكانٍ بعيد،

ثم ساد الصمت مرةً أخرى.

تلمّستُ طريقي عَبْر الممر حتى استقرت يداي على الباب البعيد. رجوتُ أن يقودني إلى ردهةٍ أستطيع الهرب منها بواسطة نافذةٍ أو شرفة؛ إذ خمّنتُ أن الباب الخارجي سيكون مقفلًا. أرهفتُ السمع فلم أسمع أي أصواتٍ قادمةٍ من ورائه. رأيتُ أنه لا فائدة من المُماطلة، فأدرتُ مقبض الباب بهدوءٍ شديد، وواربتُه.

صرّ الباب، فانتظرتُ في هلع أن ينكشَف أمري؛ إذ رأيتُ بالداخل هالةً من الضوء. لكن لم يكن هناك أدنى حركة، وأدركتُ أن المكان خاوٍ. أدخلتُ رأسي من فرجة الباب، ثم أتبعتُها باقي جسدي.

وجدتُ نفسي في غرفةٍ كبيرة، يشتعل حطَب مدفأتها، ويكسو أرضيّتَها سجّادٌ سميك. كانت تُغطي جدرانها أرففُ الكتب، وعلى طاولة في وسط الغرفة كان مصباح القراءة مُضاءً. وجدتُ عدة صناديق أوراقٍ حكوميةٍ على الطاولة بالإضافة إلى كومةٍ صغيرةٍ من الأوراق. لا بد أن رجلًا كان بالغرفة منذ دقيقة؛ إذ قبع سيجارٌ مُشتعل على طرفِ حاملِ أدواتِ الكتابة.

في تلك اللحظة استعدتُ صفاء ذهني ورباطة جأشي. وفوق ذلك عاد إليّ شعوري القديم بعدم الاكترات الذي أنقذَني جيداً من قبل. لقد رحل أفري لكن هذا المكان هو حَرَمُه المقدس. ومثلما تلهّفتُ للحصول على أوراق شتوم فوق أسطح أرضروم، انتابتني رغبةٌ عارمةٌ في تفقّد هذه الكومة مهما كان الثمن.

سِرتُ إلى الطاولة وتناولتُ الورقة التي تتصدّر الكومة. تبيّن أنها قصاصةٌ ورقيةٌ زرقاء كُتب عليها بالآلة الكاتبة بحروفٍ مائلة، وزُيلَت بختمٍ معقدٍ غريبٍ أحمر في الزاوية. تقول القصاصة بالألمانية:

> «يجب أن تعود الطيور البرية.»

في اللحظة نفسها، سمعتُ وقع خطواتٍ على الأرض وفُتح بابٌ في الجانب المقابل من الغرفة، فتراجعتُ إلى المدفأة وتحسّستُ المسدس في جيبي.

دخل رجل له ظهرٌ مَحنيٌّ كعادة الباحثين، ولحيةٌ شعثاء، وعينان داكنتان واسعتان ناعستان. فور أن رآني توقّف في مكانه وبدَت أماراتُ التوتّر على جسده. كان هو

اليهودي البرتغالي الذي رأيتُه آخِر مرة يقف مُوليًا ظهره لبابِ ورشةِ الحدادةِ في جزيرة سكاي، والذي لم يرَ وجهي، حمدًا للرب.

توقفتُ عن تحسُّس مسدّسي؛ إذ خطرَت لي فكرة. قبل أن يتفوّه بكلمة واحدة أخذتُ بزمام المبادرة.

قلتُ بالألمانية: «الطيور الصغيرة سكنَت في الغابة.»

تهلّلَت أساريره وارتسمَت على وجهه ابتسامةٌ عذبة، وأجاب:

«صبرًا فلن تلبث أنت أيضًا أن ترتاح.»

قال بالألمانية وهو يمُد يده لمصافحتي: «آه، لقد قدمتَ من هذا الطريق، وكنا نظن أنك ستأتي عَبْر مودان. أُحيِّيك لأنني سمعتُ عن بطولاتك. ألستَ كونرادي صاحب المآثر العظيمة في إيطاليا؟»

انحنيتُ في احترام. وقلتُ: «بلى، أنا كونرادي.»

الفصل السابع عشر

معبر السنونوات

أشار إلى القصاصة الورقية على الطاولة.

قال: «هل قرأتَ الأوامر؟»

أومأتُ برأسي علامةَ الإيجاب.

قال: «لقد انتهى العمل الشاق. ابتهِجْ فقد كان دورك هو الأصعب حسبما أظن. هل ستحكي لي التفاصيل في يوم من الأيام؟»

كان وجه الرجل صادقًا وعطوفًا ذا ملامحَ شبيهةٍ بملامح المهندس جاوديان الذي قابلتُه منذ عامَين في ألمانيا. لكن ما سحرني هو عيناه، فقد أشبهتا عينَي حالمٍ مُتعصِّب لن يتوقف عن مواصلة مَساعيه ما دام بقي على قيد الحياة. شعَرتُ أن أفري أحسن اختيار هذا الرجل لأداء المهمة.

قلتُ: «لم تنتهِ مهمتي بعْد. قدمتُ إلى هُنا لمقابلة كيليوس.»

قال: «سيعود مساء الغد.»

قلتُ: «لا يمكنني الانتظار كل هذا الوقت. لا بد أن أراه في الحال. لقد ذهب إلى إيطاليا وعليّ اللحاق به.»

قال بجدية: «أنت أدرى بواجباتك.»

قلتُ: «لكن عليك مساعدتي. لا بد من أن ألقاه في سانتا كيارا بشأن مسألة في غايةِ الخطورة. هل تُوجَد سيارة؟»

أجاب: «هناك سيارتي. لكنها بلا سائق. فقد أخذه كيليوس معه.»

قلتُ: «يمكنني قيادتُها بنفسي كما أنني أعرف الطريق. لكن ليس لديّ تصريحٌ لاجتياز الحدود.»

قال مبتسمًا: «سأُزوِّدك بواحدٍ بسهولة.»

كان هناك رفٌّ من الكتب المزيّفة في خزانة الكتب. فتح الرفَّ كاشفًا عن خزانةٍ صغيرةٍ أخرج منها حقيبةً معدنية. انتقى ورقة من بين الأوراق بدت أنها تحمل توقيعًا بالفعل.

سأل: «ما الاسم؟»

أجبتُ: «اكتب هانز جروبير من بريج. وسبب السفر هو أني سأُقِل سيدي الذي يعمل في تجارة خشب البناء.»

سأل: «وتاريخ العودة؟»

قلتُ بغموضٍ متعمّد: «سأعود من الطريق القديم»، وإن كان قد فهم قصدي فأنا لم أفهمه.

انتهى من ملء بيانات التصريح وسلّمه إليّ. قال: «سيُسهِّل لك المرور من المنافذ الحدودية. لنعُد إلى أمر السيارة. الخدم نائمون الآن؛ إذ كانوا يُعِدون العدة لرحلةٍ طويلة؛ لذا سأريك مكانَ السيارةِ بنفسي. ستجد بنزينًا يكفي لذهابك إلى روما.»

قادني عَبْر الردهة، وفتح الباب الأمامي، وبعد ذلك سِرنا في حديقة تُفضي إلى المرأب. كان المرأب فارغًا باستثناء سيارةٍ ضخمةٍ يُوحي مظهرها بقدومها من المنخفضات المُوحِلة. سرّني أن وجدتُها من ماركة «دايملر» التي آلَفُ التعامُل معها. أشعلتُ المصابيح، وشغّلتُ المحرك، ثم خرجتُ إلى الطريق.

قال: «ستحتاج إلى معطفٍ طويل.»

أجبتُ: «لا أرتدي المعاطف.»

سأل: «ماذا عن الطعام؟»

قلتُ: «لديّ بعض الشكولاتة. سأتناول الفطور في سانتا كيارا.»

قال: «حسنًا، ليرعَك الرب!»

في غضون دقيقةٍ اندفعتُ بمحاذاة البحيرة قاصدًا قرية سانت أنطون.

أوقفتُ السيارة عند كوخ على التل. اتضح أن بيتر لم يذهب إلى فراشه بعدُ. فقد وجدتُه جالسًا عند المدفأة، يحاول التركيز في القراءة، لكن لاحظتُ من وجهه أنه كان

ينتظر قدومي بقلقٍ بالغ.

قلتُ بمجرد أن أوصدتُ الباب: «نحن في ورطةٍ كبيرةٍ يا رجل.» وحكيتُ في عباراتٍ معدودةٍ عما فعلتُه في أثناء الليل، وعن مخطَّط أفري، وعن مهمتي المستميتة.

هتفتُ: «أردتُ المشاركة؟ حسنًا، يتوقف كل شيء عليك الآن. سأذهب في أعقاب أفري، والرب وحده يعلم ما سيحدث بعد ذلك. في أثناء ذلك، يجب أن تتواصل مع بلنكيرون، وتُبلغَه ما أخبرتك به. لا بد أن يُوصل تلك المعلومات إلى القيادة العامة بطريقةٍ ما. يجب أن يُوقِع بالطيور البرية قبل أن تهرب. لا أعرف السبيل إلى ذلك، لكن لا خيارَ آخر. أخبِره أن الأمر يقع على عاتقكما الآن؛ لأنني لم أعُد في اللعبة. يتوجَّب عليَّ إنقاذ ماري، وقد أحسِم القتال مع أفري بمشيئة الرب. لكن المهمة الكبرى صارت من نصيبك أنت وبلنكيرون. لقد ذلّت قدمُه بشكلٍ ما أو آخر، فسبقه العدو. ولا بد أن يبذل غاية ما في وسعه لتدارُك ما حدث. إنها لحظةٌ حاسمةٌ في حياتنا يا بيتر. لا أرى بارقةَ أمل، لكن يجب ألا نُفوِّت أي فرصة. سأترك لك المسألة بأكملها.»

كنتُ أتحدث كالمحموم؛ إذ لم أعُد في كامل قواي العقلية بعد ما مررتُ به من أحداث. وحلّ اضطرابٌ شديدٌ محل ذلك الهدوء الذي غشاني في «بينك شاليه». لا أزال أرى بيتر، واقفًا في دائرة من الضوء، يستند على ظهر مقعدٍ، قاطبًا حاجبَيه، فيما يحكُّ طرف أذنه اليسرى برفق، مثلما يفعل عادة في لحظات الإثارة. كان وجهه سعيدًا.

قال: «لا تخف أبدًا يا ديك. ستجري الأمور على ما يُرام.» وأضاف بلغة جنوب أفريقيا: «لنضع خطة.»

بعد ذلك خرجتُ إلى الطريق مرةً أخرى وما يزال القلق العارم يعتريني، وقصدتُ المعبَر الجبلي المؤدي إلى إيطاليا.

كان الضباب قد انقشع، وسطعَت النجوم في السماء. أطَل القمر، الذي كان في نهاية طور التربيع الأول، من فُرجة بين الجبال، فيما تسلّقتُ الممر الجبلي المنخفض الذي يربط بين وادي سانت أنطون ووادي شتاوبتال العظيم. كان هناك صقيع وتشقّقَت طبقة الجليد الصُّلبة تحت عجلات السيارة لكن كان الجو يُنذِر بحدوث عاصفةٍ وشيكة. تساءلتُ إن كانت الثلوج ستعترض طريقي في التلال المرتفعة. كانت المنطقة بأكملها تكتنفها السكينة. لم أرَ أي ضوء في القرى الصغيرة التي مررتُ بها، ولم أرَ شخصًا واحدًا في الطريق السريع.

في وادي شتاوبتال، دخلتُ الطريق الرئيسي وانعطفتُ يسارًا إلى حوض الوادي الضيق.

كان الطريق مُمهدًا، وانسابت السيارة فوقه بسرعة بين أشجار الصنَوبَر المُغطاة بالجليد حتى وصلت إلى أرضٍ مرتفعة تتقارَب فيها الجبال ويتعرّج الطريق السريع حول الأجراف الشاسعة أو يدور حول وادٍ عميقٍ بصورةٍ خطيرةٍ لا يفصله عن هُوّته سوى صف من الأعمدة الخشبية.

بدأ رأسي يصفو رويدًا رويدًا، ودرستُ المشكلة من جميع نواحيها. طردتُ من عقلي الوضعَ الذي تركتُه خلفي. لا بد أن يُعالجه بلنكيرون بأفضل ما لدَيه. مهمته هي التعامل مع جماعة الطيور البرية، أما أنا فسأتولى أمر أفري وحدَه. في وقتٍ مبكرٍ من الصباح سيصل أفري إلى سانتا كيارا وهناك سيجد ماري تنتظره. أما ما سيحدُث بعد ذلك فتعجز مخيّلتي عن تصوُّره. ستكون بمفردها؛ فهو يملك من الدهاء ما يُمكّنه من ترتيب ذلك؛ قد يُحاوِل إكراهها أو إقناعها بالقدوم معه بتلفيق قصةٍ ما. أترجّاكَ يا الله أن أصل قبل انتهاء مقابلتهما، وحينها لعنتُ المنحدرات الشديدة التي كنتُ أصعدها، وتمنّيتُ لو أن سحرًا ما يحمل السيارة الدايملر إلى ما وراء القمة، ويُذلل هبوطها المنحدر بسرعة وصولًا إلى إيطاليا.

أظن أن الساعة كانت تقترب من الثالثة والنصف، عندما رأيتُ أضواء المنفذ الحدودي. بدا الهواء أقل برودةً مما كان في الوديان، وداعبَت ندفاتُ الثلج خدي الأيمن. خرج حارسان سويسريان يحملان بندقيتَين بخطوات متعثرة، فيما كنت أوقف السيارة.

أخذ الحارسان التصريح إلى خيمة ليفحصاه، وغابا لربع ساعة قضيتُها في قلقٍ عارم. تكرّر الإجراء بعد خمسين ياردة في نقطة التفتيش على الجانب الإيطالي؛ حيث كان الحارسان ميالَين لإجراء محادثةٍ ما أصابني بالذعر. مثّلتُ دورَ الخادم المُتجهم، كنتُ أجيبُ على أسئلتهما بمقاطعَ أحادية، وأتظاهر بالغباء الشديد.

قال أحدهما بالألمانية: «أتيت في الوقت المناسب يا صديقي. فالطقس يزداد سوءًا وسرعان ما سنغلق المعبر. تبًا، الجو بارد مِثل آخر شتاء قضيناه في معبر تونالي. أتذكر ذلك يا جوسيبي؟»

لكنهما في النهاية سمحا لي بالعبور. سرتُ بحذَرٍ شديدٍ لبعض الوقت؛ إذ كان الطريق في القمة مليئًا بالانحناءات وكانت الثلوج تشوّش مجال رؤيتي. وسرعان ما بلغتُ منحدرًا شديدًا، وتركتُ السيارة تندفع فيه بسرعة. أحسستُ ببرودة الجو شيئًا فشيئًا وسرَت رعدةٌ في جسدي؛ واستحال الجليد ضبابًا أبيضَ رطبًا حول قوس الضوء المتوهج المنبعث من مصابيح السيارة الأمامية؛ وواصل الطريق انخفاضه في هيئة تعرُّجاتٍ طويلةٍ تارةً، وانحداراتٍ شديدةٍ قصيرة تاراتٍ أخرى، حتى لمحتُ مدخل وادٍ

صغير يفضي إلى الجنوب. بحكم عيشي فترةً طويلةً في البراري، صرتُ قادرًا على قراءة التضاريس الطبيعية بالحَدْس وإن لم أرَها بوضوح؛ لذا كنتُ أعرف متى يضيق الوادي ومتى يتّسِع رغم الظلمة الحالكة.

اضطُرِرتُ إلى إبطاء السيارة رغم تعجُّلي، فقد أدركتُ بعدما انحدرتُ بها بسرعة في المرة الأولى، أنني قد أُحطّمها وأفسد كلّ شيء إذا لم أنتبه جيدًا. كان الطريق في منحدر الجبال الجنوبي أسوأ من الشمالي آلاف المرات. كانت السيارة تنزلق وتحيد، بل إنها لامسَت حافة الوادي في إحدى المرات. كانت عملية الهبوط مثيرةً للحنق أكثر من الصعود؛ فأثناء الصعود كان الطريق ممهدًا وما كان عليّ إلا أن أجعل السيارة تبذل أقصى جهدها لصعود المنحدَر، لكنني الآن مُضطَرٌّ إلى كبحها لأني أفتقر إلى المهارة الكافية لقيادتها في تلك الظروف. ذلك الوقتُ الذي قضيتُه في الزحف نزولًا من قمة جبل شتاوب كان من أصعب الأوقات التي مررتُ بها على الإطلاق.

ثم فجأة تبدّل الطقس السيئ إلى معتدل. رأيتُ السماء صافيةً فوقي، وأدركتُ أن الفجر يوشك أن يطلع. بلغتُ مشارف غابة الصنَوبَر، ووصلتُ إلى منحدرٍ مُستقيم أخيرًا؛ حيث تركتُ السيارة تندفع دون إحجام. بدأتُ أستعيد حماستي التي خفتَت تلك الفترة الماضية، وحسبتُ المسافة المتبقية من رحلتي ... ودون سابق إنذار، انبثق من حولي عالمٌ جديد. برزَت القمم والنتوءات والقباب الثلجية البيضاء كالأشباح في الشفَق الأزرق، كانت قواعدها متواريةً في الظلمة فيما استمرّت قممُها في التوهُّج حتى تلألأَت مثل الجواهر. لم أرَ في حياتي مثل هذا المشهد الذي بدّدَت روعتُه كل ذرة قلقٍ في نفسي. كما منحَني وعدًا بالانتصار. أصبح الجو صافيًا مرةً أخرى، وفي مثل هذا النقاء لا بد أن تنهزم القوى الشريرة التي تزدهر في الظلام حتمًا ...

بعد ذلك رأيتُ على بعُد ميلٍ مبنًى مربعًا أحمرَ السقف الذي أعرفُ أنه فندق «سانتا كيارا».

في تلك اللحظة تعثّر حظي. كنتُ قد تخلّيتُ عن حذَري وأوليتُ اهتمامي للفندق بدلًا من الطريق. عند نقطةٍ مُعينة كان جزء من المنحدر منهارًا — ولا بد أن ذلك وقع حديثًا؛ إذ كان الطريق بحالةٍ جيدة — ولم ألحظه حتى صرتُ فوقه مباشرة. مالت السيارة إلى اليمين، فأدرتُها بحدة، حتى وجدتُ نفسي فوق الحافة البعيدة قبل أن أُدرِك ما حدث. ضغطتُ على المكابح بسرعة، واضطُرِرتُ إلى الخروج عن الطريق تمامًا، حتى لا تنقلبَ السيارة. انزلقتُ على منحدَرِ رابيةٍ حتى نزلتُ إلى مرج؛ حيث جعلَتْني ذنوبي أرتطم بجذعٍ ساقط، وقد كانت الصدمة قويةً فألقَتني خارج مقعد القيادة وكادت أن

تكسر ذراعي. علمتُ ما قد حدث من قبل أن أفحصَ السيارة. انبعج محور العجلتَين الأماميتَين واعوجّت العجلة الأمامية اليسرى.

لم يكن لديّ وقت لسبّ غبائي. تسلّقتُ عائدًا إلى الطريق ثم انطلقتُ أركُض بأقصى سرعتي. شعَرتُ أن جسدي مُتيبّس بشدة؛ إذ إن مخلَعة أفري ليست صديقةً للمفاصل، لكني لم أحسّ بذلك إلا لأنه أبطأ قليلًا من سرعتي، فلم أعتبر الألم الناتج عنه في حدِّ ذاته. كان تركيزًا منصبًا على النُّزُل أمامي وما قد يحدُث هناك.

كان هناك رجلٌ يقف عند باب الفندق، ما إن رآني حتى بدأ يتحرّك للقائي. أدركتُ أنه لانسلوت ويك ومنحَتْني رؤيته الأمل.

لكن وجهه بثّ الخوف في قلبي. فقد بدت عليه علاماتُ القلق والإنهاك، كأنه لم يذُق طعم النوم مطلقًا، وكانت عيناه مُحمرتَين كجمرتَين.

هتف: «هاناي، ماذا يعني ذلك بحق الرب؟»

شهقتُ: «أين ماري؟» كما أتذكّر أنني أمسكتُ بتلابيبه.

جذبني إلى الجدار الحجري المنخفض على جانب الطريق.

أجاب بصوتٍ مبحوح: «لا أدري. تلقّينا تعليماتك بالقدوم إلى هُنا في الصباح. كنا في شيافانيو حيث أمرنا بلنكيرون بالانتظار. لكن في الليلة الماضية لما اختفت ماري ... اكتشفتُ أنها استأجرَت عربة وأسرعَت بالرحيل. اتبعتُها مباشرة، ووصلتُ منذ ساعة، لأجدها قد رحلَت ... لم تكن مديرة الفندق موجودة وليس هناك سوى خادمَين عجوزَين. أخبرني الخادمان أن ماري قدمَت إلى هنا في وقت متأخر، وفي الساعات الأولى من الصباح قدمَت سيارةٌ مغلقةٌ من معبر شتاوب الجبلي تُقِل رجلًا. قالا إنه طلب رؤية الآنسة الشابة، وإنهما تحدثا لبعض الوقت، قبل أن ترحل معه في سيارته باتجاه الوادي ... لا بد أنني مررتُ بها في طريقي إلى هُنا ... هناك خطةٌ شيطانيةٌ تجري لا أستطيع استيعابها. مَن يكون ذلك الرجل؟ مَن يكون؟»

بدا كأنه يريد خنقي.

قلتُ: «يمكنني الإجابة على ذلك السؤال. إنه أفري.»

حدّق فيّ لوهلةٍ وكأنما لم يستوعب ما قلتُ. ثم هبّ واقفًا على قدمَيه وظل يسُب ويلعَن مثل جنديٍّ أصيل. قال: «لقد أفسدتَ الأمر كما توقّعتُ أن تفعل. علمتُ أنه لن يأتي خيرٌ من وراء أساليبك الغامضة اللعينة». بعد ذلك لعنَني أنا وبلنكيرون والجيش

البريطاني وأفري، بل والجميع.

كنتُ قد تخطّيتُ مرحلة الغضب. فقلتُ له: «اجلس يا رجل وأنصِت إليّ.» قصصتُ عليه ما حدث في «بينك شاليه». سمعني وهو دافنٌ رأسَه بين يدَيه. كان الموقف في غاية الخطورة ولن يُجدي فيه السباب.

تأوّه قائلًا: «قطار أنفاق! إن مجرد التفكير في الأمر يفقدني صوابي. لمَ أنت هادئ إلى هذا الحد يا هاناي؟ لقد وقعتَ في قبضة أذكى شيطانٍ في العالم بأسْرِه، وأنتَ تتعامل مع الموقف بهدوءٍ شديد. ينبغي أن تكون مجنونًا مهتاجًا.»

قلتُ: «لو كان الجنون يفيد لاستخدمتُه، لكنني أفرغتُ ما بجعبتي من غضبٍ الليلة الماضية في وكر أفري. لا بد أن نتمالك أنفسنا يا ويك. أولًا وقبل كل شيء، ثقتي في ماري أبدية. لقد ذهبَت معه بإرادتها الحرة. لا أدري لمَ فعلَت ذلك، لكن لا بد أن لدَيها سببًا، وسيكون مقنعًا بلا شك لأنها أكثر براعة منكَ ومنّي ... يجب أن نلحق بها بطريقةٍ ما. أفري في طريقه إلى ألمانيا، لكنه سيمُر بمنزل «بينك شاليه»، لأنه يأمل في أن يأخذَني معه عنوة. لقد سلك الوادي؛ وهذا يعني أنه سيذهب إلى سويسرا عَبْر طريق مارمولادا. إنها رحلةٌ طويلةٌ وستستهلك أكثر يومِه. لا أعرف السبب وراء اختياره لهذا الطريق، لكن هذا هو الوضع الراهن. يجب أن نعود عَبْر ممر شتاوب.»

سأل: «كيف أتيتَ إلى هُنا؟»

قلتُ: «هذا هو حظنا العاثر. أتيتُ بسيارة دايلمر فاخرة بمحرك ذي ست أسطوانات، لكنها تقبع محطّمة في مرجٍ على بُعد ميلٍ من الطريق. لا يُوجَد خيارٌ آخرُ سوى السير على الأقدام.»

قال: «لا نستطيع فعل ذلك. فسيستغرق الأمر وقتًا طويلًا بالإضافة إلى أننا سنُضطَر لاجتياز الحدود.»

تذكّرتُ في أسفٍ أنني فوّتٌ فرصة الحصول على تصريح عودة من اليهودي البرتغالي إذ لم أكن أفكر إلا في الوصول إلى سانتا كيارا.

قلتُ: «يجب أن ندور حول الجبل ونتفادى الحراس. لا فائدة من خلق الصعوبات يا ويك. نحن في ورطةٍ كبيرةٍ بالفعل، لكن يجب أن نستمرّ في المحاولة حتى النفَس الأخير. وإلا فسآخذ بنصيحتك وأجن.»

قال: «لنفترِض أنك عُدت إلى سانت أنطون، ستجد المنزل مغلقًا والمسافرَين قد

رحلا منذ ساعاتٍ عَبر قطار الأنفاق.»

قلتُ: «هذا احتمالٌ وارد. لكن بربك يا رجل، سيظل هناك بارقةُ أمل دائمًا. ليس في صالحنا الاستسلام حتى آخر نفس.»

قال: «دعكَ من أقوالك المأثورة تلك أيها المتفلسِف، وانظر إلى هناك.»

كان يقف مسندًا إحدى قدمَيه على الجدار، ويُحدِّق في فلق في خط الثلج الذي يمتدُّ في الجهة المقابلة من الوادي. بدا أن رأس القمة المرتفعة ينخفضُ بحدة مُشكلًا ما يُشبه الشق قبل أن يرتفع مرةً أخرى في هيئة منحنًى انسيابيٍّ طويلٍ من الجليد. أخفى الظلام الجزء السفلي من الفلق، لكني خمّنتُ من تشكيل المنحدرات أن رافدَ نهرٍ جليدي يمتدُّ من خلاله إلى المجلدة الرئيسية عند منبع النهر.

قال: «هذا معبَر كولي ديلي روندديني الجبلي؛ أي معبر السنونوات، وهو يقود إلى وادي شتاوبتال بالقرب من جرونفالد. أقطعه في سبع ساعاتٍ حينما يكون الجو معتدلًا، لكن عبوره في الشتاء عسير. لقد فعلتُها من قبل، بالتأكيد لكن لم أكررها كثيراً ... إذ كان الطقس مواتيًا، يُمكننا عبوره، ما يجعلنا نصل إلى سانت أنطون بحلول المساء. تُرى ...» ونظر إليّ نظرةً تقييمية ثم قال: «تُرى هل أنتَ أهلٌ لهذا؟»

تبدّد التيبُّس الذي كنتُ أشعر به سابقًا، وتلهّفتُ لأُذهِب اضطرابي بالمجهود البدني.

قلتُ: «إذا كنتَ أنت أهلًا له، فأنا كذلك.»

قال: «لا. أنتَ مُخطئ في ذلك. أنت رجلٌ قوي، لكنك لست متسلِّق جبال، وثلوج كولي ديلي روندديني بحاجة إلى رجلٍ خبير. ومن الجنون أن أجازف بعبورها مع هاوٍ مثلك إن كان هناك خيارٌ آخر. لكن أثق أنه ليست هناك طريقةٌ أخرى لذا سأغامر بالذهاب معك. يمكننا الحصول على حبل وفأسَين من الفندق. هل تودُّ مشاركتي في هذا المغامرة؟»

أجبتُ: «بالتأكيد. تقول إننا سنعبُرها في غضون سبع ساعات. لنفعلها في ست ساعات.»

قال بعبوس: «ستتواضع أكثر عندما تسير وسط الثلوج. يُستحسَن أن نتناول الفطور؛ إذ إن الله وحده يعلم متى سنرى الطعام مرةً أخرى.»

غادرنا الفندق في التاسعة إلا خمسَ دقائقَ صباحًا، كانت السماء صافية، وشعَرنا بالرياح القوية التي هبّت من الشمال الغربي رغم عُمق الوادي. سار ويك بخطواتٍ

واسعة بطيئةٍ امتحنَت صبري. إذ أردتُ الإسراع لكنه أمرَني بأن أحذُوَ حَذْوه. قال: «لا بد أن تطيع أوامري لأنني أكثر خبرةً منك في هذا الأمر. تذكَّر ضرورة المحافظة على النظام في الصفوف».»

عبَرنا إلى الضفة المقابلة من الوادي الذي يجري بواسطة جسرٍ خشبي، ثم شقَقْنا طريقنا خلال ضفّته اليمنى، تاركين الركام الصخري خلفنا، باتجاه طرف النهر الجليدي. كانت مهمةً عسيرةً إذ أخفى الثلج الصخور الكبيرة، وتعثّرَت قدماي في الثقوب في كثيرٍ من الأحيان. ولم يُبطئ ويك من وَتيرةِ سَيره، لكنه كان يتوقّف من حين لآخر ليتلقط أنفاسه.

علّقتُ قائلًا إن الجو يبدو جيدًا، لكن كان لويك رأيٌ آخر. قال: «السماء في غاية الصفاء. ستهُب عاصفةٌ عنيفةٌ على المعبر الجبلي، ويغلب على الظن أن عاصفةً ثلجيةً ستهُب في فترةٍ ما بعد الظهيرة.» وأشار إلى سحابةٍ مُصفرّةٍ كثيفةٍ بدأَت تنتفِخ فوق أقرب قمة. بعد ذلك أحسستُ أنه أطال خطوته.

قال ويك: «من حُسن الحظ أنني جدّدتُ نعل حذائي ومَسمرتُه في شيافاجنو.» كان هذا هو تعليقه الوحيد حتى اجتزنا النتوءات الجليدية للنهر الجليدي الرئيسي ووصلنا إلى رافده المتدفِّق ممَر معبَر كولي ديلي روندينى.

بحلول العاشرة والنصف صباحًا اقتربنا من مقدمة النهر، ورأيتُ شريطًا ثلجيًا نقيًا يمتد بين أجرافٍ سوداءَ شديدةِ الانحدار حتى إن الجليد لا يستقر عليها، وهو السبيلُ الوحيدُ لصعودنا إلى الممر الجبلي. كانت السماء قد تلبّدَت بالغيوم وطفَت سحبٌ ضخمةٌ قبيحة فوق المنحدرات المرتفعة. ربطنا الحبل عند بداية الشق الجليدي الذي يسهُل عبورُه بسبب تجمُّع الثلوج فيه في فصل الشتاء. وتولى ويك القيادة، بلا شك، وسرعان ما بلغنا المسقط الجليدي.

في شبابي تسلّقتُ جبالًا كثيرة، ووعدتُ نفسي بقضاء موسم في جبال الألب، لاختبار نفسي في صعود الجبال الشاهقة. ولو سنحَت لي الفرصة بالذهاب، لتسلّقتُ الأبراج الصخرية الشاهقة حول وادي شاموني لأني لا أُحب الجبال الجليدية. وذلك اليوم الذي قطعنا فيه معبَر كولي ديلي روندينى زادني نفوراً من الجليد. أعترف أنني ربما استمتعتُ بالرحلة لو قمتُ بها في عطلة وأنا رائقُ المزاج بغرض التسلية. لكن تسلُّق ذلك الأخدود بنفسٍ مُضطربةٍ ورغبةٍ مُستميتةٍ في الإسراع كان الجزء الأسوأ في هذا الكابوس. كان الممَرُّ الجبلي شديدَ الانحدار وكأنه جدارٌ من الثلج الأسود الناعم الصلد كالجرانيت. تولى ويك شَق درجاتٍ فيه للصعود بمهارة أثارت إعجابي بشدة. لم يبدُ لي

أنه يستخدم قوةً مفرطة، لكنه كان يصنع الدرجات بالمقاس المناسب تمامًا، وكانت المسافة بين كل درجة والتي تليها مواتيةً جدًا. أدى ويك هذه المهمة باحترافيةٍ شديدة. حمدتُ الرب أن بلنكيرون لم يكن معنا؛ فتسلُّق تلك الدرجات كان سيُصيبه بالدُّوار. انزلَقَت رقاقاتُ الثلج بين ساقيّ وكنتُ أراقبها حتى تستقر فوق الفجوة العميقة مباشرة.

كان الجليد الذي نتسلّقه في حيّز الظل، كما كان الجو باردًا لاذعًا. في أثناء صعودنا، لم يُمدّني المجهود البدني الذي بذلتُه في استخدام الفأس بالدفء، وسرى الخدَر في جسَدي من وقوفي على ساقٍ واحدة وأنا أنتظر وضع قدمي على الدرجة التالية. الأسوأ من ذلك أن عضلاتِ ساقي بدأَت تتشنّج. كنتُ أتمتّع بالليافة، لكن ذلك الوقت الذي قضيتُه محبوسًا في آلة أفري أضرّ بمفاصلي. نفرَت عضلاتُ ربلتيّ من مكانها وشكّلَت انتفاخاتٍ مؤلمةً حتى كدتُ أصرخ من شدة الألم. ارتعدتُ من فكرة الانزلاق، وكلما تحركتُ ناديتُ ويك لتحذيره. رأى ويك ما يجري. فكان يُثبّت المعول في الثلج قبل أن يأذن لي بالتحرك. كما كان يُكثر الحديث كي يُنسيَني آلامي وذهبَت عنه تلك النبرة القاسية. فأشبه بذلك جنرالًا غضوبًا أعرفُه كان يستحيل إلى مخلوقٍ رقيقِ القلبِ في ساحة القتال.

في النهاية، بدأَت الثلوج تتساقط، تطاير مسحوقٌ ناعم، كأنه بقايا عاصفةٍ هوجاءَ تهُب وراء القمة. بعد ذلك مباشرةً صاح ويك معلنًا أننا سنبلغ القمة في غضونِ خمسِ دقائق. تفقّد ساعة يده. قال: «أها، وفي زمنٍ جيدٍ جدًا. لقد تأخرنا خمسًا وعشرين دقيقةً فقط عن الزمن الذي قدّرتُه. فلم تَحِن الساعة الواحدة بعدُ.»

أول ما أتذكّر بعد ذلك هو أنني استلقيتُ فوق حشيةٍ من الجليد أريح ساقيّ المتشنّجتَين، فيما صرخ ويك في أذني محذرًا من عقبةٍ وشيكة. أحسستُ بعاصفةٍ ثلجيةٍ قادمة، لكني لم أكن أُفكّر في أي شيءٍ آخر سوى تلك الراحة العارمة من الألم. استلقيتُ على تلك الحالة بضعَ دقائق، أرفع ساقيّ المتشنِّجتَين في الهواء وأثني أصابعي حتى بدأَت عضلاتي تعود إلى حالتها الطبيعية.

لم تكُ هذه البقعةُ مناسبةً للبقاء فترةً طويلة. نظرنا للأسفل من خلال الضباب الصاعد الذي كان يتنحى جانبًا في بعض الأحيان كاشفًا عن تشكُّلاتٍ صخريةٍ سوداءَ في القاع السحيق. تناولنا بعض الشكولاتة، وصاح ويك في أذني مُبلغًا إياي أننا انتهينا من الجزء الأكبر من رحلتنا. كان يبذل أقصى جهده للتخفيف عني لكنه عجز عن إخفاء قلقه. اكتسى وجهانا بالصقيع مثل كعكعة العُرس، ولسعَت الرياح جفوننا مثل ضَربة

سَوط.

كانت المرحلة الأولى من رحلة هبوطنا سهلة؛ إذ كان المنحدر الثلجي صلبًا فلم نُضطَر إلى أن نحفر الدرجات. ثم وصلنا إلى الجليد مرةً أخرى، فاضْطُررنا إلى حفر طريقنا في الطبقة الثلجية السطحية التي تكوَّنَت حديثًا. كانت مهمةً شاقةً للغاية، حتى إن ويك لجأ إلى الصخور عن يمين الخور لنحتميَ بها من قوة العاصفة الرئيسية. وجدتُ السير فيها أسهل، لخِبرتي في التعامُل مع الصخور، لكنه كان لا يزال صعبًا لأن الثلوج كانت تُغطي كل موضعِ قدمٍ أو يد. وسرعان ما دُفعنا إلى السير في الجليد مرةً أخرى وشقَقنا طريقنا بمشقةٍ عبْر مقطعٍ ضيّق من الوادي. هناك كانت الرياح مريعة؛ إذ شكّل الممرُّ الضيّق ما يُشبه القُمع، ونزلنا ونحن نلتصقُ بالجدار، نوشك أن نحبس أنفاسنا فيما راح الإعصار يدفع جسدَينا كأنما يريد أن يحملنا بعيدًا مثل قشّتَين ويُلقِي بنا في أغوار النسيان.

بعد ذلك اتسع الوادي وصار الهبوط أسهل، حتى وجدنا أنفسنا فجأةً على لسانٍ صخريٍّ عظيمٍ تهُب من حوله الثلوجُ كالزّبَد في الدوّامةِ المائية. حين توقفنا لالتقاط أنفاسنا، صاح ويك في أذني معلنًا أننا نقف فوق بلاك ستون أو الصخرة السوداء.

هتفتُ بصوتٍ عالٍ: «ماذا؟»

أجاب: «شفارتشتاين. ويُسمّي السويسريون هذا المعبر شفارتشتاينتور؛ أي معبَر الصخرة السوداء. يمكنك رؤيتُه من جرونفالد.»

أظن أن كل فردٍ منّا لديه معتقداتٌ خرافية يؤمن بها. وعندما سمعتُ ذلك الاسم في هذا المكان المتوحّش، اجتاحتني فجأةً موجةٌ من الثقة. شعَرتُ أن جميع أفعالي جزءٌ من خطةٍ كبيرةٍ مُقدَّرة. وبالطبع لم يكن ظهور الكلمة المفتاحية لمُغامرتي الأولى في ذاك الصراع الطويل عبثًا. شعَرتُ بالقوة تسري من جديد في ساقيّ وامتلأَت رئتاي حيويةً. وصرختُ: «إنها بشارة. سنفوز يا صديقي العزيز ويك.»

علّق قائلًا: «الأسوأ لم يأتِ بعدُ.»

كان مُحقًّا في ذلك. فنزولنا اللسان الصخري إلى الأخدود المُغطى بطبقات الثلج لم يترك في قوس الصبر منزعًا. لا أزال أذكُر تلك الرائحة الحامضة الكئيبة للصخور الرطبة والجليد وذلك الألَم العصبي الحاد الذي كاد أن يفلقَ جبهتي. كان الأفريقيون السود يقولون إن شياطين تسكُن الجبالَ الجليديةَ الشاهقة، وهذا المكانُ سيطرَت عليه يقينًا قوى الطبيعة غير العابئة بالحياة البشرية. شعَرتُ أنني في عالمٍ قديمٍ موجودٍ من

قبل خلق البشر. عالمٍ خالٍ من أي رحمة، حشدَت الطبيعةُ فيه قواها السرمدية ضد شخصَين عديمَي القيمة لانتهاكهما قدسيته. تُقتُ للدفء، لوهج نارٍ أو شجرةٍ أو نصل عشبٍ أو لأي شيءٍ يشير إلى الحميمية والعناية اللتَين تسودان عالم الأحياء. أدركتُ حينها تعريفَ اليونانيين للهلَع؛ إذ أفزعَتْني لامبالاة الطبيعة. لكن ذلك الهلع منحني شيئًا من الطمأنينة. فلم أعُد أخاف من أفري أو مكائده كما في السابق. إذا خرجتُ من ذلك الجحيم البارد فسأُجابهه بثقةٍ جديدة.

قادني وِيك لأنه يعرف الطريق الذي كان بحاجة إلى من يعرفه. ولولا ذلك لكان يهبط ورائي على الحبل فذلك موضع المُتسلّقين المُحنّكين. مرَرتُ بلحظاتٍ مريعة وأنا أسير خلفه خاصةً عندما يصير الحبل مشدوداً فلا يُزوِّدني بالدعم المطلوب. تعرّجنا بين الصخور، نجد أنفسنا مدفوعين ناحيةَ جليدِ الأخاديد المجاورة أو إلى الحافة الخارجية لمعبَر بلاك ستون في بعض الأحيان، كما تلمّسنا طريقَنا بين الشقوق الصغيرة وفوق الصخورِ الناعمةِ المشئومة أحيانًا أخرى. لم تتكوّم الثلوج المتساقطة فوق هذه الصخور، لكنها كانت تطقطق حين نطأ طبقة الجليد الخفيفة التي تُغطيها أو ترشح منها مياهُ جليدٍ ذائبة. في كثيرٍ من الأحيان كانت رحمةُ الرب وحدها ما أنقذَتني من أن أسقط في الهاوية، وأجُر خلفي ويك الذي كان يتشبّث بالشق أسفل منّي. انزلقتُ أكثر من مرة لكن كنتُ أستعيدُ توازني بأعجوبة دائماً. زاد الوضع سوءًا أن التعب بدأ يترك آثاره على ويك. أحسستُ أنه يسحب الحبل ببطء، كما تبدّدَت تلك الدقة التي امتازت بها حركتُه في الصباح. كان هو المتسلِق المُحترف وأنا مجرّد شخصٍ هاوٍ. إذا انهار فلن نصل إلى الوادي أبداً.

كانت الإرادة تشع من ويك بوضوح. عندما وصلنا إلى سفح السطح الخشن، وجلسنا متكوِّرَين مولّيَين ظهرَينا للرياح، رأيتُ علاماتِ الإعياء على وجهه. يُمكنك تخمينُ حجم المجهود الذي بذَله في سبيل التحلّي بهذه العَزيمة، لكن قواه لم تخذلْه حتى انقضى الجزءُ الأسوأ من الرحلة. بدَت شفتاه شاحبتَين، وكان يُجاهد الدُّوَارَ الناجمَ عن الإجهاد. كانت هناك زجاجةٌ من الكونياك في جيبه، فشرب منها ملءَ فمه، وأفاق من إعيائه.

قال: «لم تعُد لديّ أدنى طاقة. صار الطريق أسهلَ الآن، ويُمكنك السيرُ وحدَكَ في الجزء المتبقي وفقًا لإرشاداتي ... يُستحسَن أن تتركني هُنا. لن أكون سوى عبء عليك. سأتبعك عندما أشعُر بالتحسن.»

قلتُ: «لا، لن تفعل ذلك، أيها الأحمق. أخرجتَني من ذلك الجبل الجليدي اللعين؛ لذا سأتأكد من وصولك إلى بيتك سالماً.»

دلكتُ ذراعَيه وساقَيه وجعلتُه يبلَع بعضَ الشكولاتة. لكنه عندما وقف على قدمَيه كان واهنًا مثل رجلٍ عجوز. لحُسن الحظ أن نزولنا كان سهلًا عَبْر منحدرٍ ثلجي؛ حيث انزلقنا فيه بسهولةٍ غيرِ معهودة. أنعشَته الحركةُ السريعةُ قليلًا وأوقفنا بمعوله حتى لا نسقط في الهوة الجليدية. عَبرنا إلى الناحية الأخرى بواسطة جسرٍ ثلجي وانطلَقنا نحو الكتلة الجليدية ذات النتوءات لمجلدة شفارتشتاين.

لستُ متسلقًا محترفًا، لا سيما في الجبال الجليدية والثلجية، لكني أتمتع بقوةٍ بدنيةٍ كبيرة وهذا ما أحتاجه بشدة في اللحظة الراهنة. هذا لأن هذه الكتلة الجليدية لهي شيءٌ شيطاني. شعَرتُ أن عبور هذه المتاهة من النتوءات، وسط عاصفةٍ ثلجيةٍ تُغشي البصر، ومع رفيقٍ في غاية الإعياء لا يستطيع أن يعبُر حتى أضيق الشقوق أو يتشبّث بالحبل مثل قائدٍ عند الضرورة، يفوق قدرتي على التحمُّل. كما أن كل خطوةٍ جديدةٍ قرّبَتني من الوادي ألهبَت حماستي للإسراع، وأصبح السير في تلك المتاهة من الجليد المتخثّر مثل كابوس الوقوف على قضبان سكة حديد، ترى القطار السريع يقترب لكنك تعجزُ عن القفز على رصيف المحطة من شدة الوهَن. في أول فرصةٍ مُمكنة، تركتُ النهر الجليدي واتجهتُ إلى منحدر التل؛ لأنه يمنحني إمكانيةَ التحرك في خطٍّ مستقيم، على الرغم من أن اجتيازه يتطلّب جهدًا شاقًّا. لم ينبِس ويك ببِنت شَفَة. نظرتُ إليه وإذا وجهُه شاحبٌ رغم الرياح الهوجاء التي ينبغي أن تُصيب وجنتَيه بالتورُّد وعيناه نصف مُغلقتَين. كان يستهلك آخر ذرة من صموده ...

في غضونِ فترةٍ وجيزة، بلغنا الركام الصخري، وعبَرنا عددًا من روافد النهر الجليدي، حتى وصلنا إلى طريقٍ يفضي إلى جانب المنحدَر. أردتُ التأكد من صحة الطريق فأومأ ويك برأسه في وهن. وشعَرتُ بالسعادة عندما رأيتُ شجرةَ صنَوبَر قديمة.

حلَلتُ عقدةَ الحبل وسقَط ويك على الأرض مثل جذع شجرة. قال متأوهًا: «اتركني. نفِدَت قوّتي تمامًا. سأتبعك في وقتٍ لاحق.» وأغلق عينَيه.

أخبرَتْني الساعة أن الوقت قد تجاوز الخامسة مساءً.

قلتُ: «اصعَد على ظهري. لن أتركك حتى أعثُر على كوخ. أنتَ بطل. لقد أخرجتَني من تلك الجبال اللعينة وسط عاصفةٍ ثلجية، وذلك أمرٌ لا يستطيع أي رجلٍ آخر في بريطانيا فعلَه. انهض.»

أطاعني إذ لم تعُد لديه أدنى طاقةٍ لبذلها في الجدل. ربطتُ رُسغَيه بمنديلٍ، تحت

ذقَني، حتى أُمسك ساقَيه بذراعيّ. أما الحبل والمعوَل فقد تركتُهما في مخبأ أسفل شجرة الصنَوبَر. بعد ذلك أنشأتُ أهروِل باحثًا عن أقربِ منزلٍ على الطريق.

شعَرتُ أن قوّتي مَعينٌ لا ينضب، ودفعَتْني الطاقة السارية في أحشائي لمُواصلة الطريق. كان الجليد لا يزال ينهمر، لكن الرياح قد هدأَت سَورتُها، وبعد ما مرَرْنا به من أهوال في الممر الجبلي، شعَرتُ أن الطقس يبدو كالصيف. دار الطريقُ حول الصخور الرسوبية لجانب المنحدر، ثم صبّ فيما يبدو أنه في موسم الربيع يكون مُروجًا مرتفعة. بعد ذلك تخلّل الطريق الأشجار، وسمعتُ هديرَ النهرِ الجليدي يجري في خوره البعيد بالأسفل. وسرعان ما ظهرَت الأكواخُ الفارغةُ الصغيرة، والحقولُ المُعشوشِبة المُسيّجة البدائية، وبلغنا جرفًا مطلًا على النهر وشممتُ رائحةَ دخانِ الحطب الدال على أن هذه المنطقة مأهولة بالسكان.

وجدتُ قرويًا متوسط العمر في الكوخ، يعمل دليلًا في الصيف وحطّابًا في الشتاء.

قلتُ: «أحضرتُ سيدي من قرية سانتا كيارا عَبْر معبر شفارشتين. إنه في غاية الإنهاك وبحاجة إلى النوم.»

وضعتُ ويك على مقعد، وتدلّى رأسه على صدره. لكن تحسّن لون وجهه قليلًا.

قال الرجل بخشونة لكن بغير قسوة: «أنت وسيدك مُغفّلان. لا بد أن ينام وإلا فسيصاب بالحمى. شفارتشتاينتور في هذا الطقس اللعين! هل هو إنجليزي؟»

قلتُ: «أجل. شأنه شأن جميع المجانين. لكنه سيدٌ صالح ومتسلقٌ شجاع.»

خلعنا عن ويك زيّ الصليب الأحمر الذي استحال إلى أسمالٍ مبلّلة، وأدخلناه بين الأغطية، فيما وضعنا زجاجةً فخاريةً ضخمةً مملوءةً بالماء الساخن عند قدمَيه. باشرَت زوجة الحطّاب غليَ الحليب ووضعناه بين شفتَيه بعد مزجه بالقليل من الكونياك. لم يعُد ذهني قلقًا بشأنه لأنني رأيتُ هذه الحالة من قبلُ. في الصباح سيصير متيبسًا مثل قضيبٍ حديدي لكنه سيكون قد استردّ عافيتَه.

قلتُ: «سأنطلق الآن إلى سانت أنطون. يجب أن أصل هناك الليلة.»

ضحك الرجل وقال: «أنتَ رجلٌ قوي الإرادة. سأرشدك إلى أسرع طريق إلى جرونفالد حيث يمُر القطار. لو حالفك الحظ فستُدرك القطار الأخير.»

أعطيتُ القروي خمسين فرانكًا نيابةً عن سيدي، وأنصتُّ إلى إرشاداته للطريق الأسرع، ثم انطلقتُ بعدما شربتُ لبن الماعز، أمضغ آخر قطعةٍ من الشكولاتة. كنتُ لا أزال في

غاية الحيوية من النشاط الحركي، وركضتُ الثلاثة الأميال الفاصلة بين الكوخ ووادي شتاوبتال، دون أن أُحِسّ بأدنى تعب. وصلتُ قبل الموعد بعشرين دقيقة، وفيما جلستُ على الدكة على الرصيف، تراجعَت طاقتي بغتة. هذا ما يحدُث بعدما يبذل المرء مجهودًا كبيرًا. تلهّفتُ للنوم، وعندما وصل القطار تسلّلتُ إلى مقصورة، مثل رجلٍ يُعاني من الشلل. بدا أنه لم يعُد هناك أدنى طاقةٍ في أطرافي. أدركتُ أن ساقيّ في غاية الإنهاك، وهو أمرٌ شائعٌ بين الخيل لكن ليس البشر.

استلقيتُ دون حَراكٍ طيلة الرحلة كأنني في غيبوبة، وميّزتُ محطتي بصعوبة، فخرجتُ من القطار بخطواتٍ متعثرة. لكن فور أن انبثقتُ من محطة سانت أنطون دبّت في جسدي طاقةٌ جديدة. هطلَ الكثير من الثلوج منذ أمس، لكنها توقفَت الآن، وصارت السماء صافيةً والقمر ساطعًا. عادت إليّ جميع مخاوفي فور أن رأيتُ المكان الذي أعرفه جيدًا. وانمحى من ذاكرتي ذلك اليومُ الذي قضيتُه في معبر السنونوات، ولم أعُد أرَى سوى فندق «سانتا كيارا» وأسمع سوى صوتِ ويك المبحوح وهو يتحدث عن ماري. تلألأَت مصابيحُ القرية بالأسفل، ورأيتُ عن يميني الأجمة التي تحتضن «بينك شاليه».

سلكتُ طريقًا مختصرًا بين الحقول متجنبًا البلدةَ الصغيرة. ركضتُ بأقصى سرعتي، متعثرًا في كثير من الأحيان؛ إذ لا تزال ساقاي ضعيفتَين، وإن كنتُ قد استعدتُ صفاء ذهني. سمعتُ ساعة المحطة تدقُّ معلنةً أننا في التاسعة والنصف مساءً تقريبًا.

سرعان ما بلغتُ الطريق السريع، ووصلتُ إلى بوابات «بينك شاليه». سمعتُ، كأنني في حُلم، ما بدا أنه صوتُ صفيرٍ حاد ثلاثَ مرات. بعد ذلك مرّت أمامي سيارةٌ كبيرةٌ متجهة إلى سانت أنطون. لوهلة خطر لي التلويح لسائقها، لكنها تجاوزَتني وذهبَت بعيدًا. لكني كنت متيقنًا أنني سأجدُ ضالتي في المنزل؛ فأنا أعتقد أن أفري هناك، وهو مَن يعنيني الآن.

اجتزتُ ممَر السيارات بسرعة، بلا أي خطةٍ في رأسي، بل مجرّد تسرُّعٍ أعمى لأرى ما يُخبئه لي القدَر. تذكّرتُ، بشكلٍ غيرِ واضح، أنه لا تزال لديّ ثلاثُ خراطيش في مسدسي.

وجدتُ الباب الأمامي مفتوحًا، فدلفتُ إلى الداخل، ومشيتُ على رءوس أصابعي في الممَر المُفضي إلى الغرفة التي قابلتُ فيها اليهوديّ البرتغالي. لم يعترض أحدٌ طريقي لكن هذا ليس بسبب غياب الخدم. أخبرني حَدْسي أن هناك أشخاصًا يتربصون لي في الظلام، وتراءى لي أنني سمعتُ همساتٍ خافتةً باللغة الألمانية. أحسستُ بوجود شخصٍ أمامي، ربما يكون المُتحدث؛ لأنني سمعتُ خطواتِه الحذِرة. كان الظلام دامسًا لكن تسلّل

شعاعٌ من الضوء من أسفل باب تلك الغرفة. بعد ذلك انبعثَت من خلفي جلجلةُ غلقِ باب الردهة وتكتكةُ مفتاحٍ يُدار في قفله. أدركتُ أنني دخلتُ بقدَمي إلى فخٍّ مباشرة ولم يعُد هناك مجالٌ للرجعة.

ازداد ذهني صفاءً وإن كان غرضي لا يزال غَير واضح. أردتُ مجابهة أفري، وكنتُ متأكدًا من وجوده أمامي في مكانٍ ما. ثم تذكّرتُ الباب الذي أخرجَني من الغرفة التي كنتُ حبيسًا فيها. لو استطعتُ الدخول من خلاله فقد أحظى بأفضلية مفاجأته.

تحسّستُ الجانبَ الأيمنَ للممَر، وعثَرتُ على مقبض بابٍ. أفضى الباب إلى ما يبدو أنه غرفةُ طعام؛ إذ لا تزال رائحةُ طعامٍ خفيفةٌ عالقةً بالمكان. مرةً أخرى، أحسَستُ بوجودِ أناسٍ آخرين، لكنهم لم يتعرّضوا لي لسببٍ لا أعلمه. ورأيت في الجهةِ المقابلةِ للغرفةِ بابًا آخر يقود إلى غرفةٍ ثانية، خمّنتُ أنها تُجاوِر غرفة المكتبة. لا بد أنه يقبع وراءها الممَر الذي يتّصِل بغرفة المخلعة. كان الصمتُ المطبقُ يُخيّم على المنزل بأكمله.

صحّ تخميني. كنتُ واقفًا في نفس الممَر الذي وقفتُ فيه الليلة السابقة. وجدتُ المكتبة أمامي، كما تسلل شعاعُ الضوء الخفيف نفسه من تحت الباب. أدرتُ مقبض الباب بهدوءٍ شديد، وفتحتُ الباب فتحةً صغيرة ...

كان أوّل ما رأيتُه هو جانب وجه أفري. كان ينظر إلى طاولة الكتابة حيث يجلسُ شخصٌ ما.

الفصل الثامن عشر

قطار الأنفاق

هذه هي القصة التي سمعتُها من ماري لاحقًا ...

كانت في ميلان، تعمل في المشفى الإنجليزي الأمريكي الجديد، عندما تلقّت رسالةَ بلنكيرون. كانت قرية سانتا كيارا هي مكان اللقاء المُتفق عليه، وذكَرَت الرسالة سانتا كيارا على سبيل الخصوص، وحدّدَت موعدَ ذهابها إلى هناك. أصابتها الرسالة بشيءٍ من الحَيْرة؛ إذ لم تكن قد وردَتها بعدُ أيٌّ أخبارٍ من أفري، رغم أنها أرسلَت رسالتَين إلى العنوان غير المباشر الذي أعطاه لها بوميرتس. لم تعتقد أنه سيأتي إلى إيطاليا باعتبار مجريات الأحداث؛ لذا فإن التاريخ الذي حدّده بلنكيرون أصابها بالدهشة.

في صباح اليوم التالي، ورَدَتْها رسالةٌ من أفري، يُلح عليها باللقاء. وكانت بداية سلسلةٍ من الرسائل المليئة بالكلام الغريب حول أزمةٍ وشيكةٍ تختلِط فيها هواجسُ المتنبئ بشوق المُحب.

كتبَ: «تُوشك العاصفة أن تندلِع، ولا أستطيع التفكير في قدَري وحدي. أريد أن أخبرك بأمرٍ يهمُّك بشكلٍ خاص. تقولين إنكِ في لومبارديا. يمكنكِ الوصول إلى وادي شيافاجنو بسهولة، وستجدين عند رأس الوادي فندق «سانتا كيارا»، سأذهب إلى هناك في صباح التاسعَ عشرَ من شهر مارس. قابليني في ذلك المكان، ولو لنصف ساعةٍ فحسب، أرجوك. لقد تشاركنا الآمالَ والأسرار، وأريد أن أشاطرك معلوماتٍ لا يملكها أحدٌ غيري في أوروبا. لديكِ قلبُ أسد، يا سيدتي، جديرٌ بالأنباء التي سأحملها إليك.»

استُدعي ويك من الوحدة التي كان يعمل بها في الصليب الأحمر في مدينة فشنزة الإيطالية، ونُفذَت الخطة التي وضعها بلنكيرون بالحرف الواحد. قابلهما أربعةُ ضباط من وحدات المشاة الجبلية الإيطالية يرتدون ملابس القرويين الخشنة في شيافاجنو في صباح الثامنَ عشرَ من مارس. ونُسق ذهابُ مالكة فندق «سانتا كيارا» لزيارة ابن أختها، تاركةً الفندق وسط هدوء موسم الشتاء العازل تحت مسئولية خادمَين عجوزَين. رتّب أفري قدومَه في التاسعَ عشرَ من مارس في الظهيرة؛ لذا ذهبَت ماري بالسيارة إلى

الوادي في الصباح، فيما سلك ويك والضباط مسارًا مختلفًا متواريًا عن الأنظار، ووصلوا إلى المحطة القريبة من الفندق قبل منتصف النهار.

لكن في مساء الثامنَ عشرَ، في فندق «فور كينجز» في شيافاجنو، تلقّت ماري رسالةً أخرى. وردَتها هذه الرسالة منّي، وأخبرتُها أني أستعد لاجتياز معبر شتاوب الجبلي في منتصف الليل، وأنني سأكون في الفندق قبل الفجر. رجوتُها أن تُقابلني هناك، بمفردها دون صحبة الآخرين؛ لأن لديّ ما يجب أن أخبرها به قبل قدوم أفري. رأيتُ الرسالة. كانت مكتوبة بخطٍّ يُشبه خطي السيئ بطريقة متقَنة حتى إني عجزتُ عن التفريق بينهما. لو كنتُ كتبتُ هذه الرسالة لما استخدمتُ هذه المفردات تحديدًا، لكنها كانت بها بعض العبارات التي بدت لعقل ماري أنها لن تصدُر إلا عني. أعترف أنه تصرف بخبث، لا سيما عندما استخدم كلمات غزلٍ مهلهَلة كانت ستصدُر عني إذا ما حاولتُ ترجمةَ مشاعري إلى كلماتٍ على الورق. على أي حال لم تشُك ماري في أن الرسالة حقيقية. وتسلّلَت بعد العشاء، واستأجرَت عربةً يجرها جوادان مُنهكان، وانطلقَت باتجاه الوادي. كما تركَت رسالةً قصيرةً لويك تأمُره فيها بالالتزام بالخطة — وهي رسالةٌ لم تصل إلى يدَيه على الإطلاق — لأن قلقَه بشأن اختفائها دفعَه للحاق بها على الفور.

في صباح يوم التاسعَ عشرَ، عند الساعة الثانية تقريبًا، وصلَتْ ماري إلى الفندق، بعد رحلةٍ بطيئةٍ شديدةِ البرودة، وأيقظَت الخادمَين العجوزَين، ثم أعدّت لنفسها كوبًا من الشكولاتة من سلة النزهات التي كانت تحملها، وجلسَت تنظر قدومي.

وصفَت ماري الفترةَ التي قضتها في انتظاري. أضاءت شمعةٌ منزليةُ الصنع في شمعدانٍ خزفيٍّ طويل غرفةَ الطعام التي لم يتوافر غيرها للاستخدام. كان السكون مُخيمًا على المكان، والثلوج تُغطي الطرقات، والجو باردًا لاذعًا مثلما هو معتادٌ في الساعات الأولى من الصباح في شهر مارس. أخبرَتْني أن مذاق الشكولاتة ورائحةَ شحم الحيوان المُحترق ستُذكّرها دائمًا بذلك المكان الغريب وخفقان قلبها وهي تنتظر. كانت على أعتابِ شهودِ اللحظةِ الحاسمةِ لجهودنا، وهي شابةٌ يافعة، والشباب يملكون خيالًا جامحًا. كما أنها كانت تنتظرني أنا، ونحن لم نتواصل منذ عدةِ أسابيع باستثناء الرسالة ذات الخط السيئ التي تلقّتها منّي بالأمس ... حاولَت تشتيتَ ذهنها من خلال دندنةِ بعضٍ من أبيات الشعر، وما خطَر ببالها في تلك اللحظات هي قصيدة «العندليب» لجونِ كيتس، وهي قصيدةٌ غريبةٌ لا تتناسب مع الزمان أو المكان.

كان هناك مقعدٌ من الخوص بين أثاث الغرفة، جلسَت عليه ماري متدثرةً بمعطفها

المصنوع من الفرو. بعد ذلك سمعَت صوتَ حركة في الفندق؛ فقد ابتهجَت الخادمُ العجوزُ التي استقبلَتها وثار فضولها عندما سمعَت بقدومِ ضيفٍ آخرَ كعادة الخدم. فالنسوة الجميلات لا يُسافرن في منتصف الليل إلا لسببٍ قوي. لذا بَقيَت متيقظةً تنتظر ما سيحدث تاليًا.

فجأةً اخترق الصمتَ صوتُ سيارة تبطئ سرعتها أمام الفندق. هبّت ماري واقفةً من فرط انفعالها. تكرر المشهد الذي حدث في قلعة بيكاردي من الغرفة الخافتة الإضاءة والصديق القادم ليلًا. سمعَت الباب الأمامي يُفتح وصوتَ خطواتٍ في الردهة الصغيرة ...

وجدَت نفسها تنظر إلى أفري ... فورَ أن دخل أفري خلع معطف القيادة بسرعة وانحنَى برصانة. كان يرتدي بدلةَ صيدٍ خضراء، بدا لونها بنيًا مخضرًا كالزي العسكري البريطاني في الإضاءة الخافتة، كما كان في مثل طولي تقريبًا؛ لذا انخدعَت بهيئته للوهلة الأولى. بعد ذلك رأت وجهه وتوقّف قلبُها عن الخفقان.

هتفَت: «أنت!» وغاصت في مقعدها مرةً أخرى.

قال: «أتيتُ إليك كما وعدتكِ وإن كنتُ مبكرًا عن الموعد الذي اتفقنا عليه. اعذري لهفتي للقياكِ.»

لم تنتبِه لكلامه؛ فقد كانت الأفكار تتدفّق في عقلها بجنون. صارت تُدرك أن الرسالة التي تلقّتها مزيفة، وأن هذا الرجل كشَف مخطّطاتنا. وهي الآن تُواجهه بمفردها؛ إذ لن يصل أصدقاؤها من شيافاجنو إلا بعد ساعات. وأصبح هو المتحكّم في اللعبة، ولم يتبقّ لمجابهته من بين أفراد الجماعة إلا هي. تتّسم ماري بشجاعةٍ شبهِ مُطلقة، ولم تفكّر آنذاك في نفسها أو في مصيرها. حدث ذلك لاحقًا. لكن في تلك اللحظة غشيَتها خيبةٌ عارمةٌ من فشلنا. فلقد ذهبَت جميعُ جهودنا أدراجَ الرياح وانتصَر العدو علينا بسهولةٍ مُخزية. لكن توتّرها تبدّد أمام شعورها بالندَم الشديد، وبدأ عقلها يُباشِر معالجة الموقف بهدوءٍ ونشاط.

واجهَت ماري أفري جديدًا، يشع قوةً وإصرارًا من كل ثنية من ثناياه، وتُحيط به هالة من الثقة الهادئة المُستمدّة من شعوره بالسيطرة. بعد ذلك تحدّث بتهذيبٍ رصين.

قال: «انتهى وقتُ التظاهر. تبارزنا بالكلمات. فقد أخبرتُك بنصف الحقيقة فيما حافظتِ على بقاءِ مسافةٍ بيننا. لكنك تعلمين في قرارة نفسك، يا سيدتي العزيزة، أننا سنتواجه عاريَين بلا أقنعةٍ يومًا من الأيام، وها قد أتى اليوم. أخبرتُك أنني أحبُّك من قبل. لذا لم آتِ اليوم للإفصاح عن مشاعري مرةً أخرى. في الحقيقة أتيتُ لأطلبَ منك

أن تثقي بي، وتشاركيني مصيري، وأنا أعِدُك بالسعادة التي تستحقينها.»

سحب أفري مقعداً وجلس بجوارها. لا أستطيع سردَ جميع ما قاله؛ إذ لمّا استوعبَت ماري مسار الحديث، انشغلَت بأفكارها ولم تنتبِه لحديثه. لكن ما فهمتُه منها هو أنه أعرب عن نفسه بصراحةٍ شديدة، وبدأ يترقّى بحديثه في مراتب الفكر والأخلاق. فقد أخبرها بهويّته الحقيقيةً والدور الذي أداه طَوالَ الفترة الماضية. كما ادعى مشاركتَها في غايتها وهي كراهية الحرب والشغف لإعادة العالَم إلى ما كان عليه من فضيلة. لكنه الآن خلَص إلى فضيلةٍ جديدة. فهو ألماني، وألمانيا وحدَها هي القادرة على تحقيق السلام والتجديد. لقد تطهّرَت دولتُه من أخطائها، ويُوشِك انضباطُ ألمانيا المُثير للإعجاب أن يُثبت جدارتَه للآلهة والبشر. كرّر على أسماعها ما أخبرني به في غرفة «بينك شاليه» لكن بصيغةٍ أخرى. فألمانيا ليست انتقاميةً أو متفاخرةً بل صبورة ورحيمة. ويُوشِك أن يُعطيها الرب القوة لتقرير مصير العالم، ويقع على عاتقه وأقرانه التأكّد من خيرية قرارها. إن مهمة شعبه العظيمة قد بدأَت للتو.

هذا هو خلاصةُ حديثه. تظاهَرَت بأنها تُصغي إليه لكن كان عقلها في مكانٍ آخر. يجب أن تُعطِّله ساعتَين، أو ثلاثًا، أو أربعًا. وإن عجزَت عن ذلك فيجب أن تُلازِمه. فهي الوحيدة التي لها اتصالٌ به من بين أفراد مجموعتنا ...

تابع: «سأذهب إلى ألمانيا الآن. أريدك أن تأتي معي وتصيري زوجتي.»

انتظر ردّها ثم حصل عليه في هيئةِ سؤالٍ مندهش.

سألَت: «إلى ألمانيا؟ كيف؟»

أجاب مبتسمًا: «الأمر سهل. السيارة التي تنتظرنا بالخارج هي المرحلة الأولى في نظام نقلٍ أحكمناه.» وأخبرها عن نظام «قطار الأنفاق» لا بالطريقة نفسها التي أخبرني بها لبثّ الخوف في صدري، بل استعرض قوة ألمانيا وبُعد نظرها.

تصرّف أفري بصورةٍ مثاليةٍ لا تشوبها شائبة. فقد أظهر توقيرَه وتفانيَه وتفهُّمَه لجميع الأمور. كما لبس عباءة المُتوسِّل لا الآمِر. وعرض عليها السلطةَ والجاهَ ووظيفةً مغرية؛ لأنه استحق كل التقدير من دولته، وهو التفاني لمحبٍّ مُخلص. سيأخذها إلى موطنه وستتلقى حفاوةَ الأميرات. لا أشُك في إخلاصه لأن لدَيه جوانبَ كثيرة، وذلك الجانب الفاجر الذي كشفه لي في «بينك شاليه» قد تخلى عن مكانه للجانب النبيل الشريف. كان يؤدي جميع هذه الأدوار ببراعة لأنه تبنّاها كلّها بصدق.

بعد ذلك تحدّث عن الأخطار، لا بهدف التقليل من شجاعتها، بل للتأكيد عن اكتراثه بأمرها. فالعالم الذي تقطن فيه يشهد حالة انهيار، ولا يستطيع أحد غيره إيواءها. أحسّت بتهديد في باطن كلامه المعسول.

كانت ماري غارقةً في التفكير طيلة هذا الوقت، ومسندةً ذقنها بيدَيها كعادتها القديمة ... يُمكنها أن ترفضَ الذهاب معه. ويمكنه إرغامُها، بلا شك؛ إذ لن يهُب الخادمان العجوزان لنجدتها. لكن ليس من السهل نقلُ امرأةٍ كرهًا في المرحلة الأولى لنظام قطار الأنفاق. قد تُوجَد فرصٌ للنجاة ... على افتراض أنه قَبِل رفضَها وتركَها وشأنها. لكنه في هذه الحالة سيكون قد رحل للأبد وستنتهي المهمة بالفشل الذريع. وسيعود ألد أعداء إنجلترا إلى موطنه في فرحٍ يحمل غنائمه في يده.

آنذاك لم تخشَ على نفسها من أفري. إن القلب البشري مُثيرٌ للعجب؛ فقد كان شغلها الشاغل المهمة لا حياتها. تراءى لها الفشل التام أمرًا في غاية المرارة. لنفترض أنها ذهبَت معه. سيُضطَرون إلى مغادرة إيطاليا والذهاب عَبْر سويسرا. ولو ذهبَت معه فستكونُ رسولَ الحلفاء في معسكر العدو. سألَت نفسها ماذا يُمكنها أن تفعل من موقعها ذاك، وأجابت: «لا شيء». كانت تشعر أنها مثل طائرٍ صغيرٍ عالقٍ في مصيدةٍ ضخمة وتملكَها إحساسٌ بالعجز. لكنها درسَت إنجيل بلنكيرون وعلمَت أن السماء تُرسِل فرصًا عجيبةً للباسلين. وحتى بعدما عقدَت العزم على الذهاب، أحسّت بشبحٍ أسودَ يتربص بها من مكانٍ بعيد في عقلها، وهو الخوف الذي كانت تُدرِك أنه ينتظر الفرصة للانقضاض عليها. كانت تعلم المصير الذي ينتظرها. هذا لأنها ذاهبةٌ إلى المجهول مع رجلٍ تكرهه هي، ويدّعي هو حُبه لها.

كان أشجع تصرُّف سمعتُ به على الإطلاق، وأنا من عشتُ حياتي بين الرجال الشجعان.

قالت: «سآتي معك. لكن لا تتحدّث معي من فضلك؛ فأنا أشعر بالتعَب والاضطراب، كما أنني بحاجة إلى الهدوء لأتمكن من التفكير.»

فور أن نهضَت من مقعدها، اجتاحتها موجةٌ عارمةٌ من الضعف، وترنّحَت حتى التقطَها بين ذراعَيه. قال برقة: «ليتني أستطيعُ تركَكِ ترتاحين قليلًا، لكن الوقت يمضي بسرعة. السيارة مريحة ويُمكِنكِ النوم فيها.»

استدعَى أفري الخادمَ وتعهّد إليها بماري. قال: «سنغادر خلال عشرِ دقائق»، وبعد ذلك خرج لأمر السائق بإحضار السيارة.

كان أول ما فعلَته ماري حين أوصلَتها الخادم إلى غرفتها هو أن غسلَت عينَيها ومشّطَت شعرها. راودَها شعورٌ بضرورة المحافظة على صفاء ذهنها. بعد ذلك كتبَت ملاحظةً سريعةً لويك تُخبره فيها بما حدث ثم سلّمَتْها للخادم وأعطتها إكرامية.

قالت: «سيأتي السيد النبيل في الصباح. لا بد أن تُسلّميها له على الفور لأنها تخصّ مصير الدولة.» ابتسمَت المرأة ابتسامةً عريضةً ووعدَتها بتسليمها للرجل. لم تكن هذه المرة الأولى التي تسعى في حاجة امرأةٍ جميلة.

وضع أفري ماري في سيارةٍ ضخمةٍ بعنايةٍ فائقة، ودثّرها بدثار. ثم عاد إلى الفندق لحظةً، ولاحظت حركةً خفيفةً في غرفة الطعام. بعد ذلك رجع أفري وتحدّث للسائق بالألمانية فيما جلس في المقعد بجواره.

لكنه قبل أن يفعل ذلك ناوَل ماري الملاحظةَ التي تركَتْها من أجل ويك. قال: «أظن أنكِ نسيتِ هذا.» ولم يكن قد فتحَها.

غلب النوم على ماري وهي تجلسُ وحيدةً في السيارة. واستحالت هيئتا أفري والسائق في المقعد الأمامي داكنتَين في ضوء المصابيح الأمامية قبل أن تستغرق في أحلامها. فلقد تعرضَت لضغطٍ كبيرٍ لم تشهده من قبلُ وغرقَت في نومٍ عميق من فَرْط شعورها بالإرهاق.

عندما استيقظَت وجدَت نفسها في وضح النهار. من النظرة الأولى أدركَت أنهم لا يزالون في إيطاليا، ما يعني أنهم لم يسلكوا معبر شتاوب. بدا كأنهم يسيرون بين سفوح الجبال؛ إذ لم يكن هناك سوى القليل من الثلوج، لكن من حينٍ لآخر كانت تلمح القممَ العاليةَ في نهاية الأوديةِ الفرعية. سعت جاهدةً لتمييز الطريق ثم تذكّرَت معبر مارمولادا الجبلي. بذل ويك جهداً كبيراً في تدريسها طبوغرافية جبال الألب من قبلُ، وقد استوعبَت حقيقةَ وجودِ معبرَين مفتوحَين. لكن ممَر مارمولادا يعني أنهم سلكوا طريقًا غيرَ مباشر ولن يصلوا إلى سويسرا قبلَ حلولِ الظلام. قد يبلغُونها في الليل، ويرحلون عنها في الليل أيضًا، ولن تحظى بأي فرصةٍ للهرب. شعرَت بوحدةٍ شديدة وبانعدامِ الحيلة.

حملَت ساعاتُ النهار المزيدَ من الخوف إلى ماري. وكلما يئسَت من هزيمة أفري تغلغل ذلك الشبحُ الأسود في عقلها بإصرار. حاولَت تهدئة نفسها بمشاهدة المناظر الطبيعية من النافذة. أخذَت السيارة تتأرجح في القرى الصغيرة مرورًا بكروم العنب وأشجار الصنَوبَر والبحيرات الزرقاء وفوق وديانٍ تجري فيها أنهارٌ جبلية. لم تُشكِل

تصاريحُ السفر مشكلةً فيما يبدو. فقد لوّح حارسا نقطة التفتيش بأيديهما علامةَ الاطمئنان عندما نظرا إلى البطاقة التي حملَها السائقُ بين أسنانه. لكن في إحدى نقاط التفتيش طال الانتظار وسمعَت أفري يتحدث مع ضابطَين من فيلق الرماة الإيطالي باللغة الإيطالية ويقدّم لهما السجائر. بدت أماراتُ الشباب والصلاح على الضابطَين، ولوهلةٍ خطر لماري أن تدفع باب السيارة بعنف، وتتوسّل إليهما لإنقاذها. لكنها علمَت أن الأمرَ لن يُجديَ نفعًا؛ إذ يبدو أن أفري يملك جميع الوثائق اللازمة. وتساءلَت عن الشخصية التي ينتحِلها أفري حاليًا.

اختار أفري طريقَ مارمولادا لغرضٍ ما. ففي بلدة، التقى بمسئولٍ مدني وتجاذبا أطراف الحديث، وكانت السيارة تُبطئ سرعتها، في كثيرٍ من الأحيان، ليظهر شخصٌ من جانب الطريق، ويتبادل مع أفري بضع كلماتٍ قبل أن يتوارى عن الأنظار من جديد. شهدَت ماري التجميع النهائي لخيوط خطةٍ كبيرةٍ قبل أن تئوب الطيور البرية إلى أعشاشها. بدا أن غالبية هذه اللقاءات عُقدَت بالإيطالية لكنها خمّنَت من حركة الشفاه مرةً أو مرتَين أن المُجتمعين يتحدثون الألمانية، وأن القرويّ الأشعث أو البرجوازيّ ذا القبعة السوداء ليس إيطاليّ الأصل.

في ساعات النهار الأولى، بعدما استيقظَت ماري بفترةٍ وجيزة، أوقف أفري السيارة وقدّم لها سلّةً مليئةً بالوجبات الخفيفة. لم تستطع تناوُل أي شيء، واكتفت بمشاهدته يتناول الشطائر في الفطور، بجوار السائق. في المساء استأذنها في الجلوس بجوارها. توقّفَت السيارة في مكانٍ منعزلٍ وأخرج السائق سلّة الطعام. صنع أفري الشاي؛ إذ بدت لا تقوى على الحركة من شدة اضطرابها، وتناولَت معه كوبًا من الشاي. بعد ذلك ظلّ بجوارها.

علّق أفري: «في غضونِ نصفِ ساعة سنخرج من إيطاليا.» كانت السيارة تقطع بسرعةٍ كبيرةٍ واديًا طويلًا يفضي إلى ممرٍّ عجيبٍ يمتد بين مرتفعاتٍ مغطّاة بالثلج تُشكّل قمةَ جبلِ مارمولادا. وأراها موقعهم الحالي على الخريطة. ثم أحكم الدّثار حولها؛ إذ كلما ازداد ارتفاعهم عن مستوى البحر اشتدّت برودة الجو، واعتذر عن عدم توافُر قربةٍ ساخنةٍ لتدفئة قدمَيها. قال: «في غضون وقتٍ قصيرٍ سنبلغ بلادًا تكون فيها أقل أمنياتك مُجابة.»

غفَت ماري من جديد؛ لذا لم تشهد عبورَ نقطة الحدود. عندما استيقظَت كانت السيارة تنساب في حنايا وادي فايز الطويلة، قبل أن تدخل الخور المؤدي إلى جرونفالد.

سمعَته يقول: «نحن في سويسرا الآن.» أحسّت بنبرةٍ جديدةٍ في صوته أو ربما خُيِّل

لها ذلك. فقد كان يتحدث بثقة المُسيطر. هُم الآن خارج إيطاليا التابعة للاتحاد، في بلادٍ تتغلغل فيها شبكته.

سألَت بوجل: «أين سنقضي الليل؟»

أجاب: «يؤسِفني القول إننا لا يُمكننا التوقف. تحمّلي السيارة لليلةٍ أخرى. فأنا أريد إنجاز مهمةٍ بسيطةٍ في الطريق ستُعطِّلنا عدة دقائق ثم نُواصِل رحلتنا. في الغد، يا جميلتي، سينتهي كل تعبك.»

لم يكن هناك أدنى شك في نبرة التملك في صوته. بدأ قلبُ ماري يخفق بسرعة وجنون. لقد ضاق الخناقُ حولها ورأت الحماقةَ التي أودَت إليها شجاعتُها. فقد ساقتها، مكبّلَة اليدَين مكمّمة الفم، إلى يدَي رجل تكرهه أكثر فأكثر بمرور كل ثانيةٍ، وتنفرُ من قُربه أكثر من نفورها من الثعبان. وجدَت ماري نفسها تعَضُّ على شفتَيها كي تمنعَ نفسها من الصراخ.

تغيّر الطقس، وانهمرَت الثلوجُ بكثرة، وهي العاصفة نفسها التي لاقيناها أثناء اجتيازنا معبر السنونوات. انخفضَت سرعة السيارة عما قبل وازداد اضطراب أفري. فقد رأته يتفقد ساعته مرارًا وتكرارًا ثم اختطف وصلة التحدُّث مع السائق. سمعَته ماري يقول: «سانت أنطون».

تمكّنتُ من الحديث بصوتٍ عالٍ وسألت: «هل سنسافر عَبر سانت أنطون؟»

أجاب باقتضاب: «أجل.»

أعطتها هذه المعلومة بصيصًا من الأمل؛ لأنها تعرف أنني وبيتر نمكث بالمكان. حاولَت النظر خارج النافذة المُغبّشة، لكنها لم ترَ سوى بشائرِ حلولِ الظلام. توسّلَت لرؤية الخريطة، ورأت أنهم لا يزالون في وادي جرونفالد العريض، حسب فهمها المُتواضع، ولا بد من اجتيازهم المعبَر المنخفِض عَبْر وادي شتاوبتال ليتمكنوا من بلوغ سانت أنطون. كانت الثلوج لا تزال تنهمر بغزارة والسيارة تشُق طريقها ببطءٍ شديد.

شعَرَت ماري بارتفاع الطريق في أثناء صعود المعبَر. استحال الطريق وَعْرًا عند تلك النقطة، في اختلافٍ تامٍّ عن الأجواء الصقيعية الجافة التي سادت وأنا أقطع الطريق نفسه بالأمس. وواجهتهم عوائقُ عجيبة. فقد أسقطَت عربةُ أخشابٍ حطبًا في الطريق السريع باستهتار، واضطُر أفري والسائق لمغادرة السيارة أكثرَ من مرة لإزالته. وفي نقطةٍ أخرى حدث انزلاقٌ أرضيٌّ صغير خلّف مساحةً صغيرة للعبور، فاضطُرّت ماري

للنزول والعبور على قدمَيها، فيما تولّى السائق المناورة بالسيارة بمفرده. ازداد مزاجُ أفري حدةً فيما يبدو. ولحُسن حظ الفتاة أنه واصل الجلوس في المقعد الأمامي، حيث انهمك في نقاشٍ حادٍّ متواصلٍ مع السائق.

عند رأس المعبَر قبعَت دار ضيافة — وهي عبارة عن نُزلٍ مريحٍ يملكه الهر كرونيج — ذائعة الصيت بين مُتسلقي القمَم المنخفضة الارتفاع في وادي شتاوبتال. وفي وسط الطريق وقف رجلٌ يُمسك مصباحًا في يده.

هتف: «الطريقُ مسدودٌ بسبب تساقُط الثلج. تُجرى الآن إزاحته. سيُجهَّز الطريقُ في غضون ساعة.»

قفز أفري من مقعده وهُرع إلى النُّزل بسرعة البرق. ذهب كي يستحث عملَ فريقِ إزاحة الثلوج على الإسراع، وصحبَه هر كرونيج بنفسه إلى مشهد الكارثة. تجمَّدَت ماري في مكانها إذ سيطرَت فكرةٌ على عقلها بغتة. حاولَت صرفها لحماقتها لكنها ظلَّت تُلِحُّ عليها. لم انسكبَت جذوع الشجر على الطريق؟ لمَ انسدَّ معبرٌ مُمهَّد بعدما سقط الثلج بغزارةٍ متوسطة؟

خرج رجلٌ من فِناء النُّزل وتحدَّث إلى السائق. بدا أنه عرض عليه وجبةً خفيفةً مع المشروبات؛ لأن الأخير ترك مقعده واختفى بالداخل. مكث السائق هناك فترةً من الوقت، ثم عاد مرتجفًا مُتبرمًا من برودة الطقس وقد رفع ياقةَ معطفه الطويل لتُغطي أذنَيه. كان يتدلَّى من الشرفة مصباح، فرأت ماري ملامحَ الرجل على ضوئه. كانت تنظر إلى مؤخرة رأس السائق بشرود في أثناء الرحلة الطويلة، ولاحظَت أنها مُدبَّبة كالرصاصة، بلا أي تحدُّب في مؤخر عنقه، وهي سمةٌ شائعة في الألمان. الآن لا يُمكنها رؤيةُ عنقه إذ تُخفيه ياقةُ المعطف لكنها كانت واثقةً تمامَ الثقة أن شكل رأسِه مختلف. بدا لها أن الرجل يعاني من البرودة بشدة؛ لأنه زرَّر ياقة معطفه حتى ذقنه، وأمال قُبعته لتنزل على حاجبَيه.

عاد أفري متبوعًا بصفٍّ من الرجال يسيرون ببطءٍ حامِلين المجارف والمصابيح. ألقى أفري نفسه في المقعد الأمامي وأومأ للسائق بأن يتحرك. كان السائق قد أدار محرِّك السيارة منعًا لإهدار الوقت. ترجرجَت السيارة فوق الركام غير المُستوي الناتج عن تساقُط الثلوج قبل أن يترك السائق العِنان لسيارته. كان أفري يتحرَّق شوقًا للإسراع، لكنه لم يرغب في أن يلقَى حتفه؛ لذا صاح فيه ليأخذ حذْره. أومأ السائق برأسه، وأبطأ من سرعته، لكنه سرعان ما عاد إلى طيشه مرةً أخرى.

لو كان أفري قلقًا فقد فاقته ماري بمراحلَ كثيرة. فهي قد عثَرَت فجأة على ما يبدو أنه آثار لأصدقائها. في وادي سانت أنطون، توقّفَت الثلوج عن الهطول، ففتحَت ماري النافذة لاستنشاق الهواء النقي، إذ كادت تختنق من فَرط شعورها بالترقّب. اندفعَت السيارة أمام المحطة، باتجاه أسفل التل المجاور لكوخ بيتر، وشقّت طريقَها عَبْر القرية، ثم سارت بمحاذاة ساحل البحيرة ناحية «بينك شاليه».

أوقف أفري السيارة أمام البوابة. قال للسائق: «املأ خزانَ الوقود. واطلب من جوستاف إحضارَ السيارة الدايملر وأن يجهز لاتّباعنا في غضونِ نصفِ ساعة.»

وتحدّث إلى ماري عَبْر النافذة المفتوحة.

«سأتركك لفترةٍ قصيرةٍ جدًا. يُستحسَن أن تبقَي في السيارة لأنها مريحةٌ مقارنةً بمنزلٍ مُفكك. سيجلبُ خادمٌ لك طعامًا ومزيدًا من الأغطية للرحلة الليلية.»

واختفى أفري في ممَر السيارات المظلم.

أول ما خطر لماري هو التسلّل من السيارة والعودة إلى القرية حيث تُحاوِل العثور على أي شخصٍ يدُلها عليّ أو يأخذها إلى بيت بيتر. لكنها فكّرَت أن السائق سيُحاوِل منعَها من تحقيق مأربها؛ لأن أفري تركه خلفه لحراستها. نظرَت بقلقٍ إلى ظهره؛ إذ كان هو العائق الوحيد بينها وبين حريتها.

بدا أن الرجل المهذّب مُنهمكٌ في عمله. فور أن خبا وقعُ أقدامِ أفري، أعاد السائق السيارة إلى المدخل، وانعطف بها صوبَ سانت أنطون. وبدأَت السيارة تتحرك ببطءٍ شديد.

آنذاك انطلقَت صفارةٌ مدويةٌ ثلاث مرات. وفُتح الباب الأيمن، وصَعد بمشقة كبيرة إلى المقعد رجلٌ كان ينتظر في الظلام. لاحظَت ماري أنه ضئيل الجسم وأن به إعاقة. مدّت يدَها لمساعدتِه حتى ألقى نفسَه بجوارها على المقعد. ثم أخذَت السيارة تزيد من سرعتها.

قبل أن تستوعبَ ما يجري حولها، أمسك القادم الجديد يدَها وراح يُربّت عليها.

بعد مرور دقيقتَين كنتُ أعبُر بوابة «بينك شاليه».

الفصل التاسع عشر

الطيور البرية تدخل القفص

قال الجالس عند الطاولة: «تفضّل يا سيد أفري.» كان هناك حاجزٌ أمامي، يمتد من المدفأة إلى الباب الذي دخلتُ منه للتو، ليحجُب التيار الهوائي القادم من الباب الذي دخلتُ منه. كان الحاجز يرتفع أعلى رأسي، لكن به بعض الشقوق يُمكنني مراقبةُ الغرفة من خلالها. وجدتُ طاولةً صغيرةً أسندتُ ظهري إليها؛ إذ كنتُ في غاية الإنهاك.

كان الجالس إلى طاولة الكتابة بلنكيرون الذي امتدّت صفوفٌ من أوراق سوليتير أمامه. ظلت بقايا الحطَب تحترقُ ببطءٍ في المدفأة، وعن يميني قبَع مصباحٌ ألقى بضوئه على الموجودين بالغرفة. وبقَيت رفوفٌ الكتب والخزائن مستترةً بالظلام.

قال بلنكيرون وهو منهمكٌ بترتيب أكوام الأوراق فيما تغضّن وجهُه بالابتسامات الترحيبية: «انتظرتُ لقاءك فترةً طويلة.» أتذكّر أنني تساءلتُ عن السبب الذي دفَعَه لأداء دورِ المُضيفِ لصاحب المنزل الحقيقي.

وقف أفري مُنتصِبَ القامة أمامه. الآن وقد خلع جميع أقنعته وصار يقف على عتبة انتصاره بدا رجلًا مهيبًا. رغم الغمامة التي غشّت عقلي حينها وجدتُ نفسي مدفوعًا للاعتراف أن أمامي رجلًا وُلد للمهام العظيمة. كان له ذقَن يشبه ذقَن ملكٍ رومانيٍّ منقوشٍ على العملات المعدنية، وعينان هازئتان تألفان الغموض. كان يصغُرني في السن، عليه اللعنة، وانعكس ذلك بوضوح على ملامحه الآن.

سلّط أفري عينَيه على مُخاطبِه، فيما تراقصَت على شفتَيه ابتسامةٌ قبيحةٌ أيّما قُبح.

قال: «إذن فقد أمسكنا بالغراب العجوز أيضًا. لم أحلُم بأن يُحالفَني الحظ إلى هذه الدرجة، ولأصدقك القول، أنا لم أعبأ بأمرك كثيرًا. لكننا سنُلحِقك بالبقية. سنجعلكم عبرةً لمن لا يعتبر!» وألقى برأسه للوراء وضحك.

أنشأ بلنكيرون يقول: «يا سيد أفري ...» لكنه قاطعه.

قال: «لا تَستخدِم هذا الاسم. لقد ولّت هذه الحقبةُ حمدًا للرب! أنا الكونت فون

شبابينج وأعمل ضابطًا في الحرس الإمبراطوري. لستُ واحدًا من الأسلحة العديمة الأهمية التي استخدمتها ألمانيا للقضاء على أعدائها طيلةَ الفترة الماضية.»

قال بلنكيرون ببطء وهو لا يزال منشغلًا بأوراق اللعبة: «حقًا.»

لقد حانت اللحظة الموعودة، وعزم أفري على الاستمتاع بانتصاره حتى آخر قطرة. بدا أن جسمه ينتفش، وعينَيه تتلألآن، وصوته يفيض زهوًا. قدّم أفري أداءً مسرحيًا استثنائيًا واستمتع في أثناء ذلك لأقصى درجة. لا أظن أنني حقدتُ عليه لاستعراضه؛ إذ كنتُ أتحسّس شيئًا في جيبي. صحيحٌ أنه فاز، لكنه لن ينعَم بانتصاره طويلًا، لأنني سأطلقُ النارَ عليه في أقرب وقت. ركّزتُ عيني على بُقعة، فوق أذنه اليُمنى مباشرة، حيث أردتُ وضع رصاصتي ... فقد كنتُ متأكدًا من أن قتلَه هو الوسيلة الوحيدة لحماية ماري. كنتُ أخشى هذا الرجل بدرجةٍ تفوقُ خشيتي للسبعين مليون ألماني. هذه هي الفكرة التي سيطرَت على عقلي وسط الإعياء الذي تملّك جسدي.

قال الرجل الذي كان يُسمّي نفسه أفري: «لا وقت لديّ لأهدره معك. لكني سأمنحك بضع لحظات لأخبرك بالقليل من الحقائق. لم تحظَ خطتك الطفولية بأي فرصة للنجاح. فقد خدعتُك في إنجلترا وأنا أتلاعبُ بك منذ ذلك الحين. لم تُقدِم على خطوة إلا وقابلتُها بضدها بهدوء. مرحى يا رجل، لقد منحتَني ثقتك. السيد دون الأمريكي ...»

سأل بلنكيرون: «ماذا عن كلارنس؟» وانعكسَت على وجهه نظرة تجسِّد الدهشة المُطلقة.

أجاب: «أديتُ دَورَ ذلك الصحفيِّ المُثير للاهتمام.»

قال بلنكيرون بصوتٍ رقيقٍ حزين: «لا أصدِّق! ظننتُ أنه لن يأتيَني خطرٌ من جانب كلارنس. فقد أحضر خطابًا من العجوز جوي هوبر وكان على معرفةٍ بجميع الشباب في إمبوريا.»

ضحك أفري. قال: «يؤسفني أنك لم تُقدرني حقّ قدري أبدًا، لكني أظنُّ أنك ستفعلُ ذلك الآن. إن عصابتَكَ لا حيلةَ لها ولا قوة بين يديّ. والجنرال هاناي ...» ليتَني أستطيعُ وصفَ الازدراءِ الذي نطق به كلمة «جنرال».»

سأل بنلكيرون باهتمام: «أجل ... ديك؟»

أجاب: «هو سجيني منذ أربع وعشرين ساعة. كما احتجزتُ الآنسة الجميلة ماري

أيضًا. ستأتون ثَلاثَتُكم معي إلى دولتي في غضونِ فترةٍ قصيرة. لن تتخيّل كيف. نحن نُسمّي الطريقة «قطار الأنفاق» وستَحظى بشرف متابعة كيفية عملها ... لم أقلَق كثيرًا بشأنك لأنني لا أحملُ لك ضغينةً شخصية. فما أنت سوى أحمقَ غبي، ما تُسمُّونه في بلدكم «هدفًا سهلًا».»

قال بلنكيرون بجدية: «أشكرك أيها الكونت.»

تابع: «ولأنك موجودٌ هنا فستنضَم للآخرين ... كلمة أخيرة. إن هزيمة البلهاء أمثالك أمرٌ عديم الأهمية. إنما حقّقتُ ما هو أعظمُ منه. لقد انتصرَت دولتي. وستشهد وأصدقاؤك ذلًا ما شهدَته روما في تاريخها. هل استوعَب عقلك الغبي فداحةَ ما أقول؟ لقد فازت ألمانيا، وفي غضون يومَين ستندهش الأرضُ كلها من قَدْر عظمتها.»

نظرتُ إلى بلنكيرون فإذا بسَحابةٍ قاتمةٍ من اليأس قد غشّت وجهه. تهدّل جسدُه الضخم في مقعده، وانكسرَت عيناه، وتحرّكَت يدُه اليسرى بإنهاكٍ بين أوراق لعبته. لم أستطع دفع عقلي للتفكير، لكني تعجّبتُ بمرارة من أخطاء بلنكيرون الفادحة. لقد سار مثل الأعمى إلى الفخ الذي نصَبه له أعداؤه. لا بد أن بيتر أخفَق في إيصال رسالتي إليه، فلا يعلم شيئًا عما حدث في الليلة الماضية، أو عن رحلتي المجنونة إلى إيطاليا. لقد فشِلنا، وفشلَت جماعتُنا البائسةُ كلها، بيتر وبلنكيرون وأنا ... استقر شعورٌ غريبٌ في زاويةٍ نائيةٍ من عقلي، أن ثمّة شيئًا في الأمر أعجزُ عن فَهمه، وأن هذه الكارثة ليست بالبساطة التي تبدو بها. لكن لم تعُد بي طاقةٌ على التفكير لا سيما مع سيطرة أفري المتغطرس على أجواء الغرفة ... حمدًا للرب أن رصاصةً تنتظره في جيبي. كانت تلك هي الحقيقة الوحيدة الثابتة في عقلي الفوضوي. ولأول مرة في حياتي عزمتُ على قتل رجلٍ واحدٍ بعينه، وأمدّتني تلك الغاية براحةٍ بغيضة.

فجأة دوّى صوتُ أفري بحدة. «أخرِج يدكَ من جيبك. أنت مُحاصَر من ثلاثِ جهات. تحرّكْ حركةً واحدةً وسيُحيلك رجالي إلى مصفاة. لقد جلس آخرون قبلك في هذا الكرسي؛ لذا فإنني أتخذ الاحتياطاتِ اللازمةَ دائمًا. أسرِع. ضَع يدَيكَ الاثنتَين على الطاولة.»

لم يكن هناك أدنى شكٍّ في هزيمة بلنكيرون. لقد انهزم وخرج من اللعبة، ولم يبقَ لنا سوى بطاقةٍ رابحةٍ واحدةٍ أحملها في جيبي. استند بلنكيرون على ذراعَيه في وهَن باسطًا راحتَيه.

قال بصوتٍ في غاية اليأس: «أخمِّن أنك تحملُ الكثير من البطاقات الرابحة يا

كونت.»

أجاب: «بل لديّ جميعُ الأوراق الرابحة.»

بعد ذلك حدث تغييرٌ مفاجئ. رفع بلنكيرون رأسه ونظر بعينَيه الشاردتَين الناعستَين في عينَي أفري مباشرة.

وقال: «أتحدّاك.»

لم أصدِّق أذني. واندهش أفري.

قال أفري: «انتهى وقتُ الخداع.»

قال بلنكيرون: «أتحدّاك رغم ذلك.»

في تلك اللحظة، شعرتُ بشخصٍ يشُق طريقَه عَبْر الباب، ليتخذ مكانه بجواري. كان الضوء في غاية الخفوت، فلم أرَ سوى هيئته المربّعة القصيرة، لكنه همس بصوته المألوف في أذني. قال: «هذا أنا، أندرو آيموس. يا لها من خدعةٍ عظيمةٍ يا رجل. لقد أتيتُ لأشهد نهايتَها.»

وقفتُ في ترقبٍ شديد، لم يَختبره سجينٌ في انتظار نُطق القاضي بالحكم النهائي في قضيته، ولا قائدٌ يتلهف لأنباء معركةٍ كبيرة، أتابع ما يحدث في اللحظات التالية. لقد نسيتُ كل تعبي، ولم يعُد ظهري بحاجة إلى دعم الطاولة. التصقَت عيناي بالشق، واستقبلَت أذناي كل لفظةٍ في نهَم.

كان بلنكيرون يجلس منتصباً في مقعده ويضع ذقَنه بين يدَيه. وتبدّدَت كل آثار الكآبة من وجهه النحيل.

قال: «أقول إنني أتحدّاك يا كونت فون شبابينج. سأخبرك ببضعة أمور. ليست بحوزتك أيٌّ أسلحة؛ لذا لا داعي لتحذيرك بشأن العبث بها. أنتَ مُحق في القول إن هناك ثلاثة شقوق في الجدران يمكنك إطلاق النار من خلالها. لمعلوماتك، هناك فوّهة بندقية في كل ثقبٍ منها، وجميعُها مصوّبة نحوك في اللحظة الراهنة. من مصلحتك أن تُحسِن التصرف.»

انتصب أفري في وقفته مثل القضيب. وهتف: «كارل، جوستاف!»

ظهر رجلان على جانبَي أفري، مثل السحر، وطوّقاه كما يطوّق الحرسُ المجرم. أدركتُ أنهما ليسا الخادمَين المهندمَين اللذَين رأيتُهما في «بينك شاليه» قبل ذلك.

أحدهما لم أرَه من قبلُ. والآخر كان خادمي جوردي هاميلتون.

رمقَهما بنظرةٍ سريعةٍ كانت كفيلةً بأن يفهم منها الموقف، بعد ذلك جال ببصره في أرجاء الغرفة مثل حيوانٍ جريح، قبل أن يستعيد توازنه. كانت شجاعتُه فريدة.

قال بلنكيرون ببطء: «أريد أن أُخبرك بأمرٍ. كان القتال حاميَ الوطيس، لكن الهزيمة صارت من نصيبك كما أرى. أُحيِّيك على مهارتك في انتحال شخصية كلارنس دون. فقد خدعتَني ببراعةٍ منقطعةِ النظير، ولولا رحمة الرب لانتصرتَ علينا في نهاية المطاف. شخصٌ واحدٌ تعرَّف عليك، في غالبية الأحوال، مهما كان القناع الذي ترتديه، وهو ديك هاناي. أعطيك أعلى الدرجات على انتحالِ شخصية كلارنس ... أما في البقية فقد هزمتُك هزيمةً ساحقة.»

نظر بلنكيرون إلى أفري بثبات. قال: «أنتَ لا تُصدِّق. حسنًا، سأثبت ما قلتُه للتو. لقد راقبتُ قطار الأنفاق لبعض الوقت. وسخَّرتُ رجالي لهذه المهمة، وأعتقد أن غالبية الخطوط أُغلقَت في الوقت الحالي من أجل الإصلاحات. هذا باستثناء الخط الرئيسي المؤدي إلى فرنسا. أبقيتُه مفتوحًا لأنني سأنقل شحنةً عن طريقه في القريبِ العاجل.»

آنذاك لاحظتُ رجفة في جفنَي أفري. لقد بدأ يخور رغم رباطة جأشه.

واصل بلنكيرون: «أعترف أننا فُزنا بأعجوبة لأنك خدعتَني في أمر كلارنس. لكن جنرال هاناي كان عَقبةً كبيرةً في طريقك يا كونت. لقد أسأتَ التقدير عندما أفضيتَ إليه بخطتك. ظنَنتَ أنه في قبضتك، في حين أنك خاطرتَ مخاطرةً كبيرةً مع رجلٍ مثل ديك، اللهم إلا إذا كنتَ قد قتلتَه قبل رحيلك عنه ... لقد هرب من ذلك المكان، وفي وقتٍ مبكِّرٍ من الصباح، وأوصل إليّ كل ما يعرفه. بعد ذلك صار كل شيءٍ سهلًا. تلقَّيتُ البرقية، التي أرسلتَها إليّ في الصباح باسم كلارنس دون، وضحكتُ عند قراءتها. وقبل منتصف النهار سيطرتُ على الطاقم بأكمله. لقد ذهب خدَمُك عَبْر قطار الأنفاق إلى فرنسا. وإيرليش — حسنًا، أنا آسف بشأن إيرليش.»

الآن صرتُ أعرف اسم اليهودي البرتغالي.

قال بلنكيرون بأسفٍ: «لم يكن رجلًا سيئًا، وكان في غاية الأمانة. لم أنجح في إقناعه بالاستماع إلى صوت العقل وكان سيعبث بالسلاح الناري. فاضطُررتُ إلى قتله.»

سأل أفري بحدة: «هل قضى نحبه؟»

أجاب: «أجل. لا أخطئ التصويب، كما كانت مسألةَ حياةٍ أو موت. إنه الآن يرقُد

تحت الجليد؛ حيث أردتَ إرسالَ ديك هاناي. هو لا يُشبهك، يا كونت، وأظن أن لديه فرصةً في دخول الجنة. لو لم أكن تابعًا متعصبًا للكنيسة المشيخية لدعوتُ لروحه بالرحمة.»

ركّزتُ نظري على أفري فحسب. رأيتُه وقد شحبَ وجهُه كثيرًا وزاغ بصرُه. كنتُ واثقًا أن عقله يعمل بسرعة البرق لكنه مثل الفأر في مصيدةٍ فولاذيةٍ مُحكَمة. ما رأيتُ رجلًا يعاني أشد المعاناة مثلما كان أفري في تلك اللحظة. لقد انهارت قلعتُه الجصيّة من حوله، وفقد توازُنَه من شدة الصدمة. هذا الرجل شديد الاعتزاز بنفسه وقد تعرّضَت كبرياؤه لضربةٍ قاصمة.

قال بلنكيرون: «هذا بالنسبة لموضوعنا المألوف. لنتحدّث الآن بشأن سيدة بعينها. لم تتصرّف ببالغ اللُّطف معها يا كونت، لكن لن ألومك في ذلك. هل سمعتَ الصفير الذي دوّى عندما دخلت إلى هُنا؟ لا! كان مُدويًا مثل بوق جبريل. لا بد أن بيتر سخّر كل الهواء في رئته لنفخه. حسنًا، كانت هذه إشارةً بوجود الآنسة ماري سالمةً في سيارتك ... لكن في عُهدتِنا. أتعي ما أقوله؟»

وعَى أفري كلامه جيدًا. تسلّل احمرارٌ طفيفٌ إلى وجنتَيه.

تابع: «هل تريد معرفةَ مصير جنرال هاناي؟ لست متأكدًا من مكانه في اللحظة الحالية، لكن أظن أنه في إيطاليا.»

ركلتُ الحاجز جانبًا، فكاد آيموس يسقط على وجهه.

قلتُ: «لقد عُدت»، وسحبتُ مقعدًا ذا مسندَين، وألقيتُ نفسي فوقه.

كانت رؤيتي هي القشّة الأخيرة بالنسبة لأفري. كنتُ في حالةٍ مزرية، شاحبًا من الإعياء، مبللًا، قذرًا، أرتدي ثياب الحمال جوزيف زيمر البالية المهَلهَلة، كانت قد تمزّقَت من الصخور الحادة في ممَر شفارشتاينتور. جفلَت عينا أفري ما إن التقت بعينيّ، وقرأتُ الرعب فيهما. كان يُدرك أنه يقف في حضرة عدُوه اللدود.

قال بلنكيرون بابتسامةٍ مشرقة: «أتيتَ في اللحظة المناسبة تمامًا. كيف وصلتَ إلى هُنا بحق الرب؟»

أجبتُ: «سيرًا على الأقدام.» لم أرغب في الكلام إذ كنتُ أشعُر بالوهن. أردتُ فحسبُ أن أمتِّع نظري بالتمعُّن في وجه أفري.

جمع بلنكيرون بطاقات لعبته، ودسّها بسرعة في جرابٍ جلديٍّ صغير، قبل أن يضعها

في جيبه.

قال بلنكيرون: «أريد أن أخبرك بشيءٍ أخير. لقد استُدعيَت الطيور البرية لموطنها لكنها لن تبلغه أبداً. هذا لأننا قبضنا على أعضاء المنظمة مثل بافيا وهوفجارد وكونرادي. إيرليش مات بالفعل. وستنضَم إلى البقية في قفصنا.»

نظرتُ إلى صديقي فإذا به يزداد مهابةً. كان يجلس في مقعده بثقة، بوجهٍ يُشبه قضاة الإعدام، وعينَين غير ناعستَين بل تُحاصران أفري. كما تخلى عن وتيرته البطيئة في الكلام، وعباراته العادية، وخرج صوتُه قاسيًا حادًا كصوت ارتطام صخور الجرانيت.

قال: «أنتَ في قفص الاتهام الآن يا كونت فون شبابينج. لقد بذلتَ ما في وسعك لسنواتٍ لتقويض كل ما هو أخلاقي. لا أشكُ في أنك نلتَ استحسانَ دولتك. لكن ما الذي فعلَته دولتُك لتنالَ استحسان العالم؟ في القريب العاجل، ستدفع ألمانيا ثمنًا باهضًا جرّاء أفعالها، وستكون أنتَ الحصة الأولى من هذا الثمن المستحق.»

قال أفري بشفتَين جافتَين وجبين يتفصّد عرقًا: «سألجأ للقانون السويسري. أنا أقف على أرضٍ سويسرية، وأطالب بتسليمي للسلطات السويسرية.»

قال بلنكيرون بنبرةٍ مطمئنة: «أوه، لا، لا. السويسريون أناسٌ لُطفاء، ولا أُحب أن أزيدَ أعباءَ دولةٍ حياديةٍ مسكينةٍ بتسليمك لها ... طيلة هذه الفترة كان طرفا اللعبة يتصرفون خارج حدود القانون، وسيستمر الوضع على هذا المنوال. لقد تصرفنا وفقًا لقواعد اللعبة، وهذا ما ستفعله أنت أيضًا ... لقد قتلتَ واختطفتَ وأغويتَ الضعفاء والجاهلين، على مدار السنوات الماضية، لكننا لن نحكم على أخلاقك. سنترك ذلك للرب القدير بعدما تعبُر للعالم الآخر. سننفُض أيدينَا منك في أقرب وقتٍ ممكن. ستُسافر إلى فرنسا عَبْر قطار الأنفاق حيث سنسلمك إلى الحكومة الفرنسية. فلديهم من الأدلة، حسبما أعلم، ما يكفي لأن تُجريَ عليك حكم الأعدام رميًا بالرصاص كل ساعةٍ لمدة سنة.»

أظن أنه توقّع أن نُنفّذ فيه الحكم في الحال ونرسله لينضم إلى إيرليش تحت الجليد. على أي حال لاحت بارقة أملٍ في عينَيه. ربما فكّر في احتمالية الهرب من السلطات الفرنسية لو حظي بفرصة استخدام قدراته المذهلة. لكنه انحنى أمامنا برباطة جأشٍ نوعًا ما، واستأذنَنا في التدخين. فكما قلتُ للرجل شجاعةٌ فريدة.

هتفتُ: «لن نفعل شيئًا من هذا القبيل يا بلنكيرون.»

أمال رأسَه ناحيتي بجدية. سأل: «بمَ تفكِّر يا ديك؟»

أجبتُ: «لا بد أن نُنزِلَ به عقوبةً تتناسب مع جُرمه. كان الإرهاق قد تمكّن مني حتى إني كنتُ أبذل جهداً خارقًا لتكوين عباراتي، كأنني أتحدّث بلغةٍ أجنبيةٍ غير مفهومة بشكلٍ كبير.»

سأل: «ماذا تعني؟»

قلتُ: «أقصد أنك لو سلّمتَه إلى فرنسا إما سيُفلتُ من أيدينا بطريقة من الطرق أو سيحظى برصاصةٍ قاتلة، وفي هذا من الرأفة ما لا يستحقّه. لقد أرسل هذا الرجلُ وأشباهُه ملايينَ الأوفياء إلى قبورهم. في الفترة الماضية، جلس مثل عنكبوتٍ ضخمٍ يغزل شبكته، ومع كل خيطٍ غزله سكب شلالًا من الدماء. أمثالُه مَن دبّروا لهذه الحرب لا الجنود الألمانيون المقاتلون الأغبياء الشجعان. لهذا هم المسئولون عن كل هذه الوحشية الغليظة ... مع أنه لم يقف يومًا في مرمى القذائف. أرى أن نضعَه على الجبهة. لا أعني أن نفعل به مثلما فعل داود بأوريا الحثي. أريده أن يحظى بفرصةٍ عادلةٍ مثل بقية الرجال. لكنه، بمشيئة الرب، سيعرف نتيجة ألاعيبه المرحة ... لقد أخبرني أنه في غضون يومَين ستُحطّم ألمانيا جيوشنا تمامًا. وتحدّث بزهوٍ عن دوره الكبير في هذا الأمر. حسنًا، لنُرسِله إلى هناك ليشهدَ ذلك بنفسه.»

قال بلنكيرون: «أراها عقوبةً عادلة.»

ركّز أفري عينَيه عليّ، في ذهول ورعب، مثل طائرٍ يقف أمام أفعَى مُجلجِلة. وغشّت وجهَه مرةً أخرى تلك النظرة التي رأيتُها في محطة المترو، وهي بقايا بشريتِه المتضائلةِ خلف أقنعته. بدا أنه أخرج شيئًا من جيبه في خفيةٍ كي يضعَه في فمه، لكن جوردي هاميلتون أمسَك برُسغِه وحال دون ذلك.

سأل خادمي في صدمة: «ماذا تفعل؟ يظهر، يا سيدي، أن السجين يُحاوِل ابتلاع السُّم. هل أقوم بتفتيشه؟»

بعد ذلك وقف أفري بين الحارسَين وقد قبض كلٌّ منهما على إحدى ذراعيه.

قلتُ: «عندما وقعتُ في قبضتك الليلة الماضية يا سيد أفري، أرضيتَ غرورك بالتباهي أمامي. وكنتُ أتوقع ذلك لأن طبقتك الاجتماعية لا تُنشئ النبلاء. أما نحن، فنُعامِل سجناءنا بطريقةٍ مختلفة، لكن من العدالة أن نُخبرك بمصيرك. ستذهب إلى فرنسا وسأتأكد من نقلك إلى الجبهة البريطانية. هناك، مع فرقتي القديمة، ستتعلّم

شيئًا يسيرًا عن الحرب. أريدك أن تفهم أنه لا يمكنك الفرارُ على الإطلاق. سيُؤمر الرجال بمراقبتك ليلَ نهارَ، وسيضمَنون أنَ تختبر ساحة المعركة بكل قسوتها. ستُكابِد ما كابدَه الآخرون لا أكثر ولا أقل. أومن بعدالة الرب، وأعلم أنك ستلقى الموت عاجلًا أو آجلًا على يد قومك، وستموت بشرف رغم عدم استحقاقك لهذا الشرف. لكن، قبل أن ينزل بك الموت، ستختبر ذلك الجحيمَ الذي أرسلتَ إليه الرجالَ الأوفياءَ في الفترة الماضية.»

في لحظات الوهن، كما في لحظات الأزمات الكبيرة، يتقلد العقلُ زمام الأمور، وقد يعمل في مسارٍ مُنفصلٍ عن إرادة المرء. لم تكن نفسي هي التي تتحدّث، بل صوتٌ منفصل عنها لا أعرفه، صوتٌ تلوح من نبرته سلطةٌ غريبة. استَشعَر أفري النبرةَ الحاسمةَ الباردةَ لكلامي، وبدا جسمُه يذبُل ويضعُف. ولم يمنعه من السقوط سوى قبضة الحارسَين.

أنا، أيضًا، كنتُ على حافة الانهيار. لم أكن في كامل وعيي في أثناء إخلاء الغرفة من الجميع، عدا بلنكيرون وآيموس، وحاول الأول أن يجعلني أرشُف بضعَ قطرتٍ من الكونياك من كأسٍ ما. جاهدتُ للنهوض على قدميّ وأنا أعتزم الذهاب إلى ماري، لكن ساقيّ عجزتا عن حملي ... سمعتُ، كأنني في حُلمٍ بعيد، آيموس وهو يقدِّم ثناءه للإله المطلَق القدرة الذي لا يؤمن به رسميًا. قال: «ماذا قال الرجل العجوز في الإنجيل؟ لتأذن لخادمك بالرحيل في سلام. هذا ما أشعُر به الآن.» بعد ذلك انقضّ النوم عليّ كرجلٍ مسلّح، فغفوتُ في المقعد المجاور لرماد الحطب الخافت، لتسكينِ آلامِ أطرافي، وتخفيفِ توتّرِ أعصابي، وتهدئةِ اضطرابِ عقلي.

الفصل العشرون

العاصفة تندلع في الغرب

في مساء اليوم التالي — العشرين من شهر مارس — انطلقتُ صوب فرنسا بعدما حلّ الظلام. تولّيتُ قيادة سيارة أفري المُغلقة الكبيرة، حيث جلس مالكُها مكبّل الأطراف مكمّم الفَم، كما جلس آخرون من قبله ينتظرون المصير نفسه. كان يرافقه جوردي هاميلتون وآيموس. كنتُ قد عرفتُ كل ما يتعلق بطريق الرحلة ومراحله الغامضة مما اكتشفه بلنكيرون بنفسه، ومن تلك الأوراق التي وقعَت بحوزتنا في «بينك شاليه». كانت مثل رحلة في حُلمٍ مجنون. ففي شارعٍ خلفيٍّ من بلدةٍ صغيرة، سأتبادل كلمات السر مع شخصٍ مجهولِ الاسم وأحصلُ على التعليمات. وفي نُزلٍ مجاورٍ للطريق، في ساعةٍ مُحدّدةٍ من اليوم، سيُبلغني شخصٌ له لكنةٌ ألمانيةٌ ثقيلة، أن ذلك الجسر أو تقاطُع السكة الحديدية خالٍ من الحراسة. وفي قريةٍ صغيرةٍ بين أشجار الصنَوبَر سيركب رجلٌ غيرُ معروف في السيارة بجواري، ويُساعدني في عبور نقطة تفتيش. سارت هذه الآلة بسلاسةٍ مثل عقارب الساعة، حتى وجدتُ نفسي، في مطلع يومٍ ربيعي، أهبط واديًا شاسعًا عَبْر بساتينَ صغيرةٍ بدأَت أشجارُها تُزهِر، وعلمتُ أنني في فرنسا. بعد ذلك بدأَت ترتيبات بلنكيرون، وفي غضون فترةٍ قصيرةٍ كنتُ أحتسي القهوة مع ملازمٍ شابٍّ من سلاح المشاة الفرنسي وأزيلت الكمامة من فَم أفري. ألقى الجنديُّ نظرةً فضوليةً على الرجل ذي المعطف الأخضر والوجه الشاحب الذي أشعل سيجارةً تلوَ الأخرى بيدٍ مرتعشة.

اتصل الملازم بجنرال كتيبةٍ كان على معرفةٍ تامةٍ بمهمتنا. في مقَر الكتيبة، شرحتُ له غرضي، فتولى الاتصال بمقَر الجيش، وحصَل على الإذن المطلوب. أتَت لقاءاتي بالشخصيات المهمة في باريس في يناير الماضي، والترتيبات التي اتخذَها بلنكيرون قبل وصولي لفرنسا ليسهل تنفيذ الخطة، بثمارها المرجوة. فقد سلّمتُ أفري وحارسَه للسلطات الفرنسية — لأنني أردتُ أن يتقدما إلى أميان تحت رقابتها — وأنا على ثقةٍ تامةٍ أنه ليس من شيم جنود ذلك الجيش العظيم أن يُفلِتوا من قبضتهم مَن وقع بها.

في صباحٍ ربيعيٍّ مشرقٍ صافٍ، تناولنا الفطور في بلدةٍ صغيرةٍ حمراء الأسطح، بين

كروم العنب فيما تدفّق النهر اللامع عند أقدامنا. كان جنرال الكتيبة محارباً قديماً جزائرياً تخلّل الشيبُ شعره، ظلت عيناه تتأمل الخريطة المُعلقة على الجدار حيث شكّلت الدبابيس والخيوط المُمتدة بينها ما يشبه شبكة العنكبوت.

سألتُ: «هل وردَت أي أخبارٍ من الشمال؟»

أجاب: «ليس بعدُ. لكن الهجوم وشيكٌ. وسيقع على جيشنا في مقاطعة شامبانيا.» وأشار بإصبعٍ نحيفةٍ إلى مواقع تمركُز العدو.

سألتُ: «لماذا لن يُهاجم البريطانيين؟» صنعتُ زاويةً قائمةً بالشوكة والسكين، ووضعتُ طبق ملح في مركزها. أضفت: «هذا هو المعسكر الألماني. يُمكنهم أن يتمركزوا على هذا النحو، حتى لا نعلم مِن أي موضع سيشنُّون هجومهم إلى أن يوجِّهوا ضربتهم.»

قال: «هذا صحيح. لكن هناك أمرٌ لا بد من اعتباره. لو هاجم العدو من ناحية السوم، فسيُضطَر إلى المحاربة على مساحةٍ كبيرةٍ من أرضٍ شهدَت معركةً قديمة، ولا تزال صحراء، ويحفظها الجنود البريطانيون شبراً شبراً. أما في مقاطعة شامبانيا، إذا تحرك بالسرعة المطلوبة، فقد يدخل دولةً لم ينتهكها أحد. هذا طريقٌ طويلٌ وصعبٌ إلى مدينة أميان بخلاف الطريق إلى تشيلونز. هذا ما يراه بيتان. هل اقتنعتَ برأيه؟»

قلتُ: «يبدو كلامه منطقيًا. لكن العدو سيُهاجم مدينة أميان، وأظنه سيبدأ اليوم.»

ضحك الجنرال وهزّ كتفَيه. قال: «سنرى. أنت عنيد، عزيزي الجنرال، كسائر رجال وطنك الباسلين.»

لكن فيما كنتُ أغادر المقر، سلّم له ضابطٌ معاونٌ رسالةً، في قصاصةٍ ورقيةٍ وردية. قرأها الجنرال واستدار إليّ بجدية.

قال: «لديك حَدْسٌ رائعٌ يا صديقي. أنا سعيد لأننا لم نتراهن. في الصباح، عند الفجر، حدثَت معركةٌ كبيرةٌ حول بلدة سان كونتين. لا تخشَ شيئًا لأنهم لن يعبُروا من هذه الناحية. فسيُوقفهم المارشال.»

كانت هذه أول الأنباء التي وردتني عن المعركة.

في ديجون التقيتُ بالآخرين حسب الخطة. ركبتُ في القطار المُتجه إلى باريس في آخر لحظة، جذبَني بلنكيرون بقبضتَيه القويتَين إلى المقصورة في أثناء تحرك القطار. في الداخل جلس بيتر في وداعةٍ مرتديًا زيّه القديم المرتق بعناية للفيلق الجوي. أما

ويك فقد انهمك في قراءة كومة من الجرائد الفرنسية، فيما جلسَت ماري مُمددةً قدمَيها على مقعدها تغُط في نومٍ عميق.

لم نتحدّث كثيراً لتسارع وتيرة الأحداث في الأيام الماضية، فلم نرغب في استرجاعها. علت وجهَ بلنكيرون أماراتُ الرضا، وراح يُدندن تلك الأغنية التي لا يدندن غيرها وهو يتطلع إلى المنظر الطبيعي الربيعي المُشرِق خارج النافذة. حتى ويك ذهب عنه اضطرابه. كان يضع نظارة القراءة المرقّشة كدرع السلحفاة، وعندما رفع عينَيه عن الجريدة، والتقتا بعينيّ، حلّت ابتسامةٌ على شفتَيه. ونامت ماري نوماً هانئاً كالطفلة، بخدّين متوردَين توردًا خفيفًا، تكاد لا تحرك أنفاسها ياقة المعطف الطويل التي لفّتها على عُنقها. أتذكّر أنّني تأملتُ عظام وجهها الشاب ورموشها الطويلة المُمتدة برقة ثنايا وجهها الغض في انبهار، وتساءلت كيف تحملَت توتُّر الأشهر الماضية. رفع ويك عينَيه عن الجريدة، ونظر إلى ماري ثم إليّ، نظرةً مترفقةً يغلب عليها الحنان. يبدو أنه وجد راحة البال بين الجبال.

وحده بيتر مَن كان يبدو دخيلًا على المشهد. كان بائسًا غريبًا، وهو يتحرك لتخفيف ألم ساقه، أو يحدِّق في المنظر الطبيعي بالخارج بلا اكتراث. لقد حلقَ لحيتَه مرةً أخرى لكن ذلك لم يجعله يبدو شابًا؛ إذ حفر الزمنُ تجاعيدَه على وجهه وتركَت السنون أثَرها في عينَيه بلا رجعة. عندما تحدثتُ إليه، نظر ناحية ماري، وحذّرني بأصبعه.

همس: «سأعود إلى إنجلترا. ستعتني بي امرأتك الشابة حتى تستقر أوضاعي. تحدثنا في الأمر بالأمس في الكوخ. سأبحث عن مسكنٍ وسأتحلى بالصبر حتى انتهاء الحرب. ماذا عنك يا ديك؟»

أجبتُ: «سأنضَم إلى الفرقة. لقد انتهت المهمة حمدًا للرب. أصبح طريقي الآن واضحًا، وصار بإمكاني التركيز على شئون الحرب فقط. أريد أن أُعبّر لك عن سعادتي لأنك وماري وبلنكيرون ستكونون بأمان في أرض الوطن. ماذا عنك يا ويك؟»

ردّ بابتهاج: «سأعود إلى كتيبة العمال. فقد ارتاح بالي أنا أيضًا.»

هزَزتُ رأسي علامة الاعتراض. قلتُ: «سنرى هذا الأمر لاحقًا. لا أُحب هذا الإهدار الآثم للموارد. لقد ناضلنا جنبًا إلى جنب لبعض الوقت ورأيتُ معدنك الحقيقي.»

عاد ويك إلى قراءة جريدة اليوم السابق وقال: «هذه الكتيبة ملائمة تمامًا بالنسبة إليّ.»

استيقظَت ماري فجأة، واعتدلَت في جلستها، وراحت تفركُ عينَيها بقبضتَي يدَيها مثل الأطفال. بعد ذلك، ذهبَت يدُها إلى شعرها بسرعة، فيما مشّطَتنا بعينَيها لتتأكد من وجودنا جميعًا. أحصتنا أربعةً ثم تنفّسَت الصُّعَداء.

قال بلنكيرون: «أرى أنكِ تشعرين بالانتعاش يا آنسة ماري. يشعُر المرء بالسعادة عندما يفكر أنه يُمكننا الآن أن ننعم بنومٍ هانئ. في غضون فترةٍ وجيزة، ستصِلين إلى إنجلترا، وسيبدأ موسم الربيع، وستكون هذه بدايةَ عالمٍ أفضل بمشيئة الرب. لقد انتهت مهمّتُنا على أي حال.»

قالت الفتاة بجدية: «أشك في ذلك. لا أرى أن الحرب ستتوقف. هل وردَتك أيٌّ أنباءٍ عن الحرب يا ديك؟ اليوم هو اليوم المنشود.»

أجبتُ: «لقد بدأ الهجوم» وأخبرتُهم بما سمعته من الجنرال الفرنسي. أضفتُ: «لقد اشتُهرتُ لديهم بقدرتي على التنبؤ إذ خمّن الجنرال أن الهجوم سيقع على مقاطعة شامبانيا. لكن تبيّن أن سان كونتين هي المقصودة، لكن لا علم لديّ بالمستجدات. سنعلم بما حدث حين نصل إلى باريس.»

توجّسَت ماري كأنها تذكّرَت تلك الفكرة القديمة الملحة؛ أن مُهمتنا لا يمكن أن تنتهي دون تضحية بأفضل شخصٍ بيننا. عاودَتْني هذه الفكرة بإصرارٍ مُزعج. لكن سرعان ما نسيَت ماري قلقَها فيما يبدو. ففي فترة ما بعد الظهيرة، فيما نُسافر عَبر أراضي فرنسا الجميلة، كانت في مزاجٍ احتفالي، وبثّت البهجة في أرواحنا لنُسايرها. كان الجو ساطعًا هادئًا؛ حيث الأراضي المحروثة تكتسِب لونًا أخضرَ بوتيرةٍ سريعة، وصنعَت أزهارُ الصفصاف هالاتٍ زرقاءَ فوق أشجارها المحاذية للقنوات المائية، وأنشأَت الأزهار تتفتح في البساتين في القرى الصغيرة ذات الأسطح الحمراء. في ذلك المشهد البديع، كان من العسير أن يبقى المرء جادًا كئيبًا، وانقشعَت غمامة الحرب السوداوية من فوق رءوسنا. دلّلَت ماري بيتر وأفرطَت في العناية به مثلما تعتني الأخت الكبرى بأخيها الصغير الضعيف البِنية. فقد جعلَته يبسط ساقه المُصابة عن آخرها على المقعد، وعندما صنعت الشاي لرفقتنا، حظي بيتر بآخِر قطعة من بسكويت السكر بعد معارضةٍ منه. في الحقيقة، كنا رفقةً شِبه سعيدة؛ إذ قصّ بلنكيرون علينا قصصًا عن الصيد والهندسة من أيامه في الغرب، وجدتُ نفسي وبيتر مدفوعَين لمجاراتها بقصصٍ أخرى أكثر إثارة، وسألت ماري أسئلةً تحريضية، فيما أنصت ويك باهتمامٍ واستمتاع. ولحُسن حظنا أنه لم يكن في المقصورة أناسٌ آخرون؛ إذ بدَونا مجموعةً متنافرةً يندر أن تجتمع مثلها. فقد بدت ماري نظيفةً حسنةَ المظهر في ردائها كعادتها، وكان بلنكيرون مهيبًا في حلّته

التويدية الخمرية، وقميصه وياقته ذوَي اللون الأزرق الفاتح، وحذائه البُني اللامع، لكن كان بيتر وويك يرتديان زيًا عسكريًا عفّى عليه الزمن، وكنتُ لا أزال أرتدي الحذاء الطويل والثياب البالية البشعة لجوزيف زيمر الحمّال القادم من أروسا.

بدا أننا نسينا الحرب، لكننا لم ننسَها في الحقيقة؛ إذ كانت كامنةً في أعماق أذهاننا. ففي مكانٍ ما في الشمال كانت تدور حربٌ مُستميتة من شأنها إثبات نجاحنا أو فشلنا. كشفَت ماري عن قلقها بإلحاحها عليّ بتقصّي الأخبار كلما توقفنا في محطة. فكنتُ أسأل ضباط الشرطة والجنود العائدين في إجازة، لكن دون جدوى. فلم يسمع أحدٌ عن المعركة. ونتج عن ذلك أن خيّم علينا الصمتُ في آخر ساعة من الرحلة، وعندما وصلنا إلى باريس في حوالي السابعة، كان أول ما فعلتُه هو أن ذهبتُ إلى كشك بيع الكتب.

اشتريتُ مجموعة من الجرائد المسائية، وحاولنا قراءتها في سيارة الأجرة التي حملَتنا إلى فندقنا. وجدنا أخبار الحرب، بلا شك، في العناوين الرئيسية. فلقد هاجمَنا العدو بقوة من جنوب آراس وحتى نهر واز، لكن صدّته قواتُنا ومنعَت من تقدّمه في كل الأنحاء. اصطبغَت المقالات بالثقة، وامتلأَت تعليقاتُ العديد من النقاد العسكريين بالتباهي. لقد دُفعَت ألمانيا إلى الهجوم أخيرًا، وسيحظى الحلفاءُ بتلك الفرصة التي طال انتظارُها لاستعراض تفوّقهم العسكري. كانت هذه، كما اتفق الجميع، بداية المرحلة الأخيرة من الحرب.

أعترف أنني حينَ قرأتُ هذه المقالات تملّكني الخوف. لو كان المدنيون بهذه الثقة المُفرِطة، فهل يُستبعَد أن يقع الجنرالات في الفخ نفسه؟ وحده بلنكيرون لم تُزعجْه هذه الأنباء. ولم تقُل ماري شيئًا، بل اكتفت بالجلوس، وهي تحتضنُ ذقَنها بين يدَيها، في دليلٍ دامغٍ على انشغال بالِها.

في صباح اليوم التالي، زوّدَتنا الصحف بأخبارٍ أكثر تفصيلًا. لقد وقع الهجوم الرئيسي على سان كونتين من كلا الجانبَين، وبالرغم من تراجُع القوات البريطانية، إلا أنها لم تخسَر سوى نقاط تمركُزِها الخارجية. لقد ساعد الضبابُ في إخفاء قوات العدو، وانهالت قذائفُه بغزارة لا سيما قذائف الغاز. وأضافت كلُّ صحيفةٍ التعليق القديم نفسه؛ أن العدو دفع ثمنًا باهظًا بسبب طَيشه، وتكبّد خسائرَ فادحةً مقارنةً بقوات الدفاع البريطانية.

ظهر ويك في الإفطار بحُلّة الجندي الثاني. كان يريد الحصول على تصريح السفر بالقطار، وعزم على الذهاب مباشرة، لكن عندما علمتُ أن وجهته أميان، أمرتُه بالبقاء

ومُرافقتي في السفر بعد الظهيرة. كنتُ قد ارتديتُ حُلّتي العسكرية وتولّيتُ قيادة المجموعة. نسّقتُ ذهاب بلنكيرون وماري وبيتر إلى بولون والبيات هناك، فيما سنذهب أنا وويك إلى أميان وننتظر التعليمات.

قضيتُ نهاراً حافلًا. زُرت مع بلنكيرون المكتب السري في جادّة سانت جيرماين مرةً أخرى، واستعرضتُ تفاصيل عملنا على مدار الشهرَين الماضيَين. جلستُ مرةً أخرى في البناية المنخفضة بجوار قصرِ ليزانفاليد وتحدّثتُ مع ضباط الأركان. كان قادة الجيش الفرنسي قد ذهبوا إلى الشمال.

رتّبنا أمر تسليم الطيور البرية، بعدما صاروا في فرنسا، وأُعطيتُ الموافقة على المسار الذي اقترحتُ تبنّيه في مسألة أفري. كان أفري وحارسُه في طريقهما إلى أميان، وسأقابلهما هناك في الغد، وفقًا للخطة. أغدقَ الرجال الرفيعو الشأن علينا من الثناء، إلى حدٍّ أن معرفتي بالفرنسية السليمة تلاشت، ولم أجِد ما أردُّ به سوى كلماتٍ خرجَت مُتلعثمةً من بين شفتَي. فتلك البرقية التي أرسلَها بلنكيرون ليلة الثامن عشر، بالمعلومات التي أعطاها أفري لي في «بينك شاليه»، فعلَت الأعاجيب في إيضاح الموقف.

لكن عندما سألتُهم عن المعركة لم يُخبروني بالكثير. لقد شنّ العدو هجومًا هائلًا، وتصدّت له الجبهة البريطانية بقوة، وكان لديهم من الإمدادات العسكرية ما يكفي بحسب اعتقادهم. وذهب بيتان وفوش إلى الشمال للتشاور مع هيج. لا يزال الوضع في مقاطعة شامبانيا غامضًا لكن بدأَت بعضُ الإمداداتِ الفرنسية في التحرك من هناك إلى قطاع السوم. لم يستعرضوا سوى الترتيبات البريطانية في ساحة المعركة. نظرتُ إلى الخطة وإذا بالفرقة القديمة التي كانت تحت إمرتي تُحارِب في عُمق الصراع.

سُئلتُ: «أين ستذهب الآن؟»

قلتُ: «إلى أميان ثم إلى الجبهة بمشيئة الرب.»

قال: «بالتوفيق يا جنرال. أنتَ لا تعطي جسدك أو عقلك قدْرًا وافرًا من الراحة يا عزيزي الجنرال.»

بعد ذلك اتجهتُ إلى مقَر البعثة الإنجليزية لكن لم يكن لديهم ما يُخبرونني به سوى إعلان هيج الرسمي ورسالةٍ هاتفيةٍ من مقَر القيادة العامة بشأن وقوع الجزء الحرِج من المعركة بين سانت كونتين ونهر واز على الأغلب. أما الركن الشمالي من دفاعنا، الذي تمركَز في جنوب آراس وأثار قلقهم، فقد قاوم العدو مثل الجبل. أسعدَني

هذا الخبر لأن كتيبة مرتفعات لينوكس القديمة كانت تُحارب هناك.

في أثناء عبورنا لميدان الكونكورد، التقَينا بضابط أركانٍ بريطاني من معارفي، قد استهل رحلة عودته إلى مقَر القيادة العامة، بعدما قضى فترةَ استراحتِه في باريس. كان وجهُه مُتجهمًا أكثر من الضباط في ليزانفاليد.

قال: «الوضع لا يروقُني، صدِّقني. ما يُثير قلقي هو الضباب. لقد تفقّدتُ الجبهة، من آراس إلى واز، منذ عشرة أيام. وجدتُها محكمةَ التحصين بل لا مثيل لها على الإطلاق. كان خطٌ مواقع التمركز الخارجية عبارةً عن سلسلةٍ من الحصون أو الحواجز الدفاعية المزدوّدة بالمدافع الرشاشة، في ترتيبٍ بارعٍ يهدف إلى إنهاك قوات العدو الزاحفة بالنيران الجانبية. لكن الضباب سيُفسد هذه الخطة؛ إذ سيتجاوز العدو موضعَ النيرانِ الجانبيةِ قبل أن نُدرك ذلك ... أعلم أننا حصَلنا على المعلومات الاستخباراتية اللازمة، وزوّدنا ساحة المعركة بالجند في الوقت المناسب، لكن الغاية من الجبهة الخارجية هي صد العدو لأطول فترةٍ مُمكنة، حتى تصير كل الصفوف خلفها في تنسيقٍ مثالي، ولا أرى سوى تلك القطاعاتِ العريضةِ التي خسرناها حتمًا في عملية الاجتياح الأولى ... ليكن في علمك أن محور خطتنا الدفاعية هي الجبهة. إنها في غاية الكفاءة لكن إن خسرناها للعدو ...» ورفع يدَيه تعبيرًا عن يأسه.

سألتُ: «ألدينا إمداداتٌ كافية؟»

هزّ الضابط كتفَيه.

سألتُ: «هل أعدَدنا مواقع تمركُز خلف الجبهة؟»

ردّ بلهجةٍ جافة: «لم أرَ أي موقع» وانطلق ذاهبًا قبل أن أحصُل منه على المزيد من المعلومات.

قال بلنكيرون فيما كنا نسير إلى الفندق: «تبدو مُضطربًا يا ديك.»

قلتُ: «يبدو أنني أشعر بالقلق. أعرف أن ما سأقوله سخيف، لكن شعوري تجاه هذه الحرب الآن أسوأ من أي وقتٍ مضى منذ اندلاعها. انظر حولك في أرجاء هذه المدينة. تتناول الصحف المسألة باستهانة، ويتجوّل السكان في الأنحاء بلا اكتراث كأنْ لا شيء يحدُث. الأدهى من ذلك أن الجنود أنفسهم يشعرون بالاطمئنان. بوسعك أن تنعتَني بالأحمق؛ لأنني متشائم إلى هذا الحد، لكن يُراوِدني شعورٌ قويٌّ أننا على مشارفِ معركةٍ دموية قاتمةٍ لم نشهدها في حياتنا من قبلُ، وأن باريس ستسمع دويّ المدافع الألمانية

عما قريب كما حدث في ١٩١٤.»

قال: «أنتَ تُشبه إرميا الباكي. أنا سعيد لأن الآنسة ماري ستذهب إلى إنجلترا في القريب العاجل. يبدو أنها محقةٌ في شكوكها، وأن مهمتَنا لم تنتهِ بعد. أحسدُك نوعًا ما؛ إذ ينتظرك موقعٌ شاغرٌ في الجبهة.»

قلتُ: «يجب أن تعودَ إلى أرض الوطن، وتُبقيَ المسئولين على اطلاعٍ جيدٍ بالوضع. هذه هي الحلقة الضعيفة في سلسلتنا، كما أنه ينتظرك قدْرٌ كبيرٌ من العمل.»

قال بشرود: «ربما»، فيما ثبّت عينَيه على قمة عمود فاندوم القابع وسط الميدان.

كان القطار في فترة الظهيرة مكتظًا بالضباط الذين استُدعوا من عطلاتهم، وتطلب الأمر استخدام نفوذي أنا وبلنكيرون لحجز مقصورةٍ لمجموعتنا الصغيرة. في اللحظة الأخيرة، فتحتُ باب المقصورة لأسمح بدخول طيار الفيلق الجوي الملكي، آرشي رويلانس، الذي بدا مضطربًا متوترًا.

هتف: «ما إن بدأتُ أشعر بالبهجة والانتعاش والراحة، حتى تلقيتُ برقيةً تأمرني بالعودة سريعًا لوقوع معركةٍ جديدة. إنها حربٌ قاسيةٌ يا سيدي.» مسَح الشاب المسكين جبهته، وابتسم لبنكيرون ابتسامةً عريضة، ونظر إلى بيتر نظرةً فاحصة، ثم وقعَت عيناه على ماري، فشعَر بالخجل من هيئته. وراح يُسوّي شعره، ويُصلح رابطةَ عنقه، ويتصرّف برصانةٍ بالغة.

قدّمتُه إلى بيتر، وسرعان ما نسي وجود ماري. لو أن بيتر امرؤٌ متباهٍ لشعَر بالإطراء من أمارات الاهتمام والإعجاب الواضحة في عينَي الشاب. قال: «أنا في غاية السعادة بعودتك سالمًا يا سيدي. كنتُ آمُل دائمًا أن أحظى بفرصة لقائك. نحن في أمسِّ الحاجة إليك في الجبهة. فقد صار لينش متعجرفًا نوعًا ما.»

بعد ذلك وقعَت عيناه على ساقِ بيتر الذابلة، وأدرك فداحةَ خطئه. تضرّب وجهُه حمرةً وفاض بالاعتذارات. لكن لم تكن هناك حاجةٌ إليها، فقد أبهج بيتر سماعُه يتحدث عن إمكانية عودته للقتال من جديد. وسرعان ما انخرط الاثنان في الحديث عن التفاصيل الفنية، تلك التفاصيل الفنية المروِّعة لمهنة الطيّار. لم أجد فائدةً من الإنصات إلى حديثهما، إذ عجزتُ عن فهم أي شيء، لكن هذا الحديث بعثَ الحيوية في بيتر كأنه تناول كأسًا من النبيذ. زوّده آرشي بوصفٍ دقيقٍ لأنشطة لينش الأخيرة وطرائقه الجديدة. كما وصلَت إليه تلك الشائعة، التي أخبرني بها بيتر في سانت أنطون، عن وجود طائرةٍ ألمانيةٍ جديدة، ذات محركات جبارة، وأجنحة قصيرة متقوّسة

ببراعة، وقدرات فائقة على التحليق، لكن لم تظهر عينةٌ منها بعدُ على الجبهة. تحدّثا عن بالي، وريس ديفيدز، وبيشوب، ومكودين وجميع الأبطال الذين حظُوا بالتكريم والتقدير منذ معركة السوم، وطُرز الطائرات البريطانية الجديدة التي لم يرَ بيتر أغلبها من قبلُ، فوصفها آرشي له.

رأيتُ بالخارج أن الضباب قد غشّى المروج مع حلول الشفَق. فأشرتُ إلى بنلكيرون لينظر إليه.

قلتُ: «ها هو الضباب الذي يدمّرنا. إن طقس مارس يُشبه أكتوبر؛ إذ يغشَى الضبابُ الأرضَ صباحَ مساءَ. أتمنّى أن تحل الأمطار الربيعية المعتادة.»

كان آرشي يتحدث بإسهاب عن الطائرة شارك-جلاداس.

قال: «كنتُ مخلصًا لهذه الطائرة دائمًا، لأنها مُدهشةٌ بطريقتها الخاصة، لكنها فطرَت قلبي. لقد شهد الجنرالُ ألاعيبها الغريبة. أليس كذلك يا سيدي؟ عندما تُصبح الأجواء مُثيرة، يميل المحرك إلى أن يتوقف عن العمل وينال قسطًا من الراحة.»

قلتُ وأنا أستعيد الذكرياتِ الكئيبة: «لا بد من إعدام جميع طائرات هذا الطراز على الملأ.»

علّق: «لن أذهب إلى هذا الحد يا سيدي. فطرازات جلاداس القديمة لديها مزاياها المذهلة. ففي زمانها لم يكن هناك ما يُضاهيها في سرعتها وقدرتها على التسلق، كما أنها تسير بانسيابيةٍ مثل القوارب الشراعية الصغيرة في السباقات. عيبُها الوحيد هو أنها شديدة التعقيد. إنها تُشبه بعض فئات السيارات التي تتمنّى لو كنتَ ميكانيكيًّا عبقريًّا حتى تفهمَها ... لو صنع المسئولون نسخةً أقل تعقيدًا وأكثر أمانًا، فلن يكون لها نظير في هذا المضمار. أنا الرجل الوحيد تقريبًا، الذي عاملَها بصبرٍ وعَرف مزاياها، لكنها كادت تقتلني في كثيرٍ من الأحيان. على أي حال، لو كنت سأحارب خصمًا قويًّا مثل لينش، على الحياة أو الموت، فسأختار جلاداس قطعًا.»

ضحك آرشي ضحكةً مُعتذرة. وقال: «هذا الموضوع محظورٌ عليّ التحدّث فيه مع جماعتنا. فأنا المُناصر الوحيد لهذه الطائرة القديمة، الشبيهة بفرسي، المُفضّلة في رحلات الصيد، التي حملَت لي الكثير من الحُب حتى إنها كانت تُحاوِل عضّ ذراعي دائمًا. لكن أتمنّى لو أعطاها أحدُ كبار الطيارين فرصةً عادلة. فأنا طيّارٌ من الدرجة الثانية على أي حال.»

كنا نسير شمال سانت جاست عندما ارتفع صوتٌ مكتومٌ غريبٌ فوق جلجلة عجلات القطار على القضبان. كان الصوت قادمًا من ناحية الشرق، وبدا مثل هدير عاصفةٍ رعديةٍ فوق الأراضي العشبية أو القرع الرتيب لطبولٍ مكتومة الصوت.

هتف آرشي: «أتسمعون المدافع! هناك قصفٌ كثيفٌ يجري في مكانٍ ما.»

ظَللتُ أسمع أصوات المدافع على فتراتٍ مُتقطّعة في الثلاث السنوات الماضية. فقد شهدتُ التحضيرات الكبيرة قبل بعض المعارك، مثل لوس والسوم وآراس، وصرتُ أعتبر ضجة سلاح المدفعية ظاهرةً طبيعيةً حتميةً مثل المطر وأشعة الشمس. لكن ذلك الدوي كان غريبًا وأصابني بالقُشَعريرة لسببٍ لا أعلمه. ربما لأنه غيرُ متوقع؛ إذ إنني على ثقةٍ تامةٍ أنه لم يُسمع دويٌ المدافع في هذه المنطقة منذ معركة مارن. لا بد أن الضوضاء سافرت عَبر وادي واز، أو ربما تجري، في ضواحي بلدة شوني أو لا فير، معركة ضارية. وهذا يعني أن العدو يشنُّ هجومًا ضاريًا على قطاعٍ عريضٍ من الجبهة؛ إذ تظهر جهودُه الكبيرة في جناحِه الأيسر المتطرف. هذا إذا افترضنا أن الصوت القادم ليس من هجومنا المضاد. لكنني أستبعِد أن يكون كذلك لسببٍ ما.

فتحتُ نافذة المقصورة، وأخرجتُ رأسي إلى ظلام الليل. كان الضباب قد زحف إلى حافة خط السكة الحديد، وأسدل ستارًا رقيقًا على المنازل والأشجار والماشية، فصارت غيرَ واضحةِ المعالم في ضوء القمر. استمرت الضوضاء بلا توقُّف، لكنها لم تكن متقطّعة، بل دويٌّ متصلٌ هادرٌ كنفير البوق. سرعان ما تركنا الصوت خلفنا ونحن نقتربُ من أميان؛ إذ يمتاز وادي السوم بتشكيلٍ عجيبٍ يحجُبُ الأصوات. يُسمّيه القرويون «الأرض الصامتة»، وفي أثناء المرحلة الأولى من معركة السوم، لم يكن الرجل في أميان يسمع قعقعة المدافع المندلعة على بُعد عشرين ميلًا في بلدية ألبرت.

عُدتُ إلى مقعدي، وإذ خيّم الصمت على رفقتي، حتى على آرشي الثرثار. التقت عينا ماري بعينيّ، وقرأتُ فيهما، في الضوء الفاتر لمقصورة الركاب الفرنسية، الإثارة لا الخوف يقينًا. فهي لم تسمع وابلًا من القذائف من قبلُ. كان بلنكيرون مضطربًا، وبيتر غارقًا في أفكاره الخاصة. ازدادت كآبتي لأنني سأضطَر إلى فراق أعز أصدقائي والفتاة التي أحبُّها في غضون فترةٍ قصيرة. لكن هذه الكآبة اختلطَت بترقبٍ غريبٍ يكاد يكون مُمتعًا. فقد ذكّرني صوتُ المدافع بمِهنتي، وكنتُ أتحرك باتجاه موقعه، والرب وحدَه يعلم ما ستئول إليه الأمور. فجأة، بدا ذلك الحُلم السعيد عن كوتسوولدز، والبيت الذي أريد مُشاركتَه مع ماري، بعيدَ المنال. وشعَرتُ مرةً أخرى أنني أقف على حافة الهاوية.

في الجزء الأخير من الرحلة استحضرتُ الماضي كي أُنشّط معلوماتي عن هذه

المنطقة الريفية. ومرةً أخرى رأيتُ في ذهني الرقعةَ المُمتدةَ من بلدية سِير إلى كومبل؛ حيث وقع القتال في صيف ١٩١٧. لم أحضُر التقدُّم الذي أحرزناه في بداية ربيع العام التالي، لكن حاربتُ في كومبل، وحفظتُها عن ظهر قلب من لاجنيكورت إلى سان كونتين. أغلقتُ عينيَّ، وحاولتُ تصوُّر المدينة والطرق المُفضية إلى الجبهة، ورحتُ أخمِّن المواقع التي تعرَّضَت لقصفٍ شديد. لقد أخبروني في باريس أن القوات البريطانية منتشرةٌ حتى نهر واز في الجنوب، إذن لا بد أن القصف الذي سمعناه منذ قليلٍ كان موجهًا إلى جبهتنا. وبعد أن أخذتُ معركتَي باشنديل وكامبريه في الاعتبار، والصعوبات التي لطالما واجهناها في الحصول على المجنّدين، تساءلتُ من أين جئنا بكل هذه القوات للقتال على تلك الجبهة الجديدة. لا بد أن أعدادنا ضئيلة على هذا الامتداد الطويل. لكننا في مواجهةِ وابلٍ مرعبٍ من القذائف! والأدهى من ذلك أننا أمام أعدادٍ هائلةٍ وتكتيكاتٍ جديدةٍ تباهى بها أفري في تلك الليلة!

حينما بلغنا محطة أميان التي تُشبه الكهف المعتم، أحسستُ بنوعٍ جديدٍ من التوتر. لم تُثِره حادثةٌ بعينها، بل شعرتُ به في الأجواء المشحونة؛ إذ كان رصيف المحطة يكتظ بالمدنيين الذين يحمل أغلبهم حقائبَ إضافية. تساءلتُ ما إذا كانت المدينة قد تعرَّضَت للقصف في الليلة السابقة.

قلتُ للآخرين: «لن نفترق الآن. القطار لن يُغادر قبل نصف ساعة. سأذهب وأحاوِل الوصول إلى أخبارٍ جديدة.»

اصطدتُ ضابطَ نقلٍ بالسكك الحديدية من معارفي، بصحبة آرشي، وأجاب أسئلتي بابتهاج.

قال: «نحن نُبلي بلاءً حسنًا يا سيدي. سمعت في الظهيرة، من أحد رجال العمليات، أن القيادة العامة راضية جداً عن الوضع. لقد قتلنا الكثيرَ من الألمان، ولم نخسر إلا بضعة كيلومترات من الجبهة ... هل أنت ذاهبٌ إلى فرقتك؟ حسنًا، ستجدُها حول بلدية بيرون، أو هكذا كانت في الليلة الماضية. لقد عاد شيني ودونثروب من العطلة، وحاولا سرقةَ سيارةٍ للوصول إلى هناك ... أوه، أمرٌ بوقتٍ عصيب. لقد أصيب المدنيون البؤساء بالهلَع ويحاوِلون الفرار. يقول الأغبياء إن الألمان سيبلغون أميان في غضون أسبوع. ماذا كانت العبارة الشهيرة؟ «هذا على افتراض أن المدنيين سيصمُدون كل تلك الفترة». أخشى أنني مُضطرٌّ للرحيل يا سيدي.»

أرسلتُ آرشي إلى جماعتنا بهذه المعلوماتِ القليلة، وأوشكتُ أن أركض إلى منزل أحد الضباط المسئولين عن الشئون الإعلامية، على اعتقاد أنه على اطلاعٍ بما يجري،

عندما التقيتُ بليدلو عند مدخل المحطة. كان ليدلو قائدَ لواء أركان حرب في الوحدة التي تضُم لوائي السابق، وهو الآن أركان الحرب في الجيش. وجدتُه يتجه إلى سيارته بخطواتٍ عريضة، فأمسكتُ بذراعه، فاستدار إليّ بوجهٍ قلقٍ.

قال: «يا إلهي، هاناي! من أين أتيت؟ أتريد معرفة الأخبار؟» وخفَض صوتَه وسحبَني إلى زاويةٍ هادئة. وأضاف: «الأخبار مريعة.»

علّقتُ: «أخبروني أننا صامدون.»

قال: «غير صحيح! لقد اخترق الألمان جزءَ خطوطِ الدفاعِ على قطاعٍ عريضٍ من الجبهة. هزمونا اليوم في مقاطعتَي ميسمي وإسيني. أجل، هزمونا على الجبهة. وتتوالى كتائبهم واحدةً تلو الأخرى مثل ضربات المطرقة. ماذا كنتَ تتوقّع غير هذا؟» وقبض على ذراعي بشدة. وهتف: «كيف تستطيع إحدى عشرة فرقةً فحسب الحفاظ على جبهة طولها أربعون ميلًا؟ وكيف يُحارب واحدٌ في مقابل أربعة؟ هذه ليست حربًا بل جنونٌ محض.»

صِرتُ أعلم الأسوأ، ولم أتفاجأ مما سمعتُه، لأنني توقّعتُ ما حدث. كان ليدلو في غاية القلق؛ إذ كان وجهه شاحبًا وعيناه مُتقدتَين مثل رجلٍ محموم.

ضحك بمرارة: إمدادات! لدينا ثلاثُ فرقِ مشاة وفرقتا خيالة. وجميعُها في عمق الصراع منذ وقتٍ طويل. سيأتي الفرنسيون لنجدتنا من ناحية اليمين لكن لا تزال أمامهم رحلةٌ طويلة. ولهذا قدمتُ إلى هُنا. كما سنحصل على الدعم من هورني وبلومي. لكن هذا سيستغرق أيامًا، وفي الوقت نفسه بدأنا نتراجَع مثلما فعلنا في مدينة مِنس. وفي الوقت الحالي ... أوه، أجل، ستتراجع الجبهة بأكملها. هناك قطاعاتٌ من الجبهة لا تتعرّض للضرب من العدو، لكنها مضطَرّة للتراجُع، وإلا فستقع في قبضة العدو. ليتني أعرف إلى أين وصلَت فرق الميمنة. كل ما أعرفُه أنهم سيبلغون في كومبيين الآن. لقد عبَر الألمان القناة هذا الصباح، ويغلبُ على الظن أنهم عَبروا نهر السوم في اللحظة الراهنة.

عندما بلغ هذه النقطة صحتُ: «أتريد إخباري أننا سنخسر بيرون؟»

هتف: «بيرون؟ سنكون محظوظين إن لم نخسر أميان أيضًا! ... وفوق كل ذلك، أُصِبتُ بحُمى لعينة. سأعاني من الهذيان في غضونِ ساعة.»

كان يتعجل للرحيل، لكنني أوقفتُه.

سألتُ: «ماذا عن فرقتي القديمة؟»

أجاب: «لقد أبلت بلاءً حسنًا لكنها تكبّدَت خسائرَ فادحة. في الحقيقة هذا ما حدث لكل الفرق. ومن العجيب أن بعضَ رجالِ فرقتك لا يزالون صامدين، وستكونُ معجزةً كبيرةً إن وجدَت الفرقة جبهةً تقاتل عليها. سُحقَت ساق ويستووتر. وقد نُقِل إلى هُنا هذا المساء، وستجده في المشفى. وقُتل فريسر ووقع ليفروي في الأسر — هذه هي آخر المستجدات على حسب علمي. لا أعلم مَن يتولى زمام أمور الألوية في اللحظة الحالية، لكن ماسترتون يُتابع شئون الفرقة ... يُستحسَن أن تتعجّل في الذهاب إلى الجبهة وتتولّى زمام السلطة. التقِ بقائد الجيش. سيصل إلى أميان في صباح الغد من أجل الاجتماعات.»

استرخى ليدلو في سيارته في إنهاك، واختفى في ظلام الليل، فيما أسرعتُ الخطى إلى القطار.

كان الآخرون قد نزلوا إلى رصيف المحطة، واحتشَدوا حول آرشي، الذي كان يُلقي خطابًا متفائلًا يفيض بالترّهات. دفعتُهم للركوب في المقصورة وأغلقتُ الباب.

قلتُ: «الوضع في غاية السوء. اخترق الألمانُ عدةَ مواضعَ في الجبهة وقد تقهقرنا إلى المنطقة الشمالية من نهر السوم. أخشى أن الوضع لن يتوقف عند هذا الحد. سأتجه إلى الجبهة فور أن أتلقى الأوامر. ستأتي معي يا ويك لأننا بحاجة إلى كل رجل. وأنتَ يا بلنكيرون ستتأكد من وصول ماري وبيتر إلى إنجلترا بأمان. الآن هو الوقت المناسب؛ إذ قد لا يكون من السهل مغادرة أميان غدًا.»

رأيتُ القلق على وجوه رفاقي رغم الإضاءةِ السيئةِ في المقصورة. ودّع بعضُنا بعضًا بتحفُّظ على عادة البريطانيين. أتذكّر أن العجوز بيتر أمسك يدي كأنه لا يرغب في إفلاتها، وأن الشحوب علا وجه ماري. لو انتظرت لحظةً أخرى لانتحبت؛ إذ كانت شفتا ماري ترتعشان، وعينا بيتر حزينتَين مثل ذكَر أيلٍ مجروح. قلتُ بصوتٍ مبحوح: «ليرعَكُم الرب»، وغادرتُ وبيتر يقول بصوتٍ متهدج: «ليحفَظك الرب يا صديقي العزيز.»

قضيتُ ساعاتٍ مضنية في البحث عن ويستووتر. لم أجده في محطة الإخلاء الكبيرة، لكن عثَرتُ عليه في نهاية المطاف في المشفى الجديد الذي أُسس حديثًا في دير الأورسلينيات. كان رجلًا مميزًا — جافًا وعمليًا في الظروف العادية — ولدَيه من الصرامة ما صرَف قلوبَ الآخرين عنه. وجدتُه يستلقي على فِراش المشفى في صلابةٍ

وهدوء، بعينَين صارمتَين حزينتَين، كعينَي كلبٍ سقيم.

قال في إجابة على سؤالي: «ليست حالتي خطيرة. فقد سقطَت قذيفةٌ بجواري وتضرَّرَت قدمي بشدة. يقول الأطباء إنه لا بد من بترها ... أشعُر بالراحة لقدومك يا هاناي. بالطبع ستتسلم القيادة من ماسترتون. إنه رجلٌ صالحٌ لكنه غير مؤهَّل لهذه الوظيفة. فريزر المسكين — سمعتَ ما حدث له. لقد قُتل في بداية المعركة. أجل، بسبب قذيفة. وليفروي. لو كان حيًّا وغيرَ مصاب بجروحٍ بالغة، فقد حظي الألمان بسجينٍ مُثيرٍ للشغب.»

لم يكن به قدرةٌ على الكلام من الإعياء لكنه لم يشأ أن يتركَني أرحل.

قال: «أبلت الفرقة بلاءً حسنًا. ولا تصدِّق مَن يقول إن الجنود لم يحاربوا مثل الأبطال. فقد أوقف خط دفاعنا زحفَ الألمان لمدة ست ساعات، ولم يعُد منه سوى حَفنةٍ من الرجال. ولو لم يُحاصرنا العدو من كلا الجانبَين لواصلنا الصمود. فقد اخترق العدو ميْسرة كراب، ونَزل وادي فيري، ثم اجتاحت موجةٌ كبيرةٌ غابة شروبشاير ... دافعنا عن موقعنا شبراً شبراً، ولم نتراجع حتى رأينا مخزن بليسيز مشتعلًا خلفنا. آنذاك اضطُررنا للتقهقر ... ولم يتبقَّ لدينا الكثير من قادة الكتائب. فقد قُتل واتسون وإنديكوت وكروشاي ...» وتلعثَم وهو يسرد قائمة الشجعان الذين قضَوا نحبهم.

قال: «عُد بأقصى سرعة يا هاناي. هم بحاجةٍ إليك. لا يروقُني ماسترتون. إنه صغيرٌ للغاية على هذه الوظيفة.» بعد ذلك أخرجَتْني مُمرضة من الغرفة، وتركتُه يتحدث بصوتٍ متهدجٍ واهنٍ لا أعهده منه.

في أسفل الدرَج رأيت ماري واقفة.

قالت: «رأيتُك في أثناء دخولك لذا انتظرتُك.»

هتفتُ: «عزيزتي، من المفترض أن تكوني في بولون الآن. أي جنونٍ قادكِ إلى هُنا؟»

قالت: «هم يعرفونني؛ لذا وظفوني بالمشفى. لا يمكنك أن تنتظر مني البقاء بالوطن دون تقديم يد العون. أنتَ قلتَ بنفسك إنهم بحاجة للجميع، كما أنني أعمل في المخابرات مثلك تمامًا. لا تغضب يا ديك، أرجوك.»

لم أكن غاضباً ولا حتى قلقًا بإفراط. الأمر برمته بدا لي مقدراً منذ بدء الخليقة. فلم تنته المهمة التي قد انخرطنا بها، ومن الطبيعي أن نستكمل ما بدأناه معًا. ثمّة قناعةٌ استقرّت داخلي مع ذلك الشعور، وهي أننا سننتصر في النهاية. سنصل إلى نهاية حجّنا

بطريقةٍ ما أو في وقتٍ ما. لكن تذكرتُ نذيرَ ماري بشأن التضحية المطلوبة. قالت إننا سنُضحّي بأفضلِ شخصٍ بيننا. وهذا الوصف يستبعِدني من المعادلة، لكن ماذا عن ماري؟

احتضنتُها بين ذراعي. قلتُ: «إلى اللقاء يا أعز ما لديّ. لا تقلقي بشأني، فلا أقوم بأعمالٍ خطيرة، ويمكنني حمايةُ نفسي. لكن انتبهِي لنفسكِ لأنك صرتِ دُنياي.»

قبّلَتْني ماري بجديةٍ مثل طفلةٍ حكيمة.

قالت: «لا أخشى عليك. ستتصدّى للأعداء، وأعلم — أعلم يقينًا أنك ستنتصر. تذكّر أن امرأتك يمتلئ قلبُها بالفخر حتى لم يعُد به متّسَع للخوف.»

خرجتُ من باب الدير وأنا أشعُر مرةً أخرى أنني قد حصَلتُ على الأوامر.

لم أندهِش حين لقيتُ بلينكيرون في رواقِ الطابق العلوي من فندق «هوتيل دو فرانس» بينما كنتُ أبحث عن غرفتي.

قال: «لا يمكنك إبعادي عن هذه المهمة يا ديك؛ لذا لا داعي لأن تبدأ في الجدال معي. هذه فرصةٌ ذهبية بالنسبة لجون إس. بلنكيرون. كانت معركتُنا في أرضروم صغيرة، لكن تلك هي المعركة الحاسمة. حتمًا سأجد طريقةً للمساعدة.»

لم يُساوِرني الشك في كلامه، وسُرِرتُ لأنه فضّل البقاء على الرحيل. لكن أشفقتُ على بيتر أن يعود إلى إنجلترا بمفرده مثل حطامٍ جَرفَه الفيضان.

قال بلنكيرون: «لا تقلق. بيتر ليس عائدًا إلى إنجلترا. ما أعرفه هو أنه خرج من هذه البلدة من الباب الخلفي الشرقي. فقد تحدّث مع السيد آرشيبالد رويلانس، وسرعان ما ظهر سادةٌ محترمون من الفيلق الجوي الملكي، ونتَج عن ذلك أن رافق رويلانس بيتر، ورحلا معًا دون توديعنا. أعتقدُ أنه ذهب ليتجاذب أطراف الحديث مع أصدقائه القدامى في محطة ميناء جوية. وربما خطرَت له فكرةُ العودة إلى إنجلترا بالطائرة ليُرفرِف بأجنحته للمرة الأخيرة قبل أن يطويَها للأبد. على أي حالٍ بدا بيتر في غاية السعادة. آخر ما رأيتُه كان يدخِّن غَليونه مع مجموعة من الشباب في عربة الفيلق الجوي قاصدًا ألمانيا مباشرة.»

الفصل الحادي والعشرون

كيف عاد المنفيُّ إلى أبناء وطنه

في صباح اليوم التالي وجدتُ قائد الجيش في طريقه إلى مدينة دولونس.

قال: «أتريد قيادة الفرقة من جديد؟ لا مانع بالتأكيد. لكني أخشى أنه لم يتبقّ الكثير من الرجال. سآمُر كار بالاتصال بمقَر القيادة العامة في أقربِ وقتٍ ممكن. يجب أن تعتني بما تبقّى من الرجال؛ إذ لا يمكنهم أن يتركوا مواقعهم الآن — لا بد أن يصمدوا لبضعة أيام على الأقل. سامحني يا هاناي؛ فهناك أجزاءٌ من الجبهة لا يدافع عنها سوى ضابطٍ ومجندٍ فحسب. لا بد أن تصمُد حتى تصل القوات الفرنسية وتتولى زمام الأمور. فبيننا وبين الهزيمة شعرة.»

سألتُ: «ألدينا مواقعُ ننسحب إليها؟»

أجاب: «نبذل غاية وسعنا، لكن ليس لدينا ما يكفي من الرجال لإعداد هذه المواقع.» وأخرج خريطة وفتحها. ثم تابع: «هنا نحفر خطًّا دفاعيًا من هنا إلى هنا. لو استطعنا الصمود لبضعة أيام، فسنُعِد مواقعَ دفاعيةً على النهر. لكن ربما لا يُسعِفنا الوقت.»

آنذاك حدثتُه عن بلنكيرون، ولا بد أنه سمعَ عنه من قبلُ. قلتُ: «كان أحد كبار المهندسين في الولايات المتحدة، ولديه خبرةٌ دقيقةٌ في أمور الجغرافيا. سيُفيدنا بشكل أو آخر، إن أذنتَ له بالمساعدة في هذه المهمة.»

قال: «ذلك هو الرجل المنشود،» ثم دوّن أمرًا على ورقة. وقال لي: «أعطِ هذه الورقة لجاكس وسوف يتولى تكليفَه بمهمةٍ مؤقتة. يمكن للرجل أن يعثر على بذلةٍ عسكرية في مكانٍ ما في أميان.»

بعد ذلك وصلتُ إلى المعسكَر المتفقَ عليه، ووجدتُ أن أفري قد وصل في الوقت المحدد.

أعلن هاميلتون: «لم يتسبَّب السجين في أي مشاكل يا سيدي لكنه حادٌّ المزاج بعض الشيء. يقولون إن الألمان يُحرِزون تقدمًا في ساحة المعركة، وكنتُ أخبره أن عليه

الافتخار بأبناء جلدته. لكنه لم يشعُر بالسعادة كثيرًا.»

لقد أحدثَت ثلاثةُ أيام تغيراً كبيراً في أفري. صار وجهه، الذي كان هادئًا وواثقًا فيما مضى، يعتريه الذعر، مثل الطريدة المحاصرة. لقد استحوذ عليه خيالُه ويمكنني أن أتصوّر ما يُذيقه إياه من عذاب. فطالما كان على القمة يتولى إدارة الآلة، أما الآن فقد صار مجرّد ترسٍ بها. لم يحدث من قبلُ أن تجرّد من قوته، أما الآن فهو يقف عاجزاً خائر القوى. لقد انتقل إلى عالمٍ قاسٍ غيرِ مألوفٍ بالنسبة إليه، وقع في قبضة شيء يخشاه ولا يفهمه، وتحت إمرة رجالٍ لن تنفع معهم مهارتُه في الإقناع. كان حاله أشبه بمديرٍ مُتعالٍ مُتنمر وجد نفسَه فجأةً مدفوعًا للكدح وسط مجموعة من العمال البسطاء، أو الأسوأ من ذلك؛ فقد اعتراه خوفٌ شديدٌ مما هو قادم.

توسّل إليّ.

قال: «هل يعذّب الإنجليز سجناءهم؟ لقد هزمتَني. أعترف لك بذلك وأطلب منك الرحمة. سأجثو على ركبتَي إن كان هذا ما تريده. فأنا لا أخشى الموت ... بالطريقة التي أختارها.»

قلتُ: «قلةٌ من الناس يهابون الموت بالطريقة التي يختارونها.»

سأل: «لِمَ تَحُط من كرامتي؟ أنا رجلٌ نبيل.»

قلتُ: «ليس حسب مفهومنا عن الرجال النبلاء.»

فغَر فاه. سأل بصوتٍ مرتعشٍ: «ماذا ستفعل بي؟»

قلتُ: «كنتَ جنديًا في الماضي. ستشهد بعض القتال من صفوف الجُند. لن نُمارس معك أي وحشية، بل سنُمِدك بالسلاح إن أردتَ الدفاع عن نفسك، وستحظى بفرصة النجاة مثل بقية الرجال حولك. ربما تناهى إلى أسماعك أن أبناء وطنك يُبلون بلاءً حسنًا. ويُمكن أن ينتصروا في المعركة. ماذا قلتَ في السابق؟ قلتَ إن أميان ستسقط في غضون يومَين، وأبفيل في ثلاثة أيام. يبدو أن ما توقعتَه قد تأخر عن الموعد الذي حدّدتَه على الرغم من أنه قيد التنفيذ. أخبرتَني أنك المسئول الرئيسي عما يحدث، وسنمنحك الفرصة لأن تشهدَ ثمار مكائدك، بل قد تشارك فيه لكن مع الطرف الآخر من الصراع. ألا تجد ذلك عادلًا؟»

تأوّه وأشاح بوجهه. لم تأخذني به الشفقة مثلما لم أفعل عندما علَقَت الأفعى الأفريقية السوداء التي قتلَت صديقي في شجرةٍ متشقِّقة الأغصان. ومن المُستغرَب أن

ويك شاركَني هذا الشعور. لو أننا أطلقنا النار على أفري مباشرة في سانت أنطون، لنعتنا بالإجرام حتماً حينها. أما الآن فهو يشاطرنا الرأي تماماً. لقد دفَعه نفورُه الشديد من الحرب للاحتفاء بقرارنا بإجبار أحد المُخطِّطين الرئيسين لها على شهود أهوالها بنفسه.

قال: «لقد حاول استمالتي هذا الصباح. زعم أن مرادنا واحدٌ وردّد ما كنتُ أقوله العام الماضي. شعرتُ بالخجل نوعًا ما من الخطابات التي ألقيتُها الفترة الماضية عندما سمعتُ ذلك النذل يُحاكيها ... على ذكر ذلك الأمر، كيف ستستخدمني يا هاناي؟»

أجبتُ: «سأضمك إلى كتيبتي. أنتَ قويٌّ البنية ولا يمكنني الاستغناءُ عنك.»

قال: «تذكّر أنني لن أقاتل.»

قلتُ: «لن أطلب منكَ القتال. ما أسعى إليه هو أن أمنع تقدُّم العدو. تعلم كيف يتصرّف الألمان في الدولة التي يحتلونها، بالإضافة إلى أنّ ماري في مدينة أميان.»

سكتَ ويك بسماعه لهذا الخبر.

أنشأ يقول: «لكن ...»

قلتُ: «لا يُوجد ما يستدعي اعتراضك. أنا لا أطلب منك التخلي عن أحد مبادئك المباركة. لكن أريد رجلًا يُبلغ عني الأوامر؛ لأنه لم تعُد لدينا جبهةٌ متصلة، بل نقاطُ تمركُزٍ متناثرة. أحتاج إلى رجلٍ بارع وشجاع من أجل هذه المهمة وأعلم أنك لا تخاف شيئًا.»

قال: «أجل. لا أخاف، أو بالأحرى لا أخاف كثيراً. حسنًا، موافق!»

أرسلتُ بلنكيرون إلى مركز القيادة العامة بالسيارة، وبعدما انتصف النهار بدأتُ في رحلتي. كنتُ أحفظ كل شبرٍ من هذه المدينة، مثل التلة المرتفعة الشرقية، والطريق الروماني السريع المستقيم كالسهم المؤدي إلى سان كونتين، وبحيرات السوم المُستنقعية، والشريط العريض بين دومبيير وبيرون المتضرر بسبب الحرب. ذهبتُ إلى أميان في يناير الماضي من هذا الطريق؛ إذ زرتُ الجبهة قبل أن أتوجّه إلى باريس، وكان المكان حينئذٍ هادئًا إذ انشغل الفلاحون في حراثة الحقول، والبنّاءون في بناء المباني الجديدة على ساحة المعركة القديمة، والنجّارون في إصلاح أسطُح الأكواخ، كما خلا الطريق تقريباً من عربات النقل التي تُذكِّر المرء بالحرب. أما الآن فقد كان الطريق الرئيسي مُكتظًا — مثلما كان طريق ألبرت عندما اندلعَت معركة السوم لأول

مرة — بالقوات الذاهبة والعائدة، وقد بدَت على تلك العائدة علاماتُ الإنهاك الشديد، وامتلأ بسيارات الإسعاف وعربات الذخيرة المُتدفقة بلا توقُّف في اتجاهَين مختلفَين؛ وسيارات هيئة الأركان التي راحت تشُق طريقها وسط الجموع البشرية؛ هذا بالإضافة إلى صفوف المدافع التي تجرُّها الخيل وما تبقى من الخيَّالة والقليل من الجنود الفرنسيين هُنا وهناك. لم تكن هذه المشاهد جديدةً عليَّ باستثناء مشهدٍ واحد. مشهد العربات الصغيرة التي تجرُّها الخيل وهي تحمل نساءً حزينات وأطفالًا حائرة وأكوامًا من الأثاث، وتزحف ناحية الغرب أو تقف عند أبواب القرية. كما كان هناك رجال طاعنون في السن وفتيان يرتدون أفضل ثيابهم كأنهم ذاهبون إلى الكنيسة. لم أرَ مثل هذا المشهد؛ لأنني لم أشهد تقهقُر الجيش البريطاني من قبلُ. لقد انهار السد الحائل دون فيضان الماء، والآن يُحاول القاطنون في الوادي الفِرار بمُمتلكاتهم الضئيلة. وفوق الخيل والجموع البشرية، والعربات التي تجرُّها الأحصنة وعربات اليد، والطريق والأرض المحروثة، قبَع غبارُ مارس الأبيض، وأطلت السماء الزرقاء لشهر يونيو، وانهمكَت الطيور الصغيرة بالزقزقة في الشجيرات، وبدأَت أزهار البنفسج تتفتّح في زوايا الحدائق المهجورة.

فور أن بلغنا قمة تلٍّ سمعنا ضجّة المدافع بوضوح. هذا القصف لم أختبره من قبلُ أيضًا؛ إذ لم يكن عاديًا. كان قصفًا من نوعٍ خاص، قصفًا متقطعًا عشوائيًا غيرَ منتظمٍ، لم أسمع مثله من قبلُ. كان يدُل على نشوب قتالٍ مفتوح ومعركةٍ نشِطة.

في بيرون — التي هجرها سكانها مرةً أخرى بعدما عادوا إليها حديثًا — بدا أن الحرب على الأبواب. هناك علمتُ بأحوال الفرقة التي أقودها. كانت موغلةً في الجنوب ناحية سان كريست. شقَقنا طريقَنا عَبْر الطرق غير المُمهدة باتجاه موقع مقَرها حسب آخر أنباءٍ وردتنا، فيما علا دويٌّ المدافع أكثر فأكثر. لكن تبيّن أن هذا المقَر تابعٌ لفرقةٍ أخرى كانت تستعدٌ لعبور النهر. بعد ذلك حلّ الظلام، وفيما حلّقَت الطائراتُ غربًا باتجاه شمس المغيب، احمرّ الأفق في الشرق، حيث بهتَ وميضُ المدافع المتواصل أمام الوهج الباهر لمخازن الزخيرة المشتعلة. استوقفَتني رؤيةُ خوذةٍ تحمل شارة فوج البنادق الاسكتلندي، وتبيّن أنها لجنديٍّ من فرقتي. وفي غضون نصف ساعة، كنت أتسلّم القيادة من ماسترتون الذي تنفّس الصُّعداء، وسط أنقاضِ ما كان مصنعًا لسُكّر البنجر فيما مضى.

اندهشتُ برؤية ليفروي هناك. لم تحتجزه القوات الألمانية إلا لمدة ثماني ساعاتٍ فقط. في أثنائها انهمك ليفروي في متابعةِ طريقةِ تعامُل العدو مع الهجمات التي

يتعرض لها حتى إنه نسي وضعه المأسوي. ووصفَ بإعجابٍ فاحشٍ حركة الإمدادات والقوات الاحتياطية المستمرة وما اتصفَت به من هدوءٍ وانسيابيةٍ مطلقة. بعد ذلك استوعب أنه مُحتجزٌ دون أن يكون مصابًا فجُنّ جنونه. ولأنه ملاكمٌ بارزٌ في فئة الوزن الثقيل، دحرج حارسَيه إلى خندق، وتفادى الطلقات التي أُطلِقَت عليه على إثر ذلك، قبل أن يحتمي بجانبِ مخزنِ ذخيرةٍ مشتعل؛ حيث تردّد مطاردوه في اتباعه. ثم قضى ساعةً عصيبةً يحاول اجتياز خطِّ دفاعٍ أمامي ظنّ أنه تابع للقوات الألمانية. لكنه عندما تسمّعَ تبادُلًا للسباب بلكنة أهل مدينة داندي الاسكتلندية أدرك أنه في موقعٍ تابعٍ لقواتنا ... شعرتُ بالراحة لعودة ليفروي لأنه شجاعٌ مِقدام وواسع الحيلة. لكن تبيّن أن الفرقة التي أقودُها موجودةٌ على الورق فحسب. فقد استحالت الفرقة إلى لواء من ناحية العُدة والعتاد، واستحالت ألويتُها إلى كتائب وكتائبها إلى سرايا.

ليس هذا هو المقام المناسب لسرد أحداث الأسبوع التالي. فلا أستطيع سطرها، وإن شئت، لأنني لا أعلم ما وقع تحديداً. كانت هناك خطة، ستجدها في كتب التاريخ، لكن بالنسبة إليّ كان الأمر فوضى مُطلقة. كانت الأوامر تأتينا، لكن قبل وصولها بفترةٍ طويلة، تتغيّر الأوضاع فيستحيل عليّ تنفيذها. وفي كثيرٍ من الأحيان كان التواصلُ ينقطع بيني وبين الفرق في كلا الجانبَين. وكانت المعلوماتُ الاستخباراتيةُ تصلِنا بصورةٍ غيرِ منتظمة، وفي أغلب الأوقات كنا نتخبّط لعدم توافرها. سمعتُ أننا تحت قيادة الفرنسيين، في البداية قيل إن فوش هو من يقودنا، ثم قيل إنه فايول الذي قابلتُه في باريس. لكن بدا أن القيادة العليا بعيدةٌ عن ساحة المعركة بملايين الأميال، وليس أمامنا خيارٌ آخر سوى استخدام ذكائنا. كانت المُعضلة التي تُواجهني هي تأخير تراجُعنا قَدْر الإمكان، وفي الوقت نفسه عدم التأخُّر كثيراً؛ إذ كان الألمان يرسِلون فرقًا جديدةً كل صباح مما جعل الانسحاب حتميًا. كانت حربًا بعيدةً كل البعد عن معارك الخنادق القديمة التي خضتُها، ولأنني لا عهد لي بهذا النوع الجديد من الحرب، اضطُررتُ إلى ارتجالِ قواعدَ جديدة. حين أسترجعُ أحداثها، أشعر أن بقاء أيٍّ منّا على قيد الحياة لهو أعجوبة. كانت رحمة الرب وصمود الجنود البريطانيين السبب الوحيد وراء خداع الألمان ومنعهم من التدفق عَبر الثغرة والوصول إلى بلدة أبفيل ومنها إلى البحر. كنا كستارةٍ من البعوض تجمّع على مدخل بابٍ للحيلولة دون اندفاعِ ثورٍ هائج.

كان قائد الجيش مُحقًا؛ كانت تفصلنا عن الهزيمة شعرة. ولا بد أننا كنّا نشكّل أضعفَ جزءٍ في الجبهة بأكملها؛ إذ كنا نحمي مساحةً منها لا تقل بحالٍ من الأحوال عن ميلَين، وأقدِّر أنها كانت تقترب من خمسة أميالٍ في كثير من الأحيان، دون إمداداتٍ باستثناء البقية المتبقية من سلاح الخيالة التي ركضَت في جميعِ أنحاءِ ساحةِ المعركةِ

دون أوامرَ واضحة. ومن رحمة الربّ بِنا أن ارتكب الألمان خطأً فادحًا. ربما لم يكونوا على علمٍ بوضعنا الفعلي؛ إذ أدّى الطيارون البريطانيون أداءً بارعًا، ولم يُمكّنوا ولو طائرةً ألمانيةً واحدةً من التحليق فوقنا في النهار فكان الألمان يستمتعون بقصفنا في أثناء الليل. ولو كانوا كشفوا خدعتَنا لانتهى أمرنا، لكنهم كرّسوا قوّتَهم على شمالنا وجنوبنا. ففي الشمال ضغطوا بقوة على جيشنا الثالث، لكن دكّته قوات الحرس في شمال بلدة بابوم، فلم يستطع التقدُّم إلى آراس. وفي الجنوب تقدّموا ناحية خط السكة الحديدي في باريس، وانتقلوا منه إلى وادي واز، لكنهم صادفوا وصول قوات الجنرال بيتان الاحتياطية، وحاربهم الفرنسيون ببسالة.

لا أقصد أن الألمان لم يُحاربوا بضراوة في منتصف الجبهة حيث تمركزنا، لكنهم صرَفوا أفضل قواتهم إلى الشمال والجنوب، وبعد أن وصلنا إلى غرب منعطف نهر السوم كانت قواتُهم قد سبقَت مدافعهم الثقيلة فأصبحَت خارج نطاق نفوذها. ومع ذلك لم يكن الوضع سهلًا البتة؛ إذ كانت قواتنا على جانبَي الجيش تنسحب بصفةٍ مستمرة، واضطُرِرنا إلى مسايرة تحركاتها غير الأكيدة. على أي حال، كنا في الطريق الذي يُفضي إلى أميان مباشرة، وكانت مهمّتنا أن نبطئ انسحابنا حتى نعطيَ الفرصةَ لهيج وبيتان لحشد الإمدادات. ضنَنْتُ بكل ياردةٍ من الأرض؛ إذ كانت كل ياردةٍ وكل دقيقةٍ عزيزةً غالية. فنحن وحدَنا مَن وقفْنا بين العدو والمدينة التي تُوجد فيها ماري.

لو سألتَني عن خططنا فلن أستطيع الجواب. كنتُ أبتكرُ خطةً جديدة كل ساعة. كانت تأتيني تعليماتٌ من الفيلق، لكن الأوضاع كانت تتغيّر قبل وصولها كما ذكرتُ آنفًا، وكنتُ أضطَر إلى ارتجال أغلب تحركاتي بنفسي. كانت لديّ مهمةٌ واضحة، وتحتّم عليّ استخدام كل الوسائل الممكنة لتنفيذها. لم أنم سوى في النادر، ولم أتناول الطعام سوى القليل، وتنقّلتُ من مكانٍ لآخر ليلَ نهارَ، لكن لم أشعُر بالقوة مثلما شعرتُ في ذلك الوقت. لم أشعُر بالتعب على الإطلاق، والغريب أني شعرتُ بالسعادة. لو كرّس المرء كل جهده من أجل هدفٍ واحد، فلن يكون لديه متّسع من الوقت للقلق ... أتذكّر أننا كنا رحماءَ فيما بيننا، ننتقي من الكلام أعذبه في تلك الفترة. وصار ليفروي، الذي اشتُهر بحدة لسانه، يهدل مثل الحمام. عانت القواتُ من افتقارها للموارد لكنها كانت ثابتةً كالصخر. فقد كنا نُقاتِل للحيلولة دون نهاية العالم، وهذا من شأنه أن يدفع المرء للتجلّد ...

قدّمتُ الأداءَ نفسَه يومًا تلوَ الآخر. حافظتُ على تماسُك الجبهة الضعيفة بخطّ دفاعٍ أماميّ أخّر كلّ هجومٍ جديدٍ يشنّه العدو حتى يتسنّى لي أن أُقدِّر حجمه. وكان لديّ

سرايا خاصة وزّعتُها على مواقعَ معيّنة لشن الهجمات المضادة، واستخدمتُها متى احتجتُ للمُماطَلة بينما تنسحب بقية الفرقة. أعتقد أننا حاربنا ما يزيد عن اثنَتَي عشرةَ معركةً صغيرةَ المدى. كنا نخسر الرجال طيلة الوقت، لكن العدو لم يحقّق تقدمًا كبيرًا، وإن اقترب من ذلك في كل مرة. أسترجع الأحداث فتبدو لي تلك المعاركُ سلسلةً من المعجزات. في كثيرٍ من الأحيان كنتُ أجد نفسي عند طرَف قرية بينما الألمان على الطرف المقابل منها. تنقّلَت وحداتُنا المدفعية بصفةٍ مستمرة، وأدّت المدفعية أداءً تَضيقُ العبارةُ عن وصفه. توجّهنا للشرقِ تارة، وللشمالِ تارةً أخرى، وإلى الجنوب في لحظةٍ حاسمة؛ إذ ترنّحَت جبهتُنا وتمايلَت مثلَ الراية في قمة الصارية ... حمدًا للرب أن العدو بدأ في الابتعاد عن مُحرّكه الأساسي، وعانت قواتُه العادية من الإنهاك وقلة المهارة. في اللحظة التي كانت تتقدّم فيها كتائبُه المدفعيةُ حبستُ أنفاسي ... فقد امتلك كميةً كبيرةً من المدافع الرشّاشة واستخدَمها بمهارة. في الحقيقة أرفع القبعة للألمان لِما قدّموه من أداء. لقد فعلوا ما حاولنا أن نفعلَه في السوم وأَن وآراس وإيبر ونجحوا في ذلك بصورةٍ أو أخرى. والسبب في ذلك هو عزمُهم الأكيد على النصر.

أظهر الجنود، كما قلتُ سابقًا، ثباتًا وجلَدًا منقطعَي النظير في أقسى اختبارٍ لقدراتهم على التحمّل. كانت الفرقة التي أقودها تحوي جميع الأصناف، مثل عناصر الجيش القديم وعناصر الجيش الجديد والقوات الإقليمية، كانوا جميعًا لا يُخيّرون عن بعضهم لتساويهم في البراعة. حارب الجنودُ مثل الطرواديين، ووجدوا بعض الكوميديا في معاناتهم، رغم القذارة والإنهاك والجوع. ولو أن ذلك يدُل على شيء فهو أن الطبيعة البشرية تتّسِم بالعقلانية في جوهرها. رجلٌ واحدٌ بيننا كاد أن يفقد عقله ...

رأيتُ أفري من حينٍ لآخر وسط الأحداث الصاخبة لتلك الأيام. كنتُ أضطَر للتنقّل كثيرًا طوال الوقت، فكنت أزورُ في كثيرٍ من الأحيان ما تبقّى من فوج البنادق الاسكتلندي الذي جُنّد فيه أذكى عقلٍ في أوروبا. لم يقف هذا الرجلُ أو حارساه في خطّ دفاعٍ أمامي ولا شاركوا في أي هجومٍ مضاد. بل كانوا في ذلك الجزء من الجيش الذي اقتصرَت وظيفته على الانسحاب بحذَر. كان ذلك في غاية السهولة بالنسبة لهاميلتون الذي شارك في الحرب منذ معركة مونس، أما آيموس، بعد أن استغرق يومًا في الاعتياد على الأمر، فقد استغرق في فلسفته الكئيبة وبدأ يستمتع بالأمر إلى حدٍّ ما. كان من الصعب جدًا مباغتة آيموس. لكن بالنسبة للرجل الذي كان بصُحبتهما، ولم يتركا جانبه أبدًا، فقد اختلفَت المسألة.

قال هاميلتون: «ظننا في البداية أنه فقَد عقلَه. فكلما اقتربَت منه قذيفة، قفَز مرتاعًا

مثل المُهر. وإذا تعرّض لقنابل غاز، تعجزُ العبارة عن وصف حالته. كنا نُضطّر إلى ربط قناع الأكسجين له بسبب ارتجاف يدَيه. كانت هناك أوقاتٌ لم يمنعه وابلُ الرصاص من الوقوفِ في مكانه والتحدُّث إلى نفسه. كان مثالًا حيًّا على القنوط ... بدا أنه لا يسمع ولا يرى شيئًا. أطاعنا في كل ما أمرناه به، وإذا تركناه وشأنه جلس وبكى. كان يبكي طيلة الوقت ... ولغرابة الأمر، يا سيدي، لم تُصِبه طلقاتُ الألمان. كنتُ أنفضُ ثوبي من طلقات الرصاص، وأصبتُ بطلقةٍ في كتفي، وتلقّى أندرو ضربةً في خوذته المعدنية كانت ستطرح أي أحدٍ أرضًا لو لم يكن لدَيه رأسٌ قاسٍ مثل الثور. لكن سجيننا لم يُصَب بأي خَدشٍ يا سيدي. أصبح شبابُنا يخافون منه. أخبرَني رجلٌ أيرلنديٌّ أن لدَيه عينًا حاسدة وسترى بنفسك أنه غيرُ طبيعي.»

لاحظتُ أن بشرة أفري أصبحَت رقيقةً مثل الورق وعينَيه خاليتان من التعبير. لا أعتقد أنه عرفَني.

سألتُ: «هل يتناول وجباته؟»

قال: «لا يأكل سوى القليل من الطعام. لكنه يُعاني من العطش بصورةٍ غيرِ طبيعية. فلا يمكنك إبعاده عن زجاجات مياه الجنود.»

كان أفري يتعلم سريعًا معنى الحرب التي تلاعَب بها بثقةٍ مفرطة. أرى نفسي رجلًا رحيمًا، لكن وأنا أنظر إليه، لم أشعُر بأي شفقةٍ تجاهه. كان يكابد القدَر السيئ الذي دبّره للآخرين. وجدتُ نفسي أفكّر في سكادر، وفي آلاف الأصدقاء الذين فقدتُهم، وفي بحور الدماء العظيمة وجبال الحزن التي سبّبها ذلك الرجلُ وأقرانُه للعالم. لمحتُ بطَرفِ عيني الجبالَ الطويلةَ في بلدتَي كومبل ولونجيفال التي سقط خيرُ رجال الأرض من أجل الفوز بها، وقد عادت إلى سيطرة الألمان. تذكّرتُ المدينةَ الخائفةَ خلفنا، وما تُشكِّله من قيمةٍ لي، وستارنا الضعيف الواهي الذي هو خطٌّ دفاعها الوحيد. تأمّلتُ الأعمال القذرة، التي ارتكبها الألمان وأكسبَتْهم شهرةً سيئةً في العالم بأسْرِه، والتي كان أفري مُدبرها الرئيسي. ثم تعجّبتُ من مقدار صبرنا وثباتنا. ليفقد أفري عقله، فالجنونُ أليقُ به من سلامة العقل.

كان تحت إمرتي رجلٌ آخر، ربما لا تراه طبيعيًّا، وهو ويك. كان يجسّد الصفة المضادة لـ «اضطراب العقل» إن جاز التعبير. لم يكن ويك قد تعرّض لنيران العدو بشكلٍ صريحٍ من قبلُ، لكنها لم تُرهِبه على الإطلاق. شهدتُ هذا الأمر مع آخرين، لكن انتهى بهم المطاف بفقدانِ عقلهم؛ إذ ليس من الطبيعي ألا يخافَ بشرٌ من لحمٍ ودمٍ مما قد ينزل به من العذاب والهلاك. من الطبيعي أن يخاف المرءُ قليلًا بصفةٍ مستمرة، كما

هي حالتي، ومع الإرادة والتركيز على العمل يستطيع المرء أن يدفَع عنه خوفه. لكن ويك لم يعبأ بالحرب بوضوح. لم يكن طائشًا وإنما غير مبالٍ. كان يتجوّل في الأنحاء بابتسامةٍ مطمئنةٍ على وجهه. وعجزَت الأهوالُ — التي تتابعَت علينا — عن التأثيرِ فيه. وفاضت عيناه، المتّقِدتان فيما مضى، ببراءةٍ واضحةٍ فضولية، مثل عينَي بيتر. كنتُ سأشعُر بالسعادة أكثر لو أنه أظهر بعض الخوف.

ذاتَ يوم، بعدما عانَينا من قلقٍ بالغ، تحدّثتُ إليه ونحن نتناول السجائر في مكانٍ كان ملجأً للفرنسيين فيما مضى. كان ويك بمثابة ذراعي الأيمن، وأخبرتُه بذلك. قلتُ: «لا بد أن هذه تجربةٌ غيرُ مألوفة بالنسبة لك.»

ردّ: «أجل. إنها في غاية الروعة. لا أعتقد أن هناك رجلًا اختبر الحرب دون أن تتأثّر سلامةُ عقله. لكن صرتُ أعرف أمورًا لم أعرفها من قبلُ. أدركتُ أن الروح قد تُولَد من جديدٍ دون مُغادرتها للجسد.»

حملقتُ فيه، وواصَل كلامَه دون أن ينظر إليّ.

قال: «لستَ على اطلاعٍ على الأدبيات القديمة، أليس كذلك يا هاناي؟ كانت هناك طائفةٌ غريبةٌ في العالم القديم، عُباد «ماجنا ماتر» أو الإلهة العظيمة. كي يسبر الناذرون غورها، كان لا بد لهم من عبور نهرٍ من الدماء — أظن أنني حاليًا أعبُر هذا النهر. وأومن أنني مثل المبتدئين سأشهد «ريناتوس إن إيتيرنوم»؛ أي الولادة من جديد في الأبدية.»

نصحتُه أن يتناولَ بعضَ الشراب إذ أفزعَني كلامه. بدا كأنه يتحول إلى ما يُسمّيه الاسكتلنديون بالمخبول. لاحظ ليفروي الأمرَ نفسَه وانشغل بالحديث عنه طيلة الوقت. كان ليفروي نفسُه شجاعًا مثل الثور، ويقتربُ من شجاعة ويك إلى حدٍّ كبير؛ لكن كان في إقدام ويك شيء أقلقه. قال: «لا يُمكنني فهم هذا الرجل. إنه يتصرف كما لو أن عقله ممتلئٌ بأفكارٍ سعيدةٍ تجعلُه لا يعبأ بمدافع الألمان. لا أعني أنه يُخاطر بحماقة لكنه يتصرّف كما لو أن المخاطرة التي اتخذها لا تعني شيئًا له. يشعُر المرء بغرابةٍ شديدةٍ وهو يراه يُسجّل الملاحظات بيدٍ ثابتةٍ وسط قذائف العدو المتتابعة كحبّات البرد، فيما يُفكِر في كل دقيقةٍ تمرُ عليه أنها الأخيرة. احرِص عليه يا سيدي. إنه في غاية الأهمية بالنسبة إلينا ولا يُمكِننا الاستغناءُ عنه.»

كان ليفروي مُحقًا؛ إذ لا أدري ما كنتُ سأفعله لو لم يكن ويك معي. كان أسوأ جزءٍ في مهنتنا هو التواصُل مع جناحَي الجيش وهو ما استعملتُ ويك فيه. فأخذ يقطع

الأراضي بخفّة وسرّية، مثل قاطع الطريق، فوق دراجةٍ صدئة تارةً أو على قدمَيه تاراتٍ أخرى، دون أن يكِلّ أو يتعَب. تُرى ما رأيُ الفرق الأخرى في ذلك الجندي الثاني المُتسخِ الذي هو وسيلةُ تواصُلنا الأساسية؟ لم يعرف ويك أيّ شيءٍ عن الشئون العسكرية من قبلُ، لكنه استوعب تفاصيلَ هذه المعركةِ الفوضويةِ وكأنما وُلِد محاربًا. ولم يُطلِق رصاصةً واحدة، ولا حمل أيّ سلاح؛ سلاحُهُ الوحيدُ كان عقله. ويا له من سلاحٍ فائق! فلم أقابل ضابطَ أركانٍ سريعَ البديهة مثله طيلة حياتي. كان ويك قد كرس كل جهده لهذه المهمة، كان يندر إيجادُ من هم في مثل مهارته الفذة. ذات يومٍ قَدِم ضابطُ أركانٍ من فرقةٍ مجاورةٍ لزيارتي.

سألني: «مِن أين جلبتَ هذا الرجل المدعو ويك؟»

قلتُ: «إنه معارضٌ للخدمة العسكرية وليس بمقاتل.»

قال: «ليتنا نحظى بالمزيد من مُعارضي الخدمة العسكرية في هذه الحرب. إنه الجنديُّ الوحيد الذي يفهم هذه الحربَ اللعينةَ فيما يبدو. جنرال فرقتي يُوصيكَ به.»

قلتُ: «لا داعي لذلك. فأنا أعرف قَدْره حقّ المعرفة. فهو صديقي العزيز.»

استخدمتُ ويك وسيلةَ تواصُلٍ بيني وبين مقَر الفيلق خاصة مع بلنكيرون. وعند حلول اليوم السادس تقريبًا بدأ اليأس يتملّكُني. كنتُ أعلم أن هذه الحرب لا يمكن أن تستمر إلى لأبد. لقد تقهقرنا أميالًا، خلف خط جبهة ١٩١٧، وعندما وضعنا أحد جانبَي الجيش على النهر، تحسّن الوضع كثيرًا. لكن خسرتُ الكثير من الرجال، وما تبقى قد بلَغ منهم الإعياء مبلَغه. كما أن العدو يضغط بجيشه في الشمال والجنوب ما اضطَرّنا لزيادة طول الجبهة الإجمالي، وأدركتُ أنه يجب أن أنشُر القوات القليلة التي تحت قيادتي هناك. كان الألمان لا يزالون يتقدمون لكن بوتيرةٍ أبطأ. ولو علموا بقلة القوات المتوافرة لإيقافهم لشنُّوا هجومًا قويًا يوصلهم إلى أميان. وحده الأداء الرائع لطيارينا ما منعهم من الوصول إلى هذه المعلومة، لكن لا يُمكننا الحفاظ على سرية الوضع للأبد. ففي يوم من الأيام ستُحلّق طائرة من طائرات العدو فوق جبهتنا، وستكفي كتيبةُ هجوم أو كتيبتان جديدتان لبعثرتنا. كنتُ بحاجة إلى موقعٍ مجهزٍ بالخنادق وشبكة أسلاكٍ شائكةٍ جيدة. والأهم من ذلك كنتُ بحاجة إلى الإمدادات. كانت هذه الكلمة على شفتي طيلة اليوم وطاردَتْني في أحلامي. أخبرَتْني القيادة أن القوات الفرنسية ستأتي لنجدتنا، لكن متى؟ كانت التقارير التي أرسلتُها لمقر الفيلق عبارةً عن نُواحٍ طويلٍ بشأن الحاجة لمزيد من الإمدادات. أعرف بوجود موقعٍ مُجهزٍ خلفنا، لكن كنتُ بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الرجال للدفاع عنه.

أحضَر ويك رسالة من بلنكيرون. جاء فيها: «ننتظرك يا ديك وقد حضّرنا موقعًا مجهزًا جيدًا من أجل الفرقة. هذا العجوز لم يعمل بجدٍّ منذ عثوره على النحاس في مونتانا في ١٨٩٢. لقد حفرنا ثلاثةَ خطوطٍ من الخنادق، وأقمنا عددًا كبيرًا من المتاريس المنيعة، وأعتقد أنها أُنشئت بإتقان بسبب إشراف هيئة أركان الجيش على تنفيذها، وهم لا يتهاونون في هذا الصنف من الهندسة. ستضحك عندما ترى جماعةَ العمّال الذين استخدمناهم. كانت تضُم عمّالًا من شتى الأصناف من الإيطاليين، والصينيين، وبعض السود من بلدك جنوب أفريقيا، جميعهم انشَغلوا بهذه المهمة غايةَ الانشغال حتى نسُوا النوم. كنتُ مُشتهرًا بأنني ربٌّ عملٍ لا يرحم لكنني لم أضطَر إلى استخدام مهاراتي الخاصة في هذه المهمة. لقد قرّرتُ أن أستثمر أموالًا كثيرةً في المهام العسكرية الخارجية من الآن فصاعدًا.»

قلتُ في الرد على رسالته: «خنادقك لا فائدة منها مع عدم توافُر الرجال. أحضِر مَن يمكنهم حمل البنادق بحق السماء. ففرقتي على حافة الانهيار.»

بعد ذلك تركتُ ليفروي مع الفرقة، وركبتُ في الجزء الخلفي من سيارة إسعاف، لأتفقّد الوضع بنفسي. هناك قابلتُ بلنكيرون، وبعضَ مهندسي الجيش، وضابطَ أركانٍ من مقَر الفيلق، بالإضافة إلى آرشي رويلانس.

لقد جهّز العمال خنادقَ كبيرة وأحاطوها بشبكةٍ ضخمةٍ من الأسلاك الشائكة. امتدت الجبهة من النهر إلى غابة لابروويير في التلة الصغيرة فوق جدول أبلاين. وكان خط الجبهة طويلًا جدًا، لكنني أدركتُ على الفور أنه ما كان يُمكن أن يكون أقصرَ من ذلك؛ لأن الفرقة الموجودة على جنوبنا مشغولة جدًا بالمناوشة مع أطراف الجيش الكبير الذي يهاجم القوات الفرنسية.

أخبرتُهم: «لا جدوى من غض الطرف عن الحقائق. فعدَد رجالي الباقين لا يبلغ الألف، وهم لم يعُد بهم طاقة على التحمُّل. ولو وضعتُهم في هذه الخنادق فسينامون واقفين. متى ستتولى القوات الفرنسية زمام الأمور؟»

كانوا قد أخبروني من قبلُ أنه من المقرّر وصولُ القوات الفرنسية صباحَ اليوم التالي، لكن تأجّل ذلك مدةَ أربعٍ وعشرين ساعة. وأن هذا إجراءٌ مؤقّت لانتظار وصول الفرق البريطانية من الشمال.

حلّت الجدية على ملامح آرشي. قال: «سيدفع الألمانُ بقواتٍ جديدةٍ إلى هذا الجانب. وصلَت إلينا هذه الأنباء قبل مغادرتي لمقر الأسطول. ويبدو أن الهجوم سيحدُث في

القريب العاجل يا سيدي.»

قلتُ: «لا شك في ذلك. سيقع هذا الهجوم يقينًا. لن يقدر زملائي على الاستمرار على هذا الحال ليومٍ آخر. يا إلهي، لقد قضَوا أسبوعَين في الجحيم! اعثُر لي على مزيدٍ من الرجال، وإلا فسننسحِب عند أول هجومٍ جديد.» كان صبري قد بدأ ينفَد.

قال أحد ضباط الأركان: «لقد فتّشْنا الدولة بدقة. وحشَدنا الرجال بصورةٍ مرتجلة. وبلغ عددُ ما جمعناه ألفَين تقريبًا. وجميعُهم أكفاءٌ غير أنّ أغلبهم ليست لديهم أدنى فكرة عن القتال في قوات المشاة. بعد ذلك نظّمنا هؤلاء الأفرادَ في فصائل، وبذلنا غايةَ ما في وسعنا لتدريبهم. هناك مسألةٌ واحدةٌ قد تبثُّ البهجة في صدرك. لقد صار لدينا مدافعُ كثيرة. هناك مدرسةٌ لسلاح المدفعية بالجوار، جنّدنا كل مَن التحق بدَورتها، وحصلنا على المعدّات والمواد اللازمة.»

لا أعتقد أن مثل هذه القوة أُرسلَت إلى ساحة المعركة من قبلُ. كانت أكثر عشوائيةً من جماعة مدنيّي بلدة موسي الذين خرجوا في أعقاب العسكريين في معركة إيبر الأولى. كان الرجال العائدون من فترة الاستراحة المؤقتة من مختلف التخصصات ويُمثّلون غالبية وحدات الجيش. كان هناك الرجال المُجندون من مدرسة سلاح المدفعية. وكان هناك سلاح المقاتلين الهندسيين، وسلاح الخدمة العسكرية، بالإضافة إلى حفنة من سلاح الفرسان. والأهم من ذلك أنه كانت هناك جماعة من المهندسين الأمريكيين أسّسها بلنكيرون. تفحّصتُهم عندما كانوا مُنهمكين في الحفر وراقَني مظهرهم. حدّثتُ نفسي قائلًا: «علينا انتظارُ ثمانٍ وأربعينَ ساعةً فحسب، وإن حالفَنا الحظ فقد نفوز.»

بعد ذلك اقترضتُ دراجة، وعُدت إلى الفرقة. لكن قبل مغادرتي، تبادلتُ بضعَ كلماتٍ مع آرشي. قلتُ: «نمارس خدعةً كبيرةً على العدو، وأنتم وحدكم من تُساعدوننا في ذلك. أخبِر أُناسك أننا نُعوّل كثيرًا على مساعدتكم. فلا تضنّوا بالطائرات على هذا القطاع؛ إذ فور أن يشُك الألمان في قلة عدد المُقاتلين أمامهم، فستنتهي اللعبة. العدوُّ ليس بأحمق، ويعلم أن هذا هو الطريق الأقصر إلى مدينة أميان، لكنه يتخيّل أننا ندافع عنها بكل ما نملكه من قوة. لو واصلنا هذا العرض ليومَين آخرَين فسننجح. تقول إنه يضُخ المزيد من قواته، أليس كذلك؟»

قلتُ: «أجل، كما أنه ينشُر دبّاباته.»

قلتُ: «حسنًا، سيستغرق الأمر بعض الوقت. لقد أصبحَت وتيرةُ العدو أبطأ مما كانت

عليه في الأسبوع الماضي، كما أنهم سيبذلون جهداً كبيراً في عبور هذه الأراضي. هناك احتماليةٌ لانتصارنا وإن كانت بعيدة. على أي حال عُد للوطن، وانقل رسالتي للفيلَق الجوي الملكي.»

أومأ برأسه. قال: «بالمناسبة، يا سيدي، لقد انضم بينار إلى فيلقنا. سيودٌ القدومَ إليك وإلقاءَ التحية.»

قلتُ بجدية: «كن رجلًا طيبًا يا آرشي وأسدِ لي معروفًا. إن عرفتُ بوجود بيتر في أنحاء الجبهة، فسأفقد عقلي من شدة القلق. هذا ليس المكانَ المناسبَ لرجلٍ أعرج. كان من المفترض أن يكون في إنجلترا منذ عدة أيام. ألا يمكنك إرسالُه إلى مدينة أميان بأي شكلٍ من الأشكال؟»

قال: «لا نُحب أن نفارقه. جميعُنا يشعر بالأسف نحوه، كما ترى؛ إذ انقضت أيامُ متعته وانتهت مسيرتُه وما شابه. لكنه يُحب البقاء معنا والإنصات إلى حكاياتنا. كما أنه حلّق في الجو مرةً أو مرتَين. وذلك في طائرة شارك-جلادس. لقد أقسَم لي أنها مُبهرة الصنع، ولا بد أنه يعرف كيفية التعامُل مع هذه الآلة الشيطانية.»

قلتُ: «إذن لا تسمح له بتكرار الأمر. أثِق بك يا آرشي. عِدني بذلك.»

قال: «لسخرية الأقدار أن بيتر دائمُ القلق بشأنك. إن بحوزته خريطة، يحدّد فيها كل يوم التغييرات الطارئة على موقعك، كما أنه يسير بساقه العرجاء مسافةَ ميل، بهدف تتبّع أخبارك ممن التقى بك من زملائنا.»

سحبتُ الفرقة إلى الخطوط التي أُعدّت حديثًا مستترًا بظلام تلك الليلة. وأفلَتنا من قبضة العدو بسهولة؛ إذ كان مشغولًا بشئونه الخاصة. راودَني الشك في أنه يسعى إلى تبديل قواته الجديدة بالقديمة المُنهكة.

لم يكن هناك وقتٌ لإهداره، وأؤكّد لك أنني بذلتُ غايةَ ما في وسعي لترتيب الأوضاع قبل طلوع الفجر. وددتُ لو أُعطي زملائي فترة استراحة، لكن لا يُمكنني الاستغناءُ عنهم بعدُ. كنتُ بحاجة إليهم كي يشُدُّوا عضُد القوات الجديدة؛ إذ كانوا مُحاربين قُدامى. سار الموقع الجديد على النسق نفسه للجبهة القديمة التي دمرها الألمان في الواحد والعشرين من شهر مارس. كانت هناك منطقةُ قتالٍ أمامية مكوّنة من المواقع الأمامية والمتاريس الموزّعة بكفاءة، بالإضافة إلى خط دفاع. خلف ذلك مباشرةً قبعَت الخنادق، وشكّلَت منطقة القتال. أحاطت الأسلاكُ الشائكةُ بالمنطقتَين بإحكام، وتوافَر عددٌ كافٍ من المدافع الرشّاشة؛ وددتُ لو يُمكنني القول إن لدَينا عدداً كافياً من

الرجال يستطيعون استخدامها. اقتصرَت مهمة المواقع الأمامية على تحذير الجيش، قبل أن تنسحِب إلى خط الدفاع، الذي يجب أن يصمُد حتى النهاية. في منطقة القتال الأمامية، وضعتُ أحدثَ ما انضمّ إلينا من قوات، وهي وحداتٌ تدعمها الفرق العسكرية العائدة من استراحتها المؤقتة، وفقًا لأوامر الفيلق. أرسلتُ مع هؤلاء المهندسين الأمريكيين، وضعتُ جزءًا منهم في المتاريس والجزء الآخر في سرايا الهجمات المضادة. أبلغَني بلنكيرون أن المُجنّدين الجدُد في براعة دانيال بوون في الرماية، ويتحرّقون شوقًا للقتال. بقيَت باقي القوات في منطقة القتال، وكانت أملَنا الأخير. لو خسرنا هذه القوات، فسيكون الطريق المؤدي إلى أميان مفتوحًا أمام الألمان. أُحضِرَت قواتٌ ميدانيةٌ إضافيةٌ لتعزيز سلاح المدفعية الضعيف لديّ بالفرقة. كانت الجبهة طويلةً جدًا، ما دفعني إلى وضع الثلاثة الألوية المُنهَكة على الخط؛ لذا لم تعُد هناك أي قواتٍ احتياطية. كان الأمر كله مجازفةً كبيرة.

لقد وجدنا ملاذا آمنًا في الوقت المناسب. في السادسة والنصف من صباح اليوم التالي — كانت السماء صافية، على سبيل التغيير، وبدأَت السُّحُب تتكدّس في الغرب — أعلن الألمان أنهم لا يزالون على قيد الحياة. أطلقوا وابلًا من قذائف الغاز، لم تُحدِث ضررًا كثيرًا، ثم بعثَروا منطقة القتال الأمامية بقذائف الهاون الخاصة بالخنادق. في السابعة وعشرين دقيقة، حاولوا الزحف إلينا، فقدمَت مجموعاتٌ صغيرةٌ بالمدافع الرشاشة في البداية، ثم تبِعَتْها قواتُ المشاة بأعدادٍ كبيرة. كانت هذه القوات قد وفدَت إلى ساحة المعركة حديثًا فيما يتضح، وعلمنا فيما بعدُ من الأسرى أنها الفرقة البافارية السادسة أو السابعة لا أذكُر تحديدًا، لكنها الفرقة نفسها التي أعاقت تقدُّمَنا في مونشي. في الوقتِ نفسه انبعث صوتُ قصفٍ شديد من ناحية النهر. بدا أن المعركة الرئيسية انتقلَت من ألبيرت ومونتيديه واستحالت إلى هجومٍ مباشر في محاولة للتقدُّم إلى أميان. حاولتُ مرارًا تدوينَ أحداثِ ذلك اليوم. سعيتُ لذلك في التقرير الذي أرسلتُه إلى الفيلق؛ وحاولتُ مرةً أخرى في مُذكّراتي الخاصة؛ فعلتُ ذلك تلبيةً لرغبة ماري، لكن لم أقدِر على كتابة قصةٍ متماسكةٍ قَط. ربما كان عقلي منهكًا إلى حدّ أنه عجز عن حفظ أي انطباعاتٍ واضحة، وإن لم أشعر بإرهاقٍ زائد حينها. لكن السبب على الأرجح هو أنّ القتال نفسه كان غيرَ متناسقٍ البتة؛ إذ لم يحدُث شيءٌ وفقًا لما هو مذكور في الكتب، ولا بدّ أن الألمان قد تخلّوا عن نظامهم المعهود ... في البداية سار القتال وفقًا لما توقعناه. اخترق الألمان المواقع الأمامية، لكن نيران رشاشاتنا التي أطلقَت عليهم من المتاريس أعاقت زحفهم، ومكّنَت خط المقاومة في منطقة القتال الأمامية من أداء وظيفته على أتم وجه. كانت هناك فترةُ توقفٍ مؤقتة، تدفّقَت بعدها موجةٌ كبيرةٌ من

الجند، مدعومةٌ بوابل من المدافع الميدانية، كان قد وضَعها الألمان قريباً من الجبهة. هذه المرة انهار خط المقاومة في عدة مواقع، ودفع ليفروي المهندسين الأمريكيين في هجومٍ مضاد. كان الأداء مبهراً. فقد اندفع المهندسون — يصيحون مثل الدراويش — على الألمان ببنادقهم المُزوَّدة بالحراب فيما فضّل آخرون استخدامها مثل الهراوات. كان قتالًا باهظَ التكلفة ولا يتوافق على الإطلاق مع أي معايير، لكنه نجح في نهاية المطاف. فقد تقهقَر الألمانُ خارجين من المزرعة الخَرِبة، والغابة الصغيرة التي تقدَّموا عَبْرها، قبل أن يُعيدوا بناء الجبهة. بلنكيرون، الذي شَهِد جميعَ ما حدث لأنه خرج معهم، ونتج عن ذلك أنْ لامسَت طلقةُ مدفعٍ رشاش طرفَ أذنه، ضاقَت عبارتُه عن وصف هذا اليوم. قال مُتأوهًا: «وأنا مَن كنتُ أقول إن هؤلاء الشباب تنقُصهم اللياقة البدنية!»

كانت المرحلة الثانية، عند منتصف اليوم تقريباً، هي الدبابات. لم أرَ طراز دبابات الألمان من قبلُ، لكني كنتُ قد سمعتُ عن سرعتها ووزنها الفائقَين مقارنةً بدباباتنا، على الرغم من صعوبة التحكم بها. لم نشهد كثيراً من سرعتها، لكن رأينا صعوبة تحكُّمهم بها. لو سخّرها الألمانُ بالطريقة المناسبة، لنفذَت فينا بسهولة، كأننا خشبٌ طريٌّ فاسد. لكنهم لم يُحسِنوا التعامُل معها. بدا أن الأرض مناسبةٌ لاستعمال الدبابات، لكن الرجال الذين أشرفوا على إنشاء الجبهة لم يفُتهم ذلك. هذه الآلات المتوحّشة التي تحملُ المدافعَ الأرضيةَ وغيرها من العتاد كانت تحتاج طرقًا شبهَ ممهّدة كي تسير بسلاسة. لكنها كانت عديمةَ الفائدة في الأراضي الوَعْرة. تقدّمَت الدباباتُ القادمةُ من الطريق الرئيسي جيداً في البداية، لكن بلنكيرون كان من الحكمة أن زرَع الألغام في الطريق، فصنَعنا حفرةً تُشبه ما نستعمله في التنقيب عن الماس. سقطَت فيها دبابة وأسَرنا طاقمها؛ وعلقَت فيها أخرى وظلّت هناك إلى أن طالتها نيرانُ مدافعنا الميدانية ودمّرتها. وبالنسبة للبقية — كانت هناك بحيرةٌ مُستنقعيةٌ بجوار مزرعة جافاريل، اسمها بادواه، تمتد شمالًا إلى النهر، لكن مواضع كثيرة فيها تبدو مجرد أرضٍ رخوة وسط المروج. وتحتّم على الدبابات عبورُ هذه البحيرة للوصول إلى جبهتنا، لكنها لم تُفلِح في ذلك قَط. فقد علق أغلبها في البحيرة وصارت هدفًا سهلًا لمدافعنا، وعادت دبابة أو اثنتان؛ وانفجرَت ثالثةٌ بواسطة قنبلةٍ مؤقتةٍ وضعها الأمريكيون مُستترين بجدول نهر صغير.

بحلولِ وقتِ الأصيل بدأَت السعادةُ تغمُرني. كنتُ أعرف أن الهجوم الكبير لم يقع بعدُ، لكن لا تزال المنطقة الأمامية سليمة، ورجوتُ أن تنتهيَ الأمور على خير. أتذكّر أنني كنتُ أتحدث إلى ويك، الذي كان يتنقّل بين المنطقتَين، عندما تلقّيتُ أول إنذارٍ بهجومٍ جديدٍ غير مُتوقع. فقد سقطَت قذيفةٌ معطوبةٌ على بُعد بضع ياردات من مكاني.

قلتُ: «هؤلاء الحمقى وراء النهر لا يستطيعون التصويب بدقة.»

فحص ويك القذيفة. قال: «لا، إنها قذيفةٌ ألمانية.»

توالت أخواتها، ولم يكن ثمّة شكٌّ في مصدرها، ثم اندلعَت المدافع الرشاشة من المنطقة نفسها. ركضنا مُستترين، إلى أن وصلنا إلى موقعٍ يُمكِننا منه رؤية الضفة الشمالية من النهر، ووجّهتُ منظاري إليها. كان هناك مرتفعٌ من الأرض تأتي القذائف من ورائه. تبادلتُ وويك النظرات، فرأى كلٌّ منّا الاستنتاجَ نفسَه منعكسًا على وجه الآخر. لقد زحف الألمانُ إلى الضفة الشمالية، ولم نعُد نستطيعُ التنسيقَ مع جيراننا. كان العدو في موقع يُخوّل له تطويقَ جناحنا والجانب الخلفي الأيسر من قواتنا بمدافعه. فلم نستطع الرجوع للتنسيق مع الآخرين؛ إذ لو فعلنا ذلك فسنتخلى عن موقعنا المُجهّز.

عند هذه النقطة بلغ الخوفُ منّي مبلغَه، وللحظةٍ وقفتُ وقد أُسقِط في يدي لا أعرف ماذا أفعل. فالتفتُّ ناحية ويك، فكانت عيناه الهادئتان هما ما ساعدتاني على أن أتمالك نفسي وأُسيطر على مشاعري.

قلتُ: «إن عجزوا عن استرداد هذه الأرض فقد انتهينا تمامًا.»

قال: «أجل. يجب أن يستعيدوها إذن.»

قلتُ: «يجب أن أتّصل بميتشينسون.» لكني في لحظتها تذكّرتُ عدمَ جدوى الاتصال هاتفيًا برجل هو نفسه في ظروفٍ عصيبة. المناشدة العاجِلة فحسب هي ما قد تأتي بأثرها المنشود ... لا بد أن أذهب بنفسي ... لا، هذا مستحيل. سأُرسِل ليفروي ... لكن لا يُمكنني الاستغناءُ عنه. وجميع ضباط الأركان مُنهمكون في القتال. كما أنهم لا يعرفون موقعَه مثلما أعرفه ... كيف أصل إلى هناك إذن؟ فالطريق إلى هناك عَبْر ذلك الجسر في لويزي طويل جدًا.

فجأةً صرتُ واعيًا لصوتِ ويك. قال: «يُستحسَن أن تُرسلني. يُوجَد طريقٌ واحد، وهو السباحة في النهر إلى هناك.»

قلتُ: «هذه مجازفةٌ خطيرة. ولن أُرسل أي رجلٍ إلى موتٍ مُحتّم.»

قال: «لكنّي أتطوّع لهذه المهمة. وهذا مسموحٌ في الحرب دائمًا حسبما أعتقد.»

قلتُ: «لكنك ستُقتل قبل عبورك للنهر.»

قال: «أرسِل رجُلًا معي من أجل المراقبة. لو وصلتُ للجانب الآخر من النهر، فتأكد أنني سأصل إلى جنرال ميتشينسون. إذا لم يحدُث ذلك، فأرسل شخصًا آخر عَبْر جسر لويزي. يجب أن نسرع، وأنت ترى بنفسك أن هذا هو السبيل الوحيد.»

لم يكن هناك وقتٌ للنقاش. كتبتُ ملاحظةً سريعةً لجنرال ميتشينسون في عجالة لتقديم ويك إليه. لم أكن بحاجة لإخباره بالمزيد، إذ إن ويك يعرف الجبهة مثلما أعرفها. وأرسلتُ رجلًا لمرافقته إلى نقطة الانطلاق على الضفة.

قال وهو يُصافحني: «إلى اللقاء. سترى أنني سأعود في خير حال.» بدا وجهه، حسبما أذكر، سعيدًا على نحوٍ استثنائي. بعد ذلك بخمسِ دقائقَ اندلعَت رشّاشات الألمان في هجمتهم الأخيرة.

أحسبُ أنني حافظتُ على رباطة جأشي؛ أو هذا ما يقوله ليفروي والآخرون على أي حال. قالوا إنني رُحتُ أطوف بالمكان في فترة بعد الظهيرة بابتسامةٍ عريضةٍ على شفتي كأنّ الوضع يَروقُني، وإنني لم أرفع صوتي ولو مرة. (فمن عيوبي أنني أصيح عندما يتأزّم الموقف.) لكن مما أعرفه أنه لو جالت بداخلي أيٌّ مشاعرَ حينها، فلم يكن الهدوء أحدها؛ إذ كان الموقف عصيبًا. كانت المسألة برمّتها تعتمد على ويك وميتشينسون. كانت النيران الجانبية كثيفةً إلى حد أني اضطُرِرتُ إلى التخلّي عن الجناح الأيسر من المنطقة الأمامية، الذي تعرّض لنيران العدو مباشرة، ثم سحبتُ الجنود إلى منقطة القتال. وفّرَت تلك الأخيرة حمايةً أفضلَ للجنود؛ إذ امتدت بينها وبين النهر غابةٌ صغيرة، وشكّلَت الضفة جرفًا انحدر ناحيتنا لا العدو. هذا الانسحاب يعني الانتقال، وهو ليس مُستحسنًا عندما تقضي الضرورة ارتجالَه في وسط القتال.

لقد اعتمد الألمان على النيران الجانبية. تمحورَت خطتهم حول تدميرِ جناحَي جيشنا، وهي خُطتهم القديمة التي يتبنّونها في كل قتال. في البداية ترك الألمان مركزنا وشأنه، واندفعوا بمحاذاة ضفة النهر، وانتقلوا إلى غابة لابروويير؛ حيث تتّصِل فرقتنا بالفرقة المجاورة لنا من الميمنة. كان ليفروي في المنطقة الأولى، وماسترتون في المنطقة الثانية، ولمدة ثلاث ساعاتٍ استمر القتال باستماتة لم أشهدها من قبلُ ... نُفذَت عملية الانتقال المرتجلة واختفت أجزاءٌ من منطقة القتال الأمامية واحدة تلو الأخرى. كان الطقس في فترة الظهيرة ربيعيًا ساخنًا صافيًا، وتدفّق العدو في أثناء القتال المفتوح في نسقٍ مُحكَم كما يحدث في المناورات. وفي ناحية الميسرة بلغ العدوُّ ساحة المعركة، ورأيتُ جسدَ ليفروي الضخم، وهو يقود هجومًا مضادًا بنفسه، فيما تلطّخ وجهُه بالدماء التي سالت من جرحٍ في فروة رأسه ...

كنتُ على استعداد لبذل الغالي والنفيس في سبيل أن أتمكن من الوجود في مكانَين في آنٍ واحد، لكن اضطُررتُ إلى التضحية بالميسرة، وملازمة جانب ماسترتون، الذي كان في حاجةٍ ماسةٍ إليّ. بدا المشهد في غابة لابروبير في قمة الجنون. فقد كاد العدو أن يخترقها أكثر من مرة. لم يكن باستطاعة المرء تحديدُ مكانه، وأخذَ معظم القتال صورةَ نزالٍ بين قوات المدافع الرشاشة على الجانبَين. تمكّن جزءٌ من جيش العدو من الالتفاف خلفنا، وحال الأداء الرائع لسَرِية تشيشاير دون اختراقه للغابة بشكلٍ كامل.

أما ليفروي، فلا أدري كيف صمد حتى النهاية، وهو نفسُه لا يدري كيف حدث ذلك؛ إذ ما انفك العدو يرشقه بتلك النيران الجانبية اللعينة. في حوالي الرابعة ونصف مساءً، تلقّيتُ رسالةً قصيرةً تُبلِغُني بعبور ويك النهر، لكن لم تخفّ حدةُ نيران العدو، إلا بعد مرور بضعِ ساعاتٍ من القتال الشديد. كنتُ أتنقّل بين جناحَي الجيش، وفي كل مرة أَتّجِه شمالًا، كنتُ أتوقع أن أجد ليفوري مهزومًا. لكنه قاوم بمعجزةٍ ما. كان العدو يصل إلى منطقة قتاله، مرةً بعد الأخرى، لكنه ظلّ يردّه على أعقابه خائبًا. أتذكّر رؤية بلنكيرون في قمة الانفعال، يبثّ الحماسة في نفوس الأمريكيين بلهجته الغريبة. ذات مرةٍ مررتُ به، ولاحظتُ ذراعه اليسرى معصوبة. ابتسم لي بوجهه المُكفهِر ابتسامةً عريضة. وقال بصوتٍ مبحوح: «هذه المساحة الخضراء غير آمنة بالمرة لممارسة الديمقراطية. بالله عليك وجّه مدافعك للشياطين في الناحية الأخرى من النهر. إنهم يُنزِلون برجالي أشد العذاب.»

في حوالي الساعة السابعة، حسبما أعتقد، خفّت وتيرةُ نيرانِ العدو الجانبية، لكن لم يكن ذلك بسبب مدافع الفرقة. فقد دوّى صوتُ قصفٍ مدفعيٍّ قوي في الضفة الشمالية، وكنتُ واثقًا أن قواتنا البريطانية وراء ذلك. بعد ذلك تطوّرَت الأحداث. أبلغتنا إحدى الطائرات — التي أدّت أداءً مبهرًا طيلة اليوم، وهي تنقضُّ مثل الصقر، وتُهاجم بالمدافع الرشاشة قواتِ المشاة الألمانية — أن ميتشينسون يضرب بقوة، ويتقدّم بشكلٍ جيد. تنفّستُ الصُّعداء بسماع هذا الخبر، وانطلقتُ باتجاه ماسترتون، الذي تعقّد وضعه عن ذي قبل؛ إذ بدأ العدو يُخفّف ضغطه على ضفة النهر، ويركّز قوّته الأساسيةَ على الميمنة ... لكن أوقفَني ضابط أركاني الثاني في طريقي إليه. قال: «ويك. إنه يريد رؤيتك.»

هتفتُ: «ليس الآن.»

قال: «لم يتبقّ له سوى دقائقَ معدودة.»

استدرتُ، واتبعتُه إلى حظيرة البقر الخرِبة التي كانت مقر قيادة الفرقة. لقد سبح

ويك، حسبما عرفتُ في وقتٍ لاحق، في النهر ناحية ميسرة ميتشينسون، وبلغ الضفة الأخرى بأمان، رغم وابل الرصاص المنهمر على سطحها. لكنه فور أن وضع قدمه على الشاطئ تأذّى بشدة بفعل شظيةٍ أصابت فخذه. في البداية، سار مستندًا على مرافِقه، ثم حُمل على نقّالة، حتى وصل بمشقةٍ بالغة إلى مقر الفرقة، وهناك سلّم رسالتي وشرَح الموقف. ولم يسمح لأحد بتفقُّد جرحه حتى تأكد من إنجاز مهمّته. أخبرَني ميتشينسون لاحقًا أن ويك رسم له موقعنا في عجالة، وشرح له مدى اقترابنا من الهزيمة بدقة، بملامحَ مُنقبضةٍ من شدة الألم ... بعد ذلك طلب إعادتَه إلى مكاني، فحملوه إلى بلدة لويزي في سيارة إسعاف مكتظة بالمُصابين، ثم نقلوه إلى مقَرنا في سيارة إسعاف عائدة فارغة. رأى الضابط الطبيب، الذي تفقّد جرحه، أن شفاءَه لا أملَ منه، وتوقّع ألا يحيا لأبعد من بلدة لويزي. فقد كان يُعاني نزيفًا داخليًّا غزيرًا ولا يستطيع أيٌّ جرّاح على وجه الأرض إنقاذه.

عندما وصل إلينا كان نبضُه يكاد يتوقّف، لكنه أفاق لحظةً وطلب إحضاري إليه.

وجدتُه أزرقَ الشفتَين شاحِبَ الوجه، يرقد فوق فِراشٍ قابل للطي. بدا صوتُه شديد الخفوت بعيدًا.

سأل: «كيف سار الأمر؟»

قلتُ: «سننجو بمشيئة الرب ... بفضلك يا صديقي العزيز.»

قال: «عظيم»، وانغلقَت عيناه.

فتح عينَيه مرةً أخرى.

وقال: «كم هي غريبة الحياة! منذ سنةٍ كنتُ أدعو للسلام ... ولا أزال ... ولا آسف على ذلك.»

أمسكتُ يدَه دقيقتَين ثم فارق الحياة.

في غمار القتال لا يستوعب المرء الموت، ولو كان موتَ أحد أصدقائه. تعيّن عليّ أن أُحقِّق ما أكّدتُه لويك، فانطلقتُ إلى ماسترتون مباشرة. هناك، في فوضى غابة لابروِيير، والشمسُ آخذةٌ في الأُفول، دار قتالٌ يائسٌ دموي. كانت هذه هي الجولة الأخيرة في السباق. اثنتا عشرة ساعة — حدّثتُ نفسي — وستصل القوات الفرنسية إلى هُنا بعدما نكون قد أنجزنا مهمتَنا. وا أسفاه! كم سيعود منّا في فترة استراحة؟ ... شنّت سرايا الهجوم المضاد هجمةً جديدة إذ لم يسَعْها حتى الترنّح. لقد تجاوزوا حدود

التحمّل البشري، لكن الروح البشرية قادرةٌ على أن تتحدّى كل قوانين الطبيعة. تذبذبَت كفّتا الميزان، ثم تساوتا، ثم رجحَت كفّتُنا. خارت القوة الدافعة للعدو، وتوقفَت، وبدأَت عملية الانسحاب.

عزمتُ على إنهاء المهمة. أطلق سلاح المدفعية وابلًا من قذائفه، وأرسلتُ ما تبقّى من جنود، لا تزال بهم قدرةٌ على القتال، في هجومٍ مضاد. كان معظم الرجال لم يخضعوا للتدريبات، لكن كان في صفوفنا من الرجال من لا حاجة له بالتدريبات، وباغَتْنا العدو في أكثر لحظاته ضعفًا. دحرنْاه من غابة لابروبير، وأعدناه إلى منطقة القتال الأمامية، ثم دفعنا به إلى الموقع الذي بدأ منه القتال اليومَ.

لم يكن هناك مجالٌ للراحة للمُنهكين. كنّا قد خسرنا ثلثَ قوّتنا على الأقل، ولا بد من تزويد الجبهة الطويلة نفسها بالجنود. عزّزنا الجبهة قَدْر الإمكان، وبدأنا نُغيِّر الأسلاك التي تدمّرَت في أثناء القتال، وتواصلنا مع الفرق في الميمنة، وأنشأنا مواقع أمامية. عُدتُ إلى المقَر الخاص بي — بعدما عقدتُ مؤتمراً مع قادة الألوية في فرقتي — وأنا في غاية الإنهاك، حتى لم أقوَ على الشعور بالرضا أو القلق. في غضون ثماني ساعاتٍ ستصل القوات الفرنسية إلى هُنا. كان لهذه الكلمات وقعُ ابتهالٍ على أذنيّ.

في حظيرة البقر؛ حيث كان ويك يرقد منذ قليل، وجدتُ شخصَين بانتظاري. كشف ضوء الشمعة الموضوعة في حاملٍ من معدن التَّلْك عن هاميلتون وآيموس، متّسخَين بما لا تحيط العبارة بوصفه، مُسْوَدّين من أثر الدخان، ومُلطخَين بالدماء، تُغطيهما ضماداتٌ مربوطةٌ بإحكام. كانا يقفان في وضعية الانتباه.

قال هاميلتون: «السجين يا سيدي. لا بد أن أبلغَ عن موت السجين.»

حملقتُ بهما، لأنني نسيتُ أمر أفري. بدا أنه كائن من عالمٍ بائد.

قال: «حدَث الأمر كما يلي يا سيدي. بدا السجين حذراً منذ الصباح. لقد كان فيما يُشبه الحلم طيلة الأسبوع كما تذكُر. لكن بدا أن فكرةً مُعيّنة تشغل بالَه، وعندما اندلعَت المعركة، ظهرَت عليه علاماتُ الاضطراب. كان يستلقي في الخندق تارة، ويريد العودة إلى المخبأ تارةً أخرى. زوّدتُه بمسدس، وفقًا للتعليمات، لكنه كان يجهل كيفية استخدامه فيما يظهر. كانت تعليماتك، يا سيدي، أن نُزوِّده بوسيلةٍ يدافع بها عن نفسه عند هجوم العدو؛ لذا أعطاه آيموس السكين المُستخدَم في قتال الخنادق. لكن سرعان ما بدا أنه يُفكِّر في قطع عنقِه بها، فنزعتُها منه.»

توقف هاميلتون لالتقاط أنفاسه. كان يتحدّث دون سكتاتٍ بين الجُمَل وكأنما يسرد

درساً حفظه.

تابع: «أحسستُ، يا سيدي، أنه لن ينجوَ اليومَ، وشاطرَني آيموس الرأي. حانت لحظةُ النهاية بعد الثالثة بعشرين دقيقة، وعلمتُ بالتوقيت تحديداً؛ لأنني قارنتُ ساعتي مع آيموس. تذْكُر أن الألمان كانوا قد شرعوا في هجومهم الكبير. كنّا في الخندق الأمامي لما يُسمّونه بساحة القتال، وانشغلتُ وآيموس في مراقبة العدو، الذي كان يزحف في الأرض المفتوحة. آنذاك، رأى السجين العدو، فقفز إلى السطح. حاول آيموس الإمساك به، لكنه ركلَه في وجهه. بعد ذلك رأيناه يعدو ناحية العدو، وهو يرفع يدَيه فوق رأسه، ويصيح بلغةٍ أجنبية.»

قال آيموس المُثقف عَبْر أسنانه المكسورة: «إنها الألمانية.»

واصل هاميلتون: «كانت الألمانية، بدا كأنّ أفري يناشد العدو لمساعدته. لكنهم لم يلتفتوا إليه وأطلقوا عليه مدافعهم الرشاشة. رأيناه يدور حول نفسه، مثل الخذروف، وأيقنّا أنه قضى نحبه.»

سألتُ: «هل توثّقتُم من موته؟»

أجاب: «أجل يا سيدي. عندما قمنا بهجومٍ مضاد، وجدنا جثته.»

هناك قبرٌ بجوار مزرعة جافاريل، يحمل صليباً خشبيّاً، عليه اسم الكونت فون شبابينج وتاريخ وفاته. أخذ الألمان جثمانَه بعد ذلك بفترةٍ قصيرة. أُحِب أن أظنّ أنهم قرءوا ما نُقِش على الشاهد.

الفصل الثاني والعشرون

استدعاء «الثابت»

تلك الليلة لم أنم إلا ساعةً وأربعين دقيقة، لكني استيقظتُ وأنا أشعُر كأنني استغرقتُ في نومٍ عميقٍ دامَ أياماً. يحدُث هذا، في بعض الأحيان، بعدما يتعرّض المرء للإنهاك والإجهاد الذهني. حينئذٍ يكونُ النومُ ولو لفترةٍ قصيرة، قادراً على أن يبني حاجزاً بين الماضي والحاضر، ولا بد للمرء أن يكسِره عن قصد، كي يتسنّى له أن يسترجعَ ما حدث. كان عقلي مُنهمكاً في تلك المهمة، عندما بدأَت قطراتٌ تتساقط على وجهي من خلال السقف المكسور. دفعَني ذلك للخروج إلى الهواء الطلق. آنذاك، كان نورُ الفجر قد بزغ لتوّه، وتكدّسَت السماء بالسُّحب، فيما هبّت رياحٌ مُثقلة بالمطر من ناحية الجنوب الغربي. أخيراً جاءت انفراجةُ الطقس التي طال انتظارها. المطر الغزير هو ما كنتُ بحاجةٍ إليه، ليغمُر الأرض ويحوّل الطرق إلى مجارٍ مائية ويُعيق نقل قوات العدو، بل يُغشّي بصره ... هذا؛ لأنني تذكّرتُ الخُدعة المنافية للمنطق التي مارسناها على العدو، والحفنة المُنهَكة الجديرة بالشفقة التي حالت دون بلوغ الألمان هدفَهم. لو علموا بالحقيقة، لأزاحونا عن طريقهم بكل سهولة، كما يُبعِد المرءُ الذبابَ عن وجهه.

بينما كنتُ أحلق ذقني، استرجعتُ أحداثَ الأمس كأنها وقعَت في الماضي البعيد. تأملتُها بصورةٍ موضوعية، وتوصلّتُ في النهاية إلى أنها كانت معركةً ناجحة. لقد قاومَت تلك الحفنة العشوائية من القوات، نصفُها يُعاني من الإنهاك والنصفُ الآخر يفتقر إلى التدريب اللازم، ما لا يقل عن بضعِ فرقٍ نزلَت حديثاً لساحة المعركة ... لكننا لن نقوى على تكرار ذلك، ولا نزال خاضِعين لهذا الخطر اليائس لعدة ساعاتٍ أخرى. ما هو الموعد الذي حدّده الفيلق لوصول القوات الفرنسية؟ ... كدتُ أنادي هاميلتون بصوتٍ عالٍ ليطلب من ويك الاتصال بمقر الفيلق، عندما تذكّرتُ موته. لقد أحببتُه وأعجِبتُ به كثيراً، لكن لم أشعُر بغصة في الحلق عندما تذكّرتُ وفاته. في النهاية، كلنا سيموت، وهو سبقنا إلى هناك فحسب.

لم يحدث قصفٌ في الصباح، وهو ما اعتدنا حدوثَه في الأسبوع الماضي. خرجتُ فوجدتُ العالمَ المُمتد أمامي ساكناً تحت السماء الملبّدة بالغيوم. كان المطر قد توقّف

عن الهطول، ورياحُ الفجر قد خفّت حدّتها، فخشيتُ أن تتأخّر العاصفة. تمنّيتُ أن تهُبّ العاصفة فورًا فتساعدنا في الساعات القادمة العصيبة. هل ستأتي القوات الفرنسية في غضون ستّ ساعات؟ لا، ستأتي في غضون أربع ساعات. لا يمكن أن تتأخر عن أربع، إلا إذ حدث خلطٌ كبير في الجدول الزمني. تُرى ما سببُ سكون الأجواء؟ هذا هو وقتُ طعام الإفطار عند الطرفَين، لكن لا أرى أي إنسان، فيما يبدو، في الشريط القبيح المُمتد لمسافة نصف ميل. لكن في المنطقة النائية التابعة للألمان، بدا أنني سمعتُ دمدمةَ حركةٍ مرورية.

وقف بجواري رجل، طليق اللحية لم تذُق عيناه النوم منذ فترة، وتبيّن أنه آرشي رويلانس.

قال وهو يُشعِل سيجارًا: «لم أنم طوال الليل. لا، لم أتناول طعام الفطور بعدُ. لقد ارتأى القائد نشر كتيبةٍ مُضادةٍ للطائرات ثانيةٍ في هذه الناحية، وأنا أشرِف على تنفيذ هذه المهمة. إنه يخشى أن يُحلِّق الألمان فوق الجبهة، ويكتشفوا مواطنَ ضعفنا. ونحن لدينا مواطنُ ضعفٍ غيرُ معهودة كما تعلم يا سيدي. أيضًا ...» حلّت الجدية على ملامح آرشي وأضاف: «تدفّقَت المزيد من الفرق الألمانية إلى هذه البقعة. وحسبما أرى فإن العدوّ يُعدّ لهجومٍ هائل على ضفتَي النهر. قال شبابنا بالأمس إن الريف ما وراء بيرون يفيضُ بالقوات القادمة حديثًا. كما أنهم قادمون بمدافعهم الضخمة. لم تصل القوات إلى هُنا بعدُ، لكن العدوّ أصلح الطرقَ ولدَيه سككٌ حديديةٌ سريعةٌ جديدة، وفي أي لحظةٍ قد تأتيك تحية الصباح من المدافع عيار ٩.٥ ... ادعُ الله، يا سيدي أن تصل الإمداداتُ في الوقت المناسب. أظن أننا لن نواجه هجومًا آخرَ هذا الصباح، أليس كذلك؟»

قلتُ: «لا أظن ذلك. لقد تكبّد الألمان خسارةً كبيرةً بالأمس، ولا بد أنهم يعتقدون أن جيشنا قويٌّ بعدما قمنا بذلك الهجوم المضاد. أرى أنهم لن يشنّوا أي هجومٍ جديدٍ حتى يصيروا قادرِين على القتال على جانبَي النهر في آنٍ واحد، وسيتطلب ذلك بعضَ الوقت. لهذا السبب جلبوا هذه الفرق الجديدة ... لكن تذكّر، أنهم قادرون على الهجوم في الوقت الحالي إن شاءوا. فلو علموا بضعفنا، لأدركوا قوّتهم، وقضَوا علينا جميعًا في غضون ثلاث ساعات. هذه هي الحقيقة التي يجب أن تمنعهم أنت وزملاؤك من اكتشافها. لو عبرَت طائرةٌ ألمانيةٌ واحدةٌ فوق جبهتنا وعادت أدراجها فقد خسرنا تمامًا. قدّمتم لنا مساعدةً جليلة يا آرشي منذ بدء هذه الحرب. فاستمرُّوا في ذلك حتى النهاية بحق الرب، وسَخِّروا ما أمكنكم من الطائرات لحماية هذا القطاع.»

قال: «نبذل قصارى جهدنا. سنحصُل على المزيد من المُستطلِعين المُحاربين من

الشمال، ونحن الآن نُراقب العدو عن كثَب. لكنك تعرف، يا سيدي، مثلما أعرف أن نجاحنا في ذلك ليس مضمونًا. فلو أرسل الألمان سربًا من الطائرات، فقد نُحطّمها باستثناءِ واحدة، وتلك الواحدة ستكون كافيةً لكشفنا. إن الألمان قلِقون بشأن مجالهم الجوي، ولا ألومهم في ذلك. أرى أننا لم نُحارِب النخبة من القوات الألمانية بعدُ. يقول جينينغز إن العدو أحرزَ تقدمًا كبيرًا في فلاندرز، وتنبأَت القيادة بوقوع هجومٍ وشيك على البلدة. أرى أنه يُمكنُنا معالجة الطائرات التافهة التي يرسِلها العدو إلى هُنا في الآونة الأخيرة، لكن لو ظهر لينش أو أحد أقرانه، فلا يُمكنني تخيُّل ما قد يحدُث. إن لعبة الطيران تلك فيها مقامرةٌ كبيرة»، ونظر آرشي بوجهه المتسخ ناحية السماء حيث أخذت طائرتان من طائراتنا ترتفِعان مُحلقتَين باتجاه المشرق.

ذكّرتني سيرة لينش ببيتر، فسألتُ آرشي ما إذا كان قد عاد بيتر إلى بريطانيا.

قال: «هو يرفض العودة، ولا نقوى على إجباره عليها. إنه يشعر بسعادةٍ عارمة وهو يلهو بطائرة «جلاديس شارك» ذات المقعد الواحد. كما أنه يتحدّث عنك دائمًا، وسينفطر قلبه إن أمرنا بنقله.»

سألتُه عن صحة بيتر، فأخبرَني أنه لا يُعاني من آلامٍ مُبرِّحة على ما يبدو.

هزّ آرشي رأسه الحكيم وقال: «لكنه يتصرّف بغرابةٍ نوعًا ما. يرفض أن يتزحزح عن مكانه زاعمًا أن الرب يُريد استعماله. وهو جدّي في ذلك، ومنذ أن خطرَت له تلك الفكرة، تملكَته البهجة. كما أنه لا ينفك يسأل عن لينش، لا بنبرةٍ انتقاميةٍ بل ودودة، إن كنتَ تفهم قصدي. يبدو أن لدَيه اهتمامًا خاصًا به. أخبرتُه أن لينش خاض سلسلةً طويلةً من الانتصارات لا يُضاهيه فيها غيره، وأن قانون المتوسطات يُحتم أن ينهزم قريبًا، فحزِن للغاية.»

لم يكن لديّ مُتسع من الوقت للقلق بشأن بيتر. تناولتُ وآرشي طعام الفطور بسرعة، ثم التقيتُ بقادة الألوية. آنذاك، كنتُ قد تواصلتُ مع مقَر الفيلق، وتلقّيتُ الأخبار بشأن القوات الفرنسية. كان الوضع أسوأ ممّا توقّعتُ. سيصِل الجنرال بيجي في العاشرة صباحًا تقريبًا، لكن لن يُمكّن رجاله من تولّي مقاليد الأمور حتى منتصف النهار. زوّدَني المقَر بموقع القوات، ووجدتُه في الخريطة. لا تزال رحلتُهم طويلة، كما أن إجراءات تسليم القيادة تستغرق وقتًا. تفقّدتُ ساعةَ معصمي. أمامنا ستٌّ ساعات يمكن للألمان خلالها أن يُبيدونا بالقنابل، ستٌّ ساعاتٍ من القلق المُثير للجنون ... أعلن ليفروي أن الأوضاع مُستتَبة في الجبهة، وأن العمال انتهَوا من تثبيت الأسلاك الشائكة الجديدة حول غابة بوا دي لا برويير. أبلغتُ الدوريات عن قدوم فرقةٍ جديدةٍ في أثناء الليل لنجدة

الفرقة التي أنزلنا بها أشدَّ العقاب بالأمس. سألتُه إن كان يستطيع هو ورجاله الصمود في وجه هجومٍ جديد. فأجاب بلا تردُّد: «لا. فأعدادنا قليلةٌ جداً، ولا نقدر على الوقوف بثباتٍ من شدة التعب. كما أنني أستعمِل رجلًا واحداً على كل ثلاثِ ياردات.» اندهشتُ مما قاله؛ إذ إن من عادته التفاؤل وعدم الاكتراث.

سمعتُ آرشي يهتف متذمراً: «اللعنة، ها قد ظهرَت الشمس.» تبيَّن أنه مُحقٌّ فيما قاله؛ إذ بدأَت الغيوم تنقشع، وبدت في وسط السماء رقعةٌ زرقاء. كانت هناك عاصفةٌ قادمة، شممتُ رائحتَها في الجو، لكن قد لا تأتي حتى المساء. تُرى أين سنكون حينها؟

أصبحَت الساعة تاسعةً وأنا أبذل وسعي للمحافظة على رباطة جأشي؛ إذ أدركتُ أن الساعات القادمة ستكون عصيبة. أنا رجلٌ باردُ الطبع نوعاً ما، لكني ما وجدتُ أشَقَّ على نفسي من الصبر والثبات، كما أنه لم يعُد بي قدرة على التحمُّل بعد التوتُّر الذي نتج عن عملية انسحابنا الطويلة. سرتُ شمال الجبهة وقابلتُ قادة الكتائب. أقلقَني هدوءُ الأجواء. بعد ذلك عُدتُ إلى مقَرِّ فرقتي لدراسة التقارير القادمة من دوريات المراقبة الدورية. وجدتُها جميعاً تُكرِّر الأمر نفسه، وهو وجود نشاطٍ غيرِ طبيعي، في مؤخرة الجيش الألماني. أحسستُ أن الأحداث تتشكَّل على منوال يومِ الواحد والعشرين من شهر مارس نفسه، ولو نفَد حظُّنا السعيد، فستُضطَر بقايا فرقتي المسكينة إلى تلقِّي الصدمة الجديدة. اتصلتُ بالفيلق ووجدتُهم قلقِين مثلي. زوَّدتُهم بتفاصيل قوتي الحالية، وجاءني الردُّ مكروباً من الطرف الآخر من الهاتف. وجدتُ بعضَ السلوى عندما أدركتُ أنَّ هناك مَن يُشاركني في محنتي نفسها.

شعَرتُ أنني لا أستطيعُ الجلوسَ مكتوفَ اليدَين. لو أن هناك أي أعمالٍ يُمكنني إنجازها لفعلتُ، لكن لم أجد ما أفعله. ليس أمامي سوى الانتظار المُريع. فيما مضى كنتُ نادراً ما أشعر بالبرد، لكن تغيَّر ذلك، وأدهشتُ هيئة الأركان عندما ارتديتُ المعطف العسكري الطويل وزرَّرتُ ياقتَه. تجوَّلتُ كالذئب الجائع في أرجاء المزرعة الخرِبة، أشعُر بالبرودة في قدمي، والتوتُّر في معِدتي، والاضطراب الشديد في عقلي.

فجأة تبدَّد توتُّري، وعاد الدم يسري في عروقي بشكلٍ طبيعي. اختبرتُ تغيُّرَ المزاج، الذي يشعُر به المرء في بعض الأحيان، عندما تطولُ معاناته حتى تصقل كيانَه كلَّه. تبدَّى لي قتالُ الأمس كحدثٍ بديع. فأي تحدياتٍ عظيمةٍ تلك التي واجهناها، وأي شهامةٍ تلك التي أظهرناها! تسارعَت دقاتُ قلبي عندما تذكَّرتُ فرقتي القديمة، المُحاربين القدامى، الذين لا ينهزمون أبداً ما داموا يتنفَّسون. كما تذكَّرتُ الأمريكيين، والفتيان من مدرسة الرماية، والمعدَّات التي استحوذنا عليها. وبلنكيرون العجوز الذي

كان ثائراً كالأسد النبيل في ساحة المعركة! شعرتُ أنه من غير المنطق ألا ننتصرَ بعد ما أبديناه من جَلَد. لقد أرعبنا الألمان وألحقنا بهم ضرراً كبيراً، حتى استَكْفَوا وانسحَبوا لترتيب صفوفهم. سيأتون مرةً أخرى، لكننا استرحنا منهم في الوقت الحالي، وستتوافَد القوات الفرنسية الشهمة، المُفعَمة بالحيوية المُتلهِّفة للثأر، لإزعاجهم.

لم تَردني أيُّ حقائقَ جديدةٍ تدعو للتفاؤل، لكنني غيَّرتُ منظوري للأمر. فعلتُ ذلك فتدفقَت في عقلي ذكرياتٌ أخرى. كانت وفاة ويك قد تركَتْني فاقدَ الحس، لكني تذكَّرتُها الآن فشعرتُ بغصةٍ حادة. كان ويك أوَّل مَن رحل من جماعتنا الصغيرة. لكن كم كانت خاتمتُه رائعة! وكم كان سعيداً في تلك الفترة المجنونة عندما نزل من بُرجِه العاجي، وصار واحداً من الجمهور! لقد وجد نفسَه أخيراً، وتلك سعادةٌ لا يمكن لأحدٍ أن يسلُبه إيَّاها. لو سيُنتقى الأخيار من بيننا فسيكون أوَّلَهم؛ لأنه رجلٌ عظيمٌ يستحقٌ كل الاحترام. كلما فكَّرتُ به يملؤني التواضُع. فأنا لم أتعرَّض لمثل تحدِّياته، لكنه خرج منها نقيًّا، وبلغ درجةً من الشجاعة لا أستطيعها. كان هو «الأمين»، ذلك السائح الذي أنهى رحلتَه قبل الآخرين. لقد قالت ماري: «لا بدَّ من دفع الثمن ... أفضل فردٍ بيننا.»

فور أن تذكَّرتُ ماري تدفَّقَت الآمال السعيدة إلى رأسي. تطلَّعتُ مرةً أخرى إلى ما بعد الحرب، إلى السلام الذي سأرثُه وماري في يومٍ من الأيام. تخيَّلتُ مساحةً خضراءَ من الريف الإنجليزي، تتضوَّع برائحة الأخشاب والمروج والحدائق ... وتخيَّلتُ وجهها الذي يظهر في كل أحلامي، والعينَين الطفوليتَين الشجاعتَين الصادقتَين وهما تتطلَّعان مثلي إلى ما وراء ذلك الظلام، إلى بلدٍ مُشرقٍ جميل. تردَّد في أُذني شطرٌ من أغنيةٍ قديمة، كانت إحدى أغاني أبي المُفضَّلة:

سأجد عيناً طال بكاؤها، ووجهاً ستنفرج أساريره،\
عندما أعبُر نهر عنان مع رِفاقي الشجعان!

كنَّا نقف على أنقاض سياج ما كان حظيرةَ أغنامٍ فيما مضى. نظرتُ إلى آرشي، فابتسَم إليَّ، لأنه رأى التغيُّر الذي طرأ على ملامح وجهي. بعد ذلك وجَّه أنظارَه إلى السُّحب المتكدِّسة.

شعَرتُ بقبضته تعتصِر ذراعي.

قال بصوتٍ قوي، فيما وجَّه منظاره للأعلى: «انظر هناك!»

نظرتُ إلى ما أشار إليه، ورأيتُ من بعيدٍ ما يُشبه سرباً من الإوز البري يُحلِّق في اتجاهنا من أرض العدو. حاولتُ تبيُّن النقاط الصغيرة التي تُشكّله، فأخبرني منظاري أنها طائرات. لكن عينَي آرشي الخبيرة عرفَت أنها طائراتٌ غير صديقة.

سألتُ: «أهمُ الألمان؟»

قال: «بلى. انتهى أمرُنا.»

غاص قلبي مثل الحجر، لكني حافظتُ على هدوئي. تفقّدتُ ساعة مِعصمي، ورأيتُ أنها الحادية عشرة إلا عشرَ دقائق.

سألتُ: «كم عددُها؟»

أجاب آرشي: «خمس. أو ربما ستٌّ لا أكثر.»

قلتُ: «أنصت إليّ! اتصل بمقر الفيلق الجوي. أخبرهم أنه سينتهي أمرنا إن عادت طائرةٌ واحدة إلى قاعدتها. دَعِ الطائرات تعبُر الجبهة، وكلما تعمقَت كان أفضل، واطلب منهم إرسالَ ما يملكون من طائرات، وحطِّمها كلها. أعلِمهم أن الأمر مسألةُ حياةٍ أو موت. لا يمكن عودة طائرةٍ واحدة. أسرِع!»

فور أن اختفى آرشي، اندلعَت مدافعنا المضادة للطائرات. تُفرِّق التشكيل بالأعلى، وتماوجَت الطائرات، لكنها كانت تُحلِّق على مسافةٍ عالية، فلم تتعرض لخطرٍ كبير. في الوقت نفسه لم تكن بعيدةً جداً بما لا يسمح لها برؤية الحقيقة التي يجِب أن نُخفيَها وإلا هلكنا.

خفَت هديرُ مدافعنا، فيما عبَر الغُزاة مُتّجهين ناحية الغرب. راقبتُ مسار الطائرات، وتراءى لي أنها بدأت تُحلِّق على مسافةٍ مُنخفضة. بعد ذلك ارتفعَت مرةً أخرى، وأخفتها كومةٌ من السحاب.

ساورَني اعتقادٌ مُرعبٌ أن الطائرات ستضربنا، وأن بعضها سيعود لقواعده على أي حال. فقد رأت صفوفَنا الضئيلة، والطرقَ الخاليةَ من قوات الدعم خلف جبهتنا. سترى، كلما توغلَت أكثر، قدوم القوات الفرنسية من الجنوب الغربي، وستعود وتُخبر العدو أن ضربةً واحدةً ستفتح الطريق إلى أميان والبحر. ولدَيه من القوة ما يكفي لهذه المهمة، وسرعانَ ما ستتعاظم قوّته. لن يتطلب سدُّنا المُتهالك أكثر من وخْزه بسنِّ رمحٍ كي ينهارَ، ويسمحَ لهم بالتدفُّق من خلاله ... ستعود الطائرات في غضون عشرين دقيقة، وعند الظهيرة سنكون قد انهزمنا. هذا ما لم تحدُث معجزةٌ عجيبةٌ تحُول دون

عودة أيٍّ من الطائرات.

أبلغَني آرشي أن قائده سيبذل قُصارى جهده، وأن طائراتنا قد بدأَت بالتحليق. قال: «لدينا فرصة، يا سيدي، فرصةٌ كبيرة.» نظرتُ، فإذا به قد أصبح شخصًا جديدًا ذا صوتٍ جهور ووجهٍ نحيل، وعينَين تفيضان حكمة.

كانت هناك رابية، خلف الجدران الناتئة لمباني المزرعة، شكّلَت جزءًا من الطريق السريع فيما مضى. تسلقتُها بمُفردي؛ إذ لم أرغب في صحبة أحد. أردتُ مكانًا مرتفعًا يُمكنني من خلاله مُراقبة الأجواء، وأردتُ أن أحظى بالهدوء؛ فما هو قادم سيكون عصيبًا. كشفَت الرابية جزءًا كبيرًا من الأرض. نظرتُ ناحية الشرق ورأيتُ صفوفنا تتعرّض للقذائف من حينٍ لآخر وسمعتُ جلجلة المدافع الرشاشة. في الغرب سادت السكينة على الغابات التي تُسوِّر هذه المساحة الخضراء. وفي الشمال، حسبما أتذكّر، لاحظتُ وهجًا كبيرًا مُنبعثًا ممّا يبدو أنه مخزنُ ذخيرةٍ مُشتعل، وسمعتُ دويّ مدافعَ ثقيلةٍ في وادي أنكر. وفي الجنوب سمعتُ دمدمةً بعيدةً لمعركةٍ عظيمةٍ دائرة. لكن في مُحيطي، في منطقتنا المكشوفة في منتصف الجبهة، أخطر مكان على الإطلاق، كان الهدوء سائدًا على نحوٍ غريب. استطعتُ تمييز الأصوات المُتداخلة بوضوح. فبالأسفل، ألقى شخصٌ ما في المزرعة دعابةً أثارت نوبةً قصيرةً من الضحك. حسدتُ ذلك الفكاهيّ على رباطة جأشه. كما سمعتُ قعقعةً وصليلًا صادرًا عن مدفعٍ يُغيِّر موضعه. وفي الطريق تهادى جرّار، سمعتُ صياحَ سائقه وصريرَ محورِ عجلاته الذي يحتاج إلى التزييت.

التصقَت عيناي بعدستَي منظاري المُعظّم، لكنه كان يهتز في يديّ المُرتعشتَين، فرأيتُ من خلاله بصعوبةٍ شديدة. عضَضتُ على شفتيّ لتهدئة نفسي، لكن ظلّت يدايَ ترتجفان. من حينٍ لآخر تفقّدتُ ساعتي. ها هي ثماني دقائقَ قد مضت ... عشرُ دقائقَ ... ثماني عشرةَ دقيقة. ليتَ الطائراتِ تظهَر في الأفق! حتى تيقُّن الهزيمة سيكون أفضلَ بكثيرٍ من هذا الشك المُرعب. لا بد أن الطائرات قد عادت الآن، إلا إذا حلّقت شمالًا من الرّابية الناتئة، أو حصلَت معجزةٌ عجيبة ...

بعد ذلك، اندلع مدفعٌ مُضادٌّ للطائرات في البُعد، متبوعٌ بإخوته في اللحظة التالية، فيما ترصّعَت السماءُ الزرقاءُ البعيدةُ ببقعٍ من الدخان. أخذَت السُّحب تتكاثف وسط السماء، لكن في الغرب أصبحَت رقعة السماء الفارغة الناصعة غير واضحة المَعالم من شظايا الانفجارات. أحصيتُ الانفجارات بغير تركيز ... واحد ... ثلاثة ... خمسة ... تسعة، وبدأ اليأس يحلُّ محلّ القلق في نفسي. توقفَت يداي عنِ الارتجاف، ورأيتُ طائرات العدو عَبر منظاري.

حلقَت خمسة أجسامٍ مُستطيلةٍ فوق القصف، كانت تتّضِح لقاء السماء الزرقاء تارة، وتستتِر بالبُخار تارةً أخرى. كانت عائدةً إلى قواعدها في هدوءٍ وازدراء بعدما رأت ما تُريده.

اختفى الهدوء وعلا الضجيج. اندلعَت المدافع المُضادة للطائرات، منفردةً وفي جماعات، من جميع الجهات. راقبتُ ما يحدُث وشعرتُ أن هذا إهدارٌ للذخيرة لا طائل منه. لم تعبأ طائراتُ العدو أدنى ذرةٍ بهذه القذائف ... لكن بالتأكيد سقطَت إحداها. إذ أحصيتُها ووجدتُها أربعًا فحسب. كلّا، ها هي الخامسة تخرج من خلف سَحابة. في غضونِ عشرِ دقائقَ ستعبُر تلك الطائراتُ الجبهة. تملّكَني الحنق. لم تفعل هذه المدافع شيئًا سوى أنها تسبّبَت في صداعٍ شديد في الرأس. أين طائراتُنا بحق السماء؟

آنذاك، ظهرَت طائراتُنا في الأفق بسرعة البرق، عبارة عن أربع مقاتلاتٍ استطلاعية، تتلألأ أجنحتُها في الشمس، وتبرق أغطيةُ مُحركاتها المعدنية. رأيتُ بوضوحٍ على هياكلها الحلقات الحمراء والبيضاء والزرقاء. وقبل أن تقوم طائراتنا بهجمتها، تفرّقَت طائرات العدو على الفور.

بتُّ أراقب المشهد بعينَيّ المُجردتَين، وتلهّفتُ لصحبة الآخرين؛ إذ انتهى وقتُ الانتظار. ولا بدّ أنّني هبطتُ الرابية بصورةٍ آلية؛ إذ وجدتُ نفسي بعد ذلك أحملِق في السماء برفقة آرشي. بدا أن كل طائرةٍ اشتبكَت مع طائرةٍ غريمةٍ تلقائيًّا. كانت الطائرات المتلاحِمة تهبط بسرعةٍ شديدة وتدور في حلقاتٍ وتصعد في الهواء، خارجةً من نقطة الالتحام، أو تستتِر بسَحابة. كنتُ أسمع جلجلةَ المدافع الرشاشة رغم ارتفاعها الشاهق. وفجأة، رأيتُ وميضَ انفجارٍ خلف خيطٍ من الدخان. سقطَت طائرة، وهي تتقلّب وتدور حول نفسها، حتى ارتطمَت بالأرض.

قال آرشي الذي كان يحمل منظاره: «إنها إحدى طائراتِ الألمان!»

تبعتها طائرةٌ أخرى في الحال. لكن هذه المرة استعاد الطيّار توازُنه، والطائرة لا تزال على بُعْد ألف قدمٍ من الأرض، وبدأ يطير ناحية صفوف العدو. لكنه ما لبث أن فقد السيطرة عليها وانخفض بسرعةٍ شديدة، قبل أن يسقط برأس الطائرة في الغابة خلف لا بروبير.

في أقصى الشرق، فوق الخنادق الأمامية مباشرة، انخرطَت طائرةٌ ألباتروس ذات مِقعدَين في قتالٍ حامٍ مع طيّارٍ بريطاني. كان القصف قد توقّف؛ لذا تمكنّا من مُراقبة كل حركة من مكاننا. صعدَت طائرة وتبعَتها ثانيةٌ إلى الأعلى، ثم هبطتا بسرعةٍ شديدة،

مُبتعدة إحداهما عن الأخرى قبل أن تقتربا من جديد، حتى كادتا أن ترتطما لولا بضع بوصاتٍ فصلَت بينهما. بعد ذلك بدا كأنهما اقتربتا وتشابكتا. توقعتُ تحطُّمهما، لكن فقدَت إحداهما السيطرةَ على جناحَيها بغتة، وسقطَت بسرعةٍ شديدة كالحجر.

قال آرشي: «طائرة ألمانية، هذا يجعل العدد ثلاثة. رائع يا شباب! رائع!»

بعد ذلك حدث شيءٌ سلبَني أنفاسي. رأيتُ طائرةً ألمانية تنخفض في دوائر، وفوقها طائرة بريطانية تتبعها عن قُرب. كان هذا أول استسلامٍ أشهده على الإطلاق يحدُث وسط الجو. راقبتُ الطائرتَين في اندهاش، تتّجهان ناحيةَ الأرض، حتى هبطَت طائرة العدو في مرجٍ شاسع في الناحية الأخرى من الطريق السريع، وهبط رجلُنا في حقلٍ قريبٍ من النهر.

عُدتُ أنظر إلى السماء، وإذا هي فارغة. لم أرَ أثرًا لأي طائرةٍ بريطانيةٍ أو ألمانيةٍ في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب.

انتفَض جسدي بعُنف. كان آرشي يُفتّش السماء بمنظاره وهو يُغمغِم. أين الرجل الخامس؟ لا بد أنه شَق طريقه إلى القاعدة، وفات الأوان.

أحقًّا حدث ذلك؟ اندلع لهيبٌ من مقدمة سَحابٍ مُتكاثفٍ متجهًا صوب الأرض، وفي أثره خطان مُتشعّبان من الدخان. أهي طائرةٌ بريطانية أم ألمانية؟ بريطانية أم ألمانية؟ لم أنتظر الإجابة طويلًا. فقد رأيتُ مُقاتلتَين استطلاعيّتَين بريطانيّتَين تصعدان فوق الطرف البعيد من السحاب.

حاولتُ الحفاظ على هدوئي، ووضعتُ منظاري في حقيبته بسرعة، رغمًا عن رغبتي في الصياح. التفتَ آرشي ناحيتي بابتسامةٍ متوترة وشفتَين مُرتعشتَين. قال: «أعتقد أننا فُزنا في هذه المعركة.»

مدّ يده ليُصافحني، وعيناه لا تزالان مُثبتتَين على السماء، وكدتُ أُمسِكها عندما أبعدها مرةً أخرى. كان آرشي يُحملق بالأعلى بوجهٍ شاحب.

كنا ننظر إلى الطائرة السادسة للعدو.

كانت تُحلق خلف الطائرات، على مسافةٍ منخفضةٍ جدًّا، وتتّجِه ناحية الشرق بسرعةٍ شديدة. كشف منظاري عن طائرةٍ مختلفة الطراز، كبيرةِ الحجم قصيرةِ الجناحَين، تتربّص بطائراتنا كصقرٍ بين سربٍ من الطهيوج. حلقَت تحت السحاب المُتكاثف، الذي حلقَت فوقه طائرتان من طائراتنا، في رضًا وراحة بعد أن قاتلَت العدو ودحرتَه.

انطلق مدفعٌ مضادٌّ للطائرات مجاورٌ على نحوٍ مفاجئ، وحمدتُ الرب على توقيته المناسب. فقد استدارت الطائرتان البريطانيتان، في تعجُّب من هذا التطوُّر الجديد، ورأتا الطائرةَ الألمانية فهجمَتا عليها.

لا أستطيع وصفَ ما حدث بعد ذلك. امتزجَت الطائرات الثلاث في قتالٍ ضارٍ، حتى لم أعُد أستطيع تمييز العدو من الصديق. توقفَت يداي عن الارتجاف؛ إذ كنتُ في غاية اليأس. انحدرَت إلينا طقطقة المدافع الرشاشة، ثم انفصلَت إحدى الطائرات، وبدأَت تصعد للأعلى. بذلَت الباقيتان غاية جهدهما للّحاق بها، لكنها كانت قد ابتعدَت عن مرمى نيرانهما بسرعة البرق، لسرعتها الفائقة. هل كانتْ هذه طائرةَ العدو؟

تحرّكَت شفتا آرشي الجافتان بالكلام.

قال: «إنه لينش.»

شهقتُ بغضب: «كيف عرفت؟»

أجاب: «أُميّزه بسهولة. انظر إلى الطريقة التي تسلّل بها، فيما انعطف بطائرته. هذه هي خدعتُه الفريدة.»

في هذه اللحظة العصيبة انطفأَت جذوة الأمل داخلي. غمرني هدوءٌ شديد؛ إذ ولّى زمن القلق وانقضى. انجرفت الطائرتان البريطانيتان بعيداً أكثر فأكثر، فيما حلّق لينش في دوائر مراراً وتكراراً مُنتشياً بانتصاره، كأنه يودّع مُطارديه بازدراء. وفي أقلّ من ثلاثِ دقائقَ سيهبط بأمانٍ بين صفوف جيشه، ومعه المعلومة التي تقتضي نهايتَنا.

كان هناك من يصرُخ في أذني وهو يشير للأعلى. تبيّن أنه آرشي، وبدا الحماسُ على وجهه. نظرتُ إلى ما كان يشير إليه وشهقتُ، ثم أمسكتُ بمنظاري ونظرتُ مرةً أخرى.

منذ ثانية كان لينش وحده، والآن تُحلِّق طائرتان في السماء.

سمعتُ صوت آرشي. قال: «يا إلهي، إنها شارك-جلاداس.» أمسك ذراعي بقوة حتى انغرسَت أصابعه في لحمي وخبّأ وجهه في كتفي. ثم هدأَت ثورتُه، وتحوّلَت إلى انبهارٍ أعجزه عن الكلام، فقال متلعثماً: «إنه ...»

لم أكن بحاجة لأن يُخبرني باسمه، لأنني خمّنتُ الطيّار، عندما رأيتُ الطائرة الجديدة تسقُط من بين السحب لأول مرة. انتابني ذلك الشعور الغريب، عندما يُحِس المرء في بعض الأحيان بوجود صديقه وإن لم يرَه. في مكانٍ ما، من ذلك الفضاء، كان بطلان، أحدهما مبتور الساق، يخوضان معركتهما الأخيرة.

لم أشُك في نتيجة القتال على الإطلاق، لكن أخبرَني آرشي فيما بعدُ أنه كاد أن يفقد عقله من الترقّب. لم يلحظ لينش خصمَه حتى صار فوقه قريبًا، وتساءلتُ ما إذا قاده إحساسُه إلى التعرُّف على ألد أعدائه. لم يطلق لينش رصاصةً واحدةً ولا بيتر ... رأيتُ الألماني يدور وينعطف جانبًا كأنه يراوغ قدَره المحتوم. ورأيتُ بيتر ينحرف فوقه عموديًا، وعلمتُ أن النهايةَ قد حانت. ظل بيتر هنا حتى يتأكد له النصر وقد سلك السبيل الوحيد لذلك. اقتربَت الطائرتان وارتطمتا، شعرتُ بقوة ارتطامهما وإن لم يبلُغني دويُّه، وفي اللحظة التالية اندفعَتا للأرض بأقصى سرعة وتدحرَجَتا مرةً تلو الأخرى.

سقطَت الطائرتان في النهر، على بُعد مسافةٍ قصيرةٍ من صفوف العدو، لكن لم أرَهما إذ اغرورقَت عيناي بالدموع، وجثوتُ على ركبتَي.

ما حدث بعد ذلك كان حُلمًا. وجدتُ جنرالَ فرقةٍ فرنسية يُعانقني ورأيتُ أوائلَ سرايا القوات الفرنسية المُبتهجة التي انتظرتُها بفارغ الصبر. فور وصولهم، أمطرَت السماء، وانسحبتُ مع ما تبقّى من الفرقة من ساحة المعركة في أول ساعات الليل تحت سماء أبريل الماطرة. بدأت مدافع العدو تُدوّي خلف ظهورنا، لكن لم أُعرْها اهتمامًا. كنتُ أعلم بوجودِ حراسٍ عند البوابة، ورجوتُ أن يتغمدنا الرب برحمته وتظل البوابة مسدودةً للأبد.

انتُشِل بيتر من بين الحطام دون أي جروحٍ باستثناء ساقه المُلتوية. كان الموتُ قد خفّف من آثار الزمن على وجهه، فأشبه كثيراً الوجهَ الذي رأيتُه منذ وقتٍ طويلٍ مضى في تلال ماشونالاند. قبعَت نسختُه المهترئة من «سياحة المسيحي» في جيبه. ولا تزال قابعةً أمامي، وأنا أسطر هذه السطور، وبجوارها — بصفتي وارثه الوحيد — الحقيبة الصغيرة التي وصلَت بعد بضعةِ أسابيعَ من وفاته، وفي داخلها أعلى وسامِ شرفٍ يمكن منحه لجنديٍّ بريطاني.

من «سياحة المسيحي» قرأتُ في صباح اليوم التالي؛ حيث وقفتُ مع ماري وبلنكيرون بجوار قبر بيتر، في حِمى بستان تفاح، تحت مطر الربيع الخفيف. قرأتُ الحكايةَ الأخيرةَ التي لم يكن بطلها «الثابت»، الذي اختاره بيتر نظيرًا له، وإنما «القوي للحق» الذي لم يطمح بيتر لمضاهاته. تفوّهتُ بالكلمات على سبيل التحية والوداع:

«ثم قال: «إنني ذاهبٌ إلى بيت أبي، ومع أنني قد قاسيتُ كثيرًا في مجيئي، لا أندم على ما قاسيتُه في سبيل الوصول إلى ذلك البيت. إنني أعطي سيفي مَن يليني في السياحة، وشجاعتي وحذاقتي مَن يستطيع الحصول عليهما. أما الآثار التي في جسدي

فآخذها معي شهادةً لي بأني قد حاربتُ مُحاربات من يُجازيني الآن.»

ثم عبَر، فهتفَت له الجموع على الجانب الآخر.»

الفـــهـــرس

إهداء

ملاحظة

الجزء الأول

١ - الباب الضيِّق

٢ - قرية الفضائل

٣ - تأمُّلاتُ مريض شُفي من عُسر الهضم

٤ - أندرو آيموس

٥ - مغامرات في الغرب

٦ - محيط تلال كويلن

٧ - أعرف بأمر الطيور البرية

٨ - مغامرات بائع متجول

٩ - على جناح السرعة

١٠ - مزايا الغارات الجوية

١١ - وادي الاتضاع

الجزء الثاني

١٢ - أعود محاربًا

١٣ - مغامرة قلعة بيكاردي

١٤ - أحاديث السيد بلنكيرون عن الحُب والحرب

١٥ - سانت أنتون

١٦ - الاستلقاء على فراشٍ قاسٍ

١٧ - معبر السنونوات

١٨ - قطار الأنفاق

١٩ - الطيور البرية تدخل القفص

٢٠ - العاصفة تندلع في الغرب

٢١ - كيف عاد المنفيُّ إلى أبناء وطنه

٢٢ - استدعاء «الثابت»